مجموعة الرسائل الكبرى

لابن تيمية

تأليف

شيخ الإسلام تقى الدين أبى العباس

أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرانى الدمشقى

المتوفى سنة ٧٢٨ هـ

الجزء الاول

دار

احياء التراث العربي

بيروت - لبنان

الرسالة الأولى

الفرقان بين الحق والباطل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيآت أعمالنا، من يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما .

قال الإمام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمه الله ، وهو مما صنفه بقلعة دمشق أخيراً .

﴿ فصل ﴾ فى الفرقان بين الحق والباطل ؛ وأن الله بين ذلك بكتابه ونبيه ، فمن كان أعظم اتباعا لكتابه الذى أنزله، ونبيه الذى أرسله ، كان أعظم فرقانا ، ومن كان أبعد عن اتباع الكتاب والرسول ، كان أبعد عن الفرقان واشتبه عليه الحق بالباطل كالذين اشتبه عليهم عبادة الرحمن بعبادة الشيطان ، والنبي الصادق بالمتنبي الكاذب ، وآيات النبيين بشبهات الكذابين حتى اشتبه عليهم الخالق بالمخلوق ، فان الله سبحانه وتعالى بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ففرق به بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والرشاد والغى ، والصدق والكذب ، والعلم والجهل ، والمعروف والمنكر ، وطريق أولياء الله السعداء وأعداء الله الأشقياء ، وبين ما عليه الناس من الاختلاف ، وكذلك النبيون قبله قال الله تعالى : (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين

أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) وقال تعالى : (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) وقال سبحانه وتعالى: (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) وقال تعالى: (آلم الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان) .

قال جماهير المفسرين : هو القرآن . روى ابن أبى حاتم باسناده عن الربيع ابن أنس قال : هو الفرقان فرق بين الحق والباطل . قال وروى عن عطاء ومجاهد ومقسم وقتادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك . وروى باسناده عن شيبان عن قتادة فى قوله : وأنزل الفرقان. قال هو القرآن الذى أنزله الله على محمد ففرق به بين الحق والباطل ، وبين فيه دينه وشرع فيه شرائعه ، وأحل حلاله وحرم حرامه ، وحد حدوده وأمر بطاعته ونهى عن معصيته . وعن عباد ابن منصور سألت الحسن عن قوله تعالى : وأنزل الفرقان .قال هو كتاب بحق . والفرقان مصدر فرق فرقانا مثل الرجحان والكفران والخسران وكذلك القرآن هو فى الأصل مصدر قرأ قرآنا ومنه قوله : (إن علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) ويسمى الكلام المقروء نفسه قرآنا وهو كثير كما فى قوله : (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) كما أن الكلام هو اسم مصدر كلم تكليما، وتكلم تكلما، ويراد به الكلام نفسه وذلك لأن الانسان إذا تكلم كان كلامه بفعل منه

وحركة هى مسمى المصدر وحصل عن الحركة صوت يقطع حروفا هو نفس التكلم ،فالكلام والقول ونحو ذلك يتناول هذا وهذا ، ولهذا كان الكلام تارة يجعل نوعا من العمل إذا أريد به المصدر ، وتارة يجعل قسما له إذا أريد ما يتكلم به وهو يتناول هذا وهذا ، هذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن لفظ الفرقان إذا أريد به المصدر كان المراد أنه أنزل الفصل والفرق بين الحق والباطل ، وهذا منزل فى الكتاب فان فى الكتاب الفصل وانزال الفرق هو إنزال الفارق ، وان أريد بالفرقان ما يفرق فهو الفارق أيضاً فهما فى المعنى سواء ،وإن أريد بالفرقان نفس المصدر فيكون إنزاله كانزال الايمان وانزال العدل ،فانه جعل فى القلوب التفريق بين الحق والباطل بالقرآن كما جعل فيها الايمان والعدل وهو سبحانه وتعالى أنزل الكتاب والميزان، والميزان قد فسر بالعدل، وفسر بأنه مايوزن به ليعرف العدل ، وهو كالفرقان يفسر بالفرق ويفسر بما يحصل به الفرق وهما متلازمان ، فاذا أريد الفرق نفسه فهو نتيجة الكتاب وثمرته ومقتضاه ، وإذا أريد الفارق ، فالكتاب نفسه هو الفارق ويكون له اسمان كل اسم يدل على صفة ليست هى الصفة الأخرى ، سمى كتابا باعتبار أنه مجموع مكتوب تحفظ حروفه ويقرأ ويكتب، وسمى فرقانا باعتبار أنه يفرق بين الحق والباطل كما تقدم ، كما سمى هدى باعتبار أنه يهدى إلى الحق ، وشفاء باعتبار أنه يشفى القلوب من مرض الشبهات والشهوات ونحو ذلك من أسمائه ، وكذلك أسماء الرسول كالمقتفى والماحى والحاشر ، وكذلك أسماء الله الحسنى كالرحمن والرحيم والملك والحكيم ونحو ذلك ، والعطف يكون لتغاير الأسماء والصفات ، وإن كان المسمى واحداً كقوله : (سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى)

وقوله: (وهو الأول والآخر والظاهر والباطن) ونحو ذلك. وهنا ذكر أنه نزل الكتاب فانه نزله متفرقا، وأنه أنزل التوراة والانجيل، وذكر أنه أنزل الفرقان، وقد أنزل سبحانه وتعالى الإيمان فى القلوب وأنزل الميزان، والايمان والميزان مما يحصل به الفرقان أيضاً كما يحصل بالقرآن، وإذا أنزل القرآن حصل به الايمان والفرقان ونظير هذا قوله: (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرا) قيل الفرقان هو التوراة، وقيل هو الحكم بنصره على فرعون كما فى قوله (إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان).

وكذلك قوله: (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) قيل: النور هو محمد عليه الصلاة والسلام وقيل: هو الاسلام وقوله: (قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً) قيل: البرهان هو محمد. وقيل: هو الحجة والدليل. وقيل: القرآن والحجة والدليل يتناول الآيات التى بعث بها محمد صلى الله عليه وسلم، لكنه هناك جاء بلفظ آتينا وجاءكم وهنا قال: وأنزل الفرقان جاء بلفظ الانزال، فلهذا شاع بينهم أن القرآن والفرقان يحصل بالعلم والبيان كما حصل بالقرآن، ويحصل بالنظر والتمييز بين أهل الحق والباطل بأن ينجى هؤلاء وينصرهم، ويعذب هؤلاء، فيكون قد فرق بين الطائفتين كما يفرق المفرق بين أولياء الله وأعدائه بالاحسان إلى هؤلاء وعقوبة هؤلاء، وهذا كقوله فى القرآن فى قوله: (وإن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير) قال الوالبي عن ابن عباس يوم الفرقان: يوم بدر فرق الله فيه بين الحق والباطل. قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد ومقسم وعبد الله بن عبد الله والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك. وبذلك فسر أكثرهم: ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا. كما

فى قوله : (ومن يتق الله يجعل له مخرجا) أى من كل ما ضاق على الناس .
قال الوالبي عن ابن عباس فى قوله: (ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) أى مخرجا قال ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدى ومقاتل بن حيان كذلك، غير أن مجاهداً قال مخرجا فى الدنيا والآخرة. وروى عن الضحاك عن ابن عباس قال نصراً قال وفى آخر قول ابن عباس والسدى: نجاة. وعن عروة بن الزبير: يجعل لكن فرقانا . أى فصلا بين الحق والباطل يظهر الله به حقكم ويطفىء به باطل من خالفكم ، وذكر البغوى عن مقاتل ابن حيان قال مخرجا فى الدنيا من الشبهات ، لكن قد يكون هذا تفسيرا لمراد مقاتل بن حيان كما ذكر أبو الفرج بن الجوزى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وابن قتيبة أنهم قالوا : هو المخرج. ثم قال والمعنى يجعل لكم مخرجا فى الدنيا من الضلال وليس مرادهم ، وإنما مرادهم المخرج المذكور فى قوله: (ومن يتق الله يجعل له مخرجا) والفرقان المذكور فى قوله : (وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان) وقد ذكر عن ابن زيد أنه قال هدى فى قلوبهم يعرفون به الحق من الباطل ، ونوعا الفرقان فرقان الهدى والبيان وهو النصر والنجاة هو نوعا الظهور فى قوله تعالى: (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) يظهره بالبيان والحجة والبرهان ، ويظهر باليد والعز والسنان . وكذلك السلطان فى قوله: (واجعل لى من لدنك سلطانا نصيراً) فهذا النوع وهو الحجة والعلم كما فى قوله: (أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) وقوله : (الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ان فى صدورهم إلا كبر) وقوله :(إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) وقد فسر السلطان بسلطان القدرة واليد ، وفسر

بالحجة والبيان فمن الفرقان ما نعته الله به فى قوله :(ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم) ففرق بين المعروف والمنكر ، أمر بهذا ونهى عن هذا وبين الطيب والخبيث ، أحل هذا وحرم هذا .

ومن الفرقان ؛ أنه فرق بين أهل الحق المهتدين المؤمنين المصلحين أهل الحسنات وبين أهل الباطل الكفار والضالين المفسدين أهل السيآت . قال تعالى :(أم حسب الذين اجترحوا السيآت أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون) وقال تعالى : (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) وقال تعالى(أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون) وقال تعالى: (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون) وقال تعالى : (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب) وقال تعالى : (وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور إن أنت إلا نذير إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً) وقال تعالى : (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) وقال تعالى : (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون) فهو

سبحانه بين الفرق بين أشخاص أهل الطاعة لله والرسول والمعصية لله والرسول كما بين الفرق بين ما أمر به وبين ما نهى عنه .

وأعظم من ذلك أنه بين الفرق بين الخالق والمخلوق ، وأن المخلوق لا يجوز أن يسوى بين الخالق والمخلوق فى شىء فيجعل المخلوق نداً للخالق قال تعالى: (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله) وقال تعالى: (هل تعلم له سمياً . ولم يكن له كفواً أحد. ليس كمثله شىء) وضرب الأمثال فى القرآن على من لم يفرق بل عدل بربه وسوى بينه وبين خلقه كما قالوا وهم فى النار يصطرخون فيها : (تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين) وقال تعالى : (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم والله يعلم ما تسرون وما تعلنون والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون) .

فهو سبحانه الخالق العليم الحق الحى الذى لا يموت ، ومن سواه لا يخلق شيئا كما قال : (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره) .

وهذا مثل ضربه الله ، فان الذباب من أصغر الموجودات وكل من يدعى من دون الله لا يخلقون ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيأ لا يستنقذوه منه ، فاذا تبين أنهم لا يخلقون ذبابا ولا يقدرون على انتزاع ما يسلبهم ، فهم عن خلق غيره وعن مغالبته أعجز وأعجز .

والمثل هو الأصل والنظير المشبه به كما قال :(ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون)أى لما جعلوه نظيراً قاسوا عليه آلهتهم وقالوا إذا كان قد عبد وهو لا يعذب فكذلك آلهتنا، فضربوه مثلا لآلهتهم وجعلوا يصدون، أى يضجون ويعجبون منه احتجاجا به على الرسول، والفرق بينه وبين آلهتهم ظاهر كما بينه فى قوله تعالى: (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) وقال فى فرعون : (وجعلناه سلفاً ومثلا للآخرين) أى مثلا يعتبر به ويقاس عليه غيره ، فمن عمل بمثل عمله جوزى بجزائه ليتعظ الناس به فلا يعمل بمثل عمله وقال تعالى : (ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) وهو ما ذكره من أحوال الأمم الماضية التى يعتبر بها ويقاس عليها أحوال الأمم المستقبلة كما قال: (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) فمن كان من أهل الايمان قيس بهم وعلم أن الله يسعده فى الدنيا والآخرة، ومن كان من أهل الكفر قيس بهم وعلم أن الله يشقيه فى الدنيا والآخرة كما قال فى حق هؤلاء :(أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر) وقد قال: (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وقال فى حق المؤمنين: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) وقال: (وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) وقال فى قصة أيوب : (رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ـــ رحمة منا وذكرى لأولى الألباب) وقال : (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) وقال : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى

يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب وقال) : (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) فلفظ المثل يراد به النظير الذى يقاس عليه ويعتبر به ويراد به مجموع القياس قال سبحانه :(وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحي العظام وهى رميم) أى لا أحد يحييها وهى رميم . فمثل الخالق بالمخلوق فى هذا النفى فجعل هذا مثل هذا لا يقدر على احيائها سواء نظمه قياس تمثيل أو قياس شمول كما قد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع ،وبين أن معنى القياسين قياس بالشمول وقياس بالتمثيل ،وان المثل المضروب المذكور فى القرآن، فاذا قلت النبيذ مسكر وكل مسكر حرام ، وأقمت الدليل على المقدمة الكبرى بقوله صلى الله عليه وسلم: « كل مسكر حرام » فهو كقوله صلى الله عليه وسلم قياساً على الخمر لأن الخمر إنما حرمت لأجل الاسكار وهو موجود فى النبيذ فقوله : ضرب مثل فاستمعوا له . جعل ما هو من أصغر المخلوقات مثلا ونظيراً يعتبر به فاذا كان أدون خلق الله لا يقدرون على خلقه ولا منازعته فلا يقدرون على خلق ما سواه فيعلم بها من عظمة الخالق،وان كلما يعبدون من دون الله فى السماء والأرض لا يقدرون على ماهو أصغر مخلوقاته وقد قيل انهم جعلوا آلهتم مثلا لله فاستمعوا لذكرها وهذا لأنهم لم يفقهوا المثل الذى ضربه الله، جعلوا المشركين هم الذين ضربوا هذا المثل، ومثل هذا فى القرآن قد ضربه الله ليبين أنه لا يقاس المخلوق بالخالق ويجعل له ندا ومثلا كقوله:(قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فانى تصرفون كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم

لا يؤمنون قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فانى تؤفكون قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع أم من لايهدى الا أن يهدى فالكم كيف تحكمون وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغنى من الحق شيأ ان الله عليم بما يفعلون).

ولما قرر الوحدانية قرر النبوة كذلك فقال:(وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) وهؤلاء مثلوا المخلوق بالخالق وهذا من تكذيبهم إياه ،ولم يكن المشركون يسوون بين آلهتهم وبين الله فى كل شىء بل كانوا يؤمنون بأن الله هو الخالق المالك لهم وهم مخلوقون مملوكون له ولكن كانوا يسوون بينه وبينها فى المحبة والتعظيم والدعاء والعبادة والنذر لها ونحو ذلك مما يخص به الرب، فمن عدل بالله غيره فى شىء من خصائصه سبحانه وتعالى فهو مشرك بخلاف من لايعدل به ولكن يذنب مع اعترافه بأن الله ربه وحده وخضوعه له خوفا من عقوبة الذنب، فهذا يفرق بينه وبين من لا يعترف بتحريم ذلك.

﴿ فصل ﴾ وهو سبحانه وتعالى كما يفرق بين الأمور المختلفة فانه يجمع ويسوى بين الأمور المتماثلة فيحكم فى الشىء خلقا وأمرآ بحكم مثله لا يفرق بين متماثلين ولا يسوى بين شيئين غير متماثلين بل ان كانا مختلفين متضادين لم يسو بينهما .

ولفظ الاختلاف فى القرآن يراد به التضاد والتعارض ، لايراد به مجرد

عدم التماثل كما هو اصطلاح كثير من النظار ومنه قوله: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) وقوله: انكم لفى قول مختلف يؤفك عنه من أفك . وقوله : (ولكن اختلفوا فنهم من آمن ومنهم من كفر) .

وقد بين سبحانه وتعالى أن السنة لا تتبدل ولا تتحول فى غير موضع . والسنة هى العادة التى تتضمن أن يفعل فى الثانى مثل ما فعل بنظيره الاول ولهذا أمر سبحانه وتعالى بالاعتبار ، وقال : (لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب) .

والاعتبار أن يقرن الشىء بمثله، فيعلم أن حكمه مثل حكمه كما قال ابن عباس هلا اعتبرتم الاصابع بالاسنان فاذا قال فاعتبروا ياأولى الابصار وقال :(لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب) أفاد أن من عمل مثل أعمالهم جوزى مثل جزائهم ليحذر أن يعمل مثل أعمال الكفار ، وليرغب فى أن يعمل مثل أعمال المؤمنين اتباع الانبياء قال تعالى : (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وقال تعالى : (وإن كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا) وقال تعالى:(لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وهذه الآية أنزلها الله قبل الاحزاب وظهور الاسلام وذل المنافقين، فلم يستطيعوا أن يظهروا بعد هذا ما كانوا يظهرونه قبل ذلك قبل بدر وبعدها ، وقبل أحد وبعدها فاخفوا النفاق وكتموه فلهذا لم يقتلهم النبي صلى الله عليه وسلم .

وبهذا يجيب من لم يقتل الزنادقة ويقول إذا أخفوا زندقتهم لم يمكن قتلهم ولكن إذا أظهروها قتلوا بهذه الآية بقوله : (ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

قال قتادة: ذكر لنا أن المنافقين كانوا يظهرون ما فى أنفسهم من النفاق فأوعدهم الله بهذه الآية . فلما أوعدهم بهذه الآية أسروا ذلك وكتموه سنة الله فى الذين خلوا من قبل يقول هكذا سنة الله فيهم إذا أظهروا النفاق قال مقاتل ابن حيان قوله : (سنة الله فى الذين خلوا من قبل) يعنى كما قتل أهل بدر وأسروا فذلك قوله : (سنة الله فى الذين خلوا من قبل) .

قال السدى: كان النفاق على ثلاثة أوجه نفاق مثل نفاق عبد الله بن أبىّ وعبد الله بن نفيل ومالك بن داعس فكان هؤلاء وجوها من وجوه الأنصار فكانوا يستحيون أن يأتوا الزنا يصونون بذلك أنفسهم والذين فى قلوبهم مرض قال الزناة ان وجدوه عملوا به وان لم يجدوه لم يتبعوه، ونفاق يكابرون النساء مكابرة ،وهم هؤلاء الذين يجلسون على الطريق ثم قال ملعونين ثم فصلت الآية أينما ثقفوا يعملون هذا العمل مكابرة النساء . قال السدى : هذا حكم فى القرآن ليس يعمل به لو أن رجلا أو أكثر من ذلك اقتصوا أثر امرأة فغلبوها على نفسها ففجروا بها ، كان الحكم فيهم غير الجلد والرجم أن يؤخذوا فتضرب أعناقهم .

قال السدى : قوله سنة كذلك كان يفعل بمن مضى من الأمم قال فمن كابر امرأة على نفسها فقتل فليس على قاتله دية لأنه مكابر .

قلت هذا على وجهين: أحدهما: أن يقتل دفعاً لصوله عنها مثل أن يقهرها فهذا دخل فى قوله : من قتل دون حرمته فهو شهيد . وهذه لها أن تدفعه بالقتل لكن إذا طاوعت ففيه نزاع وتفصيل وفيه قضيتان عن عمر وعلى معروفتان ، وأما إذا فجر بها مستكرها ولم تجد من يعينها عليه فهؤلاء نوعان أحدهما : أن يكون له شوكة كالمحاربين لأخذ المال وهؤلاء محاربون للفاحشة فيقتلوا . قال السدى: قد قاله غيره وذكر أبو اللوبى أن هذه جرت عنده ورأى أن هؤلاء أحق بأن يكونوا محاربين. والثانى: أن لا يكونوا ذوى شوكة بل يفعلون ذلك غيلة واحتيالا حتى إذا صارت عندهم المرأة أكرهوها ، فهذا المحارب غيلة كما قال السدى : يقتل أيضاً وإن كانوا جماعة فى المصر فهم كالمحاربين فى المصر ، وهذه المسائل لها مواضع أخر .

والمقصود أن الله أخبر أن سنته لن تبدل ولن تتحول ، وسنته عادته التى يسوى فيها بين الشىء وبين نظيره الماضى ، وهذا يقتضى أنه سبحانه يحكم فى الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة ، ولهذا قال : (أكفاركم خير من أولئكم) وقال : (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) أى أشباههم ونظراءهم وقال : (وإذا النفوس زوجت) قرن النظير بنظيره وقال تعالى : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم) وقال : (قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا) وقال : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) .

فجعل التابعين لهم باحسان ؛ مشاركين لهم فيما ذكر من الرضوان والجنة وقد قال تعالى: (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم) وقال تعالى : (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم) وقال تعالى : (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم) فمن اتبع السابقين الأولين كان منهم وهم خير الناس بعد الأنبياء فان أمة محمد خير أمة أخرجت للناس وأولئك خير أمة محمد كما ثبت فى الصحاح من غير وجه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خير القرون القرن الذى بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » ولهذا كان معرفة أقوالهم فى العلم والدين وأعمالهم خيرا وأنفع من معرفة أقوال المتأخرين وأعمالهم فى جميع علوم الدين وأعماله كالتفسير وأصول الدين وفروعه والزهد والعبادة والأخلاق والجهاد وغير ذلك ، فانهم أفضل ممن بعدهم كما دل عليه الكتاب والسنة فالاقتداء بهم خير من الاقتداء بمن بعدهم ومعرفة اجماعهم ونزاعهم فى العلم والدين خير وأنفع من معرفة ما يذكر من اجماع غيرهم وتنازعهم .

وذلك أن إجماعهم لا يكون إلا معصوما ، وإذا تنازعوا فالحق لا يخرج عنهم فيمكن طلب الحق فى بعض أقاويلهم ولا يحكم بخطأ قول من أقوالهم حتى يعرف دلالة الكتاب والسنة على خلافه قال تعالى : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) .

وأما المتأخرون الذين لم يتحروا متابعتهم وسلوك سبيلهم ولا لهم خبرة

بأقوالهم وأفعالهم بل هم فى كثير مما يتكلمون به فى العلم ، ويعملون به ولا يعرفون طريق الصحابة والتابعين فى ذلك من أهل الكلام والرأى والزهد والتصوف ، فهؤلاء تجد عمدتهم فى كثير من الأمور المهمة فى الدين إنما هو عما يظنونه من الاجماع وهم لايعرفون فى ذلك أقوال السلف البتة ، أو عرفوا بعضها ولم يعرفوا سائرها ، فتارة يحلون الإجماع ولا يعلمون إلا قولهم وقول من ينازعهم من الطوائف المتأخرين طائفة أوطائفتين أوثلاث، وتارة عرفوا أقوال بعض السلف والأول كثير فى مسائل أصول الدين وفروعه ، كما تجد كتب أهل الكلام مشحونة بذلك ، يحلون إجماعاً ونزاعاً ولا يعرفون ماقال السلف فى ذلك البتة بل قد يكون قول السلف خارجاً عن أقوالهم كما تجد ذلك فى مسائل أقوال الله وأفعاله وصفاته ، مثل مسألة القرآن والرؤية والقدر وغير ذلك ، وهم إذا ذكروا إجماع المسلمين ، ولم يكن لهم علم بهذا الإجماع فانه لو أمكن العلم باجماع المسلمين لم يكن هؤلاء من أهل العلم به لعدم علمهم بأقوال السلف ، فكيف إذا كان المسلمون يتعذر القطع بإجماعهم فى مسائل النزاع بخلاف السلف ، فانه يمكن العلم باجماعهم كثيراً وإذا ذكروا نزاع المتأخرين لم يكن بمجرد ذلك أن يجعل هذه من مسائل الاجتهاد التى يكون كل قول من تلك الأقوال سائغاً لم يخالف إجماعاً لأن كثيراً من أصول المتأخرين محدث مبتدع فى الإسلام، مسبوق باجماع السلف على خلافه ، والنزاع الحادث بعد إجماع السلف خطأ قطعاً ، كخلاف الخوارج والرافضة والقدرية والمرجئة ممن قد اشتهرت لهم أقوال خالفوا فيها النصوص المستفيضة المعلومة ، وإجماع الصحابة بخلاف ما يعرف من نزاع السلف فانه لا يمكن أن يقال انه خلاف الاجماع وإنما يرد بالنص ، وإذا قيل قد أجمع التابعون على

أحد قوليهم فارتفع النزاع ، فمثل هذا مبنى على مقدمتين : إحداهما: العلم بأنه لم يبق فى الأمة من يقول بقول الآخر ، وهذا متعذر. الثانى: أن مثل هذا هل يرفع النزاع [١] مشهور فنزاع السلف يمكن القول به إذا كان معه حجة [١] على خلافه ونزاع المتأخرين لا يمكن هذا [١] لأن كثيراً منه قد تقدم الاجماع على خلافه ، كما دلت النصوص على خلافه ومخالفة إجماع السلف خطأ قطعا ، وأيضاً فلم يبق مسألة فى الدين إلا وقد تكلم فيها السلف ، فلابد أن يكون لهم قول يخالف ذلك القول أو يوافقه وقد بسطنا فى غير هذا الموضع أن الصواب فى أقوالهم أكثر وأحسن ، وأن خطأهم أخف من خطأ المتأخرين ، وأن المتأخرين أكثر خطأ وأفحش ، وهذا فى جميع علوم الدين ولهذا أمثلة كثيرة يضيق هذا الموضع عن استقصائها والله سبحانه أعلم .

﴿ فصل ﴾ ومما ينبغى أن يعلم أن القرآن والحديث إذا عرف تفسيره من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لم يحتج فى ذلك إلى أقوال أهل اللغة فانه قد عرف تفسيره ، وما أريد بذلك من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لم يحتج فى ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم ، ولهذا قال الفقهاء الأسماء ثلاثة أنواع : نوع يعرف حده بالشرع كالصلاة والزكاة ، ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر ، ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض ولفظ المعروف فى قوله : (وعاشروهن بالمعروف) .

وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم اعتصامهم بالكتاب والسنة ، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، أنه

---

(١) هكذا بياض بالأصل.

لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن لا برأيه ولا ذوقه ولا معقوله ولا قياسه ولا وجده ، فانهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات ، أن الرسول جاء بالهدى ودين الحق ، وأن القرآن يهدى للتى هى أقوم ، فيه نبأ من قبلهم ، وخبر ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، فلا يستطيع أن يزيغه إلى هواه ولا يحرف به لسانه ، ولا يخلق عن كثرة الترداد ، فاذا ردد مرة بعد مرة لم يخلق ولم يمل كغيره من الكلام ، لا تنقضى عجائبه ، ولا تشبع منه العلماء ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم .

فكان القرآن هو الإمام الذى يقتدى به ، ولهذا لا يوجد فى كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل ورأى وقياس ، ولا بذوق ووجد ومكاشفة ، ولا قال قط قد تعارض فى هذا العقل والنقل فضلا عن أن يقول فيجب تقديم العقل والنقل يعنى القرآن والحديث ، وأقوال الصحابة والتابعين إما أن يفوض وإما أن يؤول . ولا فيهم من يقول ان له ذوقا أو وجدا أو مخاطبة أو مكاشفة تخالف القرآن والحديث ، فضلا عن أن يدعى أحدهم أنه يأخذ من حيث يأخذ الملك الذى يأتى الرسول ، وانه يأخذ من ذلك المعدن علم التوحيد ، والأنبياء كلهم يأخذون عن مشكاته ، أو يقول الولى أفضل من النبى ، ونحو ذلك من مقالات أهل الإلحاد ، فان هذه الأقوال لم تكن حدثت بعد فى المسلمين . وإنما يعرف مثل هذه إما من ملاحدة

اليهود والنصارى فان فيهم من يجوز أن غير النبي أفضل من النبي ، كما قد يقوله في الحواريين ، فانهم عندهم رسل ، وهم يقولون أفضل من داود وسليمان بل ومن إبراهيم وموسى ، وإن سموهم أنبياء إلى أمثال هذه الأمور . ولم يكن السلف يقبلون معارضة الآية إلا بآية أخرى تفسرها وتنسخها ، أو بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم تفسرها . فان سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تبين القرآن وتدل عليه وتعبر عنه ، وكانوا يسمون ما عارض الآية ناسخاً لها ، فالنسخ عندهم اسم عام لكل ما يرفع دلالة الآية على معنى باطل ، وإن كان ذلك المعنى لم يرد بها وإن كان لا يدل عليه ظاهر الآية بل قد (١) وقد فهمه منها قوم فيسمون ما رفع ذلك الابهام والأفهام نسخا (١) هذه التسمية لا تؤخذ عن كل واحد منهم وأصل ذلك (١) الشيطان ثم يحكم الله آياته ، فما ألقاه الشيطان في الأذهان من ظن دلالة الآية على معنى لم يدل عليه سمى هؤلاء ما يرفع ذلك الظن نسخاً ، كما سموا قوله : (فاتقوا الله ما استطعتم) ناسخاً لقوله : (فاتقوا الله حق تقاته) وقوله : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) ناسخاً لقوله : (إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) وأمثال ذلك مما ليس هذا موضع بسطه .

إذ المقصود أنهم كانوا متفقين على أن القرآن لا يعارضه إلا قرآن لا رأى ومعقول وقياس ، ولا ذوق ووجد وإلهام ومكاشفة .

وكانت البدع الأولى مثل بدعة الخوارج ، إنما هي من سوء فهمهم للقرآن لم يقصدوا معارضته لكن فهموا منه ما لم يدل عليه فظنوا أنه يوجب

---

(١) هكذا بياض بالأصل .

تكفير أرباب الذنوب ، إذ كان المؤمن هو البر التقى قالوا فمن لم يكن برا تقياً فهو كافر وهو مخلد فى النار، ثم قالوا وعثمان وعلى ومن والاهما ليسوا بمؤمنين لأنهم حكموا بغير ما أنزل الله . فكانت بدعتهم لها مقدمتان ، الواحدة: أن من خالف القرآن بعمل أو برأى أخطأ فيه فهو كافر ، والثانية : أن عثمان وعلياً ومن والاهما كانوا كذلك ، ولهذا يجب الاحتراز من تكفير المسلمين بالذنوب والخطايا فانه أول بدعة ظهرت فى الاسلام ، فكفر أهلها المسلمين واستحلوا دماءهم وأموالهم وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم الأحاديث الصحيحة فى ذمهم والأمر بقتالهم ، قال الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه: صح فيهم الحديث من عشرة أوجه. ولهذا قد أخرجها مسلم فى صحيحه وأفرد البخارى قطعة منها ، وهم مع هذا الذم إنما قصدوا اتباع القرآن ، فكيف بمن يكون بدعته معارضة القرآن والاعراض عنه ، وهو مع ذلك يكفر المسلمين كالجهمية ثم الشيعة لما حدثوا لم يكن الذى ابتدع التشيع قصده الدين بل كان غرضه فاسداً ، وقد قيل انه كان منافقاً زنديقاً ، فأصل بدعتهم مبنية على الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكذيب الأحاديث الصحيحة ، ولهذا لا يوجد فى فرق الأمة من الكذب أكثر مما يوجد فيهم بخلاف الخوارج فانه لا يعرف فيهم من يكذب .

﴿ والشيعة ﴾ لا يكاد يوثق برواية أحد منهم من شيوخهم لكثرة الكذب فيهم ، ولهذا أعرض عنهم أهل الصحيح فلا يروى البخارى ومسلم أحاديث على إلا عن أهل بيته كأولاده مثل الحسن والحسين، ومثل محمد بن الحنفية، وكاتبه عبيد الله بن أبى رافع أو أصحاب ابن مسعود وغيرهم مثل عبيدة السلمانى، والحرث التيمى، وقيس بن عباد، وأمثالهم إذ هؤلاء صادقون فيما يروونه عن على فلهذا أخرج أصحاب الصحيح حديثهم.

وهاتان الطائفتان الخوارج والشيعة ؛ حدثوا بعد مقتل عثمان ، وكان المسلمون فى خلافة أبى بكر وعمر وصدراً من خلافة عثمان فى السنة الأولى من ولايته ، متفقين لا تنازع بينهم ، ثم حدث فى أواخر خلافة عثمان أمور أوجبت نوعاً من التفرق ، وقام قوم من أهل الفتنة والظلم فقتلوا عثمان فتفرق المسلمون بعد مقتل عثمان ، ولما اقتتل المسلمون بصفين واتفقوا على تحكيم حكمين .

خرجت الخوارج على أمير المؤمنين على بن أبى طالب وفارقوه وفارقوا جماعة المسلمين إلى مكان يقال له حروراء ، فكف عنهم أمير المؤمنين وقال : لكم علينا أن لا نمنعكم حقكم من الفىء . ولا نمنعكم المساجد إلى أن استحلوا دماء المسلمين وأموالهم ، فقتلوا عبد الله بن حباب ، واغاروا على سرح المسلمين فعلم على أنهم الطائفة التى ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية آيتهم فيهم رجل مخدج اليد عليها بضعة عليها شعرات » وفى رواية: « يقتلون أهل الاسلام ويدعون أهل الأوثان » فخطب الناس وأخبرهم بما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هم هؤلاء القوم ، قد سفكوا الدم الحرام وأغاروا على سرح الناس فقاتلهم ، ووجد العلامة بعد أن كاد لا يوجد فسجد لله شكراً .

وحدث فى أيامه الشيعة ، لكن كانوا مختفين بقولهم لا يظهرونه لعلى وشيعته ، بل كانوا ثلاثة طوائف .

طائفة تقول : أنه إله وهؤلاء لما ظهر عليهم أحرقهم بالنار ، وخد لهم أخاديد عند باب مسجد بنى كنده وقيل انه أنشد :

لما رأيت الأمر أمراً منكراً أججت نارى ودعوت قنبرا

وقد روى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس قال : أتى على بزنادقة فحرقهم بالنار ولو كنت أنا لم أحرقهم لنهى النبى صلى الله عليه وسلم أن يعذب بعذاب الله ، ولضربت أعناقهم لقوله: « من بدل دينه فاقتلوه ».

وهـــذا الذى قاله ابن عباس ، هو مذهب أكثر الفقهاء وقد روى أنه أجلهم ثلاثاً .

(والثانية) السابة وكان قد بلغه عن أبى السوداء أنه كان يسب أبا بكر وعمر فطلبه ، قيل أنه طلبه ليقتله فهرب منه .

(والثالثة) المفضلة الذين يفضلونه على أبى بكر وعمر ، فتواتر عنه أنه قال : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر . وروى ذلك البخارى فى صحيحه عن محمد بن الحنفية أنه سأل أباه من خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أبو بكر . قال : ثم من . قال : عمر . وكانت الشيعة الأولى لا يتنازعون فى تفضيل أبى بكر وعمر وإنما كان النزاع فى على وعثمان ، ولهذا قال شريك بن عبد الله : ان أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر . فقيل له : تقول هذا وأنت من الشيعة . فقال : كل الشيعة كانوا على هذا وهو الذى قال هذا على أعواد منبره أفتكذبه فيما قال ، ولهذا قال سفيان الثورى : من فضل علياً على أبى بكر وعمر فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار وما أرى يصعد له إلى الله عز وجل عمل ، وهو كذلك رواه

أبو داود فى سننه وكأنه يعرض بالحسن بن صالح بن حى فان الزيدية الصالحة وهم أصلح طوائف الزيدية ينسبون اليه .

ولكن الشيعة لم يكن لهم فى ذلك الزمان جماعة المسلمين ولا إمام ولا دار ولا سيف يقاتلون به المسلمين ، وإنما كان هذا للخوارج تميزوا بالامام والجماعة والدار وسموا دارهم دار الهجرة ، وجعلوا دار المسلمين دار كفر وحرب .

وكلا الطائفتين تطعن بل تكفر ولاة المسلمين ، وجمهور الخوارج يكفرون عثمان وعلياً ومن تولاهما ، والرافضة يلعنون أبا بكر وعمر وعثمان ومن تولاهما ، ولكن الفساد الظاهر كان فى الخوارج من سفك الدماء وأخذ الأموال والخروج بالسيف، فلهذا جاءت الأحاديث الصحيحة بقتالهم والأحاديث فى ذمهم والأمر بقتالهم كثيرة جداً وهى متواترة عند أهل الحديث ، مثل أحاديث الرؤية وعذاب القبر وفتنه ، وأحاديث الشفاعة والحوض .

﴿ وقد رويت أحاديث فى ذم القدرية والمرجئة ﴾ روى بعضها أهل السنن كأبى داود وابن ماجه ، وبعض الناس يثبتها ويقويها ومن العلماء من طعن فيها وضعفها ، ولكن الذى ثبت فى ذم القدرية ونحوهم هو عن الصحابة كابن عمر وابن عباس .

﴿ وأما لفظ الرافضة ﴾ فهذا اللفظ أول ما ظهر فى الاسلام لما خرج زيد بن على بن الحسين فى أوائل المائة الثانية فى خلافة هشام بن عبد الملك

واتبعه الشيعة ، فسئل عن أبى بكر وعمر فتولاهما وترحم عليهما فرفضه قوم، فقال : رفضتمونى رفضتمونى . فسموا الرافضة، فالرافضة تتولى أخاه أبا جعفر محمد بن على زيديه . والزيدية يتولونه وينسبون إليه ، ومن حينئذ انتمت الشيعة إلى زيدية ، والرافضة إمامية .

﴿ ثم فى آخر عصر الصحابة حدثت القدرية ﴾ وأصل بدعتهم كانت من عجز عقولهم عن الايمان بقدر الله ، والايمان بأمره ونهيه ووعده ووعيده، وظنوا أن ذلك ممتنع ، وكانوا قد آمنوا بدين الله وأمره ونهيه ووعده ووعيده وظنوا أنه إذا كان كذلك لم يكن قد علم قبل الأمر من يطيع ومن يعصى لأنهم ظنوا أن من علم ما سيكون لم يحسن منه أن يأمر وهو يعلم أن المأمور يعصيه ولا يطيعه ، وظنوا أيضاً أنه إذا علم أنهم يفسدون لم يحسن أن يخلق من يعلم أنه يفسد فلما بلغ قولهم بانكار القدر السابق للصحابة ، أنكروا انكارا عظيما وتبرءوا منهم حتى قال عبد الله بن عمر : أخبر أولئك أنى برىء منهم وأنهم منى برآء ، والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ماقبله الله منه حتى يؤمن بالقدر ، وذكر عن أبيه حديث جبريل وهذا أول حديث فى صحيح مسلم ، وقد أخرجه البخارى ومسلم من طريق أبى هريرة أيضاً مختصراً .

ثم كثر الخوض فى القدر ، وكان أكثر الخوض فيه بالبصرة والشام وبعضه فى المدينة، فصار مقتصدوهم وجمهورهم يقرون بالقدر السابق وبالكتاب المتقدم ، وصار نزاع الناس فى الارادة وخلق أفعال العباد ، فصاروا فى ذلك حزبين . النفاة يقولون : لا إرادة إلا بمعنى المشيئة وهو لم يرد إلا ماأمر به ولم

يخلق شيأ من أفعال العباد . وقابلهم الخائضون فى القدر من المجبرة مثل الجهم ابن صفوان وأمثاله، فقالوا ليست الإرادة إلا بمعنى المشيئة ، والأمر والنهى لا يستلزم إرادة ، وقالوا العبد لا فعل له البتة ولا قدرة بل الله هو الفاعل القادر فقط وكان جهم مع ذلك ينفى الأسماء والصفات، يذكر عنه أنه قال: لا يسمى الله شيأ ولا غير ذلك من الأسماء التى تسمى بها العباد إلا القادر فقط ، لأن العبد ليس بقادر . وكانت الخوارج قد تكلموا فى تكفير أهل الذنوب من أهل القبلة وقالوا أنهم كفار مخلدون فى النار فخاض الناس فى ذلك وخاض فى ذلك القدرية بعد موت الحسن البصرى ، فقال عمرو بن عبيد وأصحابه لا هم مسلمون ولا كفار ، بل لهم منزلة بين المنزلتين ، وهم مخلدون فى النار ، فوافقوا الخوارج على أنهم مخلدون ، وعلى أنه ليس معهم من الاسلام والايمان شيء ولكن لم يسموهم كفاراً واعتزلوا حلقة أصحاب الحسن البصرى مثل قتادة وأيوب السختيانى وأمثالهما .

﴿ فسموا معتزلة من ذلك الوقت بعد موت الحسن ﴾ وقيل أن قتادة كان يقول أولئك المعتزلة .

وتنازع الناس فى الأسماء والأحكام ، أى فى أسماء الدين مثل مسلم ومؤمن وكافر وفاسق ، وفى أحكام هؤلاء فى الدنيا والآخرة فالمعتزلة وافقوا الخوارج على حكمهم فى الآخرة دون الدنيا ، فلم يستحلوا من دمائهم وأموالهم ما استحلته الخوارج ، وفى الأسماء أحدثوا المنزلة بين المنزلتين ، وهذه خاصة المعتزلة التى انفردوا فيها وسائر أقوالهم قد شاركهم فيها غيرهم .

﴿ وحدثت المرجئة ﴾ وكان أكثرهم من أهل الكوفة ولم يكن أصحاب

عبد الله من المرجئة، ولا ابراهيم النخعى وأمثاله، فصاروا نقيض الخوارج والمعتزلة فقالوا إن الأعمال ليست من الإيمان، وكانت هذه البدعة أخف البدع، فان كثيراً من النزاع فيها نزاع فى الاسم واللفظ دون الحكم، إذ كان الفقهاء الذين يضاف اليهم هذا القول مثل حماد بن أبى سليمان وأبى حنيفة وغيرهما هم مع سائر أهل السنة متفقين على أن الله يعذب من يعذبه من أهل الكبائر بالنار ثم يخرجهم بالشفاعة كما جاءت الأحاديث الصحيحة بذلك، وعلى أنه لا بد فى الإيمان أن يتكلم بلسانه، وعلى أن الأعمال المفروضة واجبة وتاركها مستحق للذم والعقاب، فكان فى الأعمال هل هى من الايمان وفى الاستثناء ونحو ذلك وعامته نزاع لفظى، فان الإيمان إذا أطلق دخلت فيه الأعمال لقول النبى صلى الله عليه وسلم: «الإيمان بضع وستون شعبة أو بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» والحياء شعبة من الإيمان وإذا عطف عليه العمل كقوله: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فقد ذكر مقيداً بالعطف فهنا قد يقال الأعمال دخلت فيه وعطفت عطف الخاص على العام، وقد يقال لم تدخل فيه ولكن مع العطف كما فى اسم الفقير والمسكين إذا أفرد أحدهما تناول الآخر وإذا عطف أحدهما على الآخر فهما صنفان كما فى آية الصدقات كقوله: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) وكما فى آية الكفارة كقوله: (فكفارته إطعام عشرة مساكين) وفى قوله: (وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) فالفقير والمسكين شىء واحد، وهذا التفصيل فى الإيمان هو كذلك فى لفظ البر والتقوى والمعروف، وفى الاثم والعدوان والمنكر تختلف دلالتها فى الافراد والاقتران لمن تدبر القرآن، وقد بسط هذا بسطاً كبيراً فى الكلام على

الإيمان وشرح حديث جبريل الذى فيه بيان أن الايمان أصله فى القلب . وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله كما فى المسند عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الاسلام علانية والايمان فى القلب » وقد قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهى القلب » فاذا كان الإيمان فى القلب فقد صلح القلب فيجب أن يصلح سائر الجسد فلذلك هو ثمرة ما فى القلب ، فلهذا قال بعضهم الأعمال ثمرة الايمان ، وصحته لما كانت لازمة لصلاح القلب دخلت فى الاسم كما نطق بذلك الكتاب والسنة فى غير موضع ، وفى الجملة الذين رموا بالارجاء من الأكابر مثل : طلق بن حبيب وابراهيم التيمى ونحوهما كان ارجاؤهم من هذا النوع .

﴿ وكانوا أيضاً ﴾ لايستثنون فى الإيمان ، وكانوا يقولون الإيمان هو الإيمان الموجود فينا ، ونحن نقطع بأنا مصدقون ويرون الاستثناء شكا ، وكان عبد الله بن مسعود وأصحابه يستثنون ، وقد روى فى حديث أنه رجع عن ذلك لما قال له بعض أصحاب معاذ ما قال لكن أحمد أنكر هذا وضعف هذا الحديث وصار الناس فى الاستثناء على ثلاثة أقوال ، قول أنه يجب الاستثناء ومن لم يستثن كان مبتدعاً ، وقول أن الاستثناء محظور فانه يقتضى الشك فى الإيمان ، والقول الثالث أوسطها وأعدلها أنه يجوز الاستثناء باعتبار وتركه باعتبار فاذا كان مقصوده انى لا أعلم انى قائم فى كل ما أوجب الله على وأنه يقبل أعمالى ليس مقصوده الشك فيما فى قلبه ، فهذا استثناؤه حسن وقصده أن لا يزكى نفسه وأن لايقطع بأنه عمل عملا كما أمر فقبل منه والذنوب كثيرة والنفاق مخوف على عامة الناس ، قال ابن أبى مليكة : أدركت

ثلاثين من أصحاب محمد كلهم يخاف النفاق على نفسه لايقول واحد منهم أن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل ، والبخارى فى أول صحيحه بوب أبوابا فى الإيمان والرد على المرجئة ، وقد ذكر بعض من ضعف فى هذا الباب من أصحاب أبى حنيفة قال وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد كرهوا أن يقول الرجل إيمانى كإيمان جبريل وميكائيل، قال محمد لأنهم أفضل يقيناً أو إيمانى كإيمان جبريل،أو إيمانى كإيمان أبى بكر أو كإيمان هذا، ولكن يقول آمنت بما آمن به جبريل وأبو بكر .

وأبو حنيفة وأصحابه لايجوزون الاستثناء فى الإيمان بكون الأعمال منه ويذمون المرجئة والمرجئة عندهم الذين لايوجبون الفرائض ولااجتناب المحارم بل يكتفون بالإيمان،وقد علل تحريم الاستثناء فيه بأنه لايصح تعليقه على الشرط ، لأن المعلق على الشرط لايوجد إلا عند وجوده كما قالوا فى قوله : أنت طالق إن شاء الله ، فإذا علق الإيمان بالشرط كسائر المعلقات بالشرط لايحصل إلا عند حصول الشرط ، قالوا وشرط المشيئة الذى يترجاه القائل لايتحقق حصوله إلى يوم القيامة ، فإذا علق العزم بالفعل على التصديق والإقرار فقد ظهرت المشيئة وصح العقد فلامعنى للاستثناء ، ولأن الاستثناء عقيب الكلام يرفع الكلام فلا يبقى الاقرار بالإيمان والعقد مؤمناً ، وربما يتوهم هذا القائل القارن بالاستثناء على الإيمان بقاء التصديق وذلك يزيله .

﴿ قلت ﴾ فتعليلهم فى المسألة إنما يتوجه فيمن يعلق إنشاء الإيمان على المشيئة ، كالذى يريد الدخول فى الاسلام فيقال له آمن فيقول أنا أومن

إن شاء الله ، أو آمنت إن شاء الله ، أو أسلمت إن شاء الله ، أو أشهد إن شاء الله أن لا إله إلا الله وأشهد إن شاء الله أن محمداً رسول الله ، والذين استثنوا من السلف والخلف لم يقصدوا فى الإنشاء وإنما كان استثناؤهم فى اخباره عما قد حصل له من الإيمان فاستثنوا ، إما أن الإيمان المطلق يقتضى دخول الجنة وهم لا يعلمون الخاتمة ، كأنه إذا قيل للرجل أنت مؤمن ، قيل له أنت عند الله مؤمن من أهل الجنة ، فيقول أنا كذلك إن شاء الله أو لأنهم لا يعرفون أنهم أتوا بكمال الإيمان الواجب ، ولهذا كان من جواب بعضهم إذا قيل له أنت مؤمن آمنت بالله وملائكته وكتبه فيجزم بهذا ولا يعلقه ، أو يقول إن كنت تريد الإيمان الذى يعصم دمى ومالى فأنا مؤمن ، وإن كنت تريد قوله : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا) وقوله : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) فأنا مؤمن إن شاء الله ، وأما الاستثناء لم يستثن فيه أحد ولا شرع الاستثناء فيه بل كل من آمن وأسلم آمن وأسلم جزما بلا تعليق .

فتبين أن النزاع فى المسألة قد يكون لفظياً ، فان الذى حرمه هؤلاء غير الذى استحسنه وأمر به أولئك ، ومن جزم جزم بما فى قلبه من الحال ، وهذا حق لا ينافى تعليق الكمال والعاقبة، ولكن هؤلاء عندهم الأعمال ليست من الإيمان فصار الإيمان هو الإسلام عند أولئك .

﴿ والمشهور عند أهل الحديث أنه لايستثنى فى الإسلام ﴾ وهو المشهور عن أحمد رضى الله عنه ، وقد روى عنه فيه الاستثناء كما قد بسط هذا فى شرح حديث جبريل وغيره من نصوص الإيمان التى فى الكتاب والسنة .

﴿ ولو قال لامرأته أنت طالق إن شاء الله ﴾ ففيه نزاع مشهور وقد رجحنا التفصيل وهو أن الكلام يراد به شيآن ، يراد به إيقاع الطلاق تارة ، ويراد به منع إيقاعه تارة، فان كان مراده أنت طالق بهذا اللفظ فقوله : إن شاء الله مثل قوله : بمشيئة الله، وقد شاء الله الطلاق حين أتى بالتطليق فيقع ، وإن كان قد علق لئلا يقع أو علقه على مشيئة توجد بعد هذا لم يقع به الطلاق حتى يطلق بعد هذا ، فإنه حينئذ شاء الله أن يطلق ، وقول من قال المشيئة تنجزه ليس كما قال ، بل نحن نعلم قطعاً أن الطلاق لايقع إلا إذا طلقت المرأة بأن يطلقها الزوج أو من يقوم مقامه من ولى أو وكيل ، فاذا لم يوجد تطليق لم يقع طلاق قط ، فاذا قال : أنت طالق إن شاء الله وقصد حقيقة التعليق لم يقع إلا بتطليق بعد ذلك ، وكذلك إذا قصد تعليقه لئلا يقع الآن ، وأما إن قصد إيقاعه الآن وعلقه بالمشيئة توكيداً وتحقيقاً فهذا يقع به الطلاق .

وما أعرف أحداً أنشأ الإيمان فعلقه على المشيئة فاذا علقه فان كل مقصوده أنا مؤمن إن شاء الله أنا أومن بعد ذلك ، فهذا لم يصر مؤمناً مثل الذى يقال له : هل تصير من أهل دين الإسلام . فقال : أصير إن شاء الله ، فهذا لم يسلم ، بل هو باق على الكفر وإن كان قصده إنى قد آمنت وإيمانى بمشيئة الله صار مؤمناً ، لكن إطلاق اللفظ يحتمل هذا وهذا فلايجوز إطلاق مثل

هذا اللفظ فى الإنشاء ، وأيضاً فان الأصل انه إنما يعلق بالمشيئة ما كان مستقبلا ، فأما الماضى والحاضر فلا يعلق بالمشيئة ، والذين استثنوا لم يستثنوا فى الإنشاء كما تقدم كيف وقد أمروا أن يقولوا (آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط) وقال تعالى : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) فأخبر أنهم آمنوا فوقع الإيمان منهم قطعاً بلا استثناء .

وعلى كل أحد أن يقول : آمنا بالله وما أنزل إلينا كما أمر الله بلا استثناء وهذا متفق عليه بين المسلمين ما استثنى أحد من السلف قط فى مثل هذا ، وإنما الكلام إذا أخبر عن نفسه بأنه مؤمن ، كما يخبر عن نفسه بأنه بر تقى فيقول القائل له أنت مؤمن ، هو عندهم كقوله : هل أنت بر تقى ، فإذا قال أنا بر تقى فقد زكى نفسه ، فيقول إن شاء الله وأرجو أن أكون كذلك ، وذلك أن الإيمان التام يتعقبه قبول الله له وجزاؤه عليه وكتابة الملك له ، فالاستثناء يعود إلى ذلك لا إلى ماعلمه هو من نفسه وحصل واستقر ، فان هذا لا يصح تعليقه بالمشيئة ، بل يقال هذا حاصل بمشيئة الله وفضله وإحسانه وقوله فيه إن شاء الله بمعنى إذ شاء الله، وذلك تحقيق لا تعليق والرجل قد يقول والله ليكونن كذا إن شاء الله وهو جازم بأنه يكون ، فالمعلق هو الفعل كقوله : (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله) والله عالم بأنهم سيدخلونه ، وقد يقول الآدمى لأفعلن كذا إن شاء الله وهو لا يجزم بأنه يقع لكن يرجوه ، فيقول يكون إن شاء الله ثم عزمه عليه قد يكون جازما ولكن لا يجزم بوقوع المعزوم عليه ، وقد يكون العزم متردداً معلقاً بالمشيئة أيضاً ، ولكن متى كان المعزوم عليه معلقاً لزم تعليق بقاء العزم فانه

بتقدير أن تعليق العزم ابتداء أو دواما فى مثل ذلك ، ولهذا لم يحنث المطلق المعلق وحرف أن لا يكون لايبقى العزم ، فلابد إذا دخل على الماضى صار مستقبلا تقول إنجاء زيد كان كذلك (فانآمنوا بمثل ما آمنتم به فقداهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ) وإذا أريد الماضى دخل حرف كان كقوله : (إن كنتم تحبون الله فاتبوعونى) فيفرق بين قوله : أنا مؤمن إن شاء الله وبين قوله : إن كان الله شاء إيمانى . وكذلك إذا كان مقصوده انى لا أعلم بماذا يختم لى كما قيل لأبى مسعود : إن فلانا يشهد أنه مؤمن قال : فليشهد أنه من أهل الجنة ، فهذا مراده إذا شهد أنه مؤمن عند الله يموت علىالإيمان وكذلك إن كان مقصوده إن ايمانى حاصل بمشيئة الله . ومن لم يستثن قال : أنا لا أشك فى إيمان قلبى فلا جناح عليه إذا لم يزك نفسه ويقطع بأنه عامل كما أمر وقد تقبل الله عمله ، وإن لم يقل إن إيمانه كإيمان جبريل وأبى بكر وعمر ونحو ذلك من أقوال المرجئة كما كان مسعر بن كدام يقول : أنا لا أشك فى إيمانى . قال أحمد ولم يكن من المرجئة ، فان المرجئة الذين يقولون الأعمال ليست من الإيمان وهو كان يقول : هىمن الإيمان لكن أنا لا أشك فى إيمانى .

وكان الثورى يقول لسفيان بن عيينة : ألا تنهاه عن هذا فانهما منقبيلة واحدة ، وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن النزاع فى هذا كان بين أهل العلم والدين من جنس المنازعة فى كثير من الاحكام ، وكلهم من أهل الإيمان والقرآن .

﴿وأماجهم﴾فكانيقول : ان الإيمان مجرد تصديق القلب وإن لميتكلم

به ، وهذا القول لايعرف عن أحد من علماء الأئمة وأئمتها ، بل أحمد ووكيع وغيرهما كفروا من قال بهذا القول ، ولكن هو الذى نصره الأشعرى وأكثر أصحابه ، ولكن قالوا مع ذلك أن كل من حكم الشرع بكفره ، حكمنا بكفره واستدللنا بتكفير الشارع له على خلو قلبه من المعرفة . وقد بسط الكلام على أقوالهم وأقوال غيرهم فى الإيمان .

والأصل الذى منه نشأ النزاع ،اعتقاد من اعتقد أن من كان مؤمنا لم يكن معه شىء من الكفر والنفاق، وظن بعضهم أن هذا إجماع كما ذكر الأشعرى : أن هذا إجماع ، فهذا كان أصل الارجاء كما كان أصل القدر عجزهم عن الايمان بالشرع والقدر جميعاً ، فلما كان هذا أصلهم صاروا حزبين، قالت الخوارج والمعتزلة : قد علمنا يقينا أن الأعمال من الإيمان فمن تركها فقد ترك بعض الايمان ، وإذازال بعضه زال جميعه لأن الإيمان لا يتبعض ولا يكون فى العبد إيمان ونفاق ، فيكون أصحاب الذنوب مخلدين فى النار إذا كان ليس معهم من الإيمان شىء ، وقالت المرجئة مقتصدتهم وغلاتهم كالجهمية ، قد علمنا أن أهل الذنوب من أهل القبلة لا يخلدون فى النار بل يخرجون منها كما تواترت بذلك الأحاديث ، وعلمنا بالكتاب والسنة واجماع الأئمة أنهم ليسوا كفاراً مرتدين ، فان الكتاب قد أمر بقطع السارق لا بقتله ، وجاءت السنة بجلد الشارب لا بقتله ، فلو كان هؤلاء كفاراً مرتدين لوجب قتلهم ، وبهذا ظهر للمعتزلة ضعف قول الخوارج فخالفوهم فى أحكامهم فى الدنيا .

والخوارج لايتمسكون من السنة إلا بما فسر مجملها دون ما خالف ظاهر

القرآن عندهم ، فلا يرجمون الزانى ولا يرون للسرقة نصابا ، وحينئذ فقد يقولون ليس فى القرآن قتل المرتد ، فقد يكون المرتد عندهم نوعين .

وأقوال الخوارج إنما عرفناها من نقل الناس عنهم لم نقف لهم على كتاب مصنف ، كما وقفنا على كتب المعتزلة والرافضة والزيدية والكرامية والأشعرية والسالمية وأهل المذاهب الأربعة والظاهرية ومذاهب أهل الحديث والفلاسفة والصوفية ونحو هؤلاء ، وقد بسط الكلام على تفصيل القوم فى أقوال هؤلاء فى غير هذا الموضع .

﴿ وان الناس فى ترتيب أهل الأهواء على أقسام ﴾ منهم من يرتبهم على زمان حدوثهم فيبدأ بالخوارج ، ومنهم من يرتبهم بحسب خفة أمرهم وغلظه فيبدأ بالمرجئة ويختم بالجهمية ، كما فعله كثير من أصحاب أحمد رضى الله عنه كعبد الله ابنه ونحوه ، وكالخلال وأبى عبد الله بن بطة وأمثالهما وكأبى الفرج المقدسى ، وكلا الطائفتين تختم بالجهمية لأنهم أغلظ البدع ، وكالبخارى فى صحيحه فانه بدأ بكتاب الإيمان والرد على المرجئة وختمه بكتاب التوحيد والرد على الزنادقة والجهمية ، ولما صنف الكتاب فى الكلام صاروا يقدمون التوحيد والصفات فيكون الكلام أولا مع الجهمية وكذلك رتب أبو القاسم الطبرى كتابه فى أصول السنة ، والبيهقى أفرد لكل صنف مصنفاً فله مصنف فى الصفات ومصنف فى القدر ، ومصنف فى شعب الايمان ، ومصنف فى دلائل النبوة ، ومصنف فى البعث والنشور ، وبسط هذه الأمور له موضع آخر .

والمقصود هنا أن منشأ النزاع فى الأسماء والأحكام فى الإيمان والاسلام

أنهم لما ظنوا أنه لا يتبعض، قال أولئك فاذا فعل ذنباً زال بعضه فيزول كله فيخلد فى النار ، فقالت الجهمية والمرجئة : قد علمنا أنه ليس يخلد فى النار وأنه ليس كافراً مرتداً بل هو من المسلمين، وإذا كان من المسلمين وجب أن يكون مؤمنا تام الايمان معه بعض الإيمان لأن الإيمان عندهم لا يتبعض ، فاحتاجوا أن يجعلوا الإيمان شيأ واحداً يشترك فيه جميع أهل القبلة ، فقال فقهاء المرجئة هو التصديق بالقلب والقول باللسان ، فقالت الجهمية : بعد تصديق اللسان قد لا يجب إذا كان الرجل أخرس أو كان مكرهاً ، فالذى لا بد منه تصديق القلب ، وقالت المرجئة : الرجل إذا أسلم كان مؤمناً قبل أن يجب عليه شيء من الأفعال ، وأنكر كل هذه الطوائف أنه ينقص ﴿ والصحابة ﴾ قد ثبت عنهم أن الإيمان يزيد وينقص وهو قول أئمة السنة ، وكان ابن المبارك يقول: هو يتفاضل ويتزايد ويمسك عن لفظ ينقص ، وعن مالك فى كونه لا ينقص روايتان ، والقرآن قد نطق بالزيادة فى غير موضع ودلت النصوص على نقصه كقوله : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » ونحو ذلك ، لكن لم يعرف هذا اللفظ إلا فى قوله فى النساء: « ناقصات عقل ودين » وجعل من نقصان دينها أنها إذا حاضت لا تصوم ولا تصلى ، وبهذا استدل غير واحد على أنه ينقص .

وذلك أن أصل أهل السنة بأن الإيمان يتفاضل من وجهين من جهة أمر الرب ومن جهة فعل العبد ، أما الأول فانه ليس الايمان الذى أمر به شخص من المؤمنين هو الايمان الذى أمر به كل شخص ، فان المسلمين فى أول الأمر كانوا مأمورين بمقدار الايمان ، ثم بعد ذلك أمروا بغير ذلك، وأمروا بترك ما كانوا مأمورين به كالقبلة ، فكان من الإيمان فى أول الأمر الإيمان بوجوب استقبال

بيت المقدس ثم صار من الايمان تحريم استقباله ووجوب استقبال الكعبة ، فقد تنوع الايمان فى الشريعة الواحدة ، وأيضا فمن وجب عليه الحج والزكاة أو الجهاد يجب عليه من الإيمان أن يعلم ما أمر به ويؤمن بأن الله أوجب عليه ما لا يجب على غيره إلا مجملا ، وهذا يجب عليه فيه الإيمان المفصل ، وكذلك الرجل أول ما يسلم إنما يجب عليه الاقرار المجمل ، ثم إذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها ويؤديها فلم تتساوى الناس فيما أمروا به من الايمان ، وهذا من أصول غلط المرجئة فانهم ظنوا أنه شيء واحد وأنه يستوى فيه جميع المكلفين فقالوا إيمان الملائكة والأنبياء وأفسق الناس سواء ، كما أنه إذا تلفظ الفاسق بالشهادتين أو قرأ فاتحة الكتاب كان لفظه كلفظ غيره من الناس فيقال لهم : قد تبين أن الإيمان الذى أوجبه الله على عباده يتنوع ويتفاضل ويتباينون فيه تباينا عظيما ، فيجب على الملائكة من الايمان ما لا يجب على البشر ، ويجب على الأنبياء من الإيمان ما لا يجب على غيرهم ، ويجب على العلماء ما لا يجب على غيرهم ، ويجب على الأمراء ما لا يجب على غيرهم ، وليس المراد أنه يجب عليهم من العمل فقط بل ومن التصديق والاقرار ، فان الناس وإن كان يجب عليهم الاقرار المجمل بكل ما جاء به الرسول ، فأكثرهم لا يعرفون تفصيل كل ما أخبر به وما لم يعلموه كيف يؤمرون بالإقرار به مفصلا ؛ وما لم يؤمر به العبد من الأعمال لا يجب عليه معرفته ومعرفة الآمر به ، فمن أمر بحج وجب عليه معرفة ما أمر به من أعمال الحج والايمان بها ، فيجب عليه من الإيمان والعمل ما لا يجب على غيره ، وكذلك من أمر بالزكاة يجب عليه معرفة ما أمر الله به من الزكاة ، ومن الايمان بذلك والعمل به ما لا يجب على غيره فيجب عليه من العلم والإيمان والعمل ما لا يجب على غيره إذا جعل العلم

والعمل ليسا من الايمان وان جعل جميع ذلك داخلا فى مسمى الإيمان كان أبلغ ، فبكل حال قد وجب عليه من الايمان مالا يجب على غيره .

ولهذا كان من الناس من قد يؤمن بالرسول مجملا ، فاذا جاءت أمور أخرى لم يؤمن بها فيصير منافقا مثل طائفة نافقت لما حولت القبلة إلى الكعبة وطائفة نافقت لما انهزمت المسلمون يوم أحد ونحو ذلك .

ولهذا وصف الله المنافقين فى القرآن بأنهم آمنوا ثم كفروا كما ذكر ذلك فى سورة المنافقين ، وذكر مثل ذلك فى سورة البقرة فقال : (مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون) وقال : طائفة من السلف عرفوا ثم أنكروا وأبصروا ثم عموا .

فمن هؤلاء من كان يؤمن أولا إيماناً مجملا ، ثم يأتى أموراً يؤمن بها فينافق فى الباطن ، وما يمكنه إظهار الردة بل يتكلم بالنفاق مع خاصته وهذا كما ذكر الله عنهم فى الجهاد فقال : (وإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم طاعة وقـــول معروف فاذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم) .

وبالجملة فلا يمكن المنازعة ان الايمان الذى أوجبه الله يتباين فيه أحوال الناس ويتفاضلون فى إيمانهم ودينهم بحسب ذلك ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى النساء : « ناقصات عقل ودين » وقال فى نقصان دينهن أنها إذا حاضت لا تصوم ولا تصلى ، وهذا مما أمر الله به فليس هذا النقص دينا

لما تعاقب عليه ، لكن هو نقص حيث لم تؤمر بالعبادة فى هذا الحال ، والرجل كامل حيث أمر بالعبادة فى كل حال ، فدل ذلك على أن من أمر بطاعة يفعلها كان أفضل ممن لم يؤمر بها ، وإن لم يكن عاصيا فهذا أفضل دينا وإيماناً ، وهذا المفضول ليس بمعاقب ومذموم فهذه زيادة كزيادة الايمان بالتطوعات لكن هذه زيادة بواجب فى حق شخص وليس بواجب فى حق شخص غيره ، فهذه الزيادة لو تركها بهذا لا يستحق العقاب بتركها ، وذاك لا يستحق العقـــاب بتركها ولكن إيمان ذلك أكمل قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا » .

فهذا يبين تفاضل الايمان فى نفس الأمر به وفى نفس الأخبار التى يجب التصديق بها ، والنوع الثانى : وهو تفاضل الناس فى الاتيان به مع استوائهم فى الواجب . وهذا هو الذى يظن أنه محل النزاع وكلاهما محل النزاع وهذا أيضاً يتفاضلون فيه ، فليس إيمان السارق والزانى والشارب كايمان غيرهم ولا إيمان من أدى الواجبات كايمان من أخل ببعضها ، كما أنه ليس دين هذا وبره وتقواه مثل دين هذا وبره وتقواه ، بل هذا أفضل ديناً وبراً وتقوى فهو كذلك أفضل إيمانا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقاً » وقد يجتمع فى العبد إيمان ونفاق كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، إذا حدث كذب ، وإذا أؤتمن خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

وأصل هؤلاء أن الايمان لا يتبعض ولا يتفاضل بل هو شيء واحـــد

يستوى فيه جميع العباد فيما أوجبه الرب من الايمان ، وفيما يفعله العبد من الأعمال فغلطوا فى هذا وهذا ثم تفرقوا كما تقدم .

وصارت المرجئة على ثلاثة أقوال ، فعلماؤهم وأئمتهم : أحسنهم قولا .وهو أن قالوا الايمان تصديق القلب وقول اللسان .

وقالت الجهمية : هو تصديق القلب فقط ، فمن تكلم به فهو مؤمن كامل الايمان لكن إن كان مقراً بقلبه كان من أهل الجنة ، وإن كان مكذبا بقلبه كان منافقا مؤمناً من أهل النار .

﴿ وهذا القول هو الذى اختصت به الكرامية وابتدعته ﴾ ولم يسبقها أحد إلى هذا القول وهو آخر ما أحدث من الأقوال فى الايمان ، وبعض الناس يحكى عنهم أن من تكلم به بلسانه دون قلبه فهو من أهل الجنة وهو غلط عليهم ، بل يقولون أنه مؤمن كامل الايمان ، وأنه من أهل النار فيلزمهم أن يكون المؤمن الكامل الايمان معذباً فى النار بل يكون مخلداً فيها .

وقد تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أنه يخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » وان قالوا لا يخلد وهو منافق لزمهم أن يكون المنافقون يخرجون من النار ، والمنافقون قد قال الله فيهم : (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا) .

وقد نهى الله نبيه عن الصلاة عليهم والاستغفار لهم وقال له : (استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) وقال : (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) وقد أخبر أنهم كفروا بالله ورسوله .

فان قالوا هؤلاء فقد كانوا يتكلمون بألسنتهم سراً فكفروا بذلك وإنما يكون مؤمناً إذا تكلم بلسانه ولم يتكلم بما ينقضه ، فان ذلك رده عن الإيمان قيل لهم ولو أضمروا النفاق ولم يتكلموا به كانوا منافقين قال تعالى يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم: (قل استهزءوا ان الله مخرج ماتحذرون) وأيضاً قد أخبر الله عنهم أنهم يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم وأنهم كاذبون فقال تعالى: (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين) وقال تعالى: (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله والله يشهد أن المنافقين لكاذبون) وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الاسلام علانية والإيمان فى القلب» وقد قال الله تعالى : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) وفى الصحيحين عن سعد أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى رجالا ولم يعط رجلا فقلت يا رسول الله أعطيت فلانا وفلانا وتركت فلانا وهو مؤمن فقال : «أو مسلم مرتين أو ثلاثا» وبسط الكلام فى هذا له مواضع أخر ، وقد صنفت فى ذلك مجلداً غير ماصنفت فيه غير ذلك .

وكلام الناس فى هذا الاسم ومسماه كثير ، لأنه قطب الدين الذى يدور عليه وليس فى القول اسم علق به السعادة والشقاء والمدح والذم والثواب والعقاب أعظم من اسم الايمان والكفر ، ولهذا سمى هذا الأصل مسائل الأسماء والأحكام ، وقد رأيت لابن الهيثم فيه مصنفاً فى أنه قول اللسان فقط ، ورأيت لابن الباقلانى فيه مصنفاً أنه تصديق القلب فقط وكلاهما فى عصر واحد وكلاهما يرد على المعتزلة والرافضة .

﴿ والمقصود هنا أن السلف كان اعتصامهم بالقرآن والايمان ﴾ فلما حدث فى الأمة ما حدث من التفرق والاختلاف ، صار أهل التفرق والاختلاف شيعاً صار هؤلاء عمدتهم فى الباطن ليست على القرآن والايمان ولكن على أصول ابتدعها شيوخهم عليها يعتمدون فى التوحيد والصفات والقدر والايمان بالرسول وغير ذلك ، ثم ما ظنوا أنه يوافقها من القرآن احتجوا به ، وما خالفها تأولوه ، فلهذا تجدهم إذا احتجوا بالقرآن والحديث لم يعتنوا بتحرير دلالتهما ، ولم يستقصوا ما فى القرآن من ذلك المعنى إذ كان اعتمادهم فى نفس الأمر إلى غير ذلك ، والآيات التى تخالفهم يشرعون فى تأويلها شروع من قصد ردها كيف أمكن ، ليس مقصوده أن يفهم مراد الرسول ، بل أن يدفع منازعه عن الاحتجاج بها .

ولهذا قال كثير منهم كأبى الحسين البصرى ومن تبعه كالرازى والآمدى وابن الحاجب أن الأمة إذا اختلفت فى تأويل الآية على قولين جاز لمن بعدهم إحداث قول ثالث بخلاف ما إذا اختلفوا فى الأحكام على قولين ؛ فجوزوا أن تكون الأمة مجتمعة على الضلال فى تفسير القرآن والحديث وأن يكون الله أنزل الآية وأراد بها معنى لم يفهمه الصحابة والتابعون ، ولكن قالوا أن الله أراد معنى آخر وهم لو تصوروا هذه المقالة لم يقولوا هذا فان أصلهم أن الأمة لا تجتمع على ضلالة ، ولا يقولون قولين كلاهما خطأ والصواب قول ثالث لم يقولوه ، لكن قد اعتادوا أن يتأولوا ما خالفهم ، والتأويل عندهم مقصوده بيان احتمال فى لفظ الآية يجوز أن يراد ذلك المعنى بذلك اللفظ ، ولم يستشعروا أن المتأول هو مبين لمراد الآية مخبر عن الله تعالى أنه أراد هذا المعنى إذا حملها على معنى وكذلك إذا قال يجوز أن يراد بها هذا المعنى والأمة قبله

لم يقولوا أريد بها إلا هذا أو هذا ، فقد جوزوا أن يكون ما أراده الله لم يخبر به الأمة وأخبرت أن مراده غير ما أراده، لكن الذى قاله هؤلاء يتمشى إذا كان التأويل أنه يجوز أن يراد هذا المعنى من غير حكم بأنه مراد وتكون الأمة قبلهم كلها كانت جاهلة بمراد الله ضالة عن معرفته ، وانقرض عصر الصحابة والتابعين وهم لم يعلموا الآية ، ولكن طائفة قالت يجوز أن يريد هذا المعنى وطائفة قالت يجوز أن يريد هذا المعنى ، وليس فيهم من علم المراد فجاء الثالث وقال ههنا معنى يجوز أن يكون هو المراد فاذا كانت الأمة من الجهل بمعانى القرآن والضلال عن مراد الرب بهذه الحال توجه ما قالوه وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود أن كثيراً من المتأخرين لم يصيروا يعتمدون فى دينهم لا على القرآن ولا على الإيمان الذى جاء به الرسول بخلاف السلف، فلهذا كان السلف أكمل علماً وإيماناً وخطؤهم أخف وصوابهم أكثر كما قدمناه، وكان الأصل الذى أسسوه هو ما أمرهم الله به فى قوله : (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم) فان هذا أمر للمؤمنين بما وصف به الملائكة كما قال تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين) فوصفهم سبحانه بأنهم لا يسبقونه بالقول وأنهم بأمره يعملون ، فلا يخبرون عن شىء من صفاته ولا غير صفاته إلا بعد أن يخبر سبحانه بما يخبر به ، فيكون خبرهم وقولهم تبعاً لخبره وقوله كما قال : (لا يسبقونه بالقول) . وأعمالهم تابعة لأمره

فلا يعملون إلا ما أمرهم هو أن يعملوا به فهم مطيعون لأمره سبحانه وقد وصف سبحانه بذلك ملائكة النار فقال: (قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) وقد ظن بعضهم أن هذا توكيد وقال بعضهم: بل لا يعصونه في الماضي ويفعلون ما أمروا به في المستقبل، وأحسن من هذا وهذا أن العاصي هو الممتنع من طاعة الأمر مع قدرته على الامتثال، فلو لم يفعل ما أمر به لعجزه لم يكن عاصياً فاذا قال: لا يعصون الله ما أمرهم. لم يكن في هذا بيان أنهم يفعلون ما يؤمرون، فان العاجز ليس بعاص ولا فاعل لما أمر به فقال: ويفعلون ما يؤمرون، ليبين أنهم قادرون على فعل ما أمروا به فهم لا يتركونه لا عجزاً ولا معصية، والمأمور إنما يترك ما أمر به لأحد هذين إما أن لا يكون قادراً وإما أن يكون عاصياً لا يريد الطاعة، فاذا كان مطيعاً يريد طاعة الأمر وهو قادر وجب وجود فعل ما أمر به، فكذلك الملائكة المذكورون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وقد وصف الملائكة بأنهم: (عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين).

فالملائكة مصدقون بخبر ربهم، مطيعون لأمره ولا يخبرون حتى يخبر ولا يعملون حتى يأمر كما قال تعالى: (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون). وقد أمر الله المؤمنين أن يكونوا مع الله ورسوله كذلك فان البشر لم يسمعوا كلام الله منه، بل بينهم وبينه رسول من البشر فعليهم أن لا يقولوا حتى يقول الرسول ما بلغهم عن الله ولا يعملون إلا بما أمرهم به كما قال تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم) .

قال مجاهد لا تفتاتوا عليه بشيء حتى يقضيه الله على لسانه تقدموا: معناه تتقدموا وهو فعل لازم، وقد قرىء يقدموا يقال قدم وتقدم كما يقال بين وتبين ، وقد يستعمل قدم متعدياً أى قدم غيره لكن هنا هو فعل لازم فلا تقدموا معناه لا تتقدموا بين يدى الله ورسوله .

فعلى كل مؤمن أن لا يتكلم فى شيء من الدين إلا تبعاً لما جاء به الرسول ولا يتقدم بين يديه بل ينظر ما قال فيكون قوله تبعاً لقوله ، وعلمه تبعاً لأمره ، فلهذا كان الصحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم باحسان وأئمة المسلمين ، فلهذا لم يكن أحد منهم يعارض النصوص بمعقوله ولا يؤسس ديناً غير ما جاء به الرسول ، وإذا أراد معرفة شيء من الدين والكلام فيه نظر فيما قاله الله والرسول ، فمنه يتعلم وبه يتكلم وفيه ينظر ويتفكر ، وبه يستدل فهذا أصل أهل السنة وأهل البدع ، لا يجعلون اعتمادهم فى الباطن ونفس الأمر على ما تلقوه عن الرسول ، بل على ما رووه أو ذاقوه ، ثم إن وجدوا السنة توافقه وإلا لم يبالوا بذلك ، فإذا وجدوها تخالفه أعرضوا عنها تفويضاً أو حرفوها تأويلا .

فهذا هو الفرقان بين أهل الإيمان والسنة ، وأهل النفاق والبدعة ، وإن كان هؤلاء لهم من الإيمان نصيب وافر من اتباع السنة ، لكن فيهم من النفاق والبدعة بحسب ما تقدموا فيه بين يدى الله ورسوله وخالفوا الله ورسوله ، ثم إن لم يعلموا أن ذلك يخالف الرسول ، ولو علموا لما قالوه

لم يكونوا منافقين ، بل ناقصى الإيمان مبتدعين وخطؤهم مغفور لهم لا يعاقبون عليه وإن نقصوا به .

﴿ فصل ﴾ وكل من خالف ماجاء به الرسول لم يكن عنده علم بذلك ولا عدل ، بل لا يكون عنده إلا جهل وظلم وظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى ، وذلك لأن ما أخبر به الرسول فهو حق باطنا وظاهراً فلا يمكن أن يتصور أن يكون الحق فى نقيضه . وحينئذ فمن اعتقد نقيضه كان اعتقاده باطلا ، والاعتقاد الباطل لا يكون علماً وما أمر به الرسول فهو عدل لاظلم فيه ، فمن نهى عنه فهو نهى عن العدل ومن أمر بضده فقد أمر بالظلم فان ضد العدل الظلم ، فلا يكون ما يخالفه إلا جهلا وظلماً ظناً وما تهوى الأنفس ، وهو لايخرج عن قسمين أحسنهما : أن يكون كان شرعاً لبعض الأنبياء ثم نسخ ، وأدناهما : أن يكون ما شرع قط بل يكون من المبدل ، فكل ماخالف حكم الله ورسوله فإما شرع منسوخ ، وإما شرع مبدل ماشرعه الله بل شرعه شارع بغير إذن من الله . كما قال : (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) لكن هذا وهذا قد يقعان فى خفى الأمور ودقيقها باجتهاد من أصحابها ، استفرغوا فيه وسعهم فى طلب الحق ويكون لهم من الصواب والاتباع مايغمر ذلك ، كما وقع مثل ذلك من بعض الصحابة فى مسائل الطلاق والفرائض ونحو ذلك ولم يكن منهم مثل هذا فى جلى الأمور وجليلها ، لأن بيان هذا من الرسول كان ظاهرا بينهم ، فلا يخالفه إلا من يخالف الرسول وهم معتصمون بحبل الله ، يحكمون الرسول فيما شجر بينهم ، لا يتقدمون بين يدى الله ورسوله فضلا عن تعمد مخالفة الله ورسوله .

فلما طال الزمان خفى على كثير من الناس ما كان ظاهراً لهم ، ودق على كثير من الناس ما كان جليا لهم ، فكثر من المتأخرين مخالفة الكتاب والسنة مالم يكن مثل هذا فى السلف .

وإن كانوا مع هذا مجتهدين معذورين ، يغفر الله لهم خطاياهم ويثيبهم على اجتهادهم .

وقد يكون لهم من الحسنات ما يكون للعامل منهم أجر خمسين رجلا يعملها فى ذلك الزمان لأنهم كانوا يجدون من يعينهم على ذلك ، وهؤلاء المتأخرون لم يجدوا من يعينهم على ذلك لكن تضعيف الأجر لهم فى أمور لم يضعف للصحابة ، لا يلزم أن يكونوا أفضل من الصحابة ، ولا يكون فاضلهم كفاضل الصحابة ، فان الذى سبق إليه الصحابة من الايمان والجهاد ومعاداة أهل الأرض فى موالاة الرسول وتصديقه وطاعته فيما يخبر به ويوجبه قبل أن تنتشر دعوته وتظهر كلمته وتكثر أعوانه وأنصاره وتنتشر دلائل نبوته بل مع قلة المؤمنين وكثرة الكافرين والمنافقين وانفاق المؤمنين أموالهم فى سبيل الله ابتغاء وجهه ، فى مثل تلك الحال أمر ما بقى يحصل مثله لأحد كما فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » .

وقد استفاضت النصوص الصحيحة عنه أنه قال : « خير القرون قرنى الذين بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » .

فجملة القرن الأول أفضل من القرن الثانى ، والثانى أفضل من الثالث ، والثالث

أفضل من الرابع لكن قد يكون فى الرابع من هو أفضل من بعض الثالث وكذلك فى الثالث مع الثانى ، وهل يكون فيمن بعد الصحابة من هو أفضل من بعض الصحابة المفضولين لا الفاضلين ، هذا فيه نزاع وفيه قولان حكاهما القاضى عياض وغيره ، ومن الناس من يفرضها فى مثل معاوية وعمر بن عبدالعزيز ، فان معاوية له مزية الصحبة والجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم وعمر له مزية فضيلته من العدل والزهد والخوف من الله تعالى ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن من خالف الرسول فلا يعروأن يتبع الظن وما تهوى الأنفس كما قال تعالى فى المشركين الذين يعبدون اللات والعزى : (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) .

وقال فى الذين يخبرون عن الملائكة أنهم أناث : (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيأ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) وهم جعلوهم اناثا كما قال : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا) وفى القراءة الأخرى : (عند الرحمن اناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون) وهؤلاء قال عنهم : (إن يتبعون إلا الظن) لأنه خبر محض ليس فيه عمل وهناك : وما تهوى الأنفس لأنهم كانوا يعبدونها ويدعونها فهناك عبادة وعمل يهوى أنفسهم فقال: (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس) والذى جاء به الرسول كما قال : (والنجم إذا هوى

ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى) وكل من خالف الرسول لايخرج عن الظن وما تهوى الأنفس. فان كان ممن يعتقد ما قاله وله فيه حجة يستدل بها ، كان غايته الظن الذى لا يغنى من الحق شيأ كاحتجاجهم بقياس فاسد ، أو نقل كاذب أو خطاب ألقى إليهم اعتقدوا أنه من الله وكان من القاء الشيطان .

وهذه الثلاثة هى عمدة من يخالف السنة بما يراه حجة ودليلا ، أما أن يحتج بأدلة عقلية ويظنها برهانا وأدلة قطعية . وتكون شبهات فاسدة مركبة من ألفاظ مجملة ومعانى متشابهة لم يميز بين حقها وباطلها ، كما يوجد مثل ذلك فى جميع ما يحتج به من خالف الكتاب والسنة ، إنما يركب حججه من ألفاظ متشابهة ، فاذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل وهذه هى الحجج العقلية ، وان تمسك المبطل بحجج سمعية فاما أن تكون كذبا على الرسول ، أوتكون غير دالة على ما احتج بها أهل البطول، فالمنع اما فى الاسناد وإما فى المتن ، ودلالته على ما ذكر وهذه الحجة السمعية . هذه حجج أهل العلم الظاهر .

وأما حجة أهل الذوق والوجد والمكاشفة والمخاطبة فان أهل الحق من هؤلاء لهم ﴿ الهامات صحيحة ﴾ مطابقة كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قد كان فى الأمم قبلكم محدثون فان يكن فى أمتى أحد فعمر » وكان عمر يقول : اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم مايقولون فانها تجلى لهم أمور صادقة . وفى الترمذى عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله ثم قرأ قوله: ان

فى ذلك لآيات للمتوسمين » . وقال بعض الصحابة : أظنه والله للحق يقذفه الله على قلوبهم وأسماعهم . وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها » وفى رواية « فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى » فقد أخبر أنه يسمع بالحق ويبصر به .

وكانوا يقولون : إن السكينة تنطق على لسان عمر رضى الله عنه . وقال صلى الله عليه وسلم : « من سأل القضاء واستعان عليه وكل اليه ومن لم يسأله ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده » وقال الله تعالى: (نور على نور) الايمان مع نور القرآن . وقال تعالى: (أفمن كان على بينة من ربه) ويتلوه شاهد منه وهو المؤمن على بينة من ربه ، ويتبعه شاهد من الله ، وهو القرآن شهد الله فى القرآن بمثل ماعليه المؤمن من بينة الايمان ، وهذا القدر مما أقر به حذاق النظار لما تكلموا فى وجوب النظر وتحصيله للعلم ، فقيل لهم : أهل التصفية والرياضة والعبادة والتأله يحصل لهم المعارف والعلوم اليقينية بدون النظر كما قال الشيخ الملقب بالكبيرى (للرازى) ورفيقه وقد قالا له : ياشيخ بلغنا أنك تعلم علم اليقين . فقال : نعم . فقالا : كيف تعلم ونحن نتناظر فى زمان طويل كلما ذكر شيأ أفسدته ، وكلما ذكرت شيأ أفسده . فقال : هو واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها ، فجعلا يعجبان من ذلك ويكرران الكلام ، وطلب أحدهما أن يحصل له هذه الواردات فعلمه الشيخ وأدبه حتى حصلت له وكان من المعتزلة النفاة .

فبين له أن الحق مع أهل الاثبات وأن الله سبحانه فوق سمواته ، وعلم ذلك بالضرورة . رأيت هذه الحكاية بخط القاضى نجم الدين أحمد بن محمد ابن خلف المقدسى ، وذكر أن الشيخ الكبيرى حكاها له وكان قد حدثنى بها عنه غير واحد حتى رأيتها بخطه وكلام المشايخ فى مثل هذا كثير ، وهذا الوصف الذى ذكره الشيخ جواب لهم بحسب ما يعرفون، فانهم قد قسموا العلم إلى ضرورى ونظرى ، والنظرى مستند إلى الضرورى ، والضرورى هو العلم الذى يلزم نفس المخلوق لزوما لا يمكنه معه الانفكاك عنه ، هذا حد القاضى أبى بكر الطيب وغيره فخاصته أنه يلزم النفس لزوما لا يمكن مع ذلك دفعه فقال لهم : علم اليقين عندنا هو من هذا الجنس ، وهو علم يلزم النفس لزوما لا يمكنه مع ذلك الانفكاك عنه وقال واردات لأنه يحصل مع العلم طمأنينة وسكينة توجب العمل به فالواردات تحصل بهذا وهذا وهذا قد أقر به كثير من حذاق النظار متقدميهم كالكيا الهراسى ، والغزالى وغيرهما ، ومتأخريهم كالرازى والآمدى ، وقالوا : نحن لا ننكر أن يحصل لناس علم ضرورى بما يحصل لنا بالنظر هذا لا يدفعه لكن إن لم يكن علما ضروريا فلا بد له من دليل، والدليل يكون مستلزما للمدلول عليه بحيث يلزم من انتفاء الدليل انتفاء المدلول عليه ، قالوا: فان كان لو دفع ذلك الاعتقاد الذى حصل له لزم دفع شىء مما يعلم بالضرورة ، فهذا هو الدليل وإن لم يكن كذلك فهذا هوس لا يلتفت اليه ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود أن هذا الجنس واقع ، لكن يقع أيضا ما يظن أنه منه كبير أو لا يميز كثير منهم الحق من الباطل ، كما يقع فى الأدلة العقلية والسمعية ، فمن هؤلاء من يسمع خطاباً أو يرى من يأمره بقضية ، ويكون ذلك الخطاب

من الشيطان ، ويكون ذلك الذى يخاطبه الشيطان وهو يحسب أنه من أولياء الله من رجال الغيب .

ورجال الغيب : هم الجن وهو يحسب أنه انسى ، وقد يقول له أنا الخضر أو الياس بل أنا محمد أو ابراهيم الخليل أو المسيح أو أبو بكر أو عمر أو أنا الشيخ فلان أو الشيخ فلان ممن يحسن بهم الظن ، وقد يطير به فى الهواء، أو يأتيه بطعام أو شراب أو نفقة، فيظن هذا كرامة بل آية ومعجزة تدل على أن هذا من رجال الغيب أو من الملائكة ، ويكون ذلك شيطانا ألبس عليه فهذا ومثله واقع كثيراً أعرف منه وقائع كثيرة ، كما أعرف من الغلط فى السمعيات والعقليات ، فهؤلاء يتبعون ظنا لا يغنى من الحق شيأ ، ولو لم يتقدموا بين يدى الله ورسوله بل اعتصموا بالكتاب والسنة ، لتبين لهم أن هذا من الشيطان ، وكثير من هؤلاء يتبع ذوقه ووجده وما يجده محبوبا اليه بغير علم ولا هدى ولا بصيرة فيكون متبعاً لهواه بلا ظن، وخيارهم من يتبع الظن وما تهوى الأنفس ، وهؤلاء إذا طلب من أحدهم حجة ذكر تقليده لمن يحبه من آبائه وأسلافه كقول المشركين: (إناوجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) وإن عكسوا احتجوا بالقدر وهو أن الله أراد هذا وسلطنا عليه فهم يعملون بهواهم وإرادة نفوسهم بحسب قدرتهم كالملوك المسلطين ، وكان الواجب عليهم أن يعملوا بما أمر الله فيتبعون أمر الله وما يحبه ويرضاه ، لا يتبعون إرادتهم وما يحبونه هم ويرضونه ، وأن يستعينوا بالله فيقولون: (إياك نعبد وإياك نستعين) لاحول ولا قوة إلا بالله لا يعتمدون على ما أوتوه من القوه والتصرف والحال فان هذا من الجد ، وقد كان النبى

صلى الله عليه وسلم يقول عقب الصلاة وفى الاعتدال بعد الركوع : « اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

فالذوق والوجد هو يرجع إلى حب الإنسان ووجده بحلاوته وذوقه وطعمه ، وكل صاحب محبة فله فى محبوبه ذوق ووجد ، فان لم يكن ذلك بسلطان من الله وهو ما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم كان صاحبه متبعا لهواه بغير هدى ، وقد قال الله تعالى : (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) وقال تعالى : (وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمهتدين) .

وكذلك من اتبع ما يرد عليه من الخطاب ، أو ما يراه من الانوار والأشخاص الغيبية ، ولا يعتبر ذلك بالكتاب والسنة ، فانما يتبع ظنا لا يغنى من الحق شيأ .

فليس فى المحدثين الملهمين أفضل من عمر كما قال صلى الله عليه وسلم: « أنه قد كان فى الأمم قبلكم محدثون فان يكن فى أمتى منهم أحد فعمر منهم » وقد وافق عمر ربه فى عدة أشياء ، ومع هذا فكان عليه أن يعتصم بما جاء به الرسول ولا يقبل ما يرد عليه حتى يعرضه على الرسول ، ولا يتقدم بين يدى الله ورسوله بل يجعل ما ورد عليه ،وكان إذا تبين له من ذلك أشياء خلاف ما وقع له فيرجع إلى السنة ، وكان أبو بكر يبين له أشياء خفيت عليه فيرجع إلى بيان الصديق وإرشاده وتعليمه كما جرى يوم الحديبية ، ويوم مات الرسول ، ويوم ناظره من مانع الزكاة وغير ذلك ، وكانت المرأة ترد عليه

مايقوله وتذكر الحجة من القرآن ، فيرجع اليها كما جرى فى مهور النساء ومثل هذا كثير .

فكل من كان من أهل الإلهام والخطاب والمكاشفة ، لم يكن أفضل من عمر فعليه أن يسلك سبيله فى الاعتصام بالكتاب والسنة تبعاً لما جاء به الرسول ، لا يجعل ما جاء به الرسول تبعاً لما ورد عليه ، وهؤلاء الذين أخطؤا وضلوا وتركوا ذلك واستغنوا بما ورد عليهم وظنوا أن ذلك يغنيهم عن اتباع العلم المنقول .

وصار أحدهم يقول أخذوا علمهم ميتا عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لايموت ، فيقال له: أما مانقله الثقات عن المعصوم فهو حق ولولا النقل المعصوم لكنت أنت وأمثالك إما من المشركين وإما من اليهود والنصارى، وأما ما ورد عليك فمن أين لك أنه وحى من الله ، ومن أين لك أنه ليس من وحى الشيطان .

والوحى وحيان : وحى من الرحمن ، ووحى من الشيطان . قال تعالى : (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم) وقال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الانس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) وقال تعالى : (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين) وقدكان المختار بن أبى عبيد من هذا الضرب ، حتى قيل لابن عمر وابن عباس قيل لأحدهما : انه يقول أنه يوحى اليه فقال: وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . وقيل للآخر : إنه يقول أنه ينزل عليه .فقال : (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين) فهؤلاء يحتاجون إلى الفرقان الإيمانى القرآنى النبوى

الشرعى أعظم من حاجة غيرهم ، وهؤلاء لهم حسيات يرونها ويسمعونها ، والحسيات يضطر إليها الإنسان بغير اختياره كما قد يرى الإنسان أشياء ويسمع أشياء بغير اختياره ، كما أن النظار لهم قياس ومعقول ، وأهل السمع لهم أخبار منقولات ، وهذه الأنواع الثلاثة هى طرق العلم : الحس ، والخبر ، والنظر ، وكل إنسان من هذه الثلاثة فى بعض الأمور ، لكن يكون بعض الأنواع أغلب على بعض الناس فى الدين وغير الدين ، كالطب فإنه تجربات وقياسات وأهله منهم من يغلب عليه التجربة ، ومنهم من يغلب عليه القياس ، والقياس أصله التجربة ، والتجربة لابد فيها من قياس ، لكن مثل قياس العاديات لايعرف فيه العلة والمناسبة ، وصاحب القياس من يستخرج العلة المناسبة ويعلق الحكم بها والعقل خاصة القياس والاعتبار والقضايا الكلية ، فلابد له من الحسيات التى هى الأصل ليعتبر بها والحس إن لم يكن مع صاحبه عقل وإلا فقد يغلط .

والناس يقولون غلط الحس ، والغلط تارة من الحس وتارة من صاحبه ، فإن الحس يرى أمراً معيناً فيظن صاحبه فيه شيئاً آخر فيؤتى من ظنه فلابد له من العقل .

ولهذا النائم يرى شيئاً وتلك الأمور لها وجود وتحقيق ، ولكن هى خيالات وأمثلة فلما عزب ، ظنها الرائى نفس الحقائق كالذى يرى نفسه فى مكان آخر يكلم أمواتاً ويكلمونه ، ويفعل أموراً كثيرة وهو فى النوم ، يجزم بأنه نفسه الذى يقول ويفعل ، لأن عقله عزب عنه ، وتلك الصورة التى رآها مثال صورته وخيالها ، لكن غاب عقله عن نفسه حتى ظن أن ذلك

المثال هو نفسه ، فلما ثاب إليه عقله علم أن ذلك خيالات ومثالات ، ومن الناس من لايغيب عقله ، بل يعلم فى المنام أن ذلك فى المنام ، وهذا كالذى يرى صورته فى المرآة أو صورة غيره ، فإذا كان ضعيف العقل ظن أن تلك الصورة هى الشخص حتى أنه يفعل به مايفعل بالشخص، وهذا يقع للصبيان والبله كما يخيل لأحدهم فى الضوء شخص يتحرك ويصعد وينزل فيظنونه شخصاً حقيقة ، ولايعلمون أنه خيال فالحس أحس صحيحاً لم يغلط ، لكن معه عقل لم يميز بين هذا العين والمثال ، فإن العقل قد عقل قبل هذا أن مثل هذا يكون مثالا ، وقد عقل لوازم الشخص بعينه وأنه لا يكون فى الهواء ولا فى المرآة ولا يكون بدنه فى غير مكانه وأن الجسم الواحد لا يكون فى مكانين .

وهؤلاء الذين لهم مكاشفات ومخاطبات يرون ويسمعون ماله وجود فى الخارج،ومالا يكون موجوداً إلافى أنفسهم كحال النائم،وهذا يعرفه كل أحد ولكن قد يرون فى الخارج أشخاصاً يراها عياناً ، ومافى خيال الإنسان لايراه غيره ويخاطبهم أولئك الأشخاص ويحملونهم ويذهبون بهم إلى عرفات ، فيقفون بها وإما إلى غير عرفات ، ويأتوهم بذهب وفضة وطعام ولباس وسلاح وغير ذلك يخرجون إلى الناس ويأتونهم أيضاً بمن يطلبونه ، مثل من يكون له إرادة فى امرأة أو صبي فيأتونه بذلك ، إما محمولا فى الهواء وإما بسعى شديد ، ويخبر أنه وجد فى نفسه من الباعث القوى مالم يمكنه المقام معه ، أو يخبر أنه سمع خطاباً، وقد يقتلون له من يريد قتله من أعدائه أو يمرضونه ، فهذا كله موجود كثيراً لكن من الناس من يعلم أن هذا من الشيطان ، وأنه من السحر ، وأن ذلك حصل بما قاله ويعلمه من السحر ،

ومنهم من يعلم أن ذلك من الجن ويقول هذا كرامة أكرمنا بتسخير الجن لنا ، ومنهم من يظن أولئك الأشخاص إلا آدميين أو ملائكة ، فان كانوا غير معروفين قال : هؤلاء رجال الغيب ، وإن يسموا قالوا : هذا هو الخضر ، وهذا هو الياس ، وهذا هو أبو بكر وعمر ، وهذا هو الشيخ عبد القادر أو الشيخ عدى أو الشيخ أحمد الرفاعى أو غير ذلك ، ظن أن الأمر كذلك فهنا لم يغلط ، لكن غلط عقله حيث لم يعرف أن هذه شياطين تمثلت على صور هؤلاء ، وكثير من هؤلاء يظن أن النبي صلى الله عليه وسلم نفسه أو غيره من الأنبياء أو الصالحين يأتيه فى اليقظة ، ومن يرى ذلك عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم أو الشيخ وهو صادق فى أنه إياه من قال أنه النبي أو الشيخ أو قيل له ذلك فيه ، لكن غلط حيث ظن صدق أولئك ، والذى له عقل وعلم يعلم أن هذا ليس هو النبي صلى الله عليه وسلم تارة لما يراه منهم من مخالفة الشرع مثل أن يأمروه بما يخالف أمر الله ورسوله ، وتارة يعلمه أن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يأتى أحداً من أصحابه بعد موته فى اليقظة ، ولا كان يخاطبهم من قبره ، فكيف يكون هذا لى وتارة يعلم أن الميت لم يقم من قبره وأن روحه فى الجنة لا تصير فى الدنيا هكذا ، وهذا يقع كثيراً لكثير من هؤلاء ويسمون تلك الصورة رفيقة فلان ، وقد يقولون هو معناه يشكل وقد يقولون روحانيته ، ومن هؤلاء من يقول إذا مت فلا تدعوا أحداً يغسلنى ، ولا فلاناً يحضرنى ، فإنى أنا أغسل نفسى ، فاذا مات رأوه قد جاء وغسل ذلك البدن ، ويكون ذلك جنياً قد قال لهذا الميت إنك تجىء بعد الموت ، واعتقد ذلك حقاً فإنه كان فى حياته يقول له أموراً ، وغرض الشيطان أن يضل أصحابه ، وأما بلاد المشركين كالهند فهذا كثيراً ما يرون

الميت بعـــد موته جاء وفتح حانوته ورد ودائع وقضى ديوناً ودخل إلى منزله ثم ذهب ، وهم لا يشكون أنه الشخص نفسه ، وإنما هو شيطان تصور فى صورته .

﴿ ومن هؤلاء ﴾ من يكون فى جنازة أبيه أو غيره ، والميت على سريره وهو يراه آخذاً يمشى مع الناس بيد ابنه وأبيه قد جعل شيخاً بعد أبيه ، فلا يشك ابنه أن أباه نفسه هو كان الماشى معه الذى رآه هو دون غيره ، وإنما كان شيطانا ويكون مثل هذا الشيطان قد سمى نفسه خالداً وغير خالد ، وقال لهم انه من رجال الغيب ، وهم يعتقدون أنه من الإنس الصالحين ، ويسمونه خالداً الغيبى ويذسبون الشيخ إليه فيقولون : محمداً الخالدى ونحو ذلك .

﴿ فإن الجن مأمورون ومنهيون ﴾ كالإنس وقد بعث الله الرسل من الانس اليهم وإلى الإنس ، وأمر الجميع بطاعة الرسل كما قال تعالى : (يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) وهذا بعد قوله : (ويوم نحشرهم جميعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ماشاء الله) قال غير واحد من السلف أى كثير من أغويتم من الانس وأضللتموهم . قال البغوى : قال بعضهم استمتاع الإنس بالجن ما كانوا يلقون لهم من الأراجيف والسحر والكهانة وتزيينهم لهم الأمور التى

يهيئونها ويسهل سبيلها عليهم ، واستمتاع الجن بالإنس طاعة الإنس لهم فيما يزينون لهم من الضلالة والمعاصى ، قال محمد بن كعب: هو طاعة بعضهم لبعض وموافقة بعضهم بعضاً، وذكر بن أبي حاتم عن الحسن البصرى قال: ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس . وعن محمد بن كعب قال : هو الصحابة فى الدنيا ، وقال ابن السائب : استمتاع الإنس بالجن استعاذتهم بهم ، واستمتاع الجن بالإنس ان قالوا قد أسرنا الإنس مع الجن حتى عاذوا بنا ، فيزدادون شرفاً فى أنفسهم وعظماً فى نفوسهم وهذا كقوله : (وإنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) قلت الاستمتاع بالشيء هو أن يتمتع به، ينال به مايطلبه ويريده ويهواه ، ويدخل فى ذلك استمتاع الرجال بالنساء بعضهم لبعض كما قال : (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة) ومن ذلك الفواحش كاستمتاع الذكور بالذكور والاناث بالاناث .

ويدخل فى هذا الاستمتاع بالاستخدام وأئمة الرياسة ، كما يتمتع الملوك والسادة بجنودهم ومماليكهم ، ويدخل فى ذلك الاستمتاع بالأموال كاللباس ومنه قوله : (ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره) وكان من السلف من يمتع المرأة بخادم فهى تستمتع بخدمته ومنهم من يمتع بكسوة أو نفقة ، ولهذا قال الفقهاء أعلى المتعة خادم وأدناها كسوة يجزى فيها الصلاة .

وفى الجملة استمتاع الإنس بالجن والجن بالإنس، يشبه استمتاع الإنس بالإنس قال تعالى : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) وقال

تعالى : (وتقطعت بهم الأسباب) قال مجاهد هي المودات التي كانت لغير الله ، وقال الخليل: (إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً) قال تعالى : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) فالمشرك يعبد مايهواه ، واتباع الهوى هو استمتاع من صاحبه بما يهواه ، وقد وقع فى الإنس والجن هذا كله .

وتارة يخدم هؤلاء لهؤلاء فى أغراضهم ، هؤلاء لهؤلاء فى أغراضهم ، فالجن تأتيه بما يريد من صورة أو مال أو قتل عدوه ، والانس تطيع الجن فتارة يسجد له وتارة يسجد لما يأمره بالسجود له ، وتارة يمكنه من نفسه فيفعل به الفاحشة ، وكذلك الجنيات منهن من يريد من الانس الذي يخدمه مايريد نساء الانس من الرجال ، وهذا كثير فى رجال الجن ونسائهم ، فكثير من رجالهم ينال من نساء الإنس ما يناله الانسى وقد يفعل ذلك بالذكران .

﴿ وصرع الجن للإنس هو لأسباب ثلاثة ﴾ تارة يكون الجنى يحب المصروع فيصرعه ليتمتع به ، وهذا الصرع يكون أرفق من غيره وأسهل ، وتارة يكون الانسى آذاهم إذا بال عليهم، أوصب عليهم ماء حاراً، أويكون قتل بعضهم ، أو غير ذلك من أنواع الأذى ، هذا أشد الصرع ، وكثيراً ما يقتلون المصروع ، وتارة يكون بطريق العبث به كما يعبث سفهاء الانس بأبناء السبيل .

ومن استمتاع الإنس بالجن استخدامهم فى الأخبار بالأمور الغائبة كما يخبر الكهان، فان فى الإنس من له غرض فى هذا لما يحصل به من الرياسة

والمال وغير ذلك ، فإن كان القوم كفاراً كما كانت العرب ، لم تبال بأن يقال أنه كاهن كما كان العرب كهانا ، وقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وفيها كهان ، وكان المنافقون يطلبون التحاكم إلى الكهان ، وكان أبو أبرق الأسلمي أحد الكهان قبل أن يسلم ، وإن كان القوم مسلمين لم يظهر أنه كاهن ، بل يجعل ذلك من باب الكرامات ، وهو من جنس الكهان فانه لايخدم الإنسي بهذه الأخبار إلا لما يستمتع به من الإنسي بأن يطيعه الإنسي في بعض مايريده ، إما في شرك ، وإما في فاحشة ، وإما في أكل حرام ، وإما في قتل نفس بغير حق ، فالشياطين لهم غرض فيما نهى الله عنه من الكفر والفسوق والعصيان ، ولهم لذة في الشر والفتن يحبون ذلك ، وإن لم يكن فيه منفعة لهم ، وهم يقولون بأمر السارق أن يسرق ويذهب إلى أهل المال ، فيقولون فلان سرق متاعكم ، ولهذا يقال القوة الملكية والبهيمية والسبعية والشيطانية ، فإن الملكية فيها العلم النافع والعمل الصالح ، والبهيمية فيها الشهوات كالأكل والشرب ، والسبعية فيها الغضب وهو دفع المؤذى ، وأما الشيطانية فشر محض ليس فيها جلب منفعة ولا دفع مضرة .

والفلاسفة ونحوهم ممن لايعرف الجن والشياطين لايعرفون هذه ، وإنما يعرفون الشهوة والغضب ، والشهوة والغضب خلقا لمصلحة ومنفعة ، لكن المذموم هو العدوان فيهما ، وأما الشيطان فيأمر بالشر الذى لاينفعه فيه ويحب ذلك ، كما فعل إبليس بآدم لما وسوس له ، وكما امتنع من السجود له ، فالحسد يأمر به الشيطان ، والحاسد لا ينتفع بزوال

النعمة عن المحسود لكن يبغض ذلك وقد يكون بغضه لفوات غرضه وقد لا يكون .

ومن استمتاع الانس بالجن : استخدامهم فى إحضار بعض ما يطلبونه من مال وطعام وثياب ونفقة ، فقد يأتون ببعض ذلك وقد يدلونه على كنز وغيره، واستمتاع الجن بالإنس استعمالهم فيما يريده الشيطان من كفر وفسوق ومعصية .

ومن استمتاع الإنس بالجن : استخدامهم فيما يطلبه الانس من شرك وقتل وفواحش ، فتارة يتمثل الجنى فى صورة الانسى ، فإذا استغاث به بعض أتباعه أتاه فظن أنه الشيخ نفسه ، وتارة يكون التابع قد نادى شيخه وهتف به : ياسيدى فلان فينقل الجنى ذلك الكلام إلى الشيخ بمثل صوت الانسى حتى يظن الشيخ أنه صوت الانسى بعينه ثم إن الشيخ يقول: نعم . ويشير إشارة يدفع بها ذلك المكروه ، فيأتى الجنى بمثل ذلك الصوت والفعل يظن ذلك الشخص أنه شيخه نفسه وهو الذى أجابه وهو الذى فعل ذلك ، حتى أن تابع الشيخ قد يكون يده فى إناء يأكل فيضع الجنى يده فى صورة يد الشيخ ويأخذ من الطعام فيظن ذلك التابع أنه شيخه حاضر معه ، والجنى يمثل للشيخ نفسه مثل ذلك الاناء فيضع يده فيه حتى يظن الشيخ أن يده فى ذلك الاناء ، فإذا حضر المريد ذكر له الشيخ أن يدى كانت فى الاناء فيصدقه ، ويكون بينهما مسافة شهر والشيخ موضعه ويده لم تطل، ولكن الجنى مثل للشيخ ومثل للمريد حتى ظن كل منهما أن أحدهما عند الآخر، وإنما كان عنده ما مثله الجنى وخيله ، وإذا سئل الشيخ المخدوم عن أمر غائب إما

سرقة وإما شخص مات وطلب منه أن يخبر بحاله، أو علة فى النساء أو غير ذلك فإن الجنى قد يمثل ذلك فيريه صورة المسروق ، فيقول الشيخ : ذهب لكم كذا وكذا ،ثم إن كان صاحب المال معظماً وأراد أن يدله على سرقته مثل له الشيخ الذى أخذه أو المكان الذى فيه المال ، فيذهبون إليه فيجدونه كما قال ، والأكثر منهم أنهم يظهرون صورة المال ، ولا يكون عليه لأن الذى سرق المال معه أيضاً حتى يخدمه ، والجن يخاف بعضهم من بعض ، كما أن الإنس يخاف بعضهم بعضاً ، فإذا دل الجنى عليه جاء إليه أولياء السارق فآذوه ، وأحياناً لا يدل لكون السارق وأعوانه يخدمونه ويرشونه، كما يصيب معرف اللصوص من الإنس تارة يعرف السارق ولا يعرف به إما لرغبة ينالها منه ،وإما لرهبة وخوف منه ، وإذا كان المال المسروق لكبير يخافه ويرجوه عرف سارقه ، فهذا وأمثاله من استمتاع بعضهم ببعض .

﴿ والجن مكلفون كتكليف الإنس ﴾ ومحمد صلى الله عليه وسلم مرسل إلى الثقلين الجن والإنس ، وكفار الجن يدخلون النار بنصوص وإجماع المسلمين ﴿ وأما مؤمنهم ﴾ ففيهم قولان ، وأكثر العماء على أنهم يثابون أيضاً ويدخلون الجنة ، وقد روى أنهم يكونون فى ربضها يراهم الإنس من حيث لا يرون الإنس ، عكس الحال فى الدنيا وهو حديث رواه الطبرانى فى معجمعه الصغير يحتاج النظر فى إسناده. وقد احتج ابن أبى ليلى وأبو يوسف على ذلك بقوله تعالى :(ولكل درجات مما عملوا) وقد ذكر الجن والانس الأبرار والفجار فى الأحقاف والأنعام . واحتج الأوزاعى وغيره بقوله تعالى : (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) وقد قال تعالى فى الأعراف : (أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس

أنهم كانوا خاسرين ولكل درجات مما عملوا) وقد تقدم قبل هذا ذكر أهل الجنة وقوله : (أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة) ثم قال : (ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون) قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : درجات أهل الجنة تذهب علواً ، ودرجات أهل النار تذهب سفلا ،وقد قال تعالى عن قول الجن: (منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا) وقالوا : (وإنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) ففيهم الكفار والفساق والعصاة ، وفيهم من فيه عبادة ودين بنوع من قلة العلم كما فى الإنس ، وكل نوع من الجن يميل إلى نظيره من الإنس ، فاليهود مع اليهود ، والنصارى مع النصارى ، والمسلمون مع المسلمين ، والفساق مع الفساق ، وأهل الجهل والبدع مع أهل الجهل والبدع .

واستخدام الإنس لهم مثل استخدام الانس للانس بشيء . منهم من يستخدمهم فى المحرمات من الفواحش والظلم والشرك والقول على الله بلا علم، وقد يظنون ذلك من كرامات الصالحين وإنما هو من أفعال الشياطين . ومنهم من يستخدمهم فى أمور مباحة ، إما إحضار ماله أو دلالة على مكان فيه مال ليس له مالك معصوم أو دفع من يؤذيه ونحو ذلك ، فهذا كاستعانة الإنس بعضهم ببعض فى ذلك . والنوع الثالث : أن يستعملهم فى طاعة الله ورسوله كما يستعمل الانس فى مثل ذلك ، فيأمرهم بما أمر الله به ورسوله وينهاهم عما نهاهم الله عنه ورسوله ، كما يأمر الانس وينهاهم ، وهذه حال نبينا صلى الله عليه وسلم ، وحال من اتبعه واقتدى به من أمته ، وهم أفضل

الخلق فإنهم يأمرون الإنس والجن بما أمرهم الله به ورسوله ، وينهون الانس والجن عما نهاهم الله عنه ورسوله إذ كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مبعوثا بذلك إلى الثقلين الإنس والجن ، وقد قال الله له : (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين) وقال : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) ﴿ وعمر رضى الله عنه لما نادى يا سارية الجبل . قال : إن لله جنودا يبلغون صوتى ﴾ وجنود الله هم من الملائكة ومن صالحى الجن ، فجنود الله بلغوا صوت عمر إلى سارية وهو أنهم نادوه بمثل صوت عمر والانفس صوت عمر لا يصل نفسه فى هذه المسافة البعيدة ، وهذا كالرجل يدعو آخر وهو بعيد عنه فيقول: يافلان فيعان على ذلك . فيقول الواسطة بينهما: يا فلان وقد يقول لمن هو بعيد عنه : يا فلان احبس الماء تعال الينا وهو لا يسمع صوته ، فيناديه الواسطة بمثل ذلك: يافلان احبس الماء ارسل الماء اما بمثل صوت الاول ان كان لا يقبل إلا صوته وإلا فلا يضر بأى صوت كان إذا عرف أن صاحبه قد ناداه ، وهذا حكاية كان عمر مرة قد أرسل جيشا فجاء شخص وأخبر أهل المدينة بانتصار الجيش وشاع الخبر . فقال عمر : من أين لكم هذا . قالوا : شخص صفته كيت وكيت فأخبرنا . فقال عمر : ذاك أبو الهيثم . بريد الجن وسيجىء بريد الانسان بعد ذلك بأيام .

وقد يأمر الملك بعض الناس بأمر ويستكتمه إياه فيخرج فيرى الناس يتحدثون به ، فان الجن تسمعه وتخبر به الناس والذى يستخدمون الجن فى المباحات يشبه استخدام سليمان ، لكن أعطى ملكا لا ينبغى لأحد بعده وسخرت له الانس والجن ، وهذا لم يحصل لغيره والنبى صلى الله عليه وسلم

لما تفلت عليه العفريت ليقطع عليه صلاته قال : « فأخذته فذعته حتى سال لعابه على يدى وأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد ثم ذكرت دعوة أخى سليمان فأرسلته » ﴿ فلم يستخدم ﴾ الجن أصلا لكن دعاهم إلى الإيمان بالله ، وقرأ عليهم القرآن وبلغهم الرسالة وبايعهم كما فعل بالانس. والذى أوتيه صلى الله عليه وسلم أعظم مما أوتيه سليمان ، فانه استعمل الجن والانس فى عبادة الله وحده وسعادتهم فى الدنيا والآخرة، لا لغرض يرجع اليه إلا ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته ، واختار أن يكون عبداً رسولا على أن يكون نبيا ملكا ، فداود وسليمان ويوسف أنبياء ملوك ، وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد رسل عبيد ، فهو أفضل كفضل السابقين المقربين على الأبرار أصحاب اليمين ، وكثير ممن يرى هذه العجائب الخارقة يعتقد أنها من كرامات الأولياء وكثير من أهل الكلام والعلم لم يعرفوا الفرق بين الأنبياء والصالحين فى الآيات الخارقة وما لأولياء الشيطان من ذلك من السحرة والكهان والكفار من المشركين وأهل الكتاب وأهل البدع والضلال من الداخلين فى الاسلام ، جعلوا الخوارق جنساً واحداً وقالوا كلها يمكن أن تكون معجزة إذا اقترنت بدعوى النبوة والاستدلال بها والتحدى بمثلها .

وإذا ادعى النبوة من ليس بنبي من الكفار والسحرة، فلا بد أن يسلبه الله ما كان معه من ذلك وأن يقيض له من يعارضه ، ولو عارض واحد من هؤلاء النبي لأعجزه الله ، فخاصة المعجزات عندهم مجرد كون المرسل إليهم لا يأتون بمثل ما أتى به النبي كان معتاداً للناس . قالوا : إن عجز الناس عن المعارضة خرق عادة فهذه هى المعجزات عندهم ، وهم ضاهوا سلفهم من المعتزلة الذين قالوا المعجزات هى خرق العادة لكن أنكروا كرامات

الصالحين ، وأنكروا أن يكون السحر والكهانة إلا من جنس الشعبذة والحيل ، لم يعلموا أن الشياطين تعين على ذلك ، وأولئك أثبتوا الكرامات ثم زعموا أن المسلمين أجمعوا على أن هذه لاتكون إلا لرجل صالح أو نبي . قالوا : فاذا ظهرت على يد رجل كان صالحاً بهذا الإجماع وهؤلاء أنفسهم قد ذكروا أنها تكون للسحرة ما هو مثلها وناقضوا فى ذلك كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

فصار كثير من الناس لايعلمون ما للسحرة والكهان ، ومايفعله الشياطين من العجائب وظنوا أنها لا تكون إلا لرجل صالح ، فصار من ظهرت هذه له يظن أنها كرامة فيقوى قلبه بأن طريقته هى طريقة الأولياء ، وكذلك غيرهم يظن فيه ذلك ثم يقولون : الولى إذا تولى لا يعترض عليه ، فمنهم من يراه مخالفاً لما علم بالاضطرار من دين الرسول مثل ترك الصلاة المفروضة وأكل الخبائث كالخمر والحشيشة والميتة وغير ذلك ، وفعل الفواحش والفحش والتفحش فى المنطق وظلم الناس وقتل النفس بغير حق والشرك بالله وهو مع ذلك يظن فيه أنه ولى من أولياء الله قد وهبه هذه الكرامات بلا عمل فضلا من الله تعالى ، ولا يعلمون أن هذه من أعمال الشياطين ، وأن هذه من أولياء الشياطين يضل به الناس ويغويهم .

﴿ ودخلت ﴾ الشياطين فى أنواع من ذلك ، فتارة يأتون الشخص فى النوم يقول أحدهم : أنا أبو بكر الصديق وأنا أتوبك لى ، وأصير شيخك وأنت تتوب الناس لى ويلبسه ، فيصبح وعلى رأسه ما ألبسه فلا يشك أن الصديق هو الذى جاءه ولا يعلم أنه الشيطان ، وقد جرى مثل هذا لعدة

من المشايخ بالعراق والجزيرة والشام ، وتارة يقص شعره فى النوم فيصبح فيجد شعره مقصوصاً ، وتارة يقول أنا الشيخ فلان فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه وقص شعره .

وكثيراً ما يستغيث الرجل بشيخه الحى أو الميت ، فيأتونه فى صورة ذلك الشيخ وقد يخلصونه مما يكره ، فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه أو أن ملكا تصور بصورته وجاءه ، ولا يعلم أن ذلك الذى تمثل إنما هو الشيطان لما أشرك بالله أضلته الشياطين والملائكة لا تجيب مشركا، وتارة يأتون إلى من هو خال فى البرية ، وقد يكون ملكا أو أميراً كبيراً ويكون كافراً ، وقد انقطع عن أصحابه وعطش وخاف الموت فيأتيه فى صورة إنسى ويسقيه ويدعوه إلى الاسلام ويتوبه فيسلم على يديه ويطعمه ويدله على الطريق ويقول من أنت ؟ فيقول: أنا فلان ويكون فى موضع .

﴿ كما جرى مثل هذا لى ﴾ كنت فى مصر فى قلعتها وجرى مثل هذا إلى كثير من الترك من ناحية المشرق ، وقال له ذلك الشخص أنا ابن تيمية فلم يشك ذلك الأمير أنى أنا هو وأخبر بذلك ملك ماردين ، وأرسل بذلك ملك ماردين إلى ملك مصر رسولا وكنت فى الحبس فاستعظموا ذلك وأنا لم أخرج من الحبس ، ولكن كان هذا جنياً يحبنا فيصنع بالترك التتر مثل ما كنت أصنع بهم لما جاءوا إلى دمشق ، كنت أدعوهم إلى الاسلام ، فاذا نطق أحدهم بالشهادتين أطعمتهم ما تيسر فعمل معهم مثل ما كنت أعمل ، وأراد بذلك إكرامى ليظن ذاك أنى أنا الذى فعلت ذلك .

﴿قال لى طائفة من الناس فلم لا يجوز أن يكون ملكا قلت لا﴾ إن الملك لا يكذب ، وهذا قد قال أنا ابن تيمية وهو يعلم أنه كاذب فى ذلك.

﴿ وكثير من الناس ﴾ رأى من قال إنى أنا الخضر ، وإنما كان جنياً ثم صار من الناس من يكذب بهذه الحكايات انكاراً لموت الخضر ، والذين قد عرفوا صدقها يقطعون بحياة الخضر ، وكلا الطائفتين مخطىء ، فان الذين رأوا من قال إنى أنا الخضر هم كثيرون صادقون ، والحكايات متواترات لكن أخطئوا فى ظنهم أنه الخضر ، وإنما كان جنياً ولهذا يجرى مثل هذا لليهود والنصارى ، فكثيراً ما يأتيهم فى كنائسهم من يقول أنه الخضر ، وكذلك اليهود يأتيهم فى كنائسهم من يقول أنه الخضر ، وفى ذلك من الحكايات الصادقة ما يضيق عنه هذا الموضع يبين صدق من رأى شخصا وظن أنه الخضر وأنه غلط فى ظنه أنه الخضر ، وإنما كان جنيا وقد يقول أنا المسيح أو موسى أو محمد أو أبو بكر أو عمر أو الشيخ فلان ، فكل هذا قد وقع والنبى صلى الله عليه وسلم قال : « من رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً فان الشيطان لا يتمثل فى صورتى » قال ابن عباس فى صورته التى كان عليها فى حياته وهذه رؤية فى المنام ، وأما فى اليقظة فمن ظن أن أحداً من الموتى يجىء بنفسه للناس عيانا قبل يوم القيامة فمن جهله أتى.

﴿ ومن هنا ﴾ ضلت النصارى حيث اعتقدوا أن المسيح بعد أن صلب كما يظنون أنه أتى إلى الحواريين وكلمهم ووصاهم وهذا مذكور فى أناجيلهم وكلها تشهد بذلك ، وذاك الذى جاء كان شيطانا قال أنا المسيح ولم يكن هو المسيح نفسه ، ويجوز أن يشتبه مثل هذا على الحواريين كما اشتبه على كثير من شيوخ المسلمين ، ولكن ما أخبرهم المسيح قبل أن يرفع بتبليغه

فهو الحق الذى يجب عليهم تبليغه ، ولم يرفع حتى بلغ رسالات ربه فلا حاجة إلى مجيئه بعد أن رفع إلى السماء .

﴿وأصحاب الحلاج﴾ لما قتل كان يأتيهم من يقول أنا الحلاج، فيرونه فى صورته عيانا ، وكذلك شيخ بمصر يقال له الدسوقى بعد أن مات كان يأتى أصحابه من جهته رسائل وكتب مكتوبة وأرانى صادق من أصحابه الكتاب الذى أرسله فرأيته بخط الجن ، وقد رأيت خط الجن غير مرة ، وفيه كلام من كلام الجن ، وذاك المعتقد يعتقد أن الشيخ حى وكان يقول انتقل ثم مات وكذلك شيخ آخر كان بالمشرق وكان له خوارق من الجن ، وقيل كان بعد هذا يأتى خواص أصحابه فى صورته فيعتقدون أنه هو ، وهكذا الذين كانوا يعتقدون بقاء على أو بقاء محمد بن الحنفية قد كان يأتى إلى بعض أصحابهم جنى فى صورته وكذا منتظر الرافضة قد يراه أحدهم أحيانا ويكون المرئى جنياً ، فهذا باب واسع واقع كثيراً ، وكلما كان القوم أجهل كان عندهم أكثر ففى المشركين أكثر مما فى النصارى وهو فى النصارى كما هو فى الداخلين فى الاسلام ، وهذه الأمور يسلم بسببها ناس ويتوب بسببها ناس يكونون أضل من أصحابها فينتقلون بسببها إلى ما هو خير مما كان عليه كالشيخ الذى فيه كذب وفجور من الانس قد يأتيه قوم كفار فيدعوهم إلى الاسلام فيسلمون ويصيرون خيراً مما كانوا ، وإن كان قصد ذلك الرجل فاسداً وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لاخلاق لهم » وهذا كان كالحجج والأدلة التى يذكرها كثير من أهل الكلام والرأى ، فانه ينقطع بها كثير من أهل الباطن ، ويقوى بها قلوب كثير من أهل الحق ، وان كانت فى نفسها باطلة فغيرها أبطل منها والخير والشر درجات فينتفع بها أقوام ينتقلون مما كانوا عليه إلى ما هو خير

منه ، وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين من الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار ، فأسلم على يديه خلق كثير وانتفعوا بذلك وصاروا مسلمين مبتدعين وهو خير من أن يكونوا كفاراً ، وكذلك بعض الملوك قد يغزو غزواً يظلم فيه المسلمين والكفار ويكون آثماً بذلك ، ومع هذا فيحصل به نفع خلق كثير كانوا كفاراً فصاروا مسلمين ، وذاك كان شراً بالنسبة إلى القائم بالواجب . وأما بالنسبة إلى الكفار فهو خير . وكذلك كثير من الأحاديث الضعيفة فى الترغيب والترهيب والفضائل والأحكام والقصص قد يسمعها أقوام فينتقلون بها إلى خير مما كانوا عليه ، وإن كانت كذبا ، وهذا كالرجل يسلم رغبة فى الدنيا ورهبة من السيف ، ثم إذا أسلم وطال مكثه بين المسلمين دخل الإيمان فى قلبه ، فنفس ذل الكفر الذى كان عليه وانتهاره ودخوله فى حكم المسلمين خير من أن يبقى كافراً ، فانتقل إلى خير مما كان عليه وخف الشر الذى كان فيه ، ثم إذا أراد الله هدايته أدخل الايمان فى قلبه ، والله تعالى بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها والنبى صلى الله عليه وسلم دعا الخلق بغاية الامكان ، ونقل كل شخص إلى خير مما كان عليه بحسب الامكان : (ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون) وأكثر المتكلمين يردون باطلا بباطل، وبدعة ببدعة ، لكن قد يردون باطل الكفار من المشركين وأهل الكتاب بباطل المسلمين ، فيصير الكافر مسلما مبتدعاً ، وأخص من هؤلاء من يرد البدع الظاهرة كبدعة الرافضة ببدعة أخف منها وهى بدعة أهل السنة ، وقد ذكرنا فيما تقدم أصناف البدع .

ولا ريب أن المعتزلة خير من الرافضة ومن الخوارج ، فان المعتزلة تقر

بخلافة الخلفاء الأربعة ،وكلهم يتولون أبا بكر وعمر وعثمان، وكذلك المعروف عنهم أنهم يتولون علياً ، ومنهم من يفضله على أبى بكر وعمر ، ولكن حكى عن بعض متقدميهم أنه قال :فسق يوم الجمل احدى الطائفتين ولا أعلم عينها. وقالوا أنه قال :لو شهد على والزبير لم أقبل شهادتهما لفسق أحدهما لا بعينه ولو شهد على مع آخر ففى قبول شهادته قولان . وهذا القول شاذ فيهم والذى عليه عامتهم تعظيم على .

ومن المشهور عندهم ذم معاوية وأبى موسى وعمرو بن العاص لأجل على ومنهم من يكفر هؤلاء ويفسقهم بخلاف طلحة والزبير وعائشة فانهم يقولون أن هؤلاء تابوا من قتاله ، وكلهم يتولى عثمان ويعظمون أبا بكر وعمر ويعظمون الذنوب ، فهم يتحرون الصدق كالخوارج لا يختلقون الكذب كالرافضة ، ولا يرون أيضا اتخاذ دار غير دار الاسلام كالخوارج ، ولهم كتب فى تفسير القرآن ونصر الرسول ، ولهم محاسن كثيرة يترجحون على الخوارج والروافض وهم قصدهم إثبات توحيد الله ورحمته وحكمته وصدقه وطاعته ، وأصولهم الخمس عن هذه الصفات الخمس لكنهم غلطوا فى بعض ماقالوه فى كل واحد من أصولهم الخمس فجعلوا من التوحيد نفى الصفات وإنكار الرؤية والقول بأن القرآن مخلوق، فوافقوا فى ذلك الجهمية وجعلوا من العدل أنه لا يشاء مايكون ويكون مالا يشاء، وأنه لم يخلق أفعال العباد ، فنفوا قدرته ومشيئته وخلقه لاثبات العدل ،وجعلوا من الرحمة نفى أمور خلقها لم يعرفوا ما فيها من الحكمة ، وكذلك هم الخوارج قالوا بانفاذ الوعيد ليثبتوا أن الرب صادق لا يكذب إذ كان عندهم قد أخبر بالوعيد العام فمتى لم يقل بذلك لزم كذبه وغلطوا فى فهم الوعيد ، وكذلك الأمر بالمعروف والنهى

عن المنكر بالسيف قصدوا به طاعة الله ورسوله كما يقصده الخوارج والزيدية فغلطوا فى ذلك ، وكذلك إنكارهم للخوارق غير المعجزات ، قصدوا به إثبات النبوة ونصرها ، وغلطوا فيما سلكوه فان النصر لا يكون بتكذيب الحق ، وذلك لكونهم لم يحققوا خاصة آيات الأنبياء والأشعرية ماردوه من بدع المعتزلة والرافضة والجهمية وغيرهم ، وبينوا ما بينوه من تناقضهم وعظموا الحديث والسنة ومذهب الجماعة فحصل بماقالوه من بيان تناقض أصحاب البدع الكبار وردهم ما انتفع به خلق كثير .

فان الأشعرى كان من المعتزلة وبقى على مذهبهم أربعين سنة يقرأ على أبى على الجبائى ، فلما انتقل عن مذهبهم كان خبيرا بأصولهم وبالرد عليهم وبيان تناقضهم ، وأما ما بقى عليه من السنة فليس هو من خصائص المعتزلة بل هو من القدر المشترك بينهم وبين الجهمية، وأما خصائص المعتزلة فلم يوالهم الأشعرى فى شىء منها بل ناقضهم فى جميع أصولهم ، ومال فى مسائل العدل والأسماء والأحكام إلى مذهب جهم ونحوه، وكثير من الطوائف كالنجارية أتباع حسين النجار ، والضرارية أتباع ضرار بن عمر ، ويخالفون المعتزلة فى القدر والأسماء والأحكام وإنفاذ الوعيد ، والمعتزلة من أبعد الناس عن طريق أهل الكشف ، والخوارق والصوفية يذمونها ويعيبونها ، وكذلك يبالغون فى ذم النصارى أكثر مما يبالغون فى ذم اليهود وهم إلى اليهود أقرب ، كما أن الصوفية ونحوهم إلى النصارى أقرب ، فان النصارى عندهم عبادة وزهد وأخلاق بلا معرفة ولا بصيرة فهم ضالون ، واليهود عندهم علم ونظر بلا قصد صالح ولا عبادة ولا زهد ولا أخلاق كريمة فهم مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون .

قال أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم : ولا أعلم فى هذا الحرف اختلافا بين المفسرين ، وروى باسناد عن أبى روق عن ابن عباس وغير طريق الضالين وهم النصارى الذين أضلهم الله بفريتهم عليه يقول : فألهمنا دينك الحق وهو لا إله إلا الله وحده لا شريك له حتى لا تغضب علينا كما غضبت على اليهود ولا تضلنا كما أضللت النصارى فتعذبنا كما تعذبهم. يقول : امنعنا من ذلك برفقك ورحمتك ورأفتك وقدرتك . قال ابن أبى حاتم : ولا أعلم فى هذا الحرف اختلافا بين المفسرين ، وقد قال سفيان بن عيينة : كانوا يقولون من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى .

فأهل الكلام أصل أمرهم هو النظر فى العلم ودليله فيعظمون العلم وطريقه، وهو الدليل والسلوك فى طريقه وهو النظر .

وأهل الزهد يعظمون الارادة والمريد ، وطريق أهل الارادة فهؤلاء يبنون أمرهم على الارادة ،وأولئك يبنون أمرهم على النظر، وهذه هى القوة العلمية ولا بد لأهل الصراط المستقيم من هذا وهذا، ولا بد أن يكون هذا وهذا موافقاً لما جاء به الرسول .

فالإيمان قول وعمل وموافقة السنة ، وأولئك عظموا النظر وأعرضوا عن الارادة وعظموا جنس النظر ولم يلتزموا النظر الشرعى ، فغلطوا من جهة كون جانب الإرادة لم يعظموه ، وإن كانوا يوجبون الأعمال الظاهرة فهم لا يعرفون أعمال القلوب وحقائقها ، ومن جهة أن النظر لم يميزوا فيه

بين النظر الشرعى الحق الذى أمر به الشارع وأخبر به ، وبين النظر البدعى الباطل المنهى عنه .

وكذلك الصوفية ، عظموا جنس الارادة إرادة القلب ، وذموا الهوى وبالغوا فى الباب ، ولم يميز كثيرا منهم بين الإرادة الشرعية الموافقة لأمر الله ورسوله ، وبين الإرادة البدعية بل أقبلوا على طريق الارادة طريقة النظر.

وأعرض كثير منهم فدخل عليهم الداخل من هاتين الجهتين ، ولهذا صار هؤلاء يميل اليهم النصارى ويميلون اليهم ،وأولئك يميل اليهم اليهود ويميلون اليهم ، وبين اليهود والنصارى غاية التنافر والتباغض ، وكذلك بين أهل الكلام والرأى وبين أهل التصوف والزهد تنافر وتباغض . هذا وهذا من الخروج عن الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

نسأل الله العظيم أن يهدينا وسائر اخواننا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين .

﴿ فصل ﴾ فان قيل : فإذا كان فى كتب الأناجيل التى عندهم أن المسيح صلب وأنه بعد الصلب بأيام أتى إليهم وقال لهم : أنا المسيح ، ولا يقولون أن الشيطان تمثل على صورته ، فالشيطان ليس هو لحم وعظم . وهذه أثر المسامير ونحو هذا الكلام فأين الانجيل الذى قال الله عز وجل فيه : (وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه) وقال قبل هذا : (وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين

وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) وقدقال قبل هذا: (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء) وقال أيضاً: (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) وقال أيضاً: (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين) وهذا أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول لأهل الكتاب الذين بعث إليهم وهو من كان فى وقتهم ومن يأتى من بعدهم إلى يوم القيامة لم يؤمر أن يقول ذلك لمن قد تاب منهم، وكذلك قوله: (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله) اخبار عن اليهود الموجودين وأن عندهم التوراة فيها حكم الله وكذلك قوله: (وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه) هو أمر من الله على لسان محمد لأهل الانجيل ومن لا يؤمر على لسان محمد صلى الله عليه وسلم قيل قبل هذا أنه قد قيل ليس فى العالم نسخة بنفس ما أنزل الله فى التوراة والانجيل بل ذلك مبدل، فإن التوراة انقطع تواتره والانجيل إنما أخذت عن أربعة، ثم من هؤلاء من زعم أن كثيراً مما فى التوراة أو الانجيل باطل ليس من كلام الله، ومنهم من قال بل ذلك قليل وقيل: لم يحرف أحد شيئاً من حروف الكتب، وإنما حرفوا معانيها بالتأويل وهذان القولان قال كلا منهما كثير من المسلمين، والصحيح القول الثالث وهو أن فى الأرض نسخاً

صحيحة وبقيت إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ونسخاً كثيرة محرفة ، ومن قال أنه لايحرف شيء من النسخ فقد قال ما لايمكنه نفيه ، ومن قال جميع النسخ بعد النبي صلى الله عليه وسلم حرفت ، فقد قال مايعلم أنه خطأ ، والقرآن يأمرهم أن يحكموا بما أنزل الله فى التوراة والانجيل ، ويخبر أن فيهما حكمه وليس فى القرآن خبر أنهم غيروا جميع النسخ ، وإذا كان كذلك فنقول هوسبحانه قال : (وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه) وما أنزله الله هو ماتلقوه عن المسيح فأما حكايته لحاله بعد أن رفع فهو مثلها فى التوراة ذكر وفاة موسى عليه السلام ، ومعلوم أن هذا الذى فى التوراة والانجيل من الخبر عن موسى وعيسى بعد توفيهما ليس هو مما أنزله الله ومما تلقوه عن موسى وعيسى ، بل هو مما كتبوه مع ذلك للتعريف بحال توفيهما ، وهذا خبر محض من الموجودين بعدهما عن حالهما ليس هو مما أنزله الله عليهما ، ولا هو مما أمرا به فى حياتهما ولا مما أخبرا به الناس .

وكذلك: (لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم) وقوله : (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) فإن إقامة الكتاب : العمل بما أمر الله به فى الكتاب من التصديق بما أخبر به على لسان الرسول وما كتبه الذين نسخوه من بعد وفاة الرسول ومقدار عمره ونحو ذلك ، ليس هو مما أنزله الله على الرسول، ولامما أمر به ولاأخبر به وقديقع مثل هذا فى الكتب المصنفة ، يصنف الشخص كتاباً ، فيذكر ناسخه فى آخره عمر المصنف ونسبه وسنه ونحو ذلك مما ليس هو من كلام المصنف .

﴿ ولهذا ﴾ أمر الصحابة والعلماء بتجريد القرآن وأن لا يكتب فى المصحف غير القرآن ، فلا يكتب أسماء السور ولا التخميس والتعشير ، ولا آمين ولا غير ذلك ، والمصاحف القديمة والتى كتبها أهل العلم على هذه الصفة ،و فى المصاحف من قد كتب ناسخها :أسماء السور، والتخميس ، والتعشير، والوقف ، والابتداء ، وكتب فى آخر المصحف تصديقه ودعا وكتب اسمه ونحو ذلك ، وليس هذا من القرآن ، فهكذا مافى الانجيل من الخبر عن صلب المسيح وتوفيه ومجيئه بعد رفعه إلى الحواريين ليس هو مما قاله المسيح ،وإنما هو مما رآه من بعده والذى أنزله الله هو ما سمع من المسيح المبلغ عن الله .

فان قيل فاذا كان الحواريون قد اعتقدوا أن المسيح صلب وأنه أتاهم بعد أيام،وهم الذين نقلوا عن المسيح الانجيل والدين فقد دخلت الشبهة .

قيل الحواريون وكل من نقل عن الأنبياء إنما يجب أن يقبل منهم ما نقلوه عن الأنبياء فان الحجة فى كلام الأنبياء ، وماسوى ذلك فموقوف على الحجة إن كان حقاً قبل ، وإلا رد ولهذا كان ما نقله الصحابة عن النبى صلى الله عليه وسلم من القرآن والحديث يجب قبوله لاسيما المتواتر كالقرآن وكثير من السنن ، وأما ما قالوه فما أجمعوا عليه ، فاجماعهم معصوم وماتنازعوا فيه رد إلى الله والرسول، وعمر قد كان أولاأنكر موت النبى صلى الله عليه وسلم حتى رد ذلك عليه أبو بكر ، وقدتنازعوا فى دفنه حتى فضل أبو بكر بالحديث الذى رواه ، وتنازعوا فى تجهيز جيش أسامة ، وتنازعوا فى قتال مانعى الزكاة ، فلم يكن هذا قادحاً فيما نقلوه عن النبى

صلى الله عليه وسلم والنصارى ليسوا متفقين على صلب المسيح ولم يشهد أحد منهم صلبه ،فإن الذى صلب إنما صلبه اليهود ولم يكن أحد من أصحاب المسيح حاضراً وأولئك اليهود الذين صلبوه، قد اشتبه عليهم المصلوب بالمسيح، وقد قيل أنهم عرفوا أنه ليس هو المسيح ولكنهم كذبوا وشبهوا على الناس. والأول : هو المشهور وعليه جمهور الناس وحينئذ فليس عند النصارى خبر عمن يصدقونه بأنه صلب، لكن عمدتهم على ذلك الشخص الذى جاء بعد أيام وقال أنا المسيح وذاك شيطان، وهم يعترفون بأن الشياطين كثيراً ماتجىء ويدعى أنه نبي أو صالح ويقول:أنا فلان النبي أو الصالح ويكون شيطاناً، وفى ذلك حكايات متعددة مثل حكاية الراهب الذى جاءه ،جاء وقال:أنا المسيح جئت لأهديك .فعرف أنه الشيطان.فقال:أنت قد بلغت الرسالة،ونحن نعمل بها ، فان جئت اليوم بشيء يخالف ذلك لم نقبل منك .

فليس عند النصارى واليهود علم بأن المسيح صلب كما قال تعالى : (وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) وأضاف الخبر عن قتله إلى اليهود بقوله:(وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) فانهم بهذا الكلام يستحقون العقوبة إذ كانوا يعتقدون جواز قتل المسيح ،ومن جوز قتله فهو كمن قتله فهم فى هذا القول كاذبون وهم آثمون وإذا قالوه فخراً لم يحصل لهم الفخر لأنهم لم يقتلوه، وحصل الوزر لاستحلالهم ذلك وسعيهم فيه وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار . قالوا: يارسول الله فما بال المقتول . قال:إنه كان حريصا على قتل صاحبه » وقوله : (وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه) قيل هم اليهود ، وقيل النصارى والآية تعم الطائفتين . وقوله : (لفى شك

منه) قيل: من قتله. وقيل منه: أي فى شك منـه هل صلب أم لا كما اختلفوا فيه ، فقالت اليهود : هو ساحر. وقالت النصارى : إنه إله، فاليهود والنصارى اختلفوا هل صلب أم لا وهم فى شك من ذلك مالهم به من علم، فاذا كان هذا فى الصلب فكيف فى الذى جاء بعد الرفع وقال إنه هو المسيح .

فإن قيل كان الحواريون الذين أدركوه قد حصل هـذا فى إيمانهم فأين المؤمنون به الذين قال فيهم :

(وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا) وقوله : (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) .

قيل ظن من ظن منهم أنه صلب ، لا يقدح فى إيمانه إذا كان لم يحرف ما جاء به المسيح بل هو مقر بأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فاعتقاده بعد هذا أنه صلب ، لا يقدح فى إيمانه فإن هذا اعتقاد موته على وجه معين ، وغاية الصلب أن يكون قتلا له وقتـــل النبي لا يقدح فى نبوته ،وقد قتل بنو إسرائيل كثيراً من الأنبياء وقال تعالى:(وكأين من نبي قتل معه ربيون كثير الآية)وقال تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقـابكم) وكذلك اعتقاد من اعتقد منهم أنه جاء بعد الرفع وكلمهم، هو مثل اعتقاد كثير من مشايخ المسلمين: أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءهم فى اليقظة فإنهم لا يكفرون بذلك، بل هذا كان يعتقده من هو من أكثر الناس اتباعاً للسنة واتباعاً لها ، وكان فى الزهد والعبادة أعظم من غيره وكان يأتيه من يظن أنه رسول الله، فهذا غلط منه لا يوجب كفره. فكذلك ظن من ظن الحواريين أن ذلك هو المسيح لا يوجب

خروجهم عن الإيمان بالمسيح ولا يقدح فيما نقلوه عنه ، وعمر لما كان يعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمت ، ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى وأنه لا يموت حتى يموت أصحابه لم يكن هذا قادحاً فى إيمانه وإنما كان غلطاً ورجع عنه .

﴿ فصل ﴾ وقوله تعالى فى هذه : (ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) هو ذم لهم على اتباع الظن بلا علم . وكذلك قوله : (إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) وكذلك قوله : (ومالهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا) وقوله تعالى : (وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون) وقوله : (أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى إلا أن يهدى فمالكم كيف تحكمون وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون) .

فهذه عدة مواضع يذم الله فيها الذين لا يتبعون إلا الظن ، وكذلك قوله : (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون قل فلله الحجة البالغة) مطالبة بالعلم وذم لمن يتبع الظن وما عنده علم وكذلك قوله : (نبئونى بعلم إن كنتم صادقين) وقوله : (وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم) وأمثال ذلك ذم لمن عمل بغير علم وعمل بالظن .

وقد ثبت فى السنة المتواترة وإجماع الامة أن الحاكم يحكم بشاهدين

وإن لم يكن شهود حلف الخصم . وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون الحن بحجته من بعض وإنما أقضي بنحو مما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه فلا يأخذه فانما أقطع له قطعة من النار » .

والاجتهاد فى تحقيق المناط مما اتفق المسلمون عليه ولابد منه ، كحكم ذوى عدل بالمثل فى جزاء الصيد ، وكالاستدلال على الكعبة عند الاشتباه ونحو ذلك ، فلا يقطع به الإنسان بل يجوز أن تكون القبلة فى غير جهة اجتهاده ، كما يجوز إذا حكم أن يكون قد قضى لأحدهما بشيء من حق الآخر ، وأدلة الأحكام لابد فيها من هذا فان دلالة العموم فى الظواهر قد تكون محتملة للنقيض ، وكذلك خبر الواحد والقياس وإن كان قوم نازعوا فى القياس، فالفقهاء منهم لم ينازعوا فى خبر الواحد كالظاهرية ، ومن نازع فى هذا وهذا لم ينازع فى العموم كالمعتزلة البغداديين ، وإن نازع فى العموم والقياس منازع كبعض الرافضة مثل الموسوى ونحوه ، لم ينازع فى الأخبار فإن الإمامية عمدتهم على ما نقل عن الاثنى عشر فلابد لهم من الرواية ، ولا يوجد من يستغنى عن الظواهر والأخبار والأقيسة ، بل لابد أن يعمل ببعض ذلك مع تجويز نقيضه وهذا عمل بالظن ، والقرآن قد حرم اتباع الظن وقد تنوعت طرق الناس فى جواز هذا ، فطائفة قالت: لايتبع قط إلا العلم ولا يعمل بالظن أصلا. وقالوا : إن خبر الواحد يفيد العلم ، وكذلك يقولون فى الظواهر ، بل يقولون : نقطع بخطأ من خالفنا وننقض حكمه كما يقوله داود وأصحابه، وهؤلاء عمدتهم إنما هو ما يظنونه ظاهراً ، واما الاستصحاب والاستصحاب فى كثير من المواضع من أضعف الأدلة وهم

فى كثير مما يحتجون به قد لا يكون ما احتجوا به ظاهر اللفظ بل الظاهر خلافه ، فطائفة قالت لما قام الدليل على وجوب العمل بالظن الراجح كنا متبعين للعلم فنحن نعمل بالعلم عند وجود العلم لا نعمل بالظن ، وهذه طريقة القاضى أبو بكر وأتباعه .

وهنا السؤال المشهور فى حد الفقه انه العلم بالأحكام الشرعية العملية ، وقال الرازى: العلم بالأحكام الشرعية العملية المستدل على أعيانها بحيث لا يعلم كونها من الدين ضرورة قال :

﴿فان قلت﴾ الفقه من باب الظنون فكيف جعلته علما .

﴿قلت﴾ المجتهد إذا غلب على ظنه مشاركة صورة لصورة فى مناط الحكم قطع بوجوب العمل بما أدى اليه ظنه فالعلم حاصل قطعا والظن واقع فى طريقه ، وحقيقة هذا الجواب ان هنا مقدمتين احداهما: أنه قد حصل عندى ظن والثانية :قد قام الدليل القطعى على وجوب اتباع هذا الظن فالمقدمة الأولى : وجدانية . والثانية : عملية استدلالية، فليس الظن هنا مقدمة فى الدليل كما توهمه بعضهم لكن يقال العمل بهذا الظن هو حكم أصول الفقه ليس هو الفقه بل الفقه هو ذاك الظن الحاصل بالظاهر وخبر الواحد والقياس والأصول يفيد أن العمل بهذا الظن واجب وإلا فالفقهاء لا يتعرضون لهذا ، فهذا الحكم العملى الأصولى ليس هو الفقه،وهذا الجواب جواب القاضى أبى بكر ، وهو بناه على أصله فانه عنده: كل مجتهد مصيب. وليس فى نفس الأمر أمر مطلوب، ولا على الظن دليل يوجب ترجيح ظن على ظن ، بل الظنون عنده بحسب

وقال الغزالى وغيره ممن نصر قوله ، قد يكون بحسب ميل النفس إلى أحد القولين دون الآخر كمثل ذى الشدة إلى قول ، وذى اللين إلى قول ، وحينئذ فعندهم متى وجد المجتهد ظنا فى نفسه لحكم الله فى حقه اتباع هذا الظن ، وقد أنكر أبو المعالى وغيره عليه هذا القول إنكارا بليغا ، وهم معذورون فى إنكاره فان هذا أولا مكابرة ، فان الظانين عليها أمارات ودلائل يوجب وجودها ترجيح ظن على ظن وهذا أمر معلوم بالضرورة ، والشريعة جاءت به ورجحت شيئاً على شيء ، والكلام فى شيئين فى اتباع الظن وفى الفقه هل هو من الظانين .

أما الاول : فالجواب الصحيح هو الجواب الثالث ، وهو أن كل ما أمر الله تعالى به فانما أمر بالعلم ، وذلك أنه فى المسائل الخفية عليه أن ينظر فى الأدلة ويعمل بالراجح ، وكون هذا هو الراجح أمر معلوم عنده أمر مقطوع به وإن قدر أن ترجيح هذا على هذا فيه شك عنده لم يعمل به ، وإذا ظن الرجحان فانما ظنه لقيام دليل عنـــده على أن هذا راجح وفرق بين اعتقاد الرجحان ورجحان الاعتقاد ، وأما اعتقاد الرجحان فقد يكون علما وقد لا يعمل حتى يعلم الرجحان وإذا ظن الرجحان أيضا فلا بد أن يظنه بدليل يكون عنده أرجح من دليل الجانب الآخر ورجحان هذا غير معلوم فلان ينتهى الامر إلى رجحان معلوم عنده فيكون متبعا لما علم أنه أرجح ، وهذا اتباع للعلم لا للظن ، وهو اتباع الأحسن كما قال : (فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) وقال : (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وقال : (واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم) فاذا كان أحد الدليلين هو الأرجح فاتباعه هو الأحسن وهذا معلوم .

فالواجب على المجتهد أن يعمل بما يعلم أنه أرجح من غيره ، وهو العمل بأرجح الدليلين المتعارضين ، وحينئذ فما عمل إلا بالعلم وهذا جواب الحسن البصرى وأبي وغيرهم ، والقرآن ذم من لا يتبع الا الظن فلم يستند ظنه إلى علم ، فان هذا أرجح من غيره كما قال : (ما لهم به من علم ان يتبعون إلا الظن) وقال : (هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن) وهكذا فى سائر المواضع يذم الذين إن يتبعون إلا الظن ، فعندهم ظن مجرد لا علم معه ، وهم يتبعونه والذى جاءت به الشريعة وعليه عقلاء الناس أنهم لا يعلمون إلا بعلم بأن هذا أرجح من هذا ، فيعتقدون الرجحان اعتقادا عمليا لكن لا يلزم إذا كان أرجح أن لا يكون المرجوح هو الثابت فى نفس الأمر ، وهذا كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : « ولعل بعضكم أن يكون الحن بحجته من بعض وإنما أقضى بنحو مما أسمع » فاذا أتى أحد الخصمين بحجة مثل بينة تشهد له ولم يأت الآخر بشاهد معها كان الحاكم عالما بأن حجة هذا أرجح ، فما حكم إلا بعلم لكن الآخر قد يكون له حجة لا يعلمها أو لا يحسن أن يبينها مثل أن يكون قد قضاه أو أبرأه وله بينة تشهد بذلك ، وهو لا يعلمها أو لا يذكرها أو لا يجسر أن يتكلم بذلك فيكون هو المضيع بحقه حيث لم يبين حجته ، والحاكم لم يحكم إلا بعلم وعدل ، وضياع حق هذا كان من عجزه وتفريطه لا من الحاكم ، وهكذا أدلة الأحكام ، فاذا تعارض خبران أحدهما: مسند ثابت والآخر: مرسل كان المسند الثابت أقوى من المرسل ، وهذا معلوم لأن المحدث بهذا قد علم عدله وضبطه ، والآخر لم يعلم عدله ولا ضبطه كشاهدين زكى أحدهما ولم يزك الآخر فهذا المزكى أرجح ، وإن جاز أن يكون فى نفس الأمر قول الآخر هو الحق ، لكن المجتهد إنما عمل بعلم وهو عليه

برجحان هذا على هذا ليس ممن يتبع إلا الظن ، ولم يكن تبين له إلا بعد الاجتهاد التام فيمن أرسل ذلك الحديث ، وفى تزكية هذا الشاهد فان المرسل قد يكون روايه عدلا حافظا كما قد يكون هذا الشاهد عدلا ونحن ليس معنا علم بانتفاء عدالة الراوى ، لكن معنا عدم العلم بعدالتهما ، وقد لا يعلم عدالتهما مع تقويتها ورجحانها فى نفس الأمر ، فمن هنا يقع الخطأ فى الاجتهاد لكن هذا لاسبيل إلى أن يكلفه العالم أن يدع ما يعلمه إلى أمر لا يعلمه لإمكانه ثبوته فى نفس الأمر ، فاذا كان لا بد من ترجيح أحد القولين وجب ترجيح هذا الذى علم ثبوته على مالا يعلم ثبوته . وإن لم يعلم انتفاؤه من جهته ، فانهما إذا تعارضا وكانا متناقضين فاثبات أحدهما هو نفى الآخر فهذا الدليل المعلوم قد علم أنه يثبت هذا وينفى ذلك ، وذلك المجهول بالعكس فاذا كان لا بد من الترجيح وجب قطعاً ترجيح المعلوم ثبوته على مالم يعلم ثبوته ، ولكن قد يقال أنه لا يقطع بثبوته ، وقد قلنا فرق بين اعتقاد الرجحان ورجحان الاعتقاد ، أما اعتقاد الرجحان فهو علم والمجتهد ما عمل إلا بذلك العلم ، وهو اعتقاد رجحان هذا على هذا ، وأما رجحان هذا الاعتقاد على هذا الاعتقاد فهو الظن لكن لم يكن فمن قال الله فيه : (ان يتبعون إلا الظن) بل هنا ظن رجحان هذا وظن رجحان ذاك ، وهذا الظن هو الراجح ، ورجحانه معلوم فحكم بما علمه من الظن الراجح ودليله الراجح ، وهذا معلوم له لا مظنون عنده ، وهذا يوجد فى جميع العلوم والصناعات كالطب والتجارة وغير ذلك .

وأما الجواب عن قولهم الفقه من باب الظنون ، فقد أجاب طائفة منهم أبو الخطاب بجواب آخر ، وهو أن العلم المراد به العلم الظاهر وإن جوز أن يكون الأمر بخلافه كقوله : (فان علمتموهن مؤمنات) .

والتحقيق أن عنه جوابين : أحدهما : أن يقال جمهور مسائل الفقه التى يحتاج اليها الناس ويفتون بها هى ثابتة بالنص أو الاجماع ، وإنما يقع الظن والنزاع فى قليل مما يحتاج إليه الناس وهذا موجود فى سائر العلوم ، وكثير مسائل الخلاف هى فى أمور قليلة الوقوع ومقدرة ، وأما ما لا بد للناس منه من العلم مما يجب عليهم ويحرم ويباح فهو معلوم مقطوع به ، وما يعلم من الدين ضرورة جزء من الفقه ، واخراجه من الفقه قول لم يعلم أحد من المتقدمين قاله ، ولا احترز بهذا القيد أحد إلا الرازى ونحوه ، وجميع الفقهاء يذكرون فى كتب الفقه وجوب الصلاة والزكاة والحج واستقبال القبلة ، ووجوب الوضوء والغسل من الجنابة ،وتحريم الخمر والفواحش وغير ذلك مما يعلم من الدين ضرورة .

وأيضا فكون الشىء معلوما من الدين ضرورة أمر إضافى ، فحديث العهد بالاسلام ومن نشأ ببادية بعيدة قد لا يعلم هذا بالكلية ، فضلا عن كونه يعلمه بالضرورة ، وكثير من العلماء يعلم بالضرورة أن النبى صلى الله عليه وسلم سجد للسهو وقضى بالدية على العاقلة ،وقضى أن الولد للفراش وغير ذلك مما يعلمه الخاصة بالضرورة ، وأكثر الناس لا يعلمه البتة . الجواب الثانى : أن يقال الفقه لا يكون فقها إلا من المجتهد المستدل وهو قد علم أن هذا الدليل أرجح وهذا الظن أرجح فالفقه هو علمه برجحان هذا الدليل ، وهذا الظن ليس الفقه قطعه بوجوب العمل أى بما أدى اليه اجتهاده ، بل هذا القطع من أصول الفقه ، والأصولى يتكلم فى جنس الأدلة ويتكلم كلاما كليا. فيقول: يجب إذا تعارض دليلان أن يحكم بأرجحهما ، ويقول أيضا إذا تعارض العام والخاص فالخاص أرجح ، وإذا تعارض المسند والمرسل فالمسند أرجح ،

ويقول أيضا العام المجرد عن قرائن التخصيص شموله الافراد أرجح من عدم شموله ويجب العمل بذلك .

فأما الفقيه : فيتكلم فى دليل معين فى حكم معين مثل أن يقول قوله : (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) خاص فى أهل الكتاب ومتأخر عن قوله : (ولا تنكحوا المشركات) وتلك الآية لا تتناول أهل الكتاب وإن تناولتهم فهذا خاص متأخر. فيكون ناسخاً ومخصصا، فهو يعلم أن دلالة هذا النص على الحل أرجح من دلالة ذلك النص على التحريم وهذا الرجحان معلوم عنده قطعاً، وهذا الفقه الذى يختص به الفقيه وهو علم قطعى لاظنى ، ومن لم يعلم كان مقلدا للأئمة الأربعة والجمهور الذين جوزوا نكاح الكتابيات واعتقاد المقلد ليس بفقه ، ولهذا قال المستدل على أعيانها والفقيه قد استدل على عين الحكم المطلوب والمسئول عنه ، وحيث لا يعلم الرجحان فهو متوقف لا قول له ، وإذا قيل له فقد قال : (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) قال هذا نزل عام الحديبية والمراد به المشركات فان سبب النزول يدل على أنهن مرادات قطعاً، وسورة المائدة بعد ذلك فهى خاص متأخر وذاك عام مقدم، والخاص المتأخر أرجح من العام المتقدم ، ولهذا لما نزل قوله : (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) فارق عمر امرأة مشركة وكذلك غيره ، فدل على أنهم كانوا ينكحون المشركات إلى حين نزول هذه الآية ، ولو كانت آية البقرة قد نزلت قبل هذه لم يكن كذلك، فدل على أن آية البقرة بعد آية الممتحنة وآية المائدة بعد آية البقرة . فهذا النظر وأمثاله هو نظر الفقيه العالم برجحان دليل وظن على دليل وهذا علم لا ظن .

فقد تبين أن الظن له أدلة تقتضيه ، وان العالم إنما يعلم بما يوجب العلم بالرجحان لا بنفس الظن إلا إذا علم رجحانه ، وأما الظن الذى لا يعلم رجحانه فلا يجوز اتباعه ، وذلك هو الذى ذم الله به من قال فيه : (إن يتبعون إلا الظن) فهم لا يتبعون إلا الظن ليس عندهم علم ، ولو كانوا عالمين بأنه ظن راجح لكانوا قد اتبعوا علما لم يكونوا ممن يتبع إلا الظن والله أعلم .

﴿ فصل ﴾ فههنا ثلاثة أشياء أحدها الظن الراجح فى نفس المستدل المجتهد.

والثانى : الأدلة التى يسميها بعض المتكلمين أمارات التى تعارضت ، وعلم المستدل بأن التى أوجبت ذلك الظن أقوى من غيرها .

الثالث : أنه قد يكون فى نفس الأمر دليل آخر على القول الآخر لم يعلم به المستدل ، وهذا هو الواقع فى عامة موارد الاجتهاد ، فان الرجل قد يسمع نصا عاما كما سمع ابن عمر وغيره أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن قطع الخفين ، وأنه أمر أن لا يخرج أحد حتى يودع البيت ، أو أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن لبس الحرير ، وظاهره العموم وهذا راجح على الاستصحاب النافى للتحريم ، فعملوا بهذا الراجح وهم يعلمون قطعاً أن النهى أولى من الاستصحاب ، لكن يجوز أن يكون مع الاستصحاب دليل خاص ولكن لما لم يعلموه لم يجز لهم أن يعدلوا عما علموه الى مالم يعلموه ، فكانوا يفتون بأن الحائض عليها الوداع وعليها قطع الخفين ، وان قليل الحرير وكثيره حرام ، وابن الزبير كان يحرمه على الرجال والنساء لعموم قوله : « من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة » وكان فى نفس الأمر نصوص خاصة

بأن النبي صلى الله عليه وسلم رخص للحائض أن تنفر بلا وداع ،وأنها تلبس الخفين وغيرهما مما نهى عنه المحرم ، ولكن تجتنب النقاب والقفازين ، وأنه رخص فى موضع أصبعين أو ثلاث أو أربعة من الحرير ، كما بين ذلك فى الصحيح فى رواية عمر ولم يعرف به ابنه عبد الله وكان له جبة مكفوفة بالحرير فلما سمع ابن عمر ونحوه هذه النصوص الخاصة رجعوا وعلموا حينئذ أنه كان فى نفس الأمر دليل أقوى من الدليل الذى يستصحبوه ولم يعلموا به وهم فى الحالين إنما حكموا بعلم لم يكونوا ممن لم يتبع إلا الظن ،فانهم أولا رجحوا العموم على استصحاب البراءة الأصلية ، وهذا ترجيح بعلم ، فان هذا راجح بلا ريب والشرع طافح بهذا .

فما أوجبه الله أو حرمه كتابه كالوضوء والصلاة والحج وغيرهما ،هى نصوص عامة ، وما حرمه كالميتة والدم ولحم الخنزير حرمه بنصوص عامة وهى راجحة ومقدمة على البراءة الأصلية النافية للوجوب والتحريم ، فمن رجح ذلك فقد حكم بعلم وحكم بأرجح الدليلين المعلوم الرجحان ، ولم يكن ممن لم يتبع إلا الظن، لكن لتجويزه أن يكون النص مخصوصا صار عنده ظن راجح ، ولو علم أنه لا تخصيص هناك قطع بالعموم . وكذلك لو علم إرادة نوع قطع بانتفاء النصوص وهذا القول فى سائر الأدلة ، مثل أن يتمسك بنصوص وتكون منسوخة ولم يبلغه الناسخ، كالذين نهوا عن الانتباذ فى الأوعية وعن زيارة القبور ، ولم يبلغهم النص الناسخ ، وكذلك الذين صلوا الى بيت المقدس قبل أن يبلغهم النسخ ، مثل من كان من المسلمين بالبوادى وبمكة والحبشة وغير ذلك ، وهؤلاء غير الذين كانوا بالمدينة وصلى بعضهم صلاة الى القبلتين بعضها إلى هذه القبلة ، وبعضها إلى هذه القبلة لما بلغهم النسخ وهم

فى أثناء الصلاة فاستداروا فى صلاتهم من جهة بيت المقدس الى جهة الكعبة من جهة الشام إلى جهة اليمن .

فالقاضى أبو بكر ونحوه من الذين ينفون أن يكون فى الباطن حكم مطلوب بالاجتهاد أو دليل عليه، يقولون ما ثم إلا الظن الذى فى نفس المجتهد، والأمارات لا ضابط لها وليست أمارة أقوى من أمارة ، فانهم إذا قالوا ذلك لزمهم أن يكون الذى عمل بالمرجوح دون الراجح مخطئا ، وعندهم ليس فى نفس الأمر خطأ .

وأما السلف والأئمة الأربعة والجمهور فيقولون : بل الأمارات بعضها أقوى من بعض فى نفس الأمر (وعلى الانسان أن يجتهد) ويطلب الأقوى فاذا رأى دليلا أقوى من غيره ولم ير مايعارضه عمل به ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، وإذا كان فى الباطن ما هو أرجح منه كان مخطئا معذورا وله أجر على اجتهاده وعمله بما بين له رجحانه ، وخطؤه مغفور له وذلك الباطن هو الحكم لكن بشرط القدرة على معرفته ، فمن عجز عن معرفته لم يؤاخذ بتركه .

فاذا أريد بالخطأ الاثم ، فليس المجتهد بمخطىء بل كل مجتهد مصيب مطيع لله فاعل ما أمره الله به ، وإذا أريد به عدم العلم بالحق فى نفس الأمر فالمصيب واحد وله أجران كما فى المجتهدين فى جهة الكعبة إذا صلوا إلى أربع جهات ، فالذى أصاب الكعبة واحد وله أجران لاجتهاده وعمله كان أكمل من غيره ، والمؤمن القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، ومن زاده الله علما وعملا زاده أجرا بما زاده من العلم والعمل قال تعالى : (وتلك حجتنا آتيناها

ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) قال مالك عن زيد بن أسلم بالعلم وكذلك قال فى قصة يوسف : (ماكان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم) .

وقد تبين أن جميع المجتهدين إنما قالوا بعلم واتبعوا العلم ، وأن الفقه من أجل العلوم ، وأنهم ليسوا من الذين لا يتبعون إلا الظن لكن بعضهم قد يكون عنده علم ليس عند الآخر ، إما بأن سمع مالم يسمع الآخر ، وإما بأن فهم مالم يفهم الآخر كما قال تعالى : (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما) .

وهذه حال أهل الاجتهاد والنظر والاستدلال فى الأصول والفروع ، ولم يفرق أحد من السلف والأئمة بين أصول وفروع .

بل جعل الدين قسمين : أصولا وفروعا لم يكن معروفا فى الصحابة والتابعين ولم يقل أحد من السلف والصحابة والتابعين ان المجتهد الذى استفرغ وسعه فى طلب الحق يأثم لا فى الأصول ولا فى الفروع ، ولكن هذا التفريق ظهر من جهة المعتزلة ، وأدخله فى أصول الفقه من نقل ذلك عنهم ، وحكوا عن عبيد الله بن الحسن العنبرى أنه قال : كل مجتهد مصيب ومراده أنه لا يأثم .

وهذا قول عامة الأئمة كأبى حنيفة والشافعى وغيرهما .

ولهذا يقبلون شهادة أهل الأهواء ويصلون خلفهم ومن ردها كمالك وأحمد فليس ذلك مستلزما لاثمهما ، لكن المقصود إنكار المنكر وهجر من أظهر البدعة فاذا هجر ولم يصل خلفه ، ولم تقبل شهادته كان ذلك منعا له من

اظهار البدعة ، ولهذا فرق أحمد وغيره بين الداعية للبدعة المظهر لها وغيره وكذلك قال الخرقى ومن صلى خلف من يجهر ببدعة أو منكرا عاد ، وبسط هذا له موضع آخر .

والذين فرقوا بين الأصول والفروع ، لم يذكروا ضابطا يميز بين النوعين بل تارة يقولون هذا قطعى وهذا ظنى ، وكثير من مسائل الأحكام قطعى ، وكثير من مسائل الأصول ظنى عند بعض الناس ، فان كون الشيء قطعيا وظنيا أمر إضافى ، وتارة يقولون الأصول هى العلميات الخبريات والفروع العمليات ، وكثير من العمليات من جحدها كفر ، كوجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج ، وتارة يقولون هذه عقليات وهذه سمعيات ، وإذا كانت عقليات لم يلزم تكفير المخطىء فان الكفر حكم شرعى يتعلق بالشرع ، وقد بسط هذا فى غير هذا الموضع .

وإذا تدبر الانسان تنازع الناس ، وجد عند كل طائفة من العلم ماليس عند الأخرى كما فى مسائل الأحكام ، مثال ذلك : ما تقدم فى الأصول الخمسة التوحيد والعدل والمنزلة بين المنزلتين ومسائل الأسماء والأحكام وانفاذ الوعيد ، وهى التى توالى المعتزلة من وافقهم عليها ويتبرءون ممن خالفهم فيها وقد قدمنا أنهم قصدوا توحيد الرب وثبات عدله وحكمته ورحمته وصدقه وطاعة أمره ، لكن غلطوا فى كل واحدة من هذه الأمور كما تقدم ، وكذلك الذين ناقضوهم من الجهمية ، ومن سلك مسلكهم كأبى الحسن الأشعرى وأصحابه ، فانهم ناقضوهم فى الأصول الخمسة ، وكان عندهم علم ليس عند أولئك وكان عند أولئك علم ليس عند هؤلاء ، وكل من الطائفتين لم تحط

علما بما فى الكتاب والسنة من بيان هذه الأمور ، بل علموا بعضاً وجهلوا بعضاً فان هؤلاء المجبرة هم فى الحقيقة لا يثبتون لله عدلا ولا حكمة ولا رحمة ولاصدقا فأولئك قصدوا إثبات هذه الأمور ، أما العدل فعندهم كل ممكن فهو عدل ، والظلم عندهم هو الممتنع ، فلا يكون ثم عدل يقصد فعله وظلم يقصد تركه ، ولهذا يجوزون عليه فعل كل شيء وان كان قبيحا ، ويقولون القبيح هو ما نهى عنه وهو لا ناهى له ، ويجوزون الأمر بكل شيء وإن كان منكراً وشركا ، والنهى عن كل شيء وإن كان توحيداً ومعروفا فلا ضابط عندهم للفعل ، فلهذا ألزموهم جواز إظهار المعجزات على يد الكاذب ، ولم يكن لهم عن ذلك جواب صحيح ، ولم يذكروا فرقا بين المعجزات وغيرها ولا ما به يعلم صدق النبي صلى الله عليه وسلم إلا إذا نقضوا أصلهم ، وقد قال الله تعالى : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط) وعندهم هذا لا فائدة فيه ، فليس فى الممكن قسط وجور حتى يكون قائما بهذا دون هذا ، وقد بسط هذا فى غير هذا الموضع .

وكذلك الحكمة عندهم لا تفعل لحكمة ، وقد فسروا الحكمة إما بالعلم وإما بالقدر وإما بالإرادة ، ومعلوم أن القادر قد يكون حكيما ويكون غير حكيم ، كذلك المريد قد يكون إرادته حكمة ، وقد يكون سفها ، والعلم يطابق المعلوم سواء كان حكمة أو سفها ، فليس عندهم فى نفس الأمر أن الله حكيم وكذلك الرحمة ما عندهم فى نفس الأمر إلا إرادة ترجيح أحد المثلين بلا مرجح ، نسبتها إلى نفع العباد وضررهم سواء ، فليس عندهم فى نفس الأمر رحمة ولا محبة أيضاً ، وقد بسط هذا فى غير هذا الموضع ، وبين تناقضهم فى الصفات والأفعال حيث أثبتوا الإرادة مع نفى المحبة والرضا ومع نفى

الحكمة ، وبين تناقضهم وتناقض كل من أثبت بعض الصفات دون البعض وأن المتفلسفة نفاة الإرادة أعظم تناقضاً منهم ، فان الرازى ذكر فى المطالب العلية مسألة الإرادة ورجح نفى الإرادة لأنه لم يمكنه أن يجيب عن حجة المتفلسفة على أصول أصحابه الجهمية والمعتزلة ففر إليهم ، وكذلك فى غير هذا من المسائل فهو تارة يرجح قوله قول المتفلسفة ، وتارة يرجح قول المتكلمة ، وتارة يحار ويقف، واعترف فى آخر عمره بأن طريق هؤلاء وهؤلاء لاتشفى عليلا ولاتروى غليلا .

وقال : قد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية . فما رأيتها تشفى عليلا ولاتروى غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، اقرأ فى الاثبات: (الرحمن على العرش استوى . إليه يصعد الكلم الطيب) واقرأ فى النفى : (ليس كمثله شيء .ولا يحيطون به علماً) ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل تعريفى ، فقد تبين أنهم لايثبتون عدل الرب ولاحكمته ولا رحمته وكذلك الصدق، فانهم لما أرادوا أن يقيموا الدليل على أن الله صادق تعذر ذلك عليهم ، فقالوا الصدق فى الكلام النفسانى واجب لأنه يعلم الأمور ، ومن يعلم يمتنع أن يقوم فى نفسه خبر بخلاف علمه، وعلى هذا اعتمد الغزالى وغيره ، فقيل لهم هذا ضعيف لوجهين . أحدهما : الصدق فى ذلك المعنى لاينفع إن لم يثبت الصدق فى العبارات الدالة عليه ويتميز بين الأفعال عندهم . الثانى : أنهم أثبتوا الخبر النفسانى فان الإنسان يخبرك بالكذب فيقوم فى نفسه معنى ليس هو العلم وهو معنى الخبر ، فهذا يقتضى أنهم يقولون أن العلم قد يقوم فى نفسه خبر بخلاف علمه ، والرازى لما ذكر مسألة أنه لايجوز أن يتكلم بكلام ولا يعنى به شيئاً ، خلافاً للحشوية قيل له : هل قال أحد من طوائف

الأمة أن الله لا يعنى بكلامه شيئاً ، وإنما النزاع هل يتكلم بما لا يفهم العباد معناه ، وقيل لهم هب أن فى هذا نزاعا فهو لم يقم دليل على امتناع ذلك بل قال هذا عيب أو نقص ، والله منزه عنه ، فقيل له : إما أن يريد المعنى القائم بالذات أو العبارات المخلوقة . أما الأول : فلا يجوز إرادته هنا لأن المسألة هى فيمن يتكلم بالحروف المنظومة ولا يعنى به شيئاً ، وذلك القائم بالذات هو نفس المعنى وإن أردت الحروف وهو مراده فتلك عندك مخلوقة ، ويجوز عندك أن يخلق كل شىء ليس منزها عن فعل من الأفعال ، والعيب عندك هو ما لا تريده ،فهذا ممتنع فتبين أنه ليس لهم حجة لا على صدقه ولا على تنزيهه عن العيب فى خطابه ، فان ذلك إنما يكون ممن تنزيهه عن بعض الأفعال ،وتبين بذلك أنهم لا يثبتون عدله ولا حكمته ولا رحمته ولا صدقه ، والمعتزلة قصدهم إثبات هذه الأمور ولهذا يذكرونها فى خطبة الصفات كما يذكرها أبو الحسين البصرى وغيره ، كما ذكر فى أول صور الأدلة خطبة مضمونها أن الله واحد عدل لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ، وأنه بالناس لرءوف رحيم وأظن فيها إثبات صدقه ، ولهذا يكفرون من يجوره أو يكذبه أو يسفهه أو يشبهه ، ولكن قد غلطوا فى مواضع كثيرة كما قد نبه على هذا فى غير موضع ، فكلا الطائفتين معها حق وباطل ولم يستوعب الحق إلا من اتبع المهاجرين والأنصار وآمن بما جاء به الرسول كله على وجهه لم يؤمن ببعض ويكفر ببعض ، وهؤلاء هم أهل الرحمة الذين لا يختلفون بخلاف أولئك المختلفين . قال تعالى : (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) .

﴿ فصل ﴾ والجهمية والمعتزلة مشتركون فى نفى الصفات ، وابن كلاب

ومن تبعه كالأشعرى وأبى العباس القلانسى ومن تبعهم ، أثبتوا الصفات لكن لم يثبتوا الصفات الاختيارية ، مثل كونه يتكلم بمشيئته ، ومثل كون فعله الاختيارى يقوم بذاته ، ومثل كونه يحب ويرضى عن المؤمنين بعد إيمانهم ، ويغضب ويبغض الكافرين بعد كفرهم ، ومثل كونه يرى أفعال العباد بعد أن يعملوها كما قال تعالى : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) فأثبت رؤية مستقلة وكذلك قوله تعالى : (ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) ومثل كونه نادى موسى حين أتى لم يناده قبل ذلك بنداء قام بذاته ، فان المعتزلة والجهمية يقولون: خلق نداء فى الهواء ، والكلابية والسالمية يقولون: النداء قام بذاته وهو قديم ، لكن سمعه موسى فاستجدوا سماع موسى ، وإلا فما زال عندهم منادياً .

والقرآن والأحاديث وأقوال السلف والأئمة كلها تخالف هذا وهذا وتبين أنه ناداه حين جاء وأنه يتكلم بمشيئته فى وقت بكلام معين كما قال : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) وقال تعالى: (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) والقرآن فيه مئون من الآيات تدل على هـــذا الأصل ، وأما الأحاديث فلاتحصى ، وهذا قول أئمة السنة والسلف وجمهور العقلاء ، ولهذا قال عبدالله ابن المبارك والإمام أحمد بن حنبل وغيرهما : لم يزل متكلما إذا شاء وكيف شاء ، وهذا قول عامة أهل السنة ، فلهذا اتفقوا على أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، ولم نعرف عن أحد من السلف أنه قال : هو قديم لم يزل . والذين قالوا من المتأخرين: هو قديم كثير ، منهم من لم يتصور المراد ، بل منهم من يقول: هو قديم فى علمه ، ومنهم من يقول: قديم أى متقدم الوجود متقدم على

ذات زمان المبعث لأنه أزلى لم يزل ، ومنهم من يقول بل مرادنا بقديم أنه غير مخلوق ، وقد بسط الكلام على هـــذا فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أنه على هذا الأصل إذا خلق المخلوقات رآها وسمع أصوات عباده، وكان ذلك بمشيئته وقدرته إذ كان خلقه لهم بمشيئته وقدرته، وبذلك صاروا يرون ويسمع كلامهم وقد جاء فى القرآن والسنة فى غير موضع أنه يخص بالنظر والاستماع بعض المخلوقات كقوله :(ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عـــذاب أليم) ملك كذاب وشيخ زان وعائل مستكبر ، وكذلك فى الاستماع قال تعالى : (وأذنت لربها وحقت) أى استمعت وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به » وقال : « لله أشد أذنا إلى صاحب القرآن من صاحب القينة إلى قينته » فهذا تخصيص بالإذن وهو الاستماع لبعض الأصوات دون بعض ، وكذلك سمع الاجابة كقوله : (سمع الله لمن حمده) وقول الخليل : إنك سميع الدعاء . وقوله : (إن ربى سميع قريب) يقتضى التخصيص بهـذا السمع فهذا التخصيص ثابت فى الكتاب والسنة هى تخصيص بمعنى يقوم بذاته بمشيئته وقدرته كما تقدم ، وعند النفاة هو تخصيص بأمر مخلوق منفصل لا بمعنى يقوم بذاته وتخصيص من يحب ، ومحبته بالنظر والاستماع المذكور يقتضى أن هذا النوع منتف عن غيرهم .

﴿ لكن مع ذلك هل يقال ﴾ ان نفس الرؤية والسمع الذى هو مطلق الإدراك هو من لوازم ذاته ، فلا يمكن وجود مسموع ومرئى إلا وقد تعلق به كالعلم ، أو يقال أنه أيضاً بمشيئته وقدرته فيمكنه أن لا ينظر إلى بعض

المخلوقات ، هذا فيه قولان . والأول : قول من لا يجعل ذلك متعلقاً بمشيئته وقدرته ، وأما الذين يجعلونه متعلقاً بمشيئته وقدرته فقد يقولون متى وجد المرئى والمسموع وجب تعلق الإدراك به .

﴿ والقول الثانى ﴾ ان جنس السمع والرؤية يتعلق بمشيئته وقدرته فيمكن أن لا ينظر إلى شيء من المخلوقات ، وهذا هو المأثور عن طائفة من السلف كما روى ابن أبى حاتم عن أبى عمران الجونى قال : ما نظر الله إلى شيء من خلقه إلا رحمه ولكنه قضى أن لا ينظر إليهم ، وقد يقال هذا مثل الذكر والنسيان ، فان الله تعالى قال : (اذكرونى أذكركم) وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملإ ذكرته فى ملإ خير منهم ، وإن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » فهذا الذكر يختص بمن ذكره ، فمن لا يذكره لا يحصل له هذا الذكر ، ومن آمن به وأطاعه ذكره برحمته ومن أعرض عن الذكر الذى أنزله أعرض عنه كما قال : (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) ومثله قوله : (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم) .

وقد فسروا هذا النسيان بأنه [1] وهذا النسيان ضد ذلك الذكر ، وفى

(١) هكذا بياض بالأصل .

الصحيح فى حديث الكافر يحاسبه قال: «أفظننت أنك ملاقى ؟ قال: لا. قال: فاليوم أنساك كما نسيتنى » فهذا يقتضى أنه لا يذكره كما يذكر أهل طاعته ، هو متعلق بمشيئته وقدرته أيضا وهو سبحانه قد خلق هذا العبد وعلم ما سيعمله قبل أن يعمله ، ولما عمل علم ما عمل ورأى عمله فهذا النسيان لا يناقض ما علمه سبحانه من حال هذا .

﴿ فصل ﴾ فى جماع الفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والرشاد والغى ، وطريق السعادة والنجاة وطريق الشقاوة والهلاك ، أن يجعل ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه هو الحق الذى يجب اتباعه وبه يحصل الفرقان والهدى والعلم والايمان فيصدق بأنه حق وصدق ، وما سواه من كلام سائر الناس يعرض عليه، فان وافقه فهو حق، وان خالفه فهو باطل، وإن لم يعلم هل وافقه أو خالفه لكون ذلك الكلام مجملا لا يعرف مراد صاحبه ، أو قد عرف مراده ولكن لم يعرف هل جاء الرسول بتصديقه أو تكذيبه ، فانه يمسك فلا يتكلم إلا بعلم .

﴿ والعلم ما قام عليه الدليل ﴾ والنافع منه ما جاء به الرسول وقد يكون علم من غير الرسول ، لكن فى أمور دنيوية مثل الطب والحساب والفلاحة والتجارة وأما الأمور الإلهية والمعارف الدينية ، فهذه العلم فيها ما أخذ عن الرسول ، فالرسول أعلم الخلق بها وأرغبهم فى تعريف الخلق بها وأقدرهم على بيانها وتعريفها ، فهو فوق كل أحد فى العلم والقدرة والإرادة ، وهذه الثلاثة بها يتم المقصود ، ومن سوى الرسول إما أن يكون فى علمه بها نقص أو فساد ، وإما أن لا يكون له إرادة فيما علمه من ذلك فلم يبينه ، إما لرغبة

وإما لرهبة وإما لغرض آخر، وإما أن يكون بيانه ناقصا ليس بيانه البيان عما عرفه الجنان .

وبيان الرسول على وجهين: تارة يبين الأدلة العقلية الدالة عليها ، والقرآن مملوء من الأدلة العقلية والبراهين اليقينية على المعارف الإلهية والمطالب الدينية وتارة يخبر بها خبراً مجرداً لما قد أقامه من الآيات البينات والدلائل اليقينيات على أنه رسول الله المبلغ عن الله، وأنه لا يقول عليه إلا الحق وان الله شهد له بذلك وأعلم عباده وأخبرهم أنه صادق مصدوق فيما بلغه عنه .والأدلة التي بها نعلم أنه رسول الله كثيرة متنوعة وهى أدلة عقلية يعلم صحتها بالعقل ، وهى أيضا شرعية سمعية لكن الرسول بينها ودل عليها وأرشد اليها، وجميع طوائف النظار متفقون على أن القرآن اشتمل على الأدلة العقلية فى المطالب الدينية وهم يذكرون ذلك فى كتبهم الأصولية ، وفى كتب التفسير وعامة النظار أيضا يحتجون بالأدلة السمعية الخبرية المجردة عن المطالب الدينية ، فانه إذا ثبت صدق الرسول وجب تصديقه فيما يخبر به .

﴿ والعلوم ثلاثة أقسام﴾ منها: مالا يعلم إلا بالأدلة العقلية وأحسن الأدلة العقلية التى بينها القرآن وأرشد اليها الرسول . فينبغى أن يعرف أن أجل الأدلة العقلية وأكملها وأفضلها مأخوذ عن الرسول . فان من الناس من يذهل عن هذا ، فمنهم من يقدح فى الدلائل العقلية مطلقا لأنه قد صار فى ذهنه أنها هى الكلام المبتدع الذى أحدثه من المتكلمين ، ومنهم من يعرض عن تدبر القرآن وطلب الدلائل اليقينية العقلية منه لأنه قد صار فى ذهنه أن القرآن إنما يدل بطريق الخبر فقط. فلا بد أن يعلم بالعقل قبل ذلك ثبوت النبوة وصدق

الخبر حتى يستدل بعد ذلك بخبر من ثبت بالعقل صدقه ، ومنها ما لا يعلمه غير الأنبياء إلا بخبر الأنبياء ، وخبرهم المجرد هو دليل سمعى مثل تفاصيل ما أخبروا به من الأمور الالهية والملائكة والعرش والجنة والنار وتفاصيل ما يؤمر به وينهى عنه ،فأما نفس اثبات الصانع ووحدانيته وعلمه وقدرته ومشيئته وحكمته ورحمته ونحو ذلك ، فهذا لا يعلم بالأدلة العقلية وان كانت الأدلة والآيات التى يأتى بها الأنبياء هى أكمل الأدلة العقلية ، لكن معرفة هذه ليست مقصورة على الخبر المجرد وإن كان أخبار الأنبياء المجردة تفيد العلم اليقينى أيضا ،فيعلم بالأدلة العقلية التى أرشدوا اليها ، ويعلم بمجرد خبرهم لما علم صدقهم بالأدلة والآيات والبراهين التى دلت على صدقهم .

﴿ وقد تنازع الناس فى العلم بالمعاد وبحسن الأفعال وقبحها ﴾ فأكثر الناس يقولون أنه يعلم بالعقل مع السمع ، والقائلون بأن العقل يعلم به الحسن والقبح أكثر من القائلين بأن المعاد يعلم بالعقل ، قال أبو الخطاب : هو قول أكثر الفقهاء والمتكلمين ، ومنهم من يقول المعاد والحسن والقبح لا يعلم إلا بمجرد الخبر وهو قول الأشعرى وأصحابه ومن وافقهم من أتباع الأئمة كالقاضى أبى يعلى وأبى المعالى الجوينى وأبى الوليد التاجى وغيرهم ، وكلهم متفقون على أن من العلوم ما يعلم بالعقل والسمع الذى هو مجرد الخبر، مثل كون أفعال العباد مخلوقة لله أو غير مخلوقة ، وكون رؤيته ممكنة أو ممتنعة ونحو ذلك ، وكتب أصول الدين بجميع الطوائف مملوءة بالاحتجاج بالأدلة السمعية الخبرية ، لكن الرازى طعن فى ذلك فى المطالب العالية ، قال لأن الاستدلال بالسمع مشروط بأن لا يعارضه قاطع عقلى ، فاذا عارضه العقلى وجب تقديمه عليه . قال : والعلم بانتفاء المعارض العقلى متعذر ، وهو إنما

يثبت بالسمع ما علم بالاضطرار أن الرسول أخبر به كالمعاد ، وقد يظن أن هذه طريقة أئمته الواقفة فى الوعيد ، كالأشعرى والقاضى أبى بكر وغيرهما وليس كذلك ، فان هؤلاء إنما وقفوا فى أخبار الوعيد خاصة لأن العموم عندهم لايفيد القطع ، أو لأنهم لايقولون بصيغ العموم ، وقد تعارضت عندهم الأدلة وإلا فهم يثبتون الصفات الخبرية لله كالوجه واليد بمجرد السمع والخبر ، ولم يختلف قول الأشعرى فى ذلك وهو قول أئمة أصحابه ، لكن أبو المعالى وأتباعه لايثبتون الصفات الخبرية ، بل فيهم من ينفيها ، ومنهم من يقف فيها كالرازى والآمدى ، فيمكن أن يقال قول الأشعرى ينزع من قول هؤلاء بأن يقال لايعرف أنهم اعتمدوا فى الأصول على دليل سمعى . لكن يقال المعاد يحتجون عليه بالقرآن والأحاديث، ولكن الرازى هو الذى سلك فيه طريق العلم الضرورى أن الرسول جاء به ، وفى الحقيقة لجميع الأدلة اليقينية توجب علماً ضرورياً والأدلة السمعية الخبرية توجب علماً ضرورياً ، بأخبار الرسول، لكن منها ما تكثر أدلته كخبر الأخبار المتواترة ، ويحصل به علم ضرورى من غير تعيين دليل ،وقد يعين الأدلة ويستدل بها ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن يؤخذ من الرسول العلوم الإلهية الدينية سمعيها وعقليها ويجعل ماجاء به هو الأصول لدلالة الأدلة اليقينية البرهانية على أن ما قاله حق جملة وتفصيلا ، فدلائل النبوة فاعلامها تدل على ذلك جملة ، وتفاصيل الأدلة العقلية الموجودة فى القرآن والحديث يدل على ذلك تفصيلا ، وأيضاً قال الأنبياء والرسل إنما بعثوا بتعريف هذا ، فهم أعلم الناس به وأحقهم بقيامه وأولادهم بالحق فيه ، وأيضاً فمن جرب ما يقولونه ويقوله غيرهم وجد

الصواب معهم والخطأ مع مخالفيهم كما قال الرازى ، مع أنه من أعظم الناس طعناً فى الأدلة السمعية حتى ابتدع قولا ما عرف به قائل مشهور غيره ، وهو أنها لاتفيد اليقين ومع هذا فانه يقول : لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ولاتروى غليلا ، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن أقرأ فى الاثبات : (إليه يصعد الكلم الطيب . الرحمن على العرش استوى) وأقرأ فى النفى : (ليس كمثله شىء . ولايحيطون به علماً) قال ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى . وأيضاً ﴿ فمن اعتبر ما عند الطوائف ﴾ الذين لم يعتصموا بتعليم الأنبياء وإرشادهم وأخبارهم ، وجدهم كلهم حائرين ضالين شاكرين مرتابين ، أو جاهلين جهلا مركبا ، فهم لايخرجون عن المثلين اللذين فى القرآن : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيأ ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) .

﴿ فصل ﴾ وأهل الضلال الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، وهم كما قال مجاهد : أهل البدع والشبهات ، يتمسكون بما هو بدعة فى الشرع ومشتبه فى العقل كما قال فيهم الإمام أحمد . قال : هم مختلفون فى الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مخالفة الكتاب يحتجون بالمتشابه من الكلام ، ويضلون الناس بما يشبهون عليهم ، والموفقة من أهل الضلال تجعل لها ديناً وأصول دين قد ابتدعوه برأيهم ، ثم يعرضون على ذلك القرآن والحديث ، فان وافقه احتجوا به اعتقاداً لا اعتماداً وإن خالفه فتارة يحرفون الكلم عن

مواضعه ويتأولونه على غير تأويله ، وهـذا فعل أئمتهم ، وتارة يعرضون عنه . ويقولون : نفوض معناه إلى الله ، وهـذا فعل عامتهم وعمدة الطائفتين فى الباطن غير ماجاء به الرسول ، يجعلون أقوالهم البدعية محكمة يجب اتباعها واعتقاد موجبها ، والمخالف إما كافر وإما جاهل لايعرف هـذا الباب ، وليس له علم بالمعقول ولا بالأصول ، ويجعلون كلام الله ورسـوله الذى يخالفها من المتشابه الذى لايعرف معناه إلا الله ، أو لايعرف معناه إلا الراسخون فى العلم والراسخون عندهم من كان موافقاً لهم على ذلك القول ، وهؤلاء أضل ممن تمسك بما تشابه عليه من آيات الكتاب ، ويترك المحكم كالنصارى والخوارج وغيرهم ، إذ كان هؤلاء أخذوا بالمتشابه من كلام الله وجعلوه محكما وجعلوا المحكم متشابهاً ، وأما أولئك كنفاة الصفات من الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة وغيرهم ﴿ وكالفلاسفة ﴾ فيجعلون ما ابتدعوه هم برأيهم هو المحكم الذى يجب اتباعه ، وإن لم يكن معهم من الأنبياء والكتاب والسنة مايوافقه ويجعلون ماجاءت به الأنبياء وإن كان صريحاً قد يعـلم معناه بالضرورة يجعلونه من المتشابه ، ولهذا كان هؤلاء أعظم مخالفة للأنبياء من جميع أهل البدع ، حتى قال يوسف بن اسباط وعبد الله بن المبارك وغيرهما كطائفة من أصحاب أحمد : أن الجهمية نفاة الصفات خارجون عن الثنتين وسبعين فرقة . قالوا : وأصولها أربعة : الشيعة ، والخوارج ، والمرجئة ، والقدرية .

وقد ذكرنا فى غير هذا الموضع أن قوله تعالى يقال : (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) فى المتشابهات قولان . أحدهما : أنهـا آيات بعينها تتشابه على كل الناس . والثانى : وهو الصحيح أن التشابه أمر نسبي ، فقد تشابه عند هذا مالا يتشابه عند غيره ، ولكن ثم آيات محكمات

لايتشابه فيها على أحد ، وتلك المتشابهات إذا عرف معناها صارت غير متشابهة ، بل القول كله محكم كما قال : (أحكمت آياته ثم فصلت) وهذا كقوله: « الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور لايعلمهن كثير من الناس » وكذلك قولهم : (إن البقر تشابه علينا) وقد صنف أحمد كتاباً فى الرد على الزنادقة والجهمية فيما سكت فيه من متشابه القرآن ، وتأولوه على غير تأويله ، وفسر تلك الآيات كلها ، وذمهم على أنهم تأولوا ذلك المتشابه على غير تأويله ، وعامتها آيات معروفة قد تكلم العلماء فى تفسيرها ، مثل الآيات الذى سأل عنها نافع بن الأزرق لابن العباس . قال الحسن البصرى: ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيم أنزلت وماذا عنى بها ، ومن قال من السلف أن المتشابه لايعلم تأويله إلا الله فقد أصاب أيضاً ، ومراده بالتأويل ما استأثر الله بعلمه مثل وقت الساعة ، ومجىء اشراطها ، ومثل كيفية نفسه وما أعده فى الجنة لأوليائه ، وكان من أسباب نزول الآية : احتجاج النصارى بما تشابه عليهم كقوله: «أنا. ونحن » وهذا يعرف العلماء أن المراد به الواحد المعظم الذى له أعوان لم يرد به أن الآلهة ثلاثة ، فتأويل هذا الذى هو تفسيره يعلمه الراسخون ، ويفرقون بين ما قيل فيه « إيا » وما قيل فيه « انا » لدخول الملائكة فيما يرسلهم فيه إذ كانوا رسله ، وأما كونه هو المعبود الإله فهو له وحده ، ولهذا لايقول : فايانا فاعبدوا ، إيانا فارهبوا ، بل متى كان الأمر بالعبادة والتقوى والخشية والتوكل ، ذكر نفسه وحده باسمه الخاص ، وإذا ذكر الأفعال التى يرسل فيها الملائكة ، قال : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . فاذا قرأناه فاتبع قرآنه. نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق) ونحو ذلك مع أن تأويل هذا وهو حقيقة مادل عليه

من الملائكة وصفاتهم وكيفية إرسال الرب لهم ، لايعلمه إلا الله كما قد بسط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن الواجب أن يجعل ما قاله الله ورسوله هو الأصل ، ويتدبر معناه ويعقل ويعرف برهانه ودليله ، اما العقلى ،واما الخبرى السمعى ويعرف دلاله القرآن على هذا ، وهذا يجعل أقوال الناس التى قد توافقه وتخالفه متشابهة مجملة ، فيقال لأصحاب هذه الألفاظ : يحتمل كذا وكذا ويحتمل كذا وكذا ، فان أرادوا بها ما يوافق خبر الرسول قبل ، وإن أرادوا بها ما يخالفه رد ، وهــذا مثل لفظ المركب والجسم والمتحيز والجوهر والجهة والعرض ونحو ذلك ، ولفظ الحيز ونحو ذلك ،فان هذه الألفاظ ما لايوجد فى الكتاب والسنة بالمعنى الذى يريده أهل هذا الاصطلاح بل ولا فى اللغة أيضاً ، بل هم يختصمون بالتعبير بهـا على معان لم يعبر غيرهم عن تلك المعانى بهذه الألفاظ ، فيفسر تلك المعانى بعبارات أخرى ويبطن مادل عليه القرآن الأدلة العقلية والسمعية ، وإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل ، وعرف وجه الكلام على أدلتهم فانها ملفقة من مقدمات مشتركة ، يأخذون اللفظ المشترك فى إحدى المقدمتين بمعنى ، وفى المقدمة الأخرى بمعنى آخر، فهو فى صورة اللفظ دليل وفى المعنى ليس بدليـــل . كمن يقول : سهيل بعيد من الثريا . لا يجوز أن يقترن بها ولا يتزوجها . والذى قال :

أيها المنكح الثريا سهيلا

أراد امرأة اسمها الثريا ورجلا اسمه سهيل . ثم قال :

عمرك الله كيف يلتقيان هى شامية إذا ما استقلت
وسهيل إذا استقل يمان

وهذا لفظ مشترك ، فجعل يعجبه وانكاره من الظاهر من جهة اللفظ المشترك ، وقد بسط الكلام على أدلتهم المفصلة فى غير موضع .

والأصل الذى بنى عليه نفاة الصفات ، وعطلوا ما عطلوه حتى صار منتهاهم إلى قول فرعون الذى جحد الخالق ، وكذب رسوله موسى فى أن الله كلمه هو استدلالهم على حدوث العالم بأن الأجسام محدثة ، واستدلالهم على ذلك بأنها لا تخلو من الحوادث ولم تسبقها ، وما لم يخل من الحوادث ولم يسبقها فهو محدث ، وهذا أصل قول الجهمية الذين أطبق السلف والأئمة على ذمهم وأصل قول المتكلمين الذين أطبقوا على ذمهم ، وقد صنف الناس مصنفات متعددة ، فيها أقوال السلف والأئمة فى ذم الجهمية وفى ذم هؤلاء المتكلمين .

﴿والسلف لم يذموا جنس الكلام﴾ فان كل آدمى يتكلم، ولا ذموا الاستدلال والنظر والجدل الذى أمر الله به رسوله ، والاستدلال بما بينه الله ورسوله بل ولا ذموا كلاما هو حق بل ذموا الكلام الباطل ، وهو المخالف للكتاب والسنة ، وهو المخالف للعقل أيضاً وهو الباطل .

فالكلام الذى ذمه السلف هو الكلام الباطل ، وهو المخالف للشرع والعقل ، ولكن كثير من الناس خفى عليه بطلان هذا الكلام ، فمنهم من اعتقده موافقاً للشرع والعقل حتى اعتقد أن ابراهيم الخليل استدل به ، ومن هؤلاء من يجعله أصل الدين ولا يحصل الايمان أو لا يتم إلا به ، ولكن من

عرف ماجاء به الرسول وما كان عليه الصحابة ، علم بالاضطرار أن الرسول والصحابة لم يكونوا يسلكون هذا المسلك ، فصار من عرف ذلك يعرف أن هذا بدعة ، وكثير منهم لا يعرف أنه فاسد بل يظن مع ذلك أنه صحيح من جهة العقل ، لكنه طويل أو تبعد المعرفة ، أو هو طريق مخيفة مخطر يخاف على سالكه ، فصاروا يعيبونه كما يعاب الطريق الطويل والطريق المخيف ، مع اعتقادهم أنه يوصل إلى المعرفة وأنه صحيح فى نفسه . وأما الحذاق العارفون تحقيقه ، فعلموا أنه باطل عقلا وشرعا ، وأنه ليس بطريق موصل إلى المعرفة ، بل إنما يوصل لمن اعتقد صحته إلى الجهل والضلال ، ومن تبين له تناقضه أوصله إلى الحيرة والشك .

ولهذا صار حذاق سالكيه ينتهون إلى الحيرة والشك ، إذ كانت حقيقته أن كل موجود فهو حادث مسبوق بالعدم ، وليس فى الوجود قديم وهذا مكابرة ، فان الوجود مشهود ، وهو إما حادث ، وإما قديم ، والحادث لابد له من قديم ، فثبت وجود القديم على التقديرين .

وكذلك ما ابتدعه فى هذه الطريق ابن سينا وأتباعه من الاستدلال بالممكن على الواجب أبطل من ذلك ، كما قد بسط ذلك فى غير هذا الموضع ، وحقيقته أن كل موجود فهو ممكن ليس فى الوجود موجود بنفسه ، مع أنهم جعلوا هذا طريقاً لاثبات الواجب بنفسه ، كما يجعل أولئك هذا طريقاً لاثبات القديم ، وكلاهما يناقض ثبوت القديم الواجب فليس فى واحد منهما إثبات قديم ولا واجب بنفسه ، مع أن ثبوت موجود قديم وواجب بنفسه معلوم بالضرورة ، ولهذا صار حذاق هؤلاء إلى أن الموجود الواجب والقديم هو

العالم بنفسه ، وقالوا هو الله وأنكروا أن لايكون العالم رب مباين للعالم، إذ كان ثبوت القديم الواجب بنفسه لابد منه على كل قول، وفرعون ونحوه ممن أنكر الصانع ما كان ينكر هذا الوجود المشهود ، فلما كان حقيقة قول أولئك يستلزم أنه ليس موجود قديم ولا واجب، لكنهم لا يعرفون أن هذا يلزمهم، بل يظنون أنهم أقاموا الدليل على إثبات القديم الواجب بنفسه .

﴿ ولكن وصفوه ﴾ بصفات الممتنع فقالوا: لا داخل العالم ولا خارجه، ولا هو صفة، ولا موصوف ، ولا يشار إليه ونحو ذلك من الصفات السلبية التي تستلزم عدمه ، وكان هــــذا مما تنفر عنه العقول والفطر ، ويعرف أن هذا صفة المعدوم الممتنع لا صفة الموجود ، فدليلهم فى نفس الأمر يستلزم أنه ما ثم قديم ولا واجب ، ولكن ظنوا أنهم أثبتوا القديم والواجب ، وهذا الذى أثبتوه هو ممتنع فما أثبتوا قديما ولا واجباً ، فجاء آخرون من جهتهم فرأوا هذا مكابرة ، ولا بد من اثبات القديم والواجب. فقالوا : هو هذا العالم ، فكان قدماء الجهمية يقولون : أنه بذاته فى كل مكان ، وهؤلاء قالوا: هو غير الموجودات ، والموجود القديم الواجب هو نفس الوجود المحدث الممكن ، والحلول هو الذى أظهرته الجهمية للناس حتى عرفه السلف والأئمة وردوه ، وأما حقيقة قولهم فهو النفى أن لا داخل العالم ولا خارجه ، ولكن هذا لم تسمعه الأئمة ولم يعرفوا أنه قولهم إلا من باطنهم ، ولهذا كان الأئمة يحكون عن الجهمية أنه فى كل مكان ، ويحكون عنهم وصفه بالصفات السلبية وشاع عند الناس أن الجهمية يصفونه بالسلوب حتى قال أبو تمام :

جهمية الأوصاف إلا أنها قد حليت بمحاسن الأشياء

وهم لم يقصدوا نفي القديم والواجب ، فان هذا لا يقصده أحد من العقلاء لا مسلم ولا كافر ، إذ كان خلاف ما يعلمه كل أحد ببديهة عقله ، فانه إذا قدر أن جميع الموجودات حادثة عن عدم لزم أن كل الموجودات حدثت بأنفسها ، ومن المعلوم ببداهة العقول أن الحادث لا يحدث بنفسه ولهذا قال تعالى : (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) وقد قيل : خلقوا من غير شيء من غير رب خلقهم . وقيل: من غير مادة. وقيل : من غير عاقبة وجزاء ، والأول مراد قطعاً فان كل ما خلق من مادة أو لغاية فلا بد له من خالق .

﴿ ومعرفة الفطر ﴾ أن المحدث لا بد له من محدث أظهر فيها من أن كل محدث لا بد له من مادة خلق منها وغاية خلق لها ، فان كثيراً من العقلاء نازع فى هذا وهذا ، ولم ينازع فى الأول طائفة . قال : إن هذا العالم حدث من غير محدث أحدثه . بل من الطوائف من قال : إنه قديم بنفسه واجب بنفسه ليس له صانع ، واما أن يقول أنه محدث حدث بنفسه بلا صانع ، فهذا لا يعرف عن طائفة معروفة وإنما يحكى عمن لا يعرف ، ومثل هذا القول وأمثاله يقوله من يقوله ممن حصل له فساد فى عقله صار به إلى السفسطة ، والسفسطة تعرض لآحاد الناس وفى بعض الأمور ، ولكن أمة من الأمم كلهم سوفسطائية فى كل شيء هذا لا يتصور ، فلهذا لا يعرف عن أمة من الأمم أنهم قالوا بحدوث العالم من غير محدث ، وهؤلاء لما اعتقدوا أن كل موصوف أو كل ما قامت به صفة أو فعل بمشيئته فهو محدث وممكن لزمهم القول بحدوث كل موجود ، إذ كان الخالق جل جلاله متصفا بما يقوم به من الصفات والأمور الاختياريات ، مثل أنه متكلم بمشيئته وقدرته ، ويخلق ما يخلقه بمشيئته وقدرته ، لكن هؤلاء اعتقدوا انتفاء هذه الصفات عنه، لاعتقادهم صحة القول

بأن ما قامت به الصفات والحوادث فهو حادث ، لأن ذلك لا يخلو من الحوادث ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، وإذا كان حادثا كان له محدث قديم ، واعتقدوا أنهم أثبتوا الرب وأنه ذات مجردة عن الصفات ووجوده مطلق لا يشار اليه ولا يتعين ، ويقولون هو بلااشارة ولا تعيين وهذا الذى أثبتوه لا حقيقة له فى الخارج ، وإنما هـــو فى الذهن فكان ما أثبتوه واعتقدوا أنه الصانع للعالم إنما يتحقق فى الأذهان لا فى الأعيان، وكان حقيقة قولهم تعطيل الصانع ، فجاء إخوانهم فى أصل المقالة وقالوا : هذا الوجود المطلق المجرد عن الصفات ، هو الوجودالسارى فى الموجودات فقالوا بحلولهفى كل شىء ، وقال آخرون منهم :هو وجود كل شىء،ومنهم من فرق بين الوجود والثبوت ، ومنهم من فرق بين التعيين والاطلاق ، ومنهم من جعله فى العالم كالمادة فى الصورة . ومنهم من جعله فى العالم كالزبدفى اللبن، وكالزيت والشيرج فى السمسم والزيتون، وقد بسط الكلام على هؤلاء فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن الأصـــل الذى أضلهم : قولهم ماقامت به الصفات والأفعال والأمور الاختيارية أو الحوادث فهو حادث ، ثم قالوا والجسم لا يخلو من الحوادثوأثبتوا ذلكبطرق ، منهم من قال لايخلو عنالأكوان الأربعة :الحركة ،والسكون،والاجتماع، والافتراق. ومنهم من قال: لايخلو عن الحركة والسكون فقط. ومنهم منقال لايخلو عن الأعراض والأعراض كلها حادثة وهى لا تبقى زمانين ، وهذه طريقة الآمدى ، وزعم أن أكثر أصحابالأشعريةاعتمدوا عليها ، والرازى اعتمد علىطريقةالحركة والسكون وقد بسط الكلام على هذه الطرق وجميع ما احتجوا به على حدوث الجسم

وإمكانه ، وذكرنا فى ذلك كلامهم هم أنفسهم فى فساد جميع هذه الطرق ، وأنهم هم بينوا فساد جميع ما استدل به على حدوث الجسم وامكانه ، وبينوا فسادها طريقاً طريقاً بما ذكروه ، كما قد بسط هذا فى غير هذا الموضع .

وأما الهشامية والكرامية وغيرهم ، ممن يقول بأنه جسم قديم ، فقد شاركوهم فى أصل هذه المقالة ، لكن لم يقولوا بحدوث كل جسم ، ولا قالوا أن التجسم لا ينفك عن الحوادث إذ كان القديم عندهم جسما قديما وهو خال من الحوادث ، وقد قيل : أول من قال فى الاسلام أن القديم جسم ، هو هشام بن الحكم، كما أن أول من أظهر فى الاسلام فى الجسم هو الجهم بن صفوان ، وكلام السلف والأئمة فى ذم الجهمية كثير مشهور ، فان مرض التعطيل شر من مرض الجسم ، وإنما كان السلف يذمون المشبهة كما قال الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه واسحق بن راهويه وغيرهما. قالوا : المشبهة الذين يقولون بصر كبصرى ، ويد كيدى ، وقدم كقدمى ، وابن كلاب ومن تبعه أثبتوا الصفات التى لا تثبت بمشيئته وقدرته فينفونها قالوا : لأنها حادثة ولو قامت به الحوادث لكان حادثا ، لأن ما قبل الشيء لم يخل عنه وعن ضده ، فلو قبل بعض هذه الحوادث لم يخل منه ومن ضده ، فلم يخل من الحوادث فيكون حادثا .

ومحمد بن كرام فكان بعد ابن كلاب فى عصر مسلم بن الحجاج ، أثبت أنه يوصف بالصفات الاختياريات ويتكلم بمشيئته وقدرته ، ولكن عنده يمتنع أنه كان فى الأول متكلما بمشيئته وقدرته ، لامتناع حوادث لا أول لها ، فلم يقل بقول السلف أنه لم يزل متكلما إذا شاء ، بل قال أنه صار يتكلم

بمشيئته وقدرته ، كما صار يفعل بمشيئته وقدرته بعد أن لم يكن كذلك ، وقال هو وأصحابه فى المشهور عنه : أن الحوادث التى تقوم به لايخلو منها ولايزول عنها لأنه لو قامت به الحوادث ثم زالت عنه كان قابلا لحدوثها وزوالها ، وإذا كان قابلا كذلك لم يخل منه ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، وإنما يقبل على أصلهم أنه تقوم به الحوادث فقط كما يقبل أن يفعلها ويحدثها ولا يلزم من ذلك أنها لم تخل منه كما لم يلزم أنه لم يزل فاعلا لها ، والحدوث عندهم غير الأحداث ، والقرآن عندهم حادث لامحدث ، لأن المحدث يفتقر إلى إحداث بخلاف الحدوث ، وهم إذا قالوا كان خاليا منها فى الأزل وكان ساكنا ، لم يقولوا أنه قام به حادث بل يقولون السكون أمر عدمى كما يقوله الفلاسفة ، ولكن الحركة أمر وجودى بخلاف مايقوله من المعتزلة والأشعرية أن السكون أمر وجودى كالحركة ، فاذا حصل به حادث لم يكن ثم عدم هذا الحادث ، فانما يعدم الحادث باحداث يقوم به ، وهذا ممتنع وهم يقولون أنه يمتنع عدم الجسم ، وعندهم أن البارى يقوم به إحداث المخلوقات وافناؤها فالحوادث التى تقوم به لوأفناها لقام به الاحداث والافناء ، فكان قابلا لأن يحدث فيه حادث ويفنى ذلك الحادث، وما كان كذلك لم يخل من احداث وإفناء فلم يخل من الحوادث وما لم يخل منها فهو حادث ، وإنما كان كذلك لأن القابل للشيء لايخلو عنه وعن ضده كما قالت الكلابية ، لكن المعتزلة يقولون السكون ضد الحركة ، فالقابل لأحدهما لا يخلو عنه وعن الآخر ، وهؤلاء يقولون السكون ليس بضد وجودى بل هو عدمى ، وإنما الوجودى هو الاحداث والافناء ، فلو قبل قيام الإحداث والافناء به لكان قابلا لقيام الأضداد الوجودية ، والقابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده ، وهؤلاء

لما أراد منازعوهم إبطال قولهم كان عمدتهم بيان تناقض أقوالهم كما ذكر ذلك أبو المعالى وأتباعه ، وكما ذكر الآمدى تناقضهم من وجوه كثيرة قد ذكرت فى غير هذا الموضع ، وغايتها أنها تدل على مناقضتهم ، لا على صحة مذهب المنازع .

وثم طائفة كثيرة تقول:أنه تقوم به الحوادث وتزول وأنه كلم موسى بصوت وذلك الصوت عدم ، وهذا مذهب أئمة السنة والحديث من السلف وغيرهم ، وأظن الكرامية لهم فى ذلك قولان ، وإلا فالقول بفناء الصوت الذى كلم به موسى من جنس القول بقدمه، كما يقول ذلك من يقوله من أهل الكلام والحديث والفقه من السالمية وغيرهم ، ومن الحنبلية والشافعية والمالكية يقول : أنه كلم موسى بصوت سمعه موسى ، وذلك الصوت قديم وهذا القول يعرف فساده ببديهة العقل ، وكذلك قول من يقول كلمه بصوت حادث ، وان ذلك الصوت باق لايزال هو وسائر ما يقوم به من الحوادث هى أقوال يعرف فسادها بالبديهة .

وإنما أوقع هذه الطوائف فى هذه الأقوال ، ذلك الأصل الذى تلقوه عن الجهمية ، وهو أن ما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، وهو باطل عقلا وشرعا ، وهذا الأصل فاسد مخالف للعقل والشرع ، وبه استطالت عليهم الفلاسفة الدهرية ، فلا للاسلام نصروا ولا لعدوه كسروا بل قدخالفوا السلف والأئمة ،وخالفوا العقل والشرع ، وسلطوا عليهم وعلى المسلمين عدوهم من الفلاسفة والدهرية والملاحدة ، بسبب غلطهم فى هذا الأصل الذى جعلوه أصل دينهم ، ولو اعتصموا بما جاء به الرسول لوافقوا المنقول والمعقول ،

وثبت لهم الأصل ولكن ضيعوا الأصول ، فحرموا الوصول والأصول اتباع ماجاء به الرسول .

وأحدثوا أصولا ظنوا أنها أصول ثابتة ، وكانت كما ضرب الله المثلين مثل البناء والشجرة فقال فى المؤمنين والمنافقين : (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين) وقال : (ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) والأصول مأخوذة من أصول الشجرة وأساس البناء، ولهذا يقال فيه الأصل ما ابتنى عليه غيره أو ما يفرع عنه غيره .

فالأصول الثابتة هى أصول الأنبياء كما قيل :

أيها المغتدى لتطلب علما   كل علم عبد لعلم الرسول
تطلب الفرع كى تصحح حكما   ثم أغفلت أصل أصل الأصول

والله يهدينا وسائر اخواننا المؤمنين ، إلى صراطه المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. وهذه الأصول يذبنى عليها ما فى القلوب ويتفرع عليها ، وقد ضرب الله مثل الكلمة الطيبة التى فى قلوب المؤمنين . ومثل الكلمة الخبيثة التى فى قلوب الكافرين .

والكلمة هى قضية جازمة وعقيدة جامعة ، ونبينا صلى الله عليه وسلم أوتى فواتح الكلام وخواتمه وجوامعه ، فبعث بالعلوم الكلية والعلوم الأولية والآخرية على أتم قضية ، فالكلمة الطيبة فى قلوب المؤمنين وهى العقيدة الإيمانية التوحيدية (كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء) فأصل أصول الإيمان ثابت فى قلب المؤمن كنبات أصل الشجرة الطيبة وفرعها فى السماء (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) والله سبحانه مثل الكلمة الطيبة ، أى كلمة التوحيد بشجرة طيبة (أصلها ثابت وفرعها فى السماء).

فبين بذلك أن الكلمة الطيبة لها أصل ثابت فى قلب المؤمن ، ولها فرع عال ، وهى ثابتة فى قلب ثابت كما قال : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) فالمؤمن عنده يقين وطمأنينة والإيمان فى قلبه ثابت مستقر ، وهو فى نفسه ثابت على الإيمان مستقر لا يتحول عنه والكلمة الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ، استؤصلت واجتثت كما يقطع الشيء يجتث من فوق الأرض ، مالها من قرار ، لامكان تستقر فيه ولا استقرار فى المكان ، فان القرار يراد به مكان الاستقرار كما قال تعالى : (بئس القرار) وقال : (جعل لكم الأرض قرارا) ويقال : فلان ماله قرار : أى ثبات . وقد فسر القرار فى الآية بهذا وهذا ، فالمبطل ليس قوله ثابتا فى قلبه ، ولا هو ثابت فيه ولا يستقر كما قال تعالى فى المثل الآخر : (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض) فانه وإن اعتقده مدة فانه عند الحقيقة يخونه كالذى يشرك بالله ، فعند الحقيقة يضل عنه ما كان يدعو من دون الله ، وكذلك الأفعال الباطلة التى يعتقدها الانسان عند الحقيقة تخونه ولاتنفعه ، بل هى كالشجرة الخبيثة التى اجتثت من

فوق الأرض ما لها من قرار ، فمن كان معه كلمة طيبة أصلها ثابت كان له فرع فى السماء يوصله الى الله ، فانه سبحانه : (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) ومن لم يكن معه أصل ثابت فانه يحرم الوصول ، لأنه ضيع الأصول ولهذا تجد أهل البدع والشبهات لا يصلون إلى غاية محمودة كما قال تعالى : (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) .

والله سبحانه بعث الرسل ، وأنزل الكتب بأن يكون هو المعبود وحده لا شريك له ، وإنما يعبد بما أمر به على ألسن رسله .

وأصل عبادته معرفته بما وصف به نفسه فى كتابه ، وما وصف به رسله ولهذا كان مذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه ، وما وصفه به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، والذين ينكرون بعض ذلك ما قدروا الله حق قدره وما عرفوه حق معرفته ، ولا وصفوه حق صفته ولا عبدوه حق عبادته .

والله سبحانه قد ذكر هذه الكلمة (ما قدروا الله حق قدره) فى ثلاث مواضع ليثبت عظمته فى نفسه وما يستحقه من الصفات ، وليثبت وحدانيته وأنه لا يستحق العبادة إلا هو ، وليثبت ما أنزله على رسله فقال فى الزمر : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة) الآية وقال فى الحج : (ضعف الطالب والمطلوب وما قدروا الله حق قدره) وقال فى الأنعام : (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء)

والمواضع الثلاثة ذم الذين ما قدروه حق قدره من الكفار ، فدل ذلك على أنه يجب على المؤمن أن يقدر الله حق قدره كما يجب عليه أن يتقيه حق تقاته وأن يجاهد فيه حق جهاده قال تعالى : (وجاهدوا فى الله حق جهاده) وقال: (اتقوا الله حق تقاته) والمصدر هنا مضاف إلى المفعول والفاعل مراد أى حق جهاده الذى أمركم به ، وحق تقاته التى أمركم بها، واقدروه قدره الذى بينه لكم وأمركم به ، فصدقوا الرسول فيما أخبر وأطيعوه فيما أوجب وأمر وأما ما يخرج عن طاقة البشر فذلك لا يذم أحد على تركه ، قالت عائشة : فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو . ودلت الآية على أن له قدراً عظيما لا سيما قوله : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) وفى تفسير ابن أبى طلحة عن ابن عباس قال : من آمن بأن الله على كل شىء قدير فقد قدر الله حق قدره.

وقد ثبت فى الصحيحين من حديث ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية لما ذكر له بعض اليهود أن الله يحمل السموات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والجبال على أصبع ، والشجر والثرى على أصبع ، وسائر الخلق على أصبع ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجبا وتصديقا لقول الحبر وقرأ هذه الآية .

وعن ابن عباس قال مر يهودى بالنبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا القاسم ما تقول إذا وضع الله السماء على ذه ، والأرض على ذه ، والجبال والماء على ذه ، وسائر الخلق على ذه ، فأنزل الله تعالى : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه)

رواه الامام أحمد والترمذى من حديث أبى الضحى عن ابن عباس وقال : غريب حسن صحيح .

وهذا يقتضى أن عظمته أعظم مما وصف ذلك الحبر ، فان الذى فى الآية أبلغ كما فى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض » وفى الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يطوى الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أين الملوك الجبارون أين المتكبرون » ورواه مسلم أبسط من هذا ، وذكر فيه أنه ياخذ الأرض بيده الأخرى .

وقد روى ابن حاتم حدثنا أبى ثنا عمرو بن رافع ثنا يعقوب بن عبد الله عن جعفر عن سعيد بن جبير قال تكلمت اليهود فى صفة الرب تبارك وتعالى فقالوا : مالم يعلموا ولم يروا فأنزل الله على نبيه : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامه والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) فجعل صفته التى وصفوا بها شركا .

وقال : حدثنا أبى ثنا أبو نعيم ثنا الحكم يعنى أبا معاذ عن الحسن قال عمدت اليهود فنظروا فى خلق السموات والأرض والملائكة فلما فرغوا أخذوا يقدرونه فأنزل الله تعالى على نبيه :(وما قدروا الله حق قدره) وهذا يدل على أنه أعظم مما وصفوه وأنهم لم يقدروه حق قدره ، وقوله عما يشركون فكل من جعل مخلوقاً مثلا للخالق فى شيء من الأشياء فأحبه مثل مايحب الخالق ، أو وصفه بمثل ما يوصف به الخالق ، فهو مشرك سوى بين الله

وبين المخلوق فى شىء من الأشياء فعدل بربه ، والرب تعالى : لا كفؤ له ، ولا سمى له ، ولا مثل له ، ومن جعله مثل المعدوم والممتنع فهو شر من هؤلاء ، فإنه معطل ، ممثل . والمعطل : شر من المشرك ﴿ والله ثنى قصة فرعون ﴾ فى القرآن فى غير موضع لاحتياج الناس إلى الاعتبار بها ، فإنه حصل له من الملك ودعوى الربوبية والإلهية والعلو مالم يحصل مثله لأحد من المعطلين ، وكانت عاقبته إلى ماذكر الله تعالى وليس لله صفة يماثله فيها غيره فلهذا لم يجز أن يستعمل فى حقه قياس التمسك ولا قياس السموك الذى يستوى إفراده ، فإن ذلك شرك إذ سوى فيه بالمخلوق ، بل قياس الأولى فانه سبحانه له المثل الأعلى فى السموات والأرض فهو أحق من غيره بصفات الكمال ، وأحق من غيره بالتنزيه عن صفات النقص ، وقد بسطت هذه الأمور فى غير هذا الموضع وبين أن من جعله الوجود المطلق والمقيد بالسلب أوذاتا مجردة ، فهؤلاء مثلوه بأنقص المعقولات الذهنية ، وجعلوه دون الموجودات الخارجية ، والنفاة الذين قصدوا اثبات حدوث العالم باثبات حدوث الجسم ، لم يثبتوا بذلك حدوث شىء كما قد بين فى موضعه .

ثم أنهم جعلوا عمدتهم فى تنزيه الرب عن النقائص على نفى الجسم ، ومن سلك هذا المسلك لم ينزه الله عن شىء من النقائص البتة ، فإنه مامن صفة ينفيها لأنها تستلزم التجسيم وتكون من صفات الأجسام ، إلا يقال له فيما أثبته نظير ما يقوله هو فى نفس تلك الصفة ، فان كان مثبتاً لبعض الصفات قيل له القول فى هذه الصفة التى ينفيها كالقول فيما أثبته ، فان كان هذا تجسيما وقولا باطلا فهذا كذلك ، وإن قلت أنا أثبت هذا على الوجه الذى يليق

بالرب. قيل له : وكذلك هذا كذلك . وإن قلت أنا أثبته وأنفى التجسيم قيل ذلك وهذا كذلك ، فليس لك أن تفرق بين المتماثلين وإن ممن يثبت الأسماء وينفى الصفات كالمعتزلة قيل له فى الصفات مايقوله هوفىالأسماء، فاذا كان يثبت حياً عالماً قادراً وهو لايعرف من هو متصف بذلك إلا جسما ، كان إثبات أن له علماً وقدرة كما نطق به الكتاب والسنة كذلك ، وإن كان ممن لايثبت لا الأسماء ولا الصفات كالجهمية المحضة والملاحدة . قيل له : فلابد أن تثبت موجوداً قائماً بنفسه ، وأنت لاتعرف ذلك إلا جسما ، وإن قال لا أسميه باسم لا إثبات ولا نفى . قيل له : سكوتك لاينفى الحقائق ولا واسطة بين النفى والإثبات ، فاما أن يكون حقاً ثابتاً موجوداً ، واما أن يكون باطلا معدوما ، وأيضاً فان كنت لم تعرفه فانت جاهل فلا تتكلم ، وإن عرفته فلابد أن تميز بينه وبين غيره بما يختص به مثل أن يقول : رب العالمين ، أو القديم الأزلى . أو الموجود بنفسه ونحو ذلك ، وحينئذ فقد أثبت حياً موجوداً قائماً بنفسه وأثبته فاعلا ، وأنت لاتعرف ماهو كذلك إلا الجسم ، وإن قدر أنه جاحد له قيل له : فهذا الوجود مشهود ، فان كان قديما أزلياً موجوداً بنفسه فقد يثبت جسم قديم أزلى موجود بنفسه وهو مافررت منه ، وإن كان مخلوقا مصنوعا فله خالق خلقه ، ولابد أن يكون قديما أزليا فقد ثبت الموجود القائم بنفسه القديم الأزلى على كل تقدير ، وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

وهنا قد نبهنا على ذلك ، وأنه كل من بنى تنزيهه للرب عن النقائص والعيوب على نفى الجسم ، فانه لايمكنه أن ينزهه عن عيب أصلا بهذه الحجة ، وكذلك من جعل عمدته نفى التركيب .

ومن تدبر ما ذكروه فى كتبهم تبين له أنهم لم يقيموا حجة على وجوده، فلاهم أثبتوه وأثبتوا له ما يستحقه، ولانزهوه ونفوا عنه ما لايجوز عليه ، إذ كان إثباته هو إثبات حدوث الجسم ، ولم يقيموا على ذلك دليلا ، والنفى اعتمدوا فيه على ذلك ، وهم متناقضون فيه لو كانوا أقاموا دليلا على نفى كونه جسما فكيف إذا لم يقيموا على ذلك دليلا وتناقضوا .

وهذا مما يتبين لك أن من خرج عن الكتاب والسنة ، فليس معه علم لاعقلى ولاسمعى ، لاسيما فى هذا المطلوب الأعظم ، لكنهم قد يكونون معتقدين لعقائد صحيحة عرفوها بالفطرة العقلية وبما سمعوه من القرآن ودين المسلمين ، فقلوبهم تثبت ماتثبت وتنفى ما تنفى بناء على هذه الفطرة المكملة بالشرعة المنزلة ، لكنهم سلكوا هذه الطرق البدعية وليس فيها علم أصلا ، ولكن يستفاد من كلامهم إبطال بعضهم لقول المبطل الآخر وبيان تناقضه ، ولهذا لما ذكروا المقالات الباطلة فى الرب جعلوا يردونها بأن ذلك تجسيم ، كما فعل القاضى أبو بكر فى هداية المسترشدين وغيره ، فلم يقيموا حجة على أولئك المبطلين، وردوا كثيراً مما يقول اليهود بأنه تجسيم ، وقد كان اليهود عند النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة وكانوا أحياناً يذكرون له بعض الصفات كحديث الحبر ، وقد ذم الله اليهود على أشياء كقولهم : إن الله فقير وأن يده مغلولة . وغير ذلك . ولم يقل النبى صلى الله عليه وسلم قط أنهم يجسمون ولا أن فى التوراة تجسيما ولا عابهم بذلك ولا رد هذه الأقوال الباطلة بأن هذا تجسيم كما فعل ذلك من فعله من النفاة ، فبين أن هذه الطريقة مخالفة للشرع والعقل ، وأنها مخالفة لما بعث الله به رسوله ولما فطر عليه عباده ، وأن أهلها من جنس الذين قالوا : (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب

السعير) وقد بينا فى غير هذا الموضع فساد ما ذكره الرازى من أن طريقة الوجوب والإمكان من أعظم الطرق وبينا فسادها ، وأنها لاتفيد علماً وأنهم لم يقيموا دليلا على إثبات واجب الوجود وأن طريقة الكمال أشرف منها ، وعليها اعتماد العقلاء قديماً وحديثاً وهو قداعترف فى آخر عمره بأنه قدتأمل الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما وجدها تشفى عليلا ولاتروى غليلا، ووجد أقرب الطرق طريقة القرآن ، وطريقة الوجوب والإمكان لم يسلكها أحد قبل ابن سينا ، وهو أخذها من كلام المتكلمين الذين قسموا الوجود إلى محدث وقديم ، فقسمه هو إلى واجب وممكن، ليمكنه القول بأن الفلك ممكن مع قدرته وخالف بذلك عامة العقلاء من سلفه وغير سلفه وخالف نفسه فانه قد ذكر فى المنطق ما ذكره سلفه من أن الممكن لا يكون إلا محدثاً ، كما قد بسط الكلام عليه فى غير هذا الموضع .

﴿ ثم ﴾ أن هؤلاء الذين سلكوا هـــذه الطريقة انتهت بهم إلى قول فرعون ، فان فرعون جحد الخالق وكذب موسى فى أن الله كلمه ، وهؤلاء ينتهى قولهم إلى جحد الخالق ، وان أثبتوه قالوا: أنه لا يتكلم ولا نادى أحداً ولا ناجاه، وعمدتهم فى نفى ذاته على نفى الجسم، وفى نفى كلامه وتكليمه لموسى على أنه لاتحله الحوادث، فلا يبقى عندهم رب ولا مرسل فحقيقة قولهم تناقض شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فان الرسول هو المبلغ لرسالة مرسله ، والرسالة هى كلامه الذى بعثه به ، فاذا لم يكن متكلما لم تكن رسالة ولهذا اتفق الأنبياء على أن الله يتكلم ، ومن لم يقل أنه يتكلم بمشيئته وقدرته كلاماً يقوم بذاته لم يقل أنه يتكلم ، والنفاة منهم من يقول :

الكلام صفة فعل ، بمعنى أنه مخلوق بائن عنهم ، ومنهم من يقول هو صفة ذات ،بمعنى أنه كالحياة يقوم بذاته وهو لايتكلم بمشيئته وقدرته وكل طائفة مصيبة فى إبطال باطل الأخرى .

• الدليل يقوم على أنه صفة ذات ،وفعل تقوم بذات الرب. والرب يتكلم بمشيئته وقدرته ، فأدلة من قال أنه صفة فعل كلها إنما تدل على أنه يتكلم بقدرته ومشيئته ، وهذا حق وأدلة من قال أنه صفة ذات إنما تدل على أن كلامه يقوم بذاته وهذا حق ، وأما من أثبت أحدهما كمن قال إن كلامه مخلوق ، أو قال أنه لايتكلم بمشيئته وقدرته ، فهؤلاء فى الحقيقة لم يثبتوا أنه يتكلم ، ولا أثبتوا له كلاماً ، ولهذا يقولون مالا يعقل ، هذا يقول أنه معنى واحد قام بالذات ،وهذا يقول حروف، أوحروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لذاته ، وهذا يقول مخلوق بائن عنه .

ولهذا لما ظهر لطائفة من أتباعهم مافى قولهم من الفساد ، ولم يعرفوا عين هذه الأقوال الثلاثة ، حاروا وتوقفوا وقالوا : نحن نقر بما عليه عموم المسلمين من أن القرآن كلام الله ، وأما كونه مخلوقا أو بحرف وصوت أومعنى قائم بالذات فلا نقول شيئاً من هذا ، ومعلوم أن الهدى فى هذه الأصول ومعرفة الحق فيها ، ومعرفة ماجاء به الرسول وهو الموافق لصريح المعقول أنفع وأعظم من كثير مما يتكلمون فيه من العلم لاسيما والقلوب تطلب معرفة الحق فى هذه بالفطرة ، ولماقد رأوا من اختلاف الناس فيها ، وهؤلاء يذكرون هذا الوقف فى عقائدهم وفيما صنفوه فى أصول الدين ، كما قد رأيت منهم من أكابر شيوخ العلم والدين بمصر والشام ، قد صنفوا فى أصول

الدين ما صنفوه، ولما تكلموا فى مسألة القرآن ، وهل هو مخلوق ، أوقديم أو هو الحروف والأصوات ، أو معنى قائم بالذات ، نهوا عن هذه الأقوال وقالوا : الواجب أن يقال ماقاله المسلمون كلهم : أن القرآن كلام الله ويمسك عن هذه الأقوال ، وهؤلاء توقفوا عن حيرة وشك . ولهم رغبة فى العلم والهدى والدين ، وهم من أحرص الناس على معرفة الحق فى ذلك وغيره ، لكن لم يعلموا إلا هذه الأقوال الثلاثة ، قول المعتزلة ، والكلابية ، والسالمية ، وكل طائفة تبين فساد قول الأخرى ، وفى كل قول من الفساد ما يوجب الامتناع من قبوله ، ولم يعلموا قولا غير هذه فرضوا بالجهل البسيط ، وكان أحب اليهم من الجهل المركب ، وكان أسباب ذلك أنهم وافقوا هؤلاء على أصل قولهم ودينهم ، وهو الاستدلال على حدوث الأجسام ، وحدوث العالم بطريقة أهل الكلام المبتدع كما سلكها من ذكرته من أجلاء شيوخ أهل العلم والدين ، والاستدلال على إمكانها بكونها مركبة كما سلك الشيخ الآخر ، وهذا ينفى عن الواجب أن يكون جسما بهذه الطريقة وذلك نفى عنه أنه جسم بتلك الطريقة ، وحذاق النظار الذين كانوا أخبر بهذه الطرق وأعظم نظراً واستدلالا بها وبغيرها قد عرفوا فسادها ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

والله سبحانه قد أخبر أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وأخبر أنه ينصر رسله والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، والله سبحانه يجزى الانسان بجنس عمله ، فالجزاء من جنس العمل فمن خالف الرسل عوقب بمثل ذنبه فان كان قد قدح فيهم ، ونسب ما يقولونه إلى أنه جهل وخروج عن العلم والعقل ، ابتلى فى عقله وعلمه وظهر من جهله ما عوقب به ، ومن

قال عنهم أنهم تعمدوا الكذب أظهر الله كذبه. ومن قال : أنهم جهال أظهر الله جهله . ففرعون، وهامان ، وقارون، لما قالوا عن موسى أنه ساحر كذاب أخبر الله بذلك عنهم فى قوله : (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب) وطلب فرعون اهلاكه بالقتل وصار يصفه بالعيوب كقوله : (وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه انى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد) وقال: (أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين) أهلك الله فرعون وأظهر كذبه وافتراءه على الله وعلى رسله وأذله غاية الاذلال ، وأعجزه عن الكلام النافع، فلم يبين حجة ، وفرعون هذه الأمة أبو جهل كان يسمى أبا الحكم ولكن النبي صلى الله عليه وسلم سماه : أبا جهل ، وهو كما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبو جهل أهلك به نفسه وأتباعه فى الدنيا والآخرة .

﴿ والذين ﴾ قالوا عن الرسول أنه أبتر ، وقصدوا أنه يموت فينقطع ذكره عوقبوا بانبتارهم كما قال تعالى : (إن شانئك هو الأبتر) فلا يوجد من شنأ الرسول إلا بتره الله ، حتى أهل البدع المخالفون لسننه ، قيل لأبى بكر ابن عياش : إن بالمسجد قوما يجلسون للناس ويتكلمون بالبدعة. فقال : من جلس للناس جلس الناس اليه ، لكن أهل السنة يبقون ويبقى ذكرهم ، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم .

وهؤلاء المشبهون لفرعون الجهمية نفاة الصفات الذين وافقوا فرعون فى جحده ، وقالوا : انه ليس فوق السموات وأن الله لم يكلم موسى تكليما ، كما قال فرعون : (ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات

فاطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا) وكان فرعون جاحدا للرب فلولا أن موسى أخبره أن ربه فوق العالم ، لما قال أطلع إلى إله موسى وانى لأظنه كاذبا قال تعالى : (وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب) وقال تعالى : (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فاوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لا ينصرون وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين) .

ومحمد صلى الله عليه وسلم لما عرج به إلى ربه وفرض عليه الصلوات الخمس ذكر أنه رجع إلى موسى ، وأن موسى قال له ارجع إلى ربك فسله التخفيف إلى أمتك كما تواتر هذا فى أحاديث المعراج ، فموسى صدق محمداً فى أن ربه فوق وفرعون كذب موسى فى أن ربه فوق ، فالمقرون بذلك متبعون لموسى ومحمد ، والمكذبون بذلك موافقون لفرعون .

وهذه الحجة مما اعتمد عليها غير واحد من النظار ، وهى مما استمد عليه أبو الحسن الأشعرى فى كتابه فى الابانة ، وذكر عدة أدلة عقلية وسمعية ، على أن الله فوق العالم وقال فى أوله :

فان قال قائل :قد أنكرتم قول الجهمية والقدرية والخوارج والروافض والمعتزلة والمرجئة ، فعرفونا قولكم الذى به تقولون وديانتكم التى بها تدينون.

قيل له : قولنا الذى نقول به وديانتنا التى ندين بها : التمسك بكتاب ربنا وسنة نبينا وماجاء عن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل قائلون ، ولماخالف قوله مجانبون ، فانه الامام الكامل والرئيس الفاضل الذىأبان الله به الحق ، وأوضح به المناهج وقمع به بدع المبتدعين ، وزيغ الزائغين ، وشك الشاكين ، فرحمه الله من إمام مقدم وكبير مفهم وعلى جميع أئمة المسلمين ، وذكر جملة الاعتقاد والكلام على علو الله على العرش وعلى الرؤية ، ومسألة القرآن ونحو ذلك وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن المعطلة نفاة الصفات أو نفاة بعضها ، لا يعتمدون فى ذلك على ما جاء به الرسول إذ كان ماجاء به الرسول إنما يتضمن الاثبات لا النفى ، لكن يعتمدون فى ذلك على ما يظنونه أدلة عقلية ويعارضون بذلك ماجاء به الرسول ، وحقيقة قولهم أن الرسول لم يذكر فى ذلك مايرجع إليه لا من سمع ولا عقل ، فلم يخبر بذلك خبراً بين به الحق على زعمهم ، ولا ذكر أدلة عقلية تبين الصواب فى ذلك على زعمهم بخلاف غير هذا ، فانهم معترفون بأن الرسول ذكر فى القرآن أدلة عقلية على ثبوت الرب وعلى صدق الرسول ، وقد يقولون أيضا أنه أخبر بالمعاد، لكن نفوا الصفات لما رأوا أن ماذكروه من النفى لم يذكره الرسول فلم يخبر به ولا ذكر دليلا عقليا عليه بل إنما ذكر الاثبات وليس هو فى نفس الأمر حقا ، فأحوج الناس إلى التأويل أو التفويض، فلما نسبوا ماجاء به الرسول إلى أنه ليس فيه لا دليل سمعى ولا عقلى، لا خبر يبين الحق ، ولا دليل يدل عليه ، عاقبهم الله بجنس ذنوبهم ، فكان ما يقولونه فى هذا الباب خارجا عن العقل والسمع مع دعواهم أنه من العقليات البرهانية ، فاذا

اختبره العارف وجده من الشبهات الشيطانية من جنس شبهات أهل السفسطة والالحاد الذين يقدحون فى العقليات والسمعيات ، وأما السمع فخلافهم له ظاهر لكل أحد ، وإنما يظن من يعظمهم ويتبعهم أنهم أحكموا العقليات ، فاذا حقق الأمر وجدهم كما قال أهل النار : (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) وكما قال تعالى : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) .

فلما كان حقيقة قولهم : أن القرآن والحديث ليس فيه فى هذا الباب دليل سمعى ولا عقلى ، سلبهم الله فى هذا الباب معرفة الأدلة السمعية والعقلية حتى كانوا من أضل البرية مع دعواهم أنهم أعلم من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، بل قد يدعون أنهم أعلم من النبيين وهذا ميراث من فرعون وحزبه اللعين .

وقد قيل ان أول من عرف أنه أظهر فى الاسلام التعطيل الذى تضمنه قول فرعون، هو الجعد بن درهم فضحى به خالد بن عبد الله القسرى وقال : أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم، إنى مضح بالجعد بن درهم ، انه زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ثم نزل فذبحه وشكر له علماء المسلمين ما فعله كالحسن البصرى وغيره، وهذا الجعد اليه ينسب مروان بن محمد الجعدى آخر خلفاء بنى أمية، وكان شؤمه

عاد عليه حتى زالت الدولة ، فانه إذا ظهرت البدع التى تخالف دين الرسل انتقم الله ممن خالف الرسل وانتصر لهم ، ولهذا لما ظهرت الملاحدة الباطنية وملكوا الشام وغيرها ، ظهر فيها النفاق والزندقة الذى هو باطن أمرهم ، وهو حقيقة قول فرعون : انكار الصانع وانكار عبادته وخيارما كانوا يتظاهرون به الرفض ، فكانوا خيارهم وأقربهم إلى الاسلام الرافضة ، وظهر بسببهم الرفض والالحاد حتى كان من كان ينزل الشام مثل بنى حمدان العالية ونحوهم متشيعين وكذلك من كان من بنى بويه فى المشرق .

وكان ابن سينا وأهل بيته من أهـــل دعوتهم . قال : وبسبب ذلك اشتغلت فى الفلسفة ، وكان مبدأ ظهورهم من حين تولى المقتدر ، ولم يكن بلغ بعد ، وهو مبدأ انحلال الدولة العباسية ، ولهذا سمى حينئذ بأمير المؤمنين الأموى الذى كان بالأندلس ، وكان قبل ذلك لا يسمى بهذا الاسم . ويقول : لا يكون للمسلمين خليفتان ، فلما ولى المقتدر قال : هذا صبي لا تصح ولايته فسمى بهذا الاسم .

وكان بنو عبيد الله القداح الملاحدة يسمون بهذا الاسم ، لكن هؤلاء كانوا فى الباطن ملاحدة زنادقة منافقين ، وكان نسبهم باطلا كدينهم ، بخلاف الأموى والعباسى فان كلاهما نسبه صحيح وهم مسلمون كأمثالهم من خلفاء المسلمين .

فلما ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول سلطت عليهم الأعداء ، فخرجت الروم النصارى إلى الشام والجزيرة مرة بعد مرة ، وأخذوا الثغور الشامية شيئا بعد شيء الى أن أخذوا بيت المقدس ، فى أواخر المائة الرابعة ، وبعد هذا بمدة حاصروا دمشق ، وكان أهل الشام بأسوء حال بين

الكفار النصارى والمنافقين الملاحدة إلى أن تولى نور الدين الشهيد ، وقام بما قام به من أمر الإسلام والطهارة والجهاد لأعدائه ، ثم استنجد به ملوك مصر بنو عبيد على النصارى فانجدهم ، وجرت فصول كثيرة إلى أن أخذت مصر من بنى عبيد، أخذها صلاح الدين يوسف بن سادى وخطب بها لبنى العباس فمن حينئذ ظهر الاسلام بمصر بعد أن مكثت بأيدى المنافقين المرتدين عن دين الاسلام مائة سنة .

فكان الإيمان بالرسول والجهاد عن دينه سببا لخير الدنيا والآخرة ، وبالعكس البدع والالحاد ومخالفة ما جاء به سبب لشر الدنيا والآخرة .

فلما ظهر فى الشام ومصر والجزيرة الالحاد والبدع سلط عليهم الكفار ، ولما أقاموا ما أقاموه من الاسلام وقهر الملحدين والمبتدعين نصرهم الله على الكفار تحقيقا لقوله : (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين) .

وكذلك لما كان أهل المشرق قائمين بالاسلام ، وكانوا منصورين على الكفار المشركين من الترك والهند والصين وغيرهم ، فلما ظهر منهم ما ظهر من البدع والالحاد والفجور سلط عليهم الكفار قال تعالى : (وقضينا إلى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيرا فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار

وكان وعداً مفعولا ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها فاذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) .

وكان بعض المشايخ يقول : هولاكو ملك الترك التتار الذى قهر الخليفة بالعراق وقتل ببغداد مقتلة عظيمة جداً ، يقال قتل منهم ألف ألف، وكذلك قتل بحلب دار الملك حينئذ . كان بعض الشيوخ يقول : هو للمسلمين بمنزلة بخت نصر لبنى اسرائيل .

وكان من أسباب دخول هؤلاء ديار المسلمين : ظهور الإلحاد والنفاق والبدع ، حتى أنه صنف الرازى كتاباً فى عبادة الكواكب والأصنام وعمل السحر ، سماه « السر المكتوم فى السحر ومخاطبة النجوم » ويقال : أنه صنفه لأم السلطان علاء الدين محمد بن لكش بن جلال الدين خوارزم شاه ، وكان من أعظم ملوك الأرض ، وكان للرازى به اتصال أخوى حتى أنه وصى إليه على أولاده ، وصنف له كتاباً سماه الرسالة العلائية فى الاختيارات السماوية .

وهذه الاختيارات لأهل الضلال بدل الاستخارة التى علمها النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين ، كما قال جابر فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى وغيره كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها ، كما يعلمنا السورة من القرآن يقول : « إذاهم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من

غير الفريضة ثم ليقل اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم اللهم إن كنت تعلم أن هـذا الأمر — وتسميه باسمه — خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى فاقدره لى ويسره ثم بارك لى فيه وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى فاصرفه عنى واصرفنى عنه واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به » ﴿ وأهل النجوم ﴾ لهم اختيارات ، إذا أراد أحدهم أن يفعل فعلا أخذ طالعاً سعيداً فعمل فيه ذلك العمل لينجح بزعمهم ، وقد صنف الناس كتاباً فى الرد عليهم ، وذكروا كثرة مايقع من خلاف مقصودهم فيما يخبرون به ويأمرون به ، وكم يخبرون من خبر فيكون كذباً . وكم يأمرون باختياز فيكون شراً ، والرازى صنف الاختيارات لهذا الملك ، وذكر فيه الاختيار لشرب الخمر وغير ذلك ، كما ذكر فى السر المكتوم فى عبادة الكواكب ودعوتها مع السجود لها والشرك بها ودعائها مثل مايدعو الموحدون ربهم بل أعظم ، والتقرب اليها بما يظن أنه مناسب لها من الكفر والفسوق والعصيان ، فذكر أنه يتقرب إلى الزهرة بفعل الفواحش وشرب الخمر والغناء ونحو ذلك مما حرمه الله ورسوله ، وهذا فى نفس الأمر يقرب إلى الشياطين الذين يأمرونهم بذلك ، ويقولون لهم إن الكوكب نفسه يحب ذلك وإلا فالكواكب مسخرات بأمر الله مطيعة لله لاتأمر بشرك ولا غيره من المعاصى ، ولكن الشياطين هى التى تأمر بذلك ويسمونها روحانية الكواكب وقد يجعلونها ملائكة وإنما هى شياطين ، فلما ظهر بأرض المشرق نسب مثل هذا الملك ونحوه ومثل هذا العالم ونحوه ما ظهر من الإلحاد والبدع ، سلط الله عليهم الترك المشركين الكفار فأبادوا هذا الملك ، وجرت له أمور فيها عبرة لمن يعتبر ، ويعلم تحقيق ما أخبر الله

به فى كتابه حيث يقول : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) أى أن القرآن حق وقال : (سأريكم آياتى فلا تستعجلون) وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن دولة بنى أمية ، كان انقراضها بسبب هذا الجعد المعطل وغيره من الأسباب التى أوجبت إدبارها ، وفى آخر دولتهم ﴿ ظهر الجهم ابن صفوان ﴾ بخراسان وقد قيل : ان أصله من ترمذ ، وأظهر قول المعطلة النفاة الجهمية وقد قتل فى بعض الحروب ، وكان أئمة المسلمين بالمشرق أعلم بحقيقة قوله من علماء الحجاز والشام والعراق ولهذا يوجد لعبد الله بن المبارك وغيره من علماء المسلمين بالمشرق من الكلام فى الجهمية أكثر مما يوجد لغيرهم ، مع أن عامة أئمة المسلمين تكلموا فيهم ، ولكن لم يكونوا ظاهرين إلا بالمشرق ، لكن قوى أمرهم لما مات الرشيد وتولى ابنه الملقب بالمأمون بالمشرق وتلقى عن هؤلاء ماتلقاه .

ثم لما ولى الخلافة: اجتمع بكثير من هؤلاء ودعا إلى قولهم فى آخر عمره وكتب إلى بغداد وهو ﴿ بالثغر بطرسوس ﴾ التى ببلدسيس ، وكانت إذ ذاك أعظم ثغور بغداد ، ومن أعظم ثغور المسلمين يقصدها أهل الدين من كل ناحية ويرابطون بها ، رابط بها الإمام أحمد رضى الله عنه والسرى السقطى وغيرهما ، وتولى قضاءها أبو عبيد ، وتولى قضاءها أيضاً صالح بن أحمد بن حنبل ولهذا ذكرت فى كتب الفقه، كثيراً فانها كانت ثغراً عظيما .

فكتب من الثغر إلى نائبه ببغداد اسحاق بن ابراهيم بن مصعب كتاباً يدعو الناس فيه إلى أن يقولوا : ﴿ القرآن مخلوق ﴾ فلم يجبه أحد، ثم كتب

كتاباً ثانياً يأمر فيه بتقييد من لم يجبه وإرساله إليه ، فأجاب أكثرهم ثم قيدوا سبعة لم يجيبوا فأجاب منهم خمسة بعد القيد ، وبقي اثنان لم يجيبا : الإمام أحمد ابن حنبل ، ومحمد بن نوح. فأرسلوهما إليه ، فمات قبل أن يصلا إليه ثم أوصى إلى أخيه أبي اسحاق ، وكان هذا سنة ثمان عشرة ومائتين ، وبقي أحمد في الحبس إلى سنة عشرين ، فجرى ماجرى من المناظرة حتى قطعهم بالحجة ، ثم لما خافوا الفتنة ضربوه وأطلقوه ، وظهر مذهب النفاة الجهمية وامتحنوا الناس ؛ فصار من أجابهم أعطوه وإلا منعوه العطاء وعزلوه من الولايات ولم يقبلوا شهادته ، وكانوا إذا افتكوا الأسرى يمتحنون الأسير فان أجابهم افتدوه وإلا لم يفتدوه .

وكتب قاضيهم أحمد بن أبي داود على ستارة الكعبة : ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم. لم يكتب وهو السميع البصير .

ثم ولى الواثق واشتد الأمر إلى أن ولى المتوكل فرفع المحنة ، وظهرت حينئذ السنة وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود أن أئمة المسلمين لما عرفوا حقيقة قول الجهمية بينوه حتى قال عبد الله بن المبارك: إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية وكان ينشد :

عجبت لشيطان دعا الناس جهرة إلى النار واشتق اسمه من جهنم

وقيل له: بماذا يعرف ربنا؟ قال : بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه

قيل له : يحد . قال : يحد . وكذلك قال أحمد بن حنبل واسحاق بن ابراهيم ابن راهويه وعثمان بن سعيد الدارمى وغيرهم من أئمة السنة .

وحقيقة قول الجهمية المعطلة هو قول فرعون ، وهو جحد الخالق وتعطيل كلامه ودينه كما كان فرعون يفعل ، فكان يجحد الخالق جل جلاله ويقول : ما علمت لكم من إله غيرى ويقول لموسى : (لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين) ويقول : (أنا ربكم الأعلى) وكان ينكر أن يكون الله كلم موسى ، أو لا يكون لموسى إله فوق السموات ، ويريد أن يبطل عبادة الله وطاعته ، ويكون هو المعبود المطاع ، فلما كان قول الجهمية المعطلة النفاة يؤول إلى قول فرعون ، كان منتهى قولهم إنكار رب العالمين ، وإنكار عبادته ، وإنكار كلامه حتى ظهروا بدعوى التحقيق والتوحيد والعرفان ، فصاروا يقولون : العالم هو الله ، والوجود واحد ، والموجود القديم الأزلى الخالق ، هو الموجود المحدث المخلوق ، والرب هو العبد ماثم رب وعبد وخالق ومخلوق ، بل هو عندهم فرقان ، ولهذا صاروا يعيبون على الأنبياء وينقصونهم ، يعيبون على نوح وعلى ابراهيم الخليل وغيرهما ، ويمدحون فرعون ويجوزون عبادة جميع المخلوقات ، وجميع الأصنام ولا يرضون بأن تعبد الأصنام حتى يقولوا : إن عباد الأصنام لم يعبدوا إلا الله وأن الله نفسه هو العابد وهو المعبود وهو الموجود كله ، فجحدوا الرب وأبطلوا دينه وأمره ونهيه ، وما أرسل به رسله وتكليمه لموسى وغيره .

وقد ضل فى هذا جماعة ولهم معرفة بالكلام والفلسفة والتصوف المناسب لذلك ، كابن سبعين والصدر القونوى تلميذ ابن عربى والبليانى والتلمسانى

وهو من حذاقهم علماً ومعرفة ، وكان يظهر المذهب بالفعل فيشرب الخمر ويأتى المحرمات .

وحدثنى الثقة : أنه قرأ عليه فصوص الحكم لابن عربى ، وكان يظنه من كلام أولياء الله العارفين ، فلما قرأه رآه يخالف القرآن . قال : فقلت له هذا الكلام يخالف القرآن . فقال : القرآن كله شرك ، وإنما التوحيد فى كلامنا ، وكان يقول ثبت عندنا فى الكشف مايخالف صريح المعقول .

وحدثنى من كان معه ومع آخر نظير له ، فمرا على كلب أجرب ميت بالطريق عند دار الطعم . فقال له رفيقه : هذا أيضاً هو ذات الله . فقال : وهل ثم شىء خارج عنها نعم الجميع فى ذاته .

وهؤلاء حقيقة قولهم : هو قول فرعون ، لكن فرعون ما كان يخالف أحداً فينافقه فلم يثبت الخالق ، وإن كان فى الباطن مقراً به وكان يعرف أنه ليس هو إلا مخلوق ، لكن حب العلو فى الأرض والظلم دعاه إلى الجحود والإنكار كما قال : (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ، وأما هؤلاء فهم من وجه ينافقون المسلمين ، فلا يمكنهم إظهار جحود الصانع ومن وجههم ضلال يحسبون أنهم على حق وأن الخالق هو المخلوق ، فان كان قولهم هو قول فرعون لكن فرعون كان معانداً مظهراً للجحود والعناد وهؤلاء : إما جهال ضلال وإما منافقون مبطنون الإلحاد والجحود ويوافقون المسلمين فى الظاهر .

وحدثنى الشيخ عبد السيد الذى كان قاضى اليهود ثم أسلم ، وكان من أصدق الناس ومن خيار المسلمين وأحسنهم إسلاما : أنه كان يجتمع بشيخ منهم يقال له الشرف البلاسى ، يطلب منه المعرفة والعلم . قال : فدعانى إلى هذا المذهب .فقلت له : قولكم يشبه قول فرعون . قال: ونحن على قول فرعون فقلت لعبد السيد : واعترف لك بهذا . قال : نعم . وكان عبد السيد إذ ذاك قد ذاكرنى بهذا المذهب .فقلت له : هذا مذهب فاسد وهو يؤول إلى قول فرعون ، فحدثنى بهذا . فقلت له : ماظننت أنهم يعترفون بأنهم على قول فرعون ، لكن مع قرار الخصم مايحتاج إلى بينة . قال عبد السيد . فقلت له: لا أدع موسى وأذهب إلى فرعون . فقال : ولم . قلت : لأن موسى أغرق فرعون فانقطع واحتج عليه بالظهور الكونى . فقلت لعبد السيد وكان هذا قبل أن يسلم : نفعتك اليهودية ، يهودى خير من فرعونى .

وفيهم جماعات لهم عبادة وزهد وصدق فيما هم فيه ، وهم يحسبون أنه حق وعامتهم الذين يقرون ظاهراً وباطناً بأن محمداً رسول الله وأنه أفضل الخلق أفضل من جميع الأنبياء والأولياء ، لا يفهمون حقيقة قولهم بل يحسبون أنه تحقيق ماجاء به الرسول ، وأنه من جنس كلام أهل المعرفة الذين يتكلمون فى حقائق الإيمان والدين ، وهم من خواص أولياء الله فيحسبون هؤلاء من جنس أولئك ، من جنس الفضيل بن عياض وابراهيم بن أدهم وأبى سليمان الدارانى والسرى السقطى والجنيد بن محمد وسهل بن عبد الله وأمثال هؤلاء .

وأما عرافهم الذين يعلمون حقيقة قولهم فيعلمون أنه ليس الأمر كذلك

ويقولون مايقول ابن عربى ونحوه أن الاولياء أفضل من الأنبياء وأن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء ، وأن جميع الأنبياء يستفيدون معرفة الله من مشكاة خاتم الأولياء ، وأنه يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يأتى خاتم الأنبياء ، فانهم متجهمة متفلسفة يخرجون أقوال الفلسفة والجهمية فى قالب الكشف ، وعند المتفلسفة أن جبريل إنما هو خيال فى نفس النبى ليس هو ملكا يأتى من السماء ، والنبى عندهم يأخذ من هذا الخيال ، وأما خاتم الأولياء فى زعمهم فانه يأخذ من العقل المجرد الذى يأخذ منه الخيال ، فهو يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به إلى الرسول ، وهم يعظمون فرعون ويقولون ماقاله صاحب الفصوص . قال : ولما كان فرعون فى منصب التحكم صاحب الوقت وإن جاز فى العرف الناموسى لذلك قال : (أنا ربكم الأعلى)أى وإن كان الكل أرباباً بنسبة ما فأنا الأعلى منهم بما أعطيته فى الظاهر من الحكم فيكم . قال : ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله لم ينكروه وأقروا له بذلك وقالوا له : اقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . قال : فصح قول فرعون أنا ربكم الأعلى وإن كان فرعون عين الحق .

وحدثنى الثقة الذى كان منهم ثم رجع عنهم : أن أبغض الناس إليهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . قال : وإذا نهق الحمار ، ونبح الكلب ، سجدوا له وقالوا هذا هو الله ، فانه مظهر من المظاهر . قال : فقلت له : محمد ابن عبد الله أيضاً مظهر من المظاهر فاجعلوه كسائر المظاهر ، وأنتم تعظمون المظاهر كلها أو اسكتوا عنه . قال : فقالوا لى محمد نبغضه فانه أظهر الفرق ودعا إليه وعاقب من لم يقل به . قال : فتناقضوا فى مذهبهم الباطل وجعلوا

الكلب والحمار ، أفضل من أفضل الخلق . قال لى : وهم يصرحون باللعنة له ولغيره من الأنبياء ولا ريب أنهم من أعظم الناس عبادة للشيطان وكفراً بالرحمن .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا سمعتم صياح الديكة فسلوا الله من فضله فانها رأت ملكا وإذا سمعتم نهيق الحمار ونباح الكلب فتعوذوا بالله من الشيطان فانها رأت شيطاناً » فهم إذا سمعوا نهيق الحمار ونباح الكلب تكون الشياطين قد حضرت ، فيكون سجودهم للشياطين .

وكان فيهم شيخ جليل من أعظمهم تحقيقاً ، لكن هذا لم يكن من هؤلاء الذين يسبون الأنبياء وقد صنف كتاباً سماه « فك الأزرار عن أعناق الأسرار » ذكر فيه مخاطبة جرت له مع إبليس وأنه قال له ما معناه : إنكم قد غلبتمونى وقهرتمونى ونحو هذا ، لكن جرت لى قصة تعجبت منها مع شيخ منكم فإنى تجليت له . فقلت : أنا الله لا إله إلا أنا فسجد لى ، فتعجبت كيف سجد لى . قال هذا الشيخ فقلت له : ذاك أفضلنا وأعلمنا وأنت لم تعرف قصده ، ما رأى فى الوجود اثنين ، وما رأى إلا واحداً فسجد لذلك الواحد لا يميز بين إبليس وغيره ، فجعل هذا الشيخ ذاك الذى سجد لإبليس لا يميز بين الرب وغيره ، بل جعل إبليس هو الله هو وغيره من الموجودات جعله أفضلهم وأعلمهم .

ولهذا عاب ابن عربى نوحا أول رسول بعث إلى أهل الأرض ، وهو الذى جعل الله ذريته هم الباقين ، وأنجاه ومن معه فى السفينة وأهلك سائر

أهل الأرض لما كذبوه فلبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعظم قومه الكفار الذين عبدوا الأصنام ، وأنهم ماعبدوا إلا الله وأن خطاياهم خطت بهم فغرقوا فى بحار العلم بالله ، وهذا عادته ينتقص الأنبياء ويمدح الكفار كما ذكر مثل ذلك فى قصة نوح وابراهيم وموسى وهرون وغيرهم ، ومدح عباد العجل وتنقص هرون وافترى على موسى فقال : وكان موسى أعلم بالأمر من هرون لأنه علم ماعبده أصحاب العجل ، لعلمه بأن الله قدقضى أن لايعبد إلا إياه وما قضى الله بشيء إلا وقع ، فكان عتب موسى أخاه هرون لما وقع الأمر فى إنكاره وعدم اتساعه ، فان العارف من يرى الحق فى كل شيء ، بل يراه عين كل شيء ، فذكر عن موسى أنه عتب على هرون أنه أنكر عليهم عبادة العجل ، وأنه لم يسع ذلك فلم ينكره ، فان العارف من يرى الحق فى كل شيء بل يراه عين كل شيء .

وهذا من أعظم الافتراء على موسى وهرون وعلى الله وعلى عباد العجل فان الله أخبر عن موسى أنه أنكر العجل إنكاراً أعظم من إنكار هرون ، وأنه أخذ بلحية هرون لما لم يدعهم ويتبع موسى لمعرفة قال تعالى : (وما أعجلك عن قومك ياموسى قال هم أولاء على أثرى وعجلت اليك رب لترضى قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى أفلا يرون أن لايرجع إليهم قولا ولايملك لهم ضراً ولا نفعاً ولقد قال لهم هرون من

قبل ياقوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى قال ياهارون مامنعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمرى قال يا ابن أم لاتأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى) .

قلت لبعض هؤلاء : هذا الكلام الذى ذكره هذا عن موسى وهارون يوافق القرآن أو يخالفه . فقال : لا بل يخالفه . قلت : فاختر لنفسك اما القرآن وإما كلام ابن عربى وكذلك قال عن نوح . قال : لو أن نوحاً جمع لقومه بين الدعوتين لأجابوه أى ذكر لهم فدعاهم جهاراً ثم دعاهم اسراراً إلى أن قال : ولما علموا أن الدعوة إلى الله مكر بالمدعو لأنه ماعدم من البداية ، فيدعى إلى الغاية ادعوا إلى الله ، فهذا عين المكر على بصيرة فنبه أن الأمر كله لله ، فأجابوه مكراً كما دعاهم . فجاء المحمدى وعلم أن الدعوة إلى الله ماهى من حيث هويته ، وإنما هى من حيث أسماؤه فقال : (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) فجاء بحرف الغاية وقرنها بالاسم ، فعرفنا أن العالم كان تحت حيطة اسم إلهى أوجب عليهم أن يكونوا متقين . فقالوا فى مكرهم : (لاتذرن آلهتكم ولاتذرن ودا ولاسواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) فانهم إذا تركوهم جهلوا من الحق بقدر ما تركوا من هؤلاء ، فإن للحق فى كل معبود وجها يعرفه من يعرفه ، ويجهله من يجهله ، كما قال فى المحمديين : (وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) أى حكم فالعارف يعرف من عبد وفى أى صورة ظهر حتى عبد ، وان التفريق والكثرة كالأعضاء فى الصورة المحسوسة وكالقوى المعنوية فى الصورة الروحانية ، فما عبد غير الله فى كل معبود .

وهو دائما يحرف القرآن عن مواضعه كما قال فى هذه القصة : (مما خطاياهم) فهى التى خطت بهم ، فغرقوا فى بحار العلم بالله وهى الحيرة ، فادخلوا ناراً فى عين الماء فى المحمديين : (وإذا البحار سجرت) سجرت التنور : أوقدته فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ، فكان الله عين أنصارهم فهلكوا فيه إلى الأبد . وقوله : (وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه) بمعنى أمر وأوجب وفرض ، وفى القراءة الأخرى : (ووصى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه) فجعل معناه أنه قدر وشاء أن لا تعبدوا إلا إياه وما قدره فهو كائن ، فجعل معناها كل معبود هو الله وأن أحداً ما عبد غير الله قط ، وهذا من أظهر الفرية على الله وعلى كتابه وعلى دينه وعلى أهل الأرض ، فان الله فى غير موضع أخبر أن المشركين عبدوا غير الله ، بل يعبدون الشيطان كما قال تعالى : (ألم أعهد اليكم يابنى آدم أن لاتعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلا كثيراً أفلم تكونوا تعقلون) وقال تعالى عن يوسف أنه قال : (ياصاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر أن لاتعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وقال تعالى : (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ان هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين) وقال تعالى عن الخليل : (إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولايغنى عنك شيئاً يا أبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك

صراطاً سوياً يا أبت لاتعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً قال أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى ملياً قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفياً وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقياً فلما اعتزلهم ومايعبدون من دون الله وهبنا له اسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً) .

فهو سبحانه يقول : (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله) وهؤلاء الملحدون يقولون : ماعبدنا غير الله فى كل معبود .

وقال تعالى : (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ألم يروا أنه لايكلمهم ولا يهديهم سبيلا) اتخذوه وكانوا ظالمين ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا : (لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين — إلى قوله — إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين) .

قال أبو قلابة : هى لكل مفتر إلى يوم القيامة أن يذله الله .

والجهمية النفاة كلهم مفترون كما قال الامام أحمد بن حنبل : إنما يقودون قولهم إلى فرية على الله وهؤلاء من أعظمهم افتراء على الله ، فان القائلين بأن وجود الخالق هو وجود المخلوق هم أعظم افتراء ممن يقول : أنه يحل فيه وهؤلاء يجهلون من يقول بالحلول ، أو يقول بالاتحاد ، وهو أن الخالق اتحد

مع المخلوق، فان هذا إنما يكون إذا كان شيئان متباينان ثم اتحد أحدهما بالآخر كما يقوله النصارى من اتحاد اللاهوت مع الناسوت ، وهذا انما يقال فى شيء معين، وهؤلاء عندهم ما ثم وجود لغيره حتى يتحد مع وجوده ، وهم من أعظم الناس تناقضا فانهم يقولون : ما ثم غير ولا سوى. ويقول: السبعينية ليس إلا الله بدل قول المسلمين لا إله إلا الله ثم يقولون : هؤلاء المحجوبون لا يرون هذا فاذا كان ما ثم غير ولا سوى ، فمن المحجوب ومن الحاجب ، ومن الذى ليس بمحجوب وعما حجب. فقد أثبتوا أربعة أشياء : قوم محجوبون ، وقوم ليسوا بمحجوبين ، وأمراً انكشف لهؤلاء ، وحجب عن أولئك، فأين هذا من قولهم : ما ثم اثنان ولا وجودان ، كما حدثنى الثقة أنه قال للتلمسانى : فعلى قولكم لا فرق بين امرأة الرجل وأمه وبنته . قال : نعم الجميع عندنا سواء ، لكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام فقلنا حرام عليكم، فقيل لهم فمن المخاطب للمحجوبين أهو هم أم غيرهم ، فان كانوا هم فقد حرم على نفسه لما زعم أنه حرام عليهم دونه ، وإن كانوا غيره فقد أثبت غيرين ، وعندهم ما ثم غير وهؤلاء اشتبه عليهم الواحد بالنوع بالواحد بالعين. فانه يقال : الوجود واحد كما يقال : الانسانية واحدة ، والحيوانية واحدة . أى يعنى واحد كلى ، وهذا الكلى لا يكون كليا الا فى الذهن لا فى الخارج ، فظنوا هذا الكلى ثابتا فى الخارج ثم ظنوه هو الله .

وليس فى الخارج كلى مع كونه كليا ، وإنما يكون كليا فى الذهن ، وإذا قدر فى الخارج كلى ، فهو جزء من المعينات وقائم بها ليس هو متميزا قائما بنفسه، فحيوانية الحيوان وانسانية الإنسان سواء قدرت معينة أو مطلقة ، هى صفة له ويمتنع أن يكون صفة الموصوف مبدعة له ، ولو قدر وجودها مجردا

عن العيان على رأى من أثبت المثل الافلاطونية ، فتثبت الماهيات الكلية مجردة عن الموصوفات ويدعى أنها قديمة أزلية ، مثل انسانية مجردة وحيوانية مجردة، وهذا خيال باطل ، وهذا الذى جعله مجردا هو مجرد فى الذهن وليس فى الخارج كلى مجرد ، واذاقدر ثبوت كلى مجرد فى الخارج وهو مسمى الوجود فهذا يتناول وجود المحدثات كلها كما يتناول وجود القديم ، وهذا لا يكون مبدعا لشىء ولا اختصاص له بصفات الكمال ، فلا يوصف بأنه حى عليم قدير ، إذ ليس وصفه بذلك بأولى من وصفه بأنه عاجز جاهل ميت ، والخالق لابد أن يكون حيا عليما قديرا سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً ، ثم لو قدر أن هذا هو الخالق فهذا غير الأعيان الموجودة المخلوقة ، فقد ثبت وجودان. أحدهما غير الآخر ، وأحدهما محدث مخلوق ، فيكون الآخر الخالق غير المخلوق ، ولا يمكن جحد وجود الأعيان المعينة ، ولكن الواحد من هؤلاء قد تغيب عن شهود المغيبات كما يغيب عن شهود نفسه ، فيظن أن ما لم يشهده قد عدم فى نفسه وفنى وليس كذلك ، فان ما عدم وفنى شهوده له وعلمه به ونظره اليه ، فالمعدوم الفانى صفة هذا الشخص ، وإلا فالموجودات فى نفسها باقية على حالها لم تتغير ، وعدم العلم ليس علما بالمعدوم ، وعدم المشهود ليس شهودا للعدم ، ولكن هذه الحال يعترى كثيرا من السالكين يغيب أحدهم عن شهود نفسه وغيره من المخلوقات ، وقد يسمون هذا فناء واصطلاما ، وهذا فناء عن شهود تلك المخلوقات لا أنها فى نفسها فنيت ، ومن قال : فنى مالم يكن وبقى مالم يزل ، فالتحقيق إذا كان صادقا أنه فنى شهوده لما لم يكن وبقى شهوده لما لم يزل لا إن مالم يكن فنى فى نفسه فانه باق موجود ، ولكن يتوهمون إذا لم يشهدوه أنه قد عدم فى نفسه .

ومن هنا دخلت طائفة فى الاتحاد والحلول ، فأحدهم قد يذكر الله حتى يغلب على قلبه ذكر الله ويستغرق فى ذلك، فلا يبقى له مذكور مشهود لقلبه إلا الله ويفنى ذكره وشهوده لما سواه ، فيتوهم أن الأشياء قد فنيت وأن نفسه فنيت ، حتى يتوهم أنه هو الله وأن الوجود هو الله .

ومن هذا الباب غلط أبى يزيد ونحوه حيث قال : ما فى الجبة إلا الله ، وقد بسط هذا فى غير هذا الموضع ، وبين أنه يعبر بالفناء عن ثلاثة أمور أحدها : أنه يغنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه ، وبمحبته وطاعته وخشيته ورجائه والتوكل عليه عن محبة ما سواه ، وطاعته وخشيته ورجائه والتوكل عليه . وهذا هو حقيقة التوحيد الذى بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب . وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله فقد فنى من قلبه التأله لغير الله ، وبقى فى قلبه تأله الله وحده ، وفنى من قلبه حب غير الله وخشية غير الله والتوكل على غير الله ، وبقى فى قلبه حب الله وخشية الله والتوكل على الله، وهذا الفناء يجامع البقاء فيخلى القلب عن عبادة غير الله مع تجلى القلب بعبادة الله وحده كما قال صلى الله عليه وسلم لرجل : « قل أسلمت لله وتخليت » وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله بالنفى مع الاثبات ، نفى إلهية غيره مع إثبات إلهيته وحده ، فانه ليس فى الوجود إله إلا الله ليس فيه معبود يستحق العبادة إلا الله فيجب أن يكون هذا ثابتا فى القلب ، فلا يكون فى القلب من يألهه القلب ويعبده إلا الله وحده ، ويخرج من القلب كل تأله لغير الله ، ويثبت فيه تأله الله وحده . إذ كان، ليس ثم إله إلا الله وحده ، وهذه الولاية لله مقرونة بالبراءة والعداوة لكل معبود سواه ولمن عبدهم قال تعالى عن الخليل عليه السلام : (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه أننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فانه سيهدين) وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون .

وقال : (أفرأيتم ماكنتم تعبدون أنتم واباؤكم الأقدمون فانهم عدو لى إلا رب العالمين) .

وقال تعالى : (قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) .

قلت لبعض ماخاطبته من شيوخ هؤلاء : قول الخليل انى براء مما تعبدون ممن تبرأ الخليل . أتبرأ من الله تعالى وعندكم ماعبد غير الله قط ، والخليل قد تبرأ من كل ما كانوا يعبدون إلا من رب العالمين ، وقد جعل الله لنا وفيمن معه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر قال تعالى : (قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد) وقد قال صلى الله عليه وسلم : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد ٭ ألا كل شيء ماخلا الله باطل » وهذا تصديق قوله تعالى : (ذلك بأن الله هو الحق وأن مايدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير) وقال تعالى : (فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون) وقال سبحانه: (كل شيء هالك إلا وجهه) قال طائفة من السلف : كل عمل باطل إلا ما أريد

به وجهه . وقد قال سبحانه : (ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت اليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين ولاتدع مع الله إلها آخر) والإله هو المألوه،أى المستحق أن يؤله أى يعبد، ولا يستحق أن يؤله ويعبد إلا الله وحده ، وكل معبود سواه من لدن عرشه الى قرار أرضه باطل ، وفعال بمعنى مفعول ، مثل لفظ الركاب والحمال بمعنى المركوب والمحمول ، وكان الصحابة يرتجزون فى حفر الخندق يقولون :

هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبر ربنـــا وأظهر

وإذا قيل : هذا هو الإمام ، فهو الذى يستحق أن يؤتم به كما قال تعالى لإبراهيم : (انى جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين) فعهده بالإمامة لاينال الظالم ، فالظالم لايجوز أن يؤتم به فى ظلمه ولايركن اليه كما قال تعالى : (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) فمن ائتم بمن لا يصلح للإمامة فقد ظلم نفسه ، فكيف بمن جعل مع الله إلهاً آخر وعبد من لا يصلح للعبادة ، والله تعالى لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴿ وقد غلط ﴾ طائفة من أهل الكلام فظنوا أن الإله بمعنى الفاعل، وجعلوا الإلهية هى القدرة والربوبية ،فالإله هو القادر وهو الرب، وجعلوا العباد مألوهين كما أنهم مربوبون . فالذين يقولون بوحدة الوجود متنازعون فى أمور ، لكن إمامهم ابن عربى يقول : الأعيان ثابتة فى العدم ووجود الحق فاض عليها ، فلهذا قال : فنحن جعلناه بمألوهيتنا إلها ، فزعم أن المخلوقات جعلت الرب إلهاًلها حيث كانوا مألوهين ، ومعنى مألوهين عنده مربوبين ، وكونهم مألوهين حيث كانت أعيانهم ثابتة فى العدم ،

وفى كلامهم من هذا وأمثاله مما فيه تنقص بالربوبية مالايحصى فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

والتحقيق أن الله خالق كل شيء والمعدوم ليس بشيء فى الخارج، ولكن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون ويكتبه ، وقد يذكره ويجريه فيكون سبباً فى العلم والذكر والكتاب لافى الخارج كما قال : (انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)والله سبحانه خالق الإنسان ومعلمه فهو الذى خلق: (خلق الإنسان من علق) وهو الأكرم : (الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم) ولو قدر أن الإله بمعنى الرب ، فهو الذى جعل الرب مربوباً ، فيكون على هذا هو الذى جعل المألوه مألوها ، والمربوب لم يجعله رباً بل ربوبيته صفة ، وهو الذى خلق المربوب وجعله مربوباً ، وهو إذا آمن بالرب واعتقد ربوبيته وأخبر بها ، كان قد اتخذ الله رباً ولم يبغ رباً سوى الله ولم يتخذ رباً سواه كما قال تعالى : (قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شيء) وقال تعالى : (أفغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض) وقال : (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) وهو أيضاً فى نفسه هو الإله الحق لاإله غيره ، فإذا عبده الانسان فقد وحده من لم يجعل معه إلها آخر ولا اتخذ إلها غيره قال تعالى : (فلاتجعل مع الله إلها آخر فتكون مع المعذبين) وقال تعالى : (ولاتجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموماً مخذولا) وقال ابراهيم لأبيه آزر : (أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين) فالمحبوب ليس بإله فى نفسه لكن عابده اتخذه إلها وجعله إلها وسماه إلها ،وذلك كله باطل لاينفع صاحبه ،بل يضره كما أن الجاهل إذا اتخذ إماما ومفتياً وقاضيا كان ذلك باطلا ، فانه لايصلح أن

يؤم ولا يفنى ولا يقضى ، وغير الله لا يصلح أن يتخذ إلها يعبد ويدعى ، فإنه لا يخلق ولا يرزق ، وهو سبحانه لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، ولا ينفع ذا الجد منه الجد ، ومن دعا من لا يسمع دعاءه أو يسمع ولا يستجيب له فدعاؤه باطل وضلال ، وكل من سوى الله إما أنه لا يسمع دعاء الداعى أو يسمع ولكن لا يستجيب له، فان غير الله لا يستقل بفعل شىء البتة وقد قال تعالى: (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ومالهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فغير الله لا مالك لشىء ولا شريك فى شىء ولا هو معاون للرب فى شىء ، بل قد يكون له شفاعة إذ كان من الملائكة والأنبياء والصالحين ، ولكن لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ، فلابد أن يأذن للشافع أن يشفع ، وأن يأذن للمشفوع له أن يشفع له ، ومن دونه لا يملكون الشفاعة البتة ، فلا يصلح من سواه لأن يكون إلها معبوداً ، كما لا يصلح أن يكون خالقاً رازقاً ، لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير .

﴿ فصل ﴾ وهؤلاء كان من أعظم أسباب ضلالهم : مشاركتهم للفلاسفة وتلقيهم عنهم ، فان أولئك القوم من أبعد الناس عن الاستدلال بما جاء به الرسول ، فان الرسول بعث بالبينات والهدى بين الأدلة العقلية ، ويخبر الناس بالغيب الذى لا يمكنهم معرفته بعقولهم ، وهؤلاء المتفلسفة يقولون : انه لم يفد الناس علما بخبره ولا بدلالته ، وإنما خاطب خطابا جمهوريا ليصلح به العامة فيعتقدوا فى الرب والمعاد اعتقاداً ينفعهم، وإن كان كذبا وباطلا ، وحقيقة كلامهم أن الأنبياء تكذب فيما تخبر به لكن كذبا للمصلحة ، فامتنع

أن يطلبوا من خبرهم علما ، وإذا لم تكن أخبارهم مطابقة للمخبر فكيف يثبتون أدلة عقلية على ثبوت ما أخبروا به . والمتكلمون الذين يقولون أنهم لايخبرون إلا بصدق ، ولكن يسلكون فى العقليات غير طريقهم ، مبتدعون مع اقرارهم بأن القرآن اشتمل على الأدلة العقلية ، فكيف بهؤلاء الملاحدة المفترين ، ولهذا لايعتنون بالقرآن ولاتفسيره ، ولا بالحديث وكلام السلف وان تعلمـــوا من ذلك شيئاً فلأجل تعلق الجمهور به ليعيشوا بينهم بذكره لا لاعتقادهم موجبه فى الباطن ، وهذا بخلاف طوائف المتكلمين ، فإنهم يعظمون القرآن فى الجملة وتفسيره مع مافيهم من البدع . ولهذا لما استولى التتار على بغداد ، وكان الطوسى منجماً لهولاكو استولى على كتب الناس الوقف والملك ، فكان كتب الإسلام مثل التفسير والحديث والفقه والرقائق يعدمها ، وأخذ كتب الطب والنجوم والفلسفة والعربية ، فهذه عنده هى الكتب المعظمة ، وكان بعض من أعرفه قارئا خطيبا لكن كان يعظم هؤلاء ويرتاض رياضة فلسفية سحرية حتى يستخدم الجن ، وكان بعض الشياطين ألقى اليه أن هؤلاء يستولون على دار الإسلام ، فكان يقول لبعض أصحابنا : يا فلان عن قليل يرى هذا الجامع جامع دمشق يقرأ فيه المنطق والطبيعى والرياضى والإلهى ثم يرضيه فيقول : والعربية أيضاً ، والعربية إنما احتاج المسلمون إليها لأجل خطاب الرسول بها ، فإذا أعرض عن الأصل كان أهل العربية بمنزلة شعراء الجاهلية أصحاب المعلقات السبع ونحوهم من حطب النار .

﴿ فصل ﴾ أول التفرق والابتداع فى الإسلام بعد مقتل سيدنا عثمان وافتراق المسلمين ، فلما اتفق علي ومعاوية على التحكيم أنكرت الخوارج

وقالوا : لاحكم إلا لله وفارقوا جماعة المسلمين ، فأرسل اليهم ابن عباس فناظرهم فرجع نصفهم ، والآخرون أغاروا على ماشية الناس واستحلوا دماءهم فقتلوا ابن خباب . وقالوا : كلنا قتله . فقاتلهم على وأصل مذهبهم تعظيم القرآن وطلب اتباعه لكن خرجوا عن السنة والجماعة ، فهم لايرون اتباع السنة التى يظنون أنها تخالف القرآن ، كالرجم ونصاب السرقة وغير ذلك فضلوا فإن الرسول : أعلم بما أنزل الله عليه ، والله قد أنزل عليه الكتاب والحكمة ، وجوزوا على النبى أن يكون ظالما ، فلم ينفذوا لحكم النبى ولا لحكم الأئمة بعده ، بل قالوا ان عثمان وعليا ومن والاهما قد حكموا بغير ما أنزل الله ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، فكفروا المسلمين بهذا وبغيره ، وتكفيرهم وتكفير سائر أهل البدع مبنى على مقدمتين باطلتين . احداهما : أن هذا يخالف القرآن ، والثانية : أن من خالف القرآن يكفر ولو كان مخطئا أو مذنبا معتقداً للوجوب والتحريم .

وبازائهم الشيعة غلوا فى الأئمة وجعلوهم معصومين يعلمون كل شىء ، وأوجبوا الرجوع إليهم فى جميع ماجاءت به الرسل ، فلا يعرجون لا على القرآن ولا على السنة ، بل على قول من ظنوه معصوما ، وانتهى الأمر إلى الائتمام بإمام معدوم لاحقيقة له فكانوا أضل من الخوارج ، فان أولئك يرجعون إلى القرآن وهو حق وإن غلطوا فيه ، وهؤلاء لايرجعون إلى شىء بل الى معدوم لاحقيقة له ، ثم انما يتمسكون بما ينقل لهم عن بعض الموتى ، فيتمسكون بنقل غير مصدق عن قائل غير معصوم ، ولهذا كانوا أكذب الطوائف ، والخوارج صادقون فحديثهم من أصلح الحديث ، وحديث الشيعة من أكذب الحديث ، ولكن الخوارج دينهم المعظم مفارقة جماعة المسلمين

واستحلال دمائهم وأموالهم ، والشيعة تختار هذا لكنهم عاجزون ، والزيدية تفعل هذا ، والإمامية تارة تفعله وتارة يقولون لانقتل الا تحت راية امام معصوم ، والشيعة استتبعوا أعداء الملة من الملاحدة والباطنية وغيرهم ، ولهذا وصت الملاحدة مثل القرامطة الذين كانوا فى البحرين وهم من أكفر الخلق ومثل قرامطة المغرب ومصر ، وهم كانوا يستترون بالتشيع ، أوصوا بأن يدخل على المسلمين من باب التشيع ، فانهم يفتحون الباب لكل عدو الإسلام من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين ، وهم من أبعد الناس عن القرآن والحديث كما قد بسط هذا فى مواضع .

والمقصود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « انى تارك فيكم الثقلين كتاب الله » فحض على كتاب الله ثم قال : « وعترتى أهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى ثلاثا » فوصى المسلمين بهم لم يجعلهم أئمة يرجع المسلمون اليهم ، فانتحلت الخوارج كتاب الله وانتحلت الشيعة أهل البيت ، وكلاهما غير متبع لما انتحله ، فان الخوارج خالفوا السنة التى أمر القرآن باتباعها وكفروا المؤمنين الذين أمر القرآن بموالاتهم ، ولهذا تأول سعد بن أبي وقاص فيهم هذه الآية : (وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض) وصاروا يتتبعون المتشابه من القرآن ، فيتأولونه غير تأويله من غير معرفة منهم بمعناه ، ولا رسوخ فى العلم ، ولا اتباع للسنة ، ولا مراجعة لجماعة المسلمين الذين يفهمون القرآن ، وأما مخالفة الشيعة لأهل البيت فكثيرة جداً قد بسطت فى مواضع .

(فصل) ثم حدث فى آخر عصر الصحابة القدرية ، فكانت الخوارج تتكلم فى حكم الله الشرعى ، أمره ونهيه وما يتبع ذلك من وعده ووعيده ، وحكم من وافق ذلك ومن خالفه ومن يكون مؤمناً وكافراً ، وهى مسائل الأسماء والأحكام ، وسموا محكمة لخوضهم فى التحكيم بالباطل ، وكان الرجل إذا قال لا حكم إلا لله . قالوا : هو محكم : أى خائض فى حكم الله ، فخاض أولئك فى شرع الله بالباطل ، وأما القدرية : فخاضوا فى قدره بالباطل ، وأصل ضلالهم ظنهم أن القدر يناقض الشرع ، فصاروا حزبين : حزبا يعظمون الشرع والأمر والنهى والوعد والوعيد واتباع مايحبه الله ويرضاه ، وهجر ما يبغضه ومايسخطه ، وظنوا أن هذا لا يمكن أن يجمع بينه وبين القدر ، فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه كما قطعت الخوارج ما أمر الله به أن يوصل من اتفاق الكتاب والسنة وأهل الجماعة ، ففرقوا بين الكتاب والسنة ، وفرقوا بين الكتاب وجماعة المسلمين ، وفرقوا بين المسلمين ، فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وكذلك القدرية . فصاروا حزبين : حزباً يغلب الشرع فيكذب بالقدر وينفيه أو ينفى بعضه ، وحزبا : يغلب القدر فينفى الشرع فى الباطن أو ينفى حقيقته ويقول : لا فرق بين ما أمر الله به وما نهى عنه فى نفس الأمر الجميع سواء ، وكذلك أولياؤه وأعداؤه وكذلك ماذكر أنه يحبه وذكر أنه يبغضه ، لكنه فرق بين المتماثلين بمحض المشيئة يأمر بهذا وينهى عن مثله ، فجحدوا الفرق والفصل الذى بين التوحيد والشرك ، وبين الإيمان والكفر ، وبين الطاعة والمعصية ، وبين الحلال والحرام كما أن أولئك وإن أقروا بالفرق فأنكروا الجمع ، وأنكروا أن يكون الله على كل شىء قدير ، ومنهم من أنكر أن يكون الله بكل شىء عليما ، وأنكروا

أن يكون خالقاً لكل شيء ، وأن يكون ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنكروا أن يكون الله فعالا لما يشاء ، وأثبتوا لغير الله الانفراد بالأحداث وشركاء، خلقوا كخلقه كما فعلت المجوس ، واعتقدوا أنه لا يمكن الإيمان بأمره ونهيه إلا مع تعجيزه أو تجهيله ،وأنه لا يمكن أن يوصف بالاحسان والكرم إن لم يجعل عاجزا وإلا لزم أن يكون بخيلا ، كما أن القدرية المجبرة قالوا : لا يمكن أن يجعل عالما قادراً إلا بتسفيهه وتجويره ، فهؤلاء نفوا حكمته وعدله ، وأولئك نفوا قدرته ومشيئته أو قدرته ومشيئته وعلمه ، وهؤلاء ضاهوا المجوس فى الإشراك بربوبيته حيث جعلوا غيره خالقا ، وأولئك ضاهوا المشركين الذين لا يفرقون بين عبادته وعبادة غيره ، بل يجوزون عبادة غيره كما يجوزون عبادته، ويقولون :(لو شاء الله ما أشركنا الآية) وهؤلاء منتهى توحيدهم : توحيد المشركين وهو توحيد الربوبية ، فأما توحيد الإلهية المتضمن للأمر والنهى ، ولكون الله يحب ما أمر به، ويبغض ما نهى عنه فهم ينكرونه ، ولهذا هم أكثر اتباعاً لأهوائهم ، وأكثر شركا وتجويزاً من المعتزلة ، ومنتهى متكلميهم وعبادهم تجويز عبادة الأصنام ، وأن العارف لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة ، كما ذكر ذلك صاحب منازل السائرين ، وأما عبادة الأصنام فباح بها متأخروهم كالرازى صنف فيها مصنفاً وابن عربى وابن سبعين وأمثالها ، يصرحون بجواز عبادتها وبالإنكار على من أنكر ذلك ، وهم متناقضون فى ذلك ، فالقدرية أصلهم أنه لا يمكن إثبات قدرته وحكمته إذ لو كان قادراً لفعل عين ما فعل ، فلما لم يفعله دل على أنه غير قادر . وقالوا : يثبت حكمته كما يثبت حكمه لأن نفى ذلك يوجب السفه والظلم وهو منزه عنه بخلاف ما لم يقدر عليه ، فإنه معذور إذا لم يفعله فلا يلام عليه . وقال المجبرة:

بل قدرته ثابتة بلا حكمة ، ولا يجوز أن يفعل لحكمة لأن ذلك إنما يكون لمن يحتاج إلى الفعل وهو منزه عن الحاجة ولا عدل ولا ظلم ، بل كل ما أمكن فعله فهو عدل ، وليس فى الأفعال ماهو حسن ينبغى الأمر به ، وقبيح ينبغى النهى عنه ، ولا معروف ومنكر ، بل يجوز أن يأمر بكل شيء وينهى عن كل شيء .

ثم من حقق منهم أنكر الشرع بالكلية ، وأنكر النبوات مع أنه مضطر إلى أن يأمر بشيء وينهى عن شيء ، فان هذا لازم لجميع الخلق لايجدون عنه محيصاً ، لكن من اتبع الأنبياء يأمر بما ينفعه وينفع غيره ، وينهى عما يضره ويضر غيره ، ومن خالف الأنبياء فلا بد أن يأمر بما يضر وينهى عما ينفع ، فيستحق عذاب الدنيا والآخرة ، وأما من كان منهم مقراً بالنبوة ، فأنكر الشرع فى الباطن ، وقال العارف : لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة ، فصار منافقاً يظهر خلاف مايبطن ويقول : الشرع لأجل المارستان ، ولهذا يسمون باطنية كما سموا الملاحدة باطنية ، فان كلاهما يبطن خلاف ما يظهر يبطون تعطيل ما جاء به الرسول من الأمر والنهى .

فمنتهى الجهمية المجبرة اما مشركون ظاهراً وباطناً ، وإما منافقون فيبطنون الشرك ، ولهذا يظنون بالله ظن السوء ، وأنه لا ينصر محمداً وأتباعه كما قال تعالى : (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا) وهم يعقلون بقوله : (لا يسأل عما يفعل) وبأنه يفعل ما يشاء ، ولذلك لما ظهر المشركون التتار وأهل الكتاب ، كثر فى عبادهم وعلمائهم

من صار مع المشركين وأهل الكتاب ، وارتد عن الاسلام اما باطناً وظاهراً واما باطناً . وقال : انه مع الحقيقة ومع المشيئة الإلهية ، وصاروا يحتجون لمن هو معظم للرسل عما يوافق على تكذيبه بأن ما يفعله من الشرك والخروج عن الشريعة . موالاة المشركين وأهل الكتاب والدخول فى دينهم ومجاهدة المسلمين معهم هو بأمر الرسول ، فتارة يأتيهم شياطينهم بما يخيلون لهم أنه مكتوب من نور ، وأن الرسول أمر بقتال المسلمين مع الكفار لكون المسلمين قد عصوا ، ولما ظهر أن مع المشركين وأهل الكتاب خفراً لهم من الرجال المسلمين برجال الغيب، وأن لهم خوارق يقتضى أنهم أولياء الله ، صار الناس من أهل العلم ثلاثة أحزاب . حزب : يكذبون بوجود هؤلاء ولكن عاينهم الناس وثبت ذلك عمن عاينهم أوحدثه الثقاة بما رأوه هؤلاء إذ رأوهم أو تيقنوا وجودهم خضعوا لهم .وحزب : عرفوهم ورجعوا الى القدر واعتقدوا أن ثم فى الباطن طريقاً الى الله غير طريقة الأنبياء . وحزب : ما أمكنهم أن يجعلو أولياء الله خارجا عن دائرة الرسول .فقالوا : يكون الرسول هو ممد للطائفتين لهؤلاء وهؤلاء ، فهؤلاء معظمون للرسول جاهلون بدينه وشرعه ، والذين قبلهم يجوزون لاتباع دين غير دينه ، وطريق غير طريقه .

وكانت هذه الأقوال الثلاثة بدمشق لما فتحت عكة ، ثم تبين بعد ذلك أن هؤلاء من أتباع الشياطين ، وأن رجال الغيب هم الجن وأن الذين مع الكفار شياطين ، وأن من وافقهم من الانس فهو من جنسهم شيطان من شياطين الانس أعداء الأنبياء كما قال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الانس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً).

وكان سبب الضلال عدم الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، وأصله قول الجهمية الذين يسعون بين المخلوقات فلا يفرقون بين المحبوب والمسخوط ، ثم أنه بعد ذلك جرت أمور يطول وصفها .

ولما جاء قازان وقد أسلم دمشق انكشـــفت أمور أخرى ، فظهر أنه اليونسية كانوا قد ارتدوا وصاروا كفاراً مع الكفار .

وحضر عندى بعض شيوخهم واعترف بالردة عن الاسلام وحدثنى بفصول كثيرة . فقلت له : لماذكر لى احتجاجهم بما جاءهم من أمرالرسول فهب أن المسلمين كأهل بغداد كانوا قد عصوا ، وكان فى بغداد بضعة عشر بغى فالجيش الكفار المشركون الذين جاءوا ، كانوا شراً من هؤلاء فان هؤلاء كن يزنين اختياراً ، فأخذ أولئك المشركون عشرات ألوف من حرائر المسلمين وسراريهم بغير اختيارهم وردوهم عن الاسلام الى الكفر ، وأظهروا الشرك وعبادة الأصنام ودين النصارى وتعظيم الصليب حتى بقى المسلمون مقهورين مع المشركين وأهل الكتاب مع تضاعيف ما كان يفعل من المعاصى ، فهل يأمر محمد صلى الله عليه وسلم بهذا ويرضى بهذا فتبين له وقال : لا والله . وأخبرنى عن ردة من ارتد من الشيوخ عن الاسلام لما كانت شياطين المشركين تكرههم على الردة فى الباطن وتعذبهم إن لم يرتدوا .

فقلت : كان هذا لضعف إيمانهم وتوحيدهم والمادة التى يشهدونها من جهة الرسول ، وإلا فالشياطين لا سلطان لهم على قلوب الموحدين ، وهذا وأمثاله ما كانوا يعتقدون أنهم شياطين ، بل أنهم رجال من رجال الغيب الانس ، وكلهم الله بتصريف الأمر .

فبينت لهم أن رجال الغيب هم الجن كما قال تعالى : (وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) ومن ظن أنهم إنس فمن جهله وغلطه ، فان الانس يؤنسون - أى يشهدون - ويرون انما يحتجب الانسى وأحيانا لا يكون دائماً محتجباً عن أبصار الانس بخلاف الجن ، فانهم كما قال الله : (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) وكان غير هذا من المشايخ من يذكر عن الشيخ محمد بن السكران أن هولاكو ملك المشركين لما دخل بغداد ، رأى ابن السكران شيخاً محلوق الرأس على صورة شيخ من مشايخ الدين والطريق . آخذاً بفرس هولاكو . قال : فلما رأيته أنكرت هذا واستعظمت أن يكون شيخ من شيوخ المسلمين يقود فرس ملك المشركين لقتل المسلمين . فقلت : يا هذا أو كلمة نحو هذا فقال : تأمر بأمر . أو قال له : هل يفعل هذا بأمر أو فعلت هذا بأمر . فقلت : نعم بأمر . فسكت ابن السكران وأقنعه هذا الجواب ، وكان هذا اقلة علمه بالفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان . وظن أن ما يؤمر به الشيوخ فى قلوبهم هو من الله ، وأن من قال حدثنى قلبى عن ربى فان الله هو يناجيه ومن قال أخذتم علمكم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت هو كذلك وهذا أضل من ادعى الاستغناء عن الأنبياء ، وأنه لا يحتاج إلى واسطتهم .

وجواب هذا أن يقال له : بأمر من تأمر ؟ فان قال : بأمر الله . قيل : بأمر الله الذى بعث به رسوله وأنزل به القرآن أم بأمر وقع فى قلبك . فان قال بالأول ظهر كذبه ، فانه ليس فيما يأمر الله به رسوله أن يأتى بالكفار المشركين وأهل الكتاب لقتل المسلمين وسبيهم وأخذ أموالهم لأجل ذنوب فعلوها ، ويجعل الدار تعبد بها الأوثان ويضرب فيها بالنواقيس ويقتل قراء

القرآن وأهل العلم بالشرع ويعظم النجسية علماء المشركين وقساقسة النصارى وأمثال ذلك ، فان هؤلاء أعظم عداوة لمحمد صلى الله عليه وسلم وهو من جنس مشركى العرب الذين قاتلوه يوم أحد ، وأولئك عصاة من عصاة أمته وان كان فيهم منافقون كثيرون ، فالمنافقون يبطنون نفاقهم . وإن قال : بأمر وقع فى قلبي . لم يكذب ، لكن يقال من أين لك أن هذا رحمانى ولم لايكون الشيطان هو الذى أمرك بهذا ، وقد علمت أن ما يقع فى قلوب المشركين وأهل الكتاب هو من الشيطان ، فان رجع إلى توحيد الربوبية وان الجميع بمشيئته قيل له : فحينئذ يكون ما يفعله الشيطان والمشركون وأهل الكتاب هو بالأمر ولاريب أنه بالأمر الكونى القدرى ، فجميع الخلق داخلون تحته لكن من فعل بمجرد هذا الأمر لابأمر الرسول ، فانما يكون من جنس شياطين الانس والجن ، وهو مستوجب لعذاب الله فى الدنيا والآخرة ، وهو عابد لغير الله متبع لهواه ، وهو ممن قال الله فيه : (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وممن قال فيهم الشيطان: (فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) قال الله: (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) وقال تعالى : (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) وقال تعالى: (إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لايؤمنون وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون) فكيف تأمر بالشرك والكفر وتسلط الكفار من المشركين وأهل الكتاب على المسلمين ، وقتل الكفار للمسلمين هذا لا يأمر الله به ، كما لايأمر بالفحشاء فان هذا من أفحش الفواحش إذا جعلت الفاحشة اسما لكل ما يعظم قبحه فكانت جميع القبائح السيئة داخلة فى الفحشاء.

وكان أيضا بالشام بعض أكابر الشيوخ ببعلبك ، الشيخ عثمان شيخ دير ناعس يأتيه خفير الفرنج - النصارى - راكبا أسدا ويخلو به ويناجيه ، ويقول : ياشيخ عثمان وكلت بحفظ خنازيرهم ، فيعذره عثمان وأتباعه فى ذلك ويرون أن الله أمره بهذا كما أمر الخضر أن يفعل مافعل كما عذر ابن السكران وأمثاله لخفراء المشركين التتار .

والجواب لهذا كالجواب لذلك، يقال له وكلك الله تعالى بهذا، أنزل على لسان نبيه ،الدين أمر أن يوالى المسلمين ، وأن لا يتخذ اليهود والنصارى أولياء بل أمرك أن تبغضهم وتجاهدهم بما استطعت ، هو أمرك أن تتوكل بحفظ خنازيرهم . فان قال هذا ظهر كذبه،وان قال بل هو أمر ألقى فى قلبى لم يكذب وقيل له : فهذا من أمر الشيطان لا من أمر الرحمن الذى أنزل به كتبه ، وأرسل به رسله ، ولكنه من الأمر الذى كونه وقدره كشرك المشركين الذين قالوا :(لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا) .

ومن هؤلاء من يظن الرجال الذين يؤيد بهم الكفار من المشركين وأهل الكتاب هم أولياء الله، ولا يجب عليهم اتباع الرسول كالملائكة الموكلة ببنى آدم المعقبات .

فقلت لشيخ كان من شيوخهم : محمد أرسل الى الثقلين الإنس والجن ، ولم يرسل إلى الملائكة ؛ فكل انسى أو جنى خرج عن الايمان به ، فهو عدو لله لا ولى لله بخلاف الملائكة .

ثم يقال له : الملائكة،لا يعاونون الكفار على المعاصى ولا على قتال

المسلمين ، وإنما يعاونوهم على ذلك الشياطين ، ولكن الملائكة قد تكون موكلة بخلقهم ورزقهم وكتابة أعمالهم فان ذلك ليس بمعصية ، فهذا الجواب بالفرق بينهم وبين الملائكة من هذين الوجهين .

وقد ظهر أنهم من جنس الشياطين لا من جنس الملائكة ، وكان هذا الشيخ هو وأبوه من خفراء الكفار ، وكان والده يقال له محمد الخالدى نسبة إلى شيطان كان يقربه يقال له الشيخ خالد ، وهم يقولون : إنه من الانس من رجال الغيب .

وحدثنى الثقة عنه أنه كان يقول: الأنبياء ضيعوا الطريق . ولعمرى لقد ضيعوا طريق الشياطين ، شياطين الانس والجن ، وهؤلاء المشايخ الذين يحبون المسلمين ، ولكن يوالون الشيوخ الذين يوالون المشركين الذين هم خفراء الكفار ، ويظنون أنهم من أولياء الله اشتركوا هم وهم فى أصل ضلالة وهو أنهم جعلوا الخوارق الشيطانية من جنس الكرامات الرحمانية ، ولم يفرقوا بين أولياء الرحمن كما قال تعالى: (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين) فهؤلاء وهؤلاء عشوا عن ذكر الرحمن الذى أنزله وهو الكتاب والسنة ، وعن الروح الذى أوحاه الله إلى نبيه الذى جعله الله نورا يهدى به من يشاء من عباده ، وبه يحصل الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ولم يفرقوا بين آيات الأنبياء ومعجزاتهم ، وبين خوارق السحرة والكهان ، إذ هذا مذهب الجهمية المجبرة ، وهؤلاء كلهم يشتركون فى هذا المذهب ، فلا يجعلون الله يحب ما أمر به ويبغض ما نهى عنه . بل يجعلون كل ما قدره وقضاه فانه يحبه ويرضاه ، فبقى جميع الأمور عندهم سواء ،

وإنما يتميز بنوع من الخوارق ، فمن كان له خارق جعلوه من أولياء الله وخضعوا له إما اتباعاله وإماموافقة له ومحبة، وإما أن يسلموا له حاله فلا يحبوه ولايبغضوه ، إذ كانت قلوبهم لم يبق فيها من الايمان ما يعرفون به المعروف ،و ينكرون به المنكر ، فى هذا الموضع.

وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان»،وفى رواية لمسلم: «من جاهدهم بيده فهومؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل » وميت الأحياء الذين لايعرفون معروفا ، ولاينكرون منكرا وفى حديث حذيفة الذى فى صحيح مسلم : أن الفتنة تعرض على القلوب كعرض الصبر عودا عودا، فأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، وأيما قلب أشربها نكتت فيه نكتةسوداءحتى تبقى القلوب على قلبين قلب أبيض مثل الصفا لايضره فتنة مادامت السماءوالأرض ، وقلبأسود مرباد لايعرف معروفا ولا ينكرمنكراً إلا ماأشرب من هواه .

فهؤلاء العباد الزهادالذين عبدوا اللهبآرائهم وذوقهم ووجدهم لابالأمر والنهى ، منتهاهم اتباع أهوائهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله لا سيما اذا كانت حقيقتهم هى قول الجهمية المجبرة ، فرأوا أن جميع الكائنات اشتركت فى المشيئة ، ولم يميز بعضها عن بعض فان الله يحب هذا ويرضاه ، وهذا يبغضه ويسخطه ، فان الله يحب المعروف ويبغض المنكر فاذالم يفرقوا بين هذا وهذا ، نكت فى قلوبهم نكت سود فسود قلوبهم ، فيكون المعروف

ما يهوونه ويحبونه ويجدونه ويذوقونه ، ويكون المنكر مايهوون بغضه وتنفر عنه قلوبهم كالمشركين الذين كانوا عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ، ولهذا يوجد فى هؤلاء وأتباعهم من ينفرون عن القرآن والشرع ، كما تنفر الحمر المستنفرة التى تفر من الرماة ومن الأسد ، ولهذا يوصفون بأنهم إذا قيل لهم قال المصطفى نفروا .

وكان الشيخ إبراهيم بن معصاد يقول لمن رآه من هؤلاء كاليونسية والأحمدية : يا خنازير يا أبناء الخنازير ما أرى لله ورسوله عندكم رائحة ، بل يريد كل منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ، كل منهم يريد أن يحدثه قلبه عن ربه فيأخذ عن الله بلا واسطة الرسول : (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ماأوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالاته) وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن قول القدرية الجهمية المجبرة أعظم مناقضة لما جاءت به الرسل من قول النفاة ، ولهذا لم يكن هؤلاء مظهرين لهذا فى زمن السلف ، بل كلما ضعف نور النبوة أظهروا حقيقة قولهم ، فانه من جنس قـــول المشركين المكذبين للرسل ومنتهاهم الشرك وتكذيب الرسل ، وهذا جماع الكفر ، كما أن التوحيد وتصديق الرسل جماع الايمان ، ولهذا صاروا مع أهل الكفر المحض من المشركين وأهل الكتاب ، وبسط هذه الأمور له موضع آخر .

والمقصود هنا أن القدرية المجبرة من جنس المشركين ، كما أن النافية من جنس المجوس ، وان المجبرة ما عندهم سوى القدرة والمشيئة فى نفس الأمر ، والنافية تنفى القدرة العامة والمشيئة التامة وتزعم أنها تثبت الحكمة والعدل ، وفى الحقيقة كلاهما ناف للحكمة والعدل والمشيئة والقدرة ، كما قد بسط فى مواضع

وأولئك يتعلقون بقوله: (لا يسأل عما يفعل)والله يفعل ما يشاء . وهذا ذكره الله اثباتا لقدرته لا نفيا لحكمته وعدله ، بل بين سبحانه أن يفعل ما يشاء ، فلا أحد يمكنهأن يعارضه إذا شاء شيئا بل هو قادر على فعل مايشاء بخلاف المخلوق الذى يشاء أشياء كثيرة ، ولا يمكنه أن يفعلها ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لى ان شئت اللهم ارحمنى ان شئت فان الله لامكره له ولكن ليعزم المسألة» وذلك أنه إنما يقال افعل كذا انشئت لمن قد يفعله مكرها ، فيفعل مالا يريد لدفع ضرر الاكراه عنه ، والله تعالى لامكره له فلا يفعل الا ما يشاء فقوله تعالى (إن الله يفعل ما يشاء ويغفرلمن يشاء ويعذب من يشاء) ونحو ذلك هو لاثبات قدرته على ما يشاء وهذا رد لقول القدرية النفاة الذين يقولون : انه لم يشأ كل ما كان بل لايشاء الا الطاعة ، ومع هذا فقد شاءها ولم يكن ممن عصاه وليس هو قادرا عندهم على أن يجعل العبد لا مطيعا ولا عاصياً .

فهذه الآيات التى يحتج بها المجبرة تدل على فساد مذهب النفاة كما أن الآيات التى يحتج بها النفاة التى تدل على أنه حكم عادل لا يظلم مثقال ذرة ، وانه لم يخلق الخلق عبثا ونحو ذلك ، يدل على فساد قول المجبرة وليس فى هذه الآيات ولا هذه ما يدل على صحة قول واحدة من الطائفتين ، بل ما تحتج به كل طائفة يدل على فساد مذهب الأخرى ، وكلا القولين باطل ، وهذا هو الذى نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى فى المسند وغيره ، وبعضه فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر وعن النبي صلى الله عليه وسلم : «انه خرج على أصحابه وهم يتمارون فى القدر وهذا يقول ألم يقل الله

كذا وهذا يقول ألم يقل الله كذا فكأنما فقىء فى وجهه حب الرمان فقال أبهذا أمرتم أم الى هذا دعيتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض » ولهذا قال أحمد فى بعض مناظرته لمن صار يضرب الآيات بعضها ببعض : إنا قد نهينا عن هذا .

فمن دفع نصوصا يحتج بها غيره لم يؤمن بها ، بل آمن بما يحتج به ، صار ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض .

وهذا حال أهل الأهواء ، هم مختلفون فى الكتاب ، مخالفون للكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب ، وقد تركوا كلهم بعض النصوص وهو ما يجمع تلك الأقوال ، فصاروا كما قال عن أهل الكتاب: (ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) .

فاذا ترك الناس بعض ما أنزل الله وقعت بينهم العداوة والبغضاء ، إذ لم يبق هنا حق جامع يشتركون فيه ، بل تقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون ، وهؤلاء كلهم ليس معهم من الحق إلا ما وافقوا فيه الرسول وهو ما تمسكوا به من شرعه مما أخبر به وما أمر به . وأما ما ابتدعوه فكله ضلالة كما قال صلى الله عليه وسلم : « وإياكم ومحدثات الأمور فان كل بدعة ضلالة » وقد تكون تلك البدعة أعظم عندهم مما أخذوا به من الشرعة يجعلون تلك هى الأصول العقلية كالقدرية المجبرة والنفاة ، فكلاهما يجعل ما أحدثوه من الكلام فى الأصول ، وهو الذى يسمونه العقليات أعظم عندهم مما تلقوه من الشرع ، فالمعتزلة يجعلون العقليات هى الخبريات والأمريات جميعا

فالواجبات الشرعية ، لكن يقولون أيضا بأن الشرع أوجبها ولكن لهم فيها تخليط ليس هذا موضعه .

وكذلك ما ابتدعوه فى الخبريات كاثبات حدوث العالم بطريقة الاعراض واستلزامها للاجسام ، وهم ينفون الصفات والقدر ويسمون ذلك التوحيد والعدل

وجهم بن صفوان وأتباعه هم أعظم نفياً منهم ،فانهم ينفون الأسماء مع الصفات ، وهم رؤس المجبرة، والأشعرية وافقتهم فى الجبر، لكن نازعوهم نزاعا لطيفا فى اثبات الكسب والقدرة عليه ، وهم يرون أن هذه الأصول العقلية وهى العلم بما يجب للرب ويمتنع عليه وما يجوز عليه من الأفعال ، هى أعظم العلوم وأشرفها ، وأنهم برزوا بها على الصحابة ، وأن النبي لم يعلمها الصحابة إما لكونه وكلها إلى استنباط الأمة، وإما لكون الصحابة كانوا مشغولين عنها بالجهاد ، واما لكونه قال لهم فى ذلك ما لم يبلغوه ، ولم يشغلهم بالأدلة لاشتغالهم بالجهاد .

وهذه هى الأصول العقلية التى يعتمدون عليها هم ومن يوافقهم كالقاضى أبى يعلى ، وأبى المعالى،وأبى الوليد الباجى تبعا للقاضى أبى بكر وأمثاله ،وهو وأتباعه يناقضون عبد الجبار وأمثاله ، كما ناقض الأشعرى وأمثاله أبا على وأبا القاسم .

وكل الأصول العقلية التى ابتدعها هؤلاء وهؤلاء باطلة فى العقل والشرع وإن كانت كل واحدة من الطائفتين تعتقد أنها أعظم الدين ، ويقدمونها

على الأصول الشرعية فانهم فى ذلك بمنزلة ما يعظمه العباد والزهاد والفقراء والصوفية من الخوارق الشيطانية، ويفضلونها على العبادات الشرعية، والعبادات الشرعية هى التى معهم من الاسلام، وتلك كلها باطلة وان كانت أعظم عندهم من العبادات حتى يقولوا نهاية الصوفى ابتداء الفقيه، ونهاية الفقيه ابتداء المولة، وكذلك صاحب منازل السائرين يذكر فى كل باب ثلاث درجات. فالأولى : وهى أهونها عندهم توافق الشرع فى الظاهر. والثانية: قد توافق الشرع وقد لا توافق. والثالثة : فى الأغلب تخالف لا سيما فى التوحيد والفناء والرجاء ونحو ذلك، وهذا الذى ابتدعوه هو أعظم عندهم مما وافقوا فيه الرسل، وكثير من العباد يفضل نوافله على أداء الفرائض، وهذا كثير والله أعلم.

والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيراً، والحمد لله رب العالمين.

تمت الرسالة الأولى

ويليها الرسالة الثانية : معارج الوصول

الرسالة الثانية

معارج الوصول

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام العالم تقى الدين، أوحد المجتهدين؛ أحمد بن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه، وهو مما كتبه بقاعة دمشق متأخراً .

الحمدلله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليما .

﴿ فصل ﴾ فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين جميع الدين، أصوله وفروعه باطنه وظاهره علمه وعمله . فان هذا الأصل هو أصل أصول العلم والإيمان، وكل من كان أعظم اعتصاما بهذا الأصل كان أولى بالحق علماً وعملا، ومن كان أبعد عن الحق علماً وعملا كالقرامطة والمتفلسفة الذين يظنون أن الرسل ما كانوا يعلمون حقائق العلوم الإلهية والكلية، وإنما يعرف ذلك بزعمهم من يعرفه من المتفلسفة ويقولون : خاصة النبوة هى التخييل، ويجعلون النبوة أفضل من غيرها عند الجمهور لاعند أهل المعرفة، كما يقول هذا ونحوه الفارابى وأمثاله مثل بشر بن فاتك وأمثاله من الاسماعيلية، وآخرون يعترفون بأن الرسول علم الحقائق لكن يقولون : لم يبينها بل خاطب الجمهور بالتخييل، فيجعلون التخييل فى خطابه لافى علمه كما يقول ذلك ابن سينا وأمثاله، وآخرون يعترفون بأن الرسل علموا الحق وبينوه، لكن

يقولون لا يمكن معرفته من كلامهم . بل يعرف بطريق آخر ، اما المعقول عند طائفة واما المكاشفة عند طائفة ، إما قياس فلسفى وإما خيال صوفى ، ثم بعد ذلك ينظر فى كلام الرسول فما وافق ذلك قبل ، وما خالفه إما أن يفوض وإما أن يؤول،وهذه طريقة كثير من أهل الكلام الجهمية والمعتزلة وهى طريقة خيار الباطنية والفلاسفة الذين يعظمون الرسول وينزهونه عن الجهل والكذب ، لكن يدخلون فى التأويل ، وأبو حامد الغزالى لما ذكر فى كتابه طرق الناس فى التأويل ، وأن الفلاسفة زادوا فيه حتى انحلوا وان الحق بين جحود الحنابلة وبين انحلال الفلاسفة ، وأن ذلك لا يعرف من جهة السمع ، بل يعرف الحق بنور يقذف فى قلبك ثم ينظر فى السمع فما وافق ذلك قبلته وإلا فلا ، وكان مقصوده بالفلاسفة المتأولين خيار الفلاسفة ، وهم الذين يعظمون الرسول عن أن يكذب للمصلحة ، ولكن هؤلاء وقعوا فى نظير مافروا منه ، نسبوه إلى التلبيس والتعمية وإضلال الحق بل إلى أن يظهر الباطل ويكتم الحق .

وابن سينا وأمثاله لما عرفوا أن كلام الرسول لايحتمل هذه التأويلات الفلسفية ، بل قد عرفوا أنه أراد مفهوم الخطاب ، سلك التخييل وقال إنه خطاب الجمهور بما يخيل إليهم مع علمه أن الحق فى نفس الأمر ليس كذلك فهؤلاء يقولون أن الرسل كذبوا للمصلحة ، وهذا طريق ابن رشد الحفيد وأمثاله من الباطنية ، فالذين عظموا الرسل من هؤلاء عن الكذب نسبوهم إلى التلبيس والإضلال ، والذين أقروا بأنهم بينوا قالوا : أنهم كذبوا للمصلحة ، وأما أهل العلم والايمان فتفقون على أن الرسل لم يقولوا إلا بالحق وأنهم بينوه مع علمهم بأنهم أعلم الخلق بالحق فهم الصادقون المصدوقون ،

علموا الحق وبينوه ، فمن قال أنهم كذبوا للمصلحة فهو من إخوان المكذبين للرسل . لكن هذا لما رأى ماعملوا من الخير والعدل فى العالم لم يمكنه أن يقول كذبوا لطلب العلو والفساد ، بل قال : كذبوا لمصلحة الخلق ، كما يحكى عن ابن التومرت وأمثاله ، ولهذا كان هؤلاء لايفرقون بين النبي والساحر إلا من جهة حسن القصد ، فان النبي يقصد الخير ، والساحر يقصد الشر ، وإلا فلكل منهما خوارق هى عندهم قوى نفسانية ، وكلاهما عندهم يكذب ، لكن الساحر يكذب للعلو والفساد ، والنبي عندهم يكذب لمصلحة ، إذ لم يمكنه إقامة العدل بينهم إلا بنوع من الكذب ، والذين علموا أن النبوة تناقض الكذب على الله وأن النبي لا يكون إلا صادقاً من هؤلاء قالوا : أنهم لم يبينوا الحق ولو أنهم قالوا اسكتوا عن بيانه لكان أقل إلحاداً لكن قالوا : أنهم أخبروا بما يظهر منه للناس الباطل ، ولم يبينوا لهم الحق فعندهم أنهم جمعوا بين شيأين بين كتمان حق لم يبينوه ، وبين إظهار مايدل على الباطل ، وإن كانوا لم يقصدوا الباطل فجعلوا كلامهم من جنس المعاريض التى يعنى بها المتكلم معنى صحيحاً ، لكن لايفهم المستمع منها إلا الباطل ، وإذا قالوا قصدوا التعريض كان أقل الحاداً ممن قال أنهم قصدوا الكذب .

﴿ والتعريض من نوع الكذب ﴾ إذ كان كذبا فى الأفهام ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات كلهن فى الله وهى معاريض لقوله عن سارة انها أختى . إذ كان ليس هناك مؤمن إلا هو وهى[1] .

---

(١) ذكر احدى الثلاث والثانية قوله انى سقيم والثالثة قوله بل فعله كبيرهم هذا .

وهؤلاء يقولون أن كلام ابراهيم وعامة الأنبياء مما أخبروا به عن الغيب كذب من المعاريض .

وأما جمهور المتكلمين فلا يقولون بهذا بل يقولون : قصدوا البيان دون التعريض ، لكن مع هذا يقول الجهمية ونحوهم : أن بيان الحق ليس فى خطابهم بل إنما فى خطابهم ما يدل على الباطل ، والمتكلمون من الجهمية والمعتزلة والأشعرية ، ونحوهم ممن سلك فى إثبات الصانع طريقة الاعراض يقولون : ان الصحابة لم يبينوا أصول الدين بل ولا الرسول إما لشغلهم بالجهاد ، أو لغير ذلك ، وقد بسط الكلام على هؤلاء فى غير هذا الموضع .

وبين أن أصول الدين الحق الذى أنزل الله به كتابه وأرسل به رسوله ، وهى الأدلة والبراهين والآيات الدالة على ذلك قد بينها الرسول أحسن بيان وأنه دل الناس وهداهم إلى الأدلة العقلية والبراهين اليقينية التى بها يعلمون المطالب الإلهية ، وبها يعلمون إثبات ربوبية الله ووحدانيته وصفاته وصدق رسوله والمعاد وغير ذلك مما يحتاج إلى معرفته بالأدلة العقلية ، بل وما يمكن بيانه بالأدلة العقلية وإن كان لا يحتاج اليها ، فان كثيراً من الأمور يعرف بالخبر الصادق ، ومع هذا فالرسول بين الأدلة العقلية الدالة عليها فجمع بين الطريقين السمعى والعقلى .

وبينا أن دلالة الكتاب والسنة على أصول الدين ، ليست بمجرد الخبر كما تظنه طائفة من الغالطين من أهل الكلام والحديث والفقهاء والصوفية وغيرهم ، بل الكتاب والسنة دلا الخلق وهدياهم إلى الآيات والبراهين ، والأدلة المبينة لأصول الدين ، وهؤلاء الغالطون الذين أعرضوا عما فى

القرآن من الدلائل العقلية والبراهين اليقينية ، صاروا إذا صنفوا فى أصول الدين أحزابا .

حزب : يقدمون فى كتبهم الكلام فى النظر والدليل والعلم ، وان النظر يوجب العلم ، وأنه واجب ويتكلمون فى جنس النظر وجنس الدليل وجنس العلم ، بكلام قد اختلط فيه الحق بالباطل ، ثم إذا صاروا الى ماهو الأصل والدليل للدين ، استدلوا بحدوث الأعراض على حدوث الأجسام ، وهو دليل مبتدع فى الشرع وباطل فى العقل .

والحزب الثانى : عرفوا أن هذا الكلام مبتدع ، وهو مستلزم مخالفة الكتاب والسنة ، وعنه ينشأ القول بأن القرآن مخلوق ، وأن الله لايرى فى الآخرة ، وليس فوق العرش ونحو ذلك من بدع الجهمية ، فصنفوا كتباً قدموا فيها مايدل على وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة من القرآن والحديث وكلام السلف ، وذكروا أشياء صحيحة لكنهم قد يخلطون الآثار صحيحها بضعيفها ، وقد يستدلون بمالا يدل على المطلوب ، وأيضاً فهم إنما يستدلون بالقرآن من جهة إخباره لامن جهة دلالته ، فلا يذكرون ما فيه من الأدلة على إثبات الربوبية والوحدانية والنبوة والمعاد ، وأنه قد بين الأدلة العقلية الدالة على ذلك ، ولهذا سموا كتبهم أصول السنة والشريعة ونحو ذلك ، وجعلوا الإيمان بالرسول قد استقر فلا يحتاج أن يبين الأدلة الدالة عليه ، فذمهم أولئك ونسبوهم إلى الجهل ، إذ لم يذكروا الأصول الدالة على صدق الرسول ، وهؤلاء لاينسبون أولئك إلى البدعة بل إلى الكفر ، لكونهم أصلوا أصولا تخالف ماقاله الرسول . والطائفتان يلحقهما الملام لكونهما

أعرضنا عن الأصول التى بينها الله بكتابه ، فإنها أصول الدين وأدلته وآياته ، فلما أعرض عنها الطائفتان وقع بينهم العداوة كما قال الله تعالى : (فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) .

وحزب ثالث : قد عرف تفريط هؤلاء وتعدى أولئك وبدعتهم ، فذمهم وذم طالب العلم الذكى الذى اشتاقت نفسه إلى معرفة الأدلة والخروج عن التقليد إذا سلك طريقهم . وقال : إن طريقهم ضارة وأن السلف لم يسلكوها ونحو ذلك بما يقتضى ذمها ، وهو كلام صحيح لكنه إنما يدل على أمر مجمل لاتتبين دلالته على المطلوب ، بل قد يعتقد طريق المتكلمين مع قوله أنه بدعة ، ولا يفتح أبواب الأدلة التى ذكرها الله فى القرآن التى تبين أن ماجاء به الرسول حق ، ويخرج الذكى بمعرفتها عن التقليد وعن الضلال والبدعة والجهل ، فهؤلاء أضل بفرقهم لأنهم لم يتدبروا القرآن وأعرضوا عن آيات الله التى بينها بكتابه ، كما يعرض من يعرض عن آيات الله المخلوقة قال الله تعالى : (وكم من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) وقال تعالى : (وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون) وقال تعالى : (إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) وقال تعالى : (كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) وقال تعالى : (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون بالبينات والزبر الآية) وقال تعالى : (وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) وقال تعالى : (وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم

جاءتهم رسلهم بالبينات والزبر والكتاب المنير) ومثل هذا كثير لبسطه مواضع أخر .

والمقصود أن هؤلاء الغالطين الذين أعرضوا عما فى القرآن من الدلائل العقلية والبراهين اليقينية ، لايذكرون النظر والدليل والعلم الذى جاء به الرسول ، والقرآن مملوء من ذلك والمتكلمون يعترفون بأن فى القرآن من الأدلة العقلية الدالة على أصول الدين مافيه ، لكنهم يسلكون طرقاً أخر كطريق الإعراض .

ومنهم من يظن أن هذه طريق ابراهيم الخليل وهو غالط .

والمتفلسفة يقولون : القرآن جاء بالطريق الخطابية والمقدمات الاقناعية التى تقنع الجمهور ، ويقولون:أن المتكلمين جاءوا بالطرق الجدلية ، ويدعون أنهم هم أهل البرهان اليقينى ، وهم أبعد عن البرهان فى الإلهيات من المتكلمين، والمتكلمون أعلم منهم بالعلميات البرهانية فى الإلهيات والكليات ، ولكن للمتفلسفة فى الطبيعيات خوض وتفصيل تميزوا به بخلاف الإلهيات ، فإنهم من أجهل الناس بها وأبعدهم عن معرفة الحق فيها ، وكلام أرسطو معلمهم فيها قليل كثير الخطأ ، فهو لحم جمل غث ، على رأس جبل وعر ، لاسهل فيرتقى ، ولاسمين فينقل . وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

والقرآن جاء بالبينات والهدى بالآيات البينات وهى الدلائل النقليات وقد قال الله تعالى لرسوله : (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) والمتفلسفة يفسرون ذلك بطرقهم المنطقية فى

البرهان والخطابة والجدل وهو ضلال من وجوه ، قد بسطت فى غير هذا الموضع ، بل الحكمة هى معرفة الحق والعمل به فالقلوب التى لها فهم وقصد تدعى بالحكمة ، فيبين لها الحق علماً وعملا فتقبله وتعمل به .

وآخرون يعترفون بالحق ، لكن لهم أهواء تصدهم عن اتباعه ، فهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة المشتملة على الترغيب فى الحق والترهيب من الباطل ، والوعظ أمر ونهى بترغيب وترهيب كما قال تعالى : (ولو أنهم فعلوا مايوعظون به) وقال تعالى : (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً) فالدعوة بهذين الطريقين لمن قبل الحق ومن لم يقبله ، فانه يجادل بالتى هى أحسن ، والقرآن مشتمل على هذا وهذا ، ولهذا إذا جادل يسأل ويستفهم عن المقدمات البينة البرهانية التى لا يمكن أحد أن يجحدها لتقرير المخاطب بالحق ولاعترافه بإنكار الباطل كما فى مثل قوله : (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون) وقوله:(أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد) وقوله : (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) وقوله : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) وقوله :(أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) وقوله : (وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى) وقوله : (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) وقوله : (أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل) وقوله : (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين) إلى أمثال ذلك مما يخاطبهم باستفهام التقرير المتضمن إقرارهم واعترافهم بالمقدمات البرهانية التى تدل على المطلوب ، فهو

من أحسن جدل بالبرهان ، فان الجدل إنما يشترط فيه أن يسلم الخصم المقدمات وإن لم تكن بينة معروفة ، فإذا كانت بينة معروفة كانت برهانية ، والقرآن لايحتج فى مجادلته بمقدمة لمجرد تسليم الخصم بها كما هى الطريقة الجدلية عند أهل المنطق وغيرهم ، بل بالقضايا والمقدمات التى تسلمها الناس وهى برهانية ، وإن كان بعضهم يسلمها ، وبعضهم ينازع فيها ذكر الدليل على صحتها كقوله : (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) فان الخطاب لما كان مع من يقر بنبوة موسى من أهل الكتاب ومع من ينكرها من المشركين ذكر ذلك بقوله : (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى) وقد بين البراهين الدالة على صدق موسى فى غير موضع ، وعلى قراءة من قرأ يبدونها كان كثير وأبى عمرو جعلوا قوله : (وعلمتم مالم تعلموا) احتجاجا على المشركين بما جاء به محمد . فالحجة على أولئك نبوة موسى ، وعلى هؤلاء نبوة محمد ، ولكل منهما من البراهين ما قد بين بعضه فى غير موضع ، وعلى قراءة الأكثرين بالتاء ، هو خطاب لأهل الكتاب وقوله : (علمتم مالم تعلموا) بيان لما جاءت به الأنبياء مما أنكروه فعلمهم الأنبياء مالم يقبلوه ولم يعلموه ، فاستدل بما عرفوه من أخبار الأنبياء ومالم يعرفوه .

وقد قص سبحانه قصة موسى وأظهر براهين موسى وآياته التى هى من أظهر البراهين والأدلة ، حتى اعترف بها السحرة التى جمعهم فرعون وناهيك بذلك ، فلما أظهر الله حق موسى وأتى بالآيات التى علم بالاضطرار أنها من

الله ، وابتلعت عصاه الحبال والعصى التى أتى بها السحرة بعد أن جاءوا بسحر عظيم ، وسحروا أعين الناس واسترهبوا الناس ، ثم لما ظهر الحق وانقلبوا صاغرين قالوا : (آمنا برب العالمين رب موسى وهرون) فقال لهم فرعون: (آمنتم به قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات) من الدلائل البينات اليقينية القطعية وعلى الذى فطرنا وهو خالقنا وربنا الذى لابد لنا منه ، لن نؤثرك على هذه الدلائل اليقينية وعلى خالق البرية : (فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى) .

وقد ذكر الله هذه القصة فى عدة مواضع من القرآن ، يبين فى كل موضع منها من الاعتبار والاستدلال نوعا غير النوع الآخر ، كما يسمى الله ورسوله وكتابه بأسماء متعددة ، كل اسم يدل على معنى لم يدل عليه الاسم الآخر ، وليس فى هذا تكرار بل فيه تنويع الآيات ، مثل أسماء النبي صلى الله عليه وسلم إذا قيل محمد وأحمد والحاشر والعاقب والمقفى ونبي الرحمة ونبي التوبة ونبي الملحمة ، فى كل اسم دلالة على معنى ليس فى الاسم الآخر وإن كانت لذات واحدة فالصفات متنوعة ، وكذلك القرآن إذا قيل فيه قرآن وفرقان وبيان وهدى وبصائر وشفاء ونور ورحمة وروح ، فكل اسم يدل على معنى ليس هو المعنى الآخر ، وكذلك أسماء الرب تعالى إذا قيل الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور ، فكل اسم يدل على معنى ليس هو المعنى الذى فى الاسم الآخر فالذات واحدة ،

والصفات متعددة ، فهذا فى الأسماء المفردة ، وكذلك فى الجمل التامة يعبر عن القصة بجمل تدل على معان فيها ، ثم يعبر عنها بجمل أخرى تدل على معان أخر ، وإن كانت القصة المذكورة ذاتها واحدة فصفاتها متعددة ، ففى كل جملة من الجمل معنى ليس فى الجمل الآخر .

وليس فى القرآن تكرار أصلا ، وأما ماذكره بعض الناس من أنه كرر القصص مع الاكتفاء بالواحدة ، وكان الحكمة فيه أن وفود العرب كانت ترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقرئهم المسلمون شيئاً من القرآن فيكون ذلك كافياً ، وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة فلو لم تكن الآيات والقصص مثناة متكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم ، وقصة عيسى إلى قوم، وقصة نوح إلى قوم ، فأراد الله أن يشهر هذه القصص فى أطراف الأرض ، وأن يلقيها إلى كل سمع فهذا كلام من لم يقدر القرآن قدره ، وأبو الفرج اقتصر على هذا الجواب فى قوله : مثانى . لما قيل لم ثنيت . وبسط هذا له موضع آخر ، فان التثنية هى التنويع والتجنيس وهى استيفاء الاقسام ، ولهذا يقول من يقول من السلف الأقسام والأمثال .

والمقصود هنا التنبيه على أن القرآن اشتمل على أصول الدين التى تستحق هذا الإسم ، وعلى البراهين والآيات والأدلة اليقينية بخلاف ما أحدثه المبتدعون والملحدون ، كما قال الرازى مع خبرته بطرق هؤلاء : لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما وجدتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن أقرأ فى الإثبات : (إليه يصعد الكلم الطيب . الرحمن على العرش استوى) وأقرأ فى النفى : (ليس

كمثله شيء . ولا يحيطون به علماً) قال : ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي .

والخير والسعادة والكمال والصلاح منحصر في نوعين : في العلم النافع ، والعمل الصالح ، وقد بعث الله محمداً بأفضل ذلك ، وهو الهدى ودين الحق كما قال : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً) وقد قال تعالى : (واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار) فذكر النوعين قال الوالبي عن ابن عباس يقول أولو القوة في العبادة ، قال ابن أبي حاتم وروى عن سعيد بن جبير وعطاء الخراساني والحسن والضحاك والسدي وقتادة وأبي سنان ومبشر بن عبيد نحو ذلك ، والأبصار قال الأبصار :الفقه في الدين ، وقال مجاهد الأبصار: الصواب في الحكم ، وعن سعيد بن جبير قال :البصيرة بدين الله وكتابه ، وعن عطاء الخراساني أولي الأيدي والأبصار ، قال: أولو القوة في العبادة والبصر والعلم بأمر الله ، وعن مجاهد وروى عن قتادة قال : أعطوا قوة في العبادة وبصراً في الدين .

وجميع حكماء الأمم يفضلون هذين النوعين ، مثل حكماء اليونان والهند والعرب قال ابن قتيبة : الحكمة عند العرب العلم والعمل ، فالعمل الصالح : هو عبادة الله وحده لاشريك له وهو الدين دين الإسلام ، والعلم والهدى : هو تصديق الرسول فيما أخبر به عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وغير ذلك ، فالعلم النافع : هو الإيمان ،والعمل الصالح: هو الإسلام، العلم النافع من علم الله ، والعمل الصالح هو العمل بأمر الله ، هذا تصديق

الرسول فيما أخبر ، وهذا طاعته فيما أمر ، وضد الأول: أن يقول على الله مالا يعلم ، وضد الثانى:أن يشرك بالله مالم ينزل به سلطانا . والأول أشرف فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) وجميع الطوائف تفضل هذين النوعين ، لكن الذى جاء به الرسول هوأفضل مافيهما كما قال:: (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ فى ركعتى الفجر تارة سورة الإخلاص وقل يا أيها الكافرون ، ففى قل يا أيها الكافرون عبادة الله وحده وهو دين الإسلام ، وفى قل هو الله أحد صفة الرحمن ، وأن يقال فيه ويخبر عنه بما يستحقه ، وهو الإيمان ، هذا هو التوحيد القولى وذلك هو التوحيد العلمى .

وكان تارة يقرأ فيهما فى الاولى بقوله فى البقرة : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) وفى الثانية : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم — إلى قوله — فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

قال أبو العالية فى قوله : (فلنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) قال: خلتان يسأل عنهما كل أحد ، ماذا كنت تعبد ، وماذا أجبت المرسلين ،

فالأول: تحقيق شهادة أن لاإله إلا الله ، والثانى: تحقيق الشهادة بأن محمداً رسول الله .

والصوفية بنوا أمرهم على الإرادة ولابد منها ، لكن بشرط أن تكون إرادة عبادة الله وحده بما أمر .

والمتكلمون بنوا أمرهم على النظر المقتضى للعلم ولابد منه ، لكن بشرط أن يكون علماً بما أخبر به الرسول ، والنظر فى الأدلة التى دل بها الرسول هى ايات الله ولابد من هذا وهذا .

ومن طلب علماً بلا إرادة أو إرادة بلا علم فهو ضال ، ومن طلب هذا وهذا بدون اتباع الرسول فيهما فهو ضال ، بل كمن قال من السلف الدين والإيمان قول وعمل ، واتباع السنة وأهل الفقه فى الأعمال الظاهرة يتكلمون فى العبادات الظاهرة ، وأهل التصوف والزهد يتكلمون فى قصد الإنسان وإرادته ، وأهل النظر والكلام ، وأهل العقائد من أهل الحديث وغيرهم يتكلمون فى العلم والمعرفة والتصديق الذى هو أصل الإرادة ويقولون : العبادة لابد فيها من القصد والقصد لايصح إلا بعد العلم بالمقصود المعبود وهذا صحيح، فلابد من معرفة المعبود وما يعبد به ، فالضالون من المشركين والنصارى وأشباههم لهم عبادات وزهادات ، لكن لغير الله أو بغير أمر الله، وإنما القصد والإرادة النافعة هو إرادة عبادة الله وحده ، وهو إنما يعبد بما شرع لا بالبدع .

وعلى هذين الأصلين يدور دين الإسلام ، على أن يعبد الله وحده وأن

يعبد بما شرع ولا يعبد بالبدع ، وأما العلم والمعرفة والتصوف فمدارها على أن يعرف ما أخبر به الرسول ، ويعرف أن ما أخبر به حق إما لعلمنا بأنه لا يقول إلا حقاً ، وهذا تصديق عام وإما لعلمنا بأن ذلك الخبر حق بما أظهر الله من آيات صدقه ، فإنه أنزل الكتاب والميزان وأرى الناس آية فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أن القرآن حق .

﴿ فصل ﴾ وأما العمليات وما يسميه ناس : الفروع والشرع والفقه . فهذا قد بينه الرسول أحسن بيان ، فما شيء مما أمر الله به أو نهى عنه أو حلله أو حرمه إلا بين ذلك وقد قال تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم) وقال تعالى : (ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) وقال تعالى : (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) وقال تعالى : (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) وقال تعالى : (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) فقد بين سبحانه أنه ما أنزل عليه الكتاب إلا ليبين لهم الذى اختلفوا فيه ، كما بين أنه أنزل جنس الكتاب مع النبيين ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وقال تعالى : (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب) وقال تعالى : (وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) .

قد بين للمسلمين جميع مايتقونه كماقال : (وقدفصل لكم ماحرم عليكم إلا مااضطررتم إليه) وقال تعالى : (فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول) وهو الرد إلى كتاب الله أو إلى سنة الرسول بعد موته وقوله : (فإن تنازعتم) شرط والفعل نكرة فى سياق الشرط فأى شىء تنازعوا فيه ردوه إلى الله والرسول ، ولو لم يكن بيان الله والرسول فاصلا للنزاع لم يؤمروا بالرد إليه ، والرسول أنزل الله عليه الكتاب والحكمة كما ذكر ذلك فى غير موضع ، وقد علم أمته الكتاب والحكمة كما قال : (ويعلمهم الكتاب) وكان يذكر فى بيته الكتاب والحكمة وأمر أزواج نبيه بذكر ذلك فقال : (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) فآيات الله هى القرآن إذ كان نفس القرآن يدل على أنه منزل من الله فهو علامة ودلالة على منزله . والحكمة:قال غير واحد من السلف هى السنة وقال أيضاً طائفة كمالك وغيره هى معرفة الدين والعمل به ، وقيل غيرُ ذلك وكل ذلك حق فهى تتضمن التمييز بين المأمور والمحظور والحق والباطل ، وتعليم العلم بالحق دون الباطل وهذه السنة التى فرق بها بين الحق والباطل ، وبين الأعمال الحسنة من القبيحة ، والخير من الشر ، وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها بعدى إلا هالك » .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كلام نحو هذا ، وهذا كثير فى الحديث والآثار يذكرونه فى الكتب التى يذكر فيها هذه الآثار ، كما يذكر مثل ذلك غير واحد فيما يصنفونه فى السنة، مثل ابن بطة واللالكائى والطلمنكى ، وقبلهم

المصنفون فى السنة كأصحاب أحمد مثل عبد الله والأثرم وحرب الكرمانى وغيرهم ومثل الخلال وغيره .

والمقصود هنا تحقيق ذلك ، وأن الكتاب والسنة وافيان بجميع أمور الدين ، وأما إجماع الأمة فهو فى نفسه حق لاتجتمع الأمة على ضلالة ، وكذلك القياس الصحيح حق ، فان الله بعث رسله بالعدل وأنزل الميزان مع الكتاب، والميزان يتضمن العدل ومايعرف به العدل ، وقد فسروا إنزال ذلك بأن ألهم العباد معرفة ذلك ، والله ورسوله يسوى بين المتماثلين ويفرق بين المختلفين ، وهذا هو القياس الصحيح وقد ضرب الله فى القرآن من كل مثل ، وبين بالقياس الصحيح وهى الأمثال المضروبة مابينه من الحق ، لكن القياس الصحيح يطابق النص فان الميزان يطابق الكتاب ، والله أمر نبيه أن يحكم بما أنزل وأمره أن يحكم بالعدل ، فهو أنزل الكتاب، إنما أنزل الكتاب بالعدل قال تعالى : (وأن احكم بينهم بما أنزل الله . وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط) وأما إجماع الأمة فهو حق لاتجتمع الأمة ولله الحمد على ضلاله ، كما وصفها الله بذلك فى الكتاب والسنة فقال تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وهذا وصف لهم بأنهم يأمرون بكل معروف ، وينهون عن كل منكر كما وصف نبيهم بذلك فى قوله : (الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) وبذلك وصف المؤمنين فى قوله : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) فلو قالت الأمة فى الدين بما هو ضلال ، لكانت لم تأمر بالمعروف فى ذلك ولم تنه عن المنكر فيه وقال تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً

لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) والوسط العدل الخيار .

وقد جعلهم الله شهداء على الناس ، وأقام شهادتهم مقام شهادة الرسول وقد ثبت فى الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم : « مر عليه بجنازة فاثنوا عليها خيراً . فقال : وجبت وجبت . ثم مر عليه بجنازة فاثنوا عليها شراً . فقال : وجبت وجبت . قالوا : يارسول الله ماقولك وجبت وجبت .قال : هذه الجنازة أثنيتم عليها خيراً فقلت وجبت لها الجنة ، وهذه الجنازة أثنيتم عليها شراً فقلت وجبت لها النار أنتم شهداء الله فى الأرض » .

فاذا كان الرب قد جعلهم شهداء لم يشهدوا بباطل ، فاذا شهدوا أن الله أمر بشيء فقد أمر به ، وإذا شهدوا أن الله نهى عن شيء فقد نهى عنه ، ولو كانوا يشهدون بباطل أو خطأ ، لم يكونوا شهداء الله فى الأرض ، بل زكاهم الله فى شهادتهم كما زكى الأنبياء فيما يبلغون عنه أنهم لايقولون عليه إلا الحق ، وكذلك الأمة لاتشهد على الله إلا بحق وقال تعالى : (واتبع سبيل من أناب إلى) والأمة منيبة إلى الله فيجب اتباع سبيلها وقال تعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه) فرضى عمن اتبع السابقين إلى يوم القيامة ، فدل على أن متابعهم عامل بما يرضى الله ، والله لايرضى إلا بالحق لا بالباطل وقال تعالى : (ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) .

وكان عمر بن عبدالعزيز يقول كلمات كان مالك يأثرها عنه كثيراً . قال :

من رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر من بعده سننا ، الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستعمال لطاعة الله ومعونة على دين الله ، ليس لأحد تغييرها ولا النظر فى رأى من خالفها ، فمن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله تعالى ماتولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا .

والشافعى رضى الله عنه لما جرد الكلام فى أصول الفقه ، احتج بهذه الآية على الإجماع كما كان هو وغيره من مالك ، ذكر ذلك عن عمر بن عبدالعزيز والآية دلت على أن متبع غير سبيل المؤمنين مستحق للوعيد ، كما أن مشاق الرسول من بعد ماتبين له الهدى مستحق للوعيد ، ومعلوم أن هذا الوصف يوجب الوعيد بمجرده ، فلو لم يكن الوصف الآخر يدخل فى ذلك لكان لافائدة فى ذكره .

وهنا للناس ثلاثة أقوال : قيل اتباع غير سبيل المؤمنين هو بمجرد مخالفة الرسول المذكورة فى الآية ، وقيل بل مخالفة الرسول مستقلة بالذم ، فكذلك اتباع غير سبيلهم مستقل بالذم ، وقيل بل اتباع غير سبيل المؤمنين يوجب الذم كما دلت عليه الآية ، لكن هذا لايقتضى مفارقة الأول ، بل قد يكون مستلزما له ، فكل متابع غير سبيل المؤمنين هو فى نفس الأمر مشاق للرسول ، وكذلك مشاق الرسول متبع غير سبيل المؤمنين وهذا كما فى طاعة الله والرسول ، فان طاعة الله واجبة وطاعة الرسول واجبة ، وكل واحد من معصية الله ومعصية الرسول موجب للذم وهما متلازمان ، فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله ، وفى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من أطاعنى فقد أطاع الله ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ومن

عصانى فقد عصى الله ومن عصى أميرى فقد عصانى » وقال : «إنما الطاعة فى المعروف» يعنى إذا أمر أميرى بالمعروف فطاعته من طاعتى ، وكل من عصى الله فقد عصى الرسول، فان الرسول يأمر بما أمر الله به ، بل من أطاع رسولا واحداً فقد أطاع جميع الرسل ، ومن آمن بواحد منهم فقد آمن بالجميع، ومن عصى واحداً منهم فقد عصى الجميع ، ومن كذب واحداً منهم فقد كذب الجميع ، لأن كل رسول يصدق الآخر، ويقول أنه رسول صادق ويأمر بطاعته ، فمن كذب رسولا فقد كذب الذى صدقه ، ومن عصاه فقد عصى من أمر بطاعته ، ولهـــذا كان دين الأنبياء واحداً كما فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد » وقال تعالى : (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه) وقال تعالى : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم وان هـذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون) وقال تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين) من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ودين الأنبياء كلهم الإسلام كما أخبر الله بذلك فى غير موضع وهو الاستسلام لله وحده ، وذلك إنما يكون بطاعته فيما أمر به فى ذلك الوقت فطاعة كل نبى هى دين الإسلام إذ ذاك ، واستقبال بيت المقدس كان من دين الإسلام قبل النسخ ، ثم لما أمر باستقبال الكعبة صار استقبالها

من دين الإسلام ، ولم يبق استقبال الصخرة من دين الإسلام ، ولهذا خرج اليهود والنصارى عن دين الإسلام فانهم تركوا طاعة الله وتصديق رسوله ، واعتاضوا عن ذلك بمبدل أو منسوخ، وهكذا كل مبتدع ديناً خالف به سنة الرسول لايتبع إلادينا مبدلا أو منسوخاً ، فكل ماخالف ماجاء به الرسول إما أن يكون ذلك قد كان مشروعا لنبي ثم نسخ على لسان محمد ، وإما أن لايكون شرع قط فهذا كالأديان التي شرعها الشياطين على ألسنة أوليائهم قال تعالى : (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) وقال : (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم انكم لمشركون) وقال : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم وما يفترون) ولهذا كان الصحابة إذا قال أحدهم برأيه شيئاً يقول : إن كان صوابا فمن الله وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله برىء منه كما قال ذلك ابن مسعود ، وروى عن أبي بكر وعمر . فالأقسام ثلاثة : فانه إما أن يكون هذا القول موافقاً لقول الرسول أولا يكون ، وإما أن يكون موافقاً لشرع غيره ، وإما أن لا يكون ، فهذا الثالث المبدل كأديان المشركين والمجوس ، وإما كان شرعا لغيره وهو لايوافق شرعه فقد نسخ كالسبت وتحريم كل ذي ظفر وشحم الثرب والكليتين ، فان اتخاذ السبت عيداً ، وتحريم هذه الطيبات قد كان شرعا لموسى ثم نسخ ، بل قد قال المسيح :(ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم) فقد نسخ الله على لسان المسيح بعض ما كان حراما في شرع موسى ، وأما محمد فقال الله فيـــه : (الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم

الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) والشرك كله من المبدل لم يشرع الله الشرك قط كما قال : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى اليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون) .

وكذلك ما كان يحرمه أهل الجاهلية مما ذكره الله فى القرآن كالسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك ، هو من الدين المبدل ، ولهذا ذكر الله ذلك عنهم فى سورة الأنعام ، بين أن من حرم ذلك فقد كذب على الله ، وذكر تعالى ماحرمه على لسان محمد وعلى لسان موسى فى الأنعام : (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة) فقال : (أودما مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولاعاد فان ربك غفور رحيم وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون) وكذلك قال بعد هذا : (وعلى الذين هادوا حرمنا ماقصصنا عليك من قبل) .

فبين أن ماحرمه المشركون لم يحرمه على لسان موسى ولا لسان محمد، وهذان هما اللذان جاءا بكتاب فيه الحلال والحرام كما قال تعالى : (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه) وقال تعالى : (ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة) وقال تعالى : (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به

موسى — إلى قوله — وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه) وقالت الجن لما سمعت القرآن : (إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم) وقال ورقة بن نوفل : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرجان من مشكاة واحدة . وكذلك قال النجاشى : فالقرآن والتوراة هما كتابان جاءا من عند الله لم يأت من عنده كتاب أهدى منهما ، كل منهما أصل مستقل والذى فيهما دين واحد ، وكل منهما يتضمن إثبات صفات الله تعالى والأمر بعبادته وحده لاشريك له ففيه التوحيد قولا وعملا كما فى سورتى الإخلاص : (قل يا أيها الكافرون . وقل هو الله أحد) .

وأما الزبور فان داود لم يأت بغير شريعة التوراة ، وإنما فى الزبور ثناء على الله ودعاء وأمر ونهى بدينه وطاعته وعبادته مطلقاً ، وأما المسيح فانه قال : (ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم) فأحل لهم بعض المحرمات وهو فى الأكثر متبع لشريعة التوراة. ولهذا لم يكن بد لمن اتبع المسيح من أن يقرأ التوراة ، ويتبع مافيها إذ كان الإنجيل تبعاً لها .

وأما القرآن فانه مستقل بنفسه لم يحوج أصحابه إلى كتاب آخر ، بل اشتمل على جميع مافى الكتب من المحاسن ، وعلى زيادات كثيرة لاتوجد فى الكتب، فلهذا كان مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، يقرر مافيها من الحق ، ويبطل ماحرف منها ، وينسخ ما نسخه الله ، فيقر الدين الحق وهو جمهور مافيها ، ويبطل الدين المبدل الذى لم يكن فيها ، والقليل الذى نسخ فيها فإن المنسوخ قليل جداً بالنسبة إلى المحكم المقرر ، والأنبياء كلهم دينهم واحد

وتصديق بعضهم مستلزم تصديق سائرهم ، وطاعة بعضهم تستلزم طاعة سائرهم ، وكذلك التكذيب والمعصية لايجوز أن يكذب نبي نبياً ، بل إن عرفه صدقه ، وإلا فهو يصدق بكل ما أنزل الله مطلقاً وهو يأمر بطاعة من أمر الله بطاعته . ولهذا كان من صدق محمداً فقدصدق كل نبي ، ومن أطاعه فقد أطاع كل نبي ، ومن كذبه فقد كذب كل نبي ، ومن عصاه فقد عصى كل نبي ، قال تعالى : (إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقاً) وقال تعالى : (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون) .

ومن كذب هؤلاء تكذيباً بجنس الرسالة ، فقد صرح بأنه يكذب الجميع ولهذا يقول تعالى : (كذبت قوم نوح المرسلين) ولم يرسل إليهم قبل نوح أحد وقال تعالى : (وقو نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم) وكذلك من كان من الملاحدة والمتفلسفة طاعناً فى جنس الرسل كما قدمنا ، بأن يزعم أنهم لم يعلموا الحق ، أولم يبينوه فهو مكذب لجميع الرسل كالذين قال فيهم : (الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون) وقال تعالى : (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر

هنالك الكافرون) وقال تعالى عن الوليد : (إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر) .

وأهل الكتاب منهم من يؤمن بجنس الرسالة لكن يكذب بعض الرسل كالمسيح ومحمد ، فهؤلاء لما آمنوا ببعض وكفروا ببعض كانوا كافرين حقاً وكثير من لا يكذب الرسل تكذيباً صريحاً من الفلاسفة والباطنية ، وكثير من أهل الكلام والتصـــوف ولايؤمن بحقيقة النبوة والرسالة ، بل يقر بفضلهم فى الجملة مع كونه يقول أن غيرهم أعلم منهم ، أو أنهم لم يبينوا الحق أو لبسوه أو أن النبوة هى فيض يفيض على النفوس من العقل الفعال من جنس مايراه النائم ، ولا يقر بملائكة مفضلين ولا بالجن ونحو ذلك . فهؤلاء يقرون ببعض صفات الأنبياء دون بعض بما أوتوه دون بعض ، لايقرون بجميع ما أوتيه الأنبياء ، وهؤلاء قد يكون أحدهم شراً من اليهود والنصارى الذين أقروا بجميع صفات النبوة ، لكن كذبوا ببعض الأنبياء ، فان الذى أقر به هؤلاء مما جاءت به الأنبياء أعظم وأكثر إذ كان هؤلاء يقرون بأن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ويقرون بقيام القيامة ، ويقرون بأنه تجب عبادته وحده لاشريك له ،ويقرون بالشرائع المتفق عليها ، وأولئك يكذبون بهذا وإنما يقرون ببعض شرع محمد ، ولهذا كان اليهود والنصارى أقل كفراً من الملاحدة الباطنية المتفلسفة ونحوهم ، لكن من كان من اليهود والنصارى قد دخل مع هؤلاء فقـــد جمع نوعى الكفر ، لم يؤمن بجميع صفاتهم ولا بجميع أعيانهم ، وهؤلاء موجودون فى دول الكفار كثيراً ، كما يوجد أيضاً فى المنتسبين إلى الإسلام من هؤلاء وهؤلاء إذ كانوا فى دولة

المسلمين ، وأهل الكتاب كانوا منافقين فيهم من النفاق بحسب مافيهم من الكفر ، والنفاق يتبعض ، والكفر يتبعض ويزيد وينقص ، كما أن الإيمان يتبعض ويزيد وينقص ، قال الله تعالى : (إنما النسيء زيادة فى الكفر) وقال: (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) وقال : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولايزيد الظالمين إلا خسارا) وقال : (وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل اليك من ربك طغياناً وكفراً) وقال : (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) وقال : (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) وقال : (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً) .

وكثير من المصنفين فى الكلام لا يردون على أهل الكتاب إلا مايقولون إنه يعلم بالعقل ، مثل: تثليث النصارى، ومثل: تكذيب محمد، ولا يناظرونهم فى غير هذا من أصول الدين ، وهذا تقصير منهم مخالفة لطريقة القرآن ، فان الله يبين فى القرآن ما خالفوا به الأنبياء ويذمهم على ذلك ، والقرآن مملوء من ذلك ، إذ كان الكفر والايمان يتعلق بالرسالة والنبوة، فاذا تبين ماخالفوا فيه الأنبياء ظهر كفرهم ، وأولئك المتكلمون لما أصلوا لهم دينا بما أحدثوه من الكلام ، كالاستدلال بالأعراض على حدوث الأجسام ، ظنوا أن هذا هو أصول الدين ، ولو كان ما قالوه حقا لكان ذلك جزأ من الدين فكيف إن كان باطلا .

وقد ذكرت فى الرد على النصارى من مخالفتهم للأنبياء كلهم مع مخالفتهم لصريح العقل مايظهر به من كفرهم مايظهر ، ولهذا قيل فيه الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح نخاطبهم فى مقامين :

أحدهما : تبديلهم لدين المسيح .

والثانى : تكذيبهم لمحمد صلى الله عليه وسلم ، واليهود خطابهم فى تكذيب من بعد موسى إلى المسيح ، ثم فى تكذيب محمد كما ذكر الله ذلك فى سورة البقرة فى قوله : (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون وقالوا قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فقليلا ما يؤمنون) ثم قال : (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) إلى أن ذكر أنهم أعرضوا عن كتاب الله مطلقا واتبعوا السحر ، فقال : (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان -إلى قوله- ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون).

والنصارى نذمهم على الغلو والشرك الذى ابتدعوه وعلى تكذيب الرسول والرهبانية التى ابتدعوها ، ولا نحمدهم عليها إذ كانوا قد ابتدعوها وكل بدعة ضلالة ، لكن إذا كان صاحبها قاصداً للحق فقد يعفى عنه فيبقى عمله ضائعاً

لا فائدة فيه ، وهذا هو الضلال الذى يعذر صاحبه فلا يعاقب ولا يثاب ، ولهذا قال : (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فان المغضوب عليه يعاقب بنفس الغضب ، والضال فانه المقصود وهو الرحمة والثواب ، ولكن قد لا يعاقب كما عوقب ذلك بل يكون ملعونا مطروداً ، ولهذا فى حديث زيد ابن عمرو بن نفيل أن اليهود قالوا له: لن تدخل فى ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله . وقالوا له النصارى : حتى تأخذ نصيبك من لعنة الله . وقال الضحاك وطائفة :أن جهنم طبقات فالعليا لعصاة هذه الأمة والتى تليها للنصارى ، والتى تليها لليهود ، فجعلوا اليهود تحت النصارى ، والقرآن قد شهد بأن المشركين واليهود يوجدون أشد عداوة للذين آمنوا من الذين قالوا إنا نصارى ، وشدة العداوة زيادة فى الكفر ، فاليهود أقوى كفرا من النصارى ، وإن كان النصارى أجهل وأضل ، لكن أولئك يعاقبون على علمهم إذ كانوا عرفوا الحق وتركوه عناداً فكانوا مغضوباً عليهم ، وهؤلاء بالضلال حرموا أجر المهتدين ، ولعنوا وطردوا عما يستحقه المهتدون ثم إذا قامت عليهم الحجة فلم يؤمنوا استحقوا العقاب إذ كان اسم الضلال عاماً .

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى الحديث الصحيح فى خطبة يوم الجمعة : « خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة » ولم يقل وكل ضلالة فى النار ، بل يضل عن الحق من قصد الحق وقد اجتهد فى طلبه فعجز عنه فلا يعاقب ، وقد يفعل بعض ما أمر به فيكون له أجر على اجتهاده وخطؤه الذى ضـــل فيه عن حقيقة الأمر مغفور له .

وكثير من مجتهدى السلف والخلف قدقالوا وفعلوا ماهو بدعة ، ولم يعلموا أنه بدعة ، اما لأحاديث ضعيفة ظنوها صحيحة ، واما لآيات فهموا منها مالم يرد منها ، واما لرأى رأوه وفى المسألة نصوص لم تبلغهم .

وإذا اتقى الرجل ربه ما استطاع دخل فى قوله : (ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أوأخطأنا) وفى الصحيح ان الله قال : قد فعلت . وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن الرسول بين جميع الدين بالكتاب والسنة ، وأن الاجماع إجماع الأمة حق ، فانها لا تجتمع على ضلالة ، وكذلك القياس الصحيح حق يوافق الكتاب والسنة .

والآية المشهورة التى يحتج بها على الاجماع قوله : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى) ومن الناس من يقول انها لا تدل على مورد النزاع ، فان الذم فيها لمن جمع الأمرين ، وهذا لا نزاع فيه ، أو لمن اتبع غير سبيل المؤمنين التى بها كانوا مؤمنين وهى متابعة الرسول وهذا لا نزاع فيه ، أوأن سبيل المؤمنين هو الاستدلال بالكتاب والسنة وهذا لانزاع فيه فهذا ونحوه قول من يقول : لا تدل على محل النزاع. وآخرون يقولون : بل تدل على وجوب اتباع المؤمنين مطلقا ، وتكلفوا لذلك ما تكلفوه ، كما قد عرف من كلامهم ولم يجيبوا عن أسئلة أولئك بأجوبة شافية .

والقول الثالث: الوسط: أنها تدل على وجوب اتباع سبيل المؤمنين وتحريم

اتباع غير سبيلهم ، ولكن مع تحريم مشاقة الرسول من بعد ما تبين له الهدى وهو يدل على ذم كل من هذا وهذا كما تقدم ، لكن لا تنفى تلازمهما كما ذكر في طاعة الله والرسول، وحينئذ يقول الذم اما أن يكون لاحقاً لمشاقة الرسول فقط أو اتباع غير سبيلهم فقط ، أو أن يكون الذم لا يلحق بواحد منهما بل بهما إذا اجتمعا ، أو يلحق الذم بكل منهما وإن انفرد عن الآخر أو بكل منهما لكونه مستلزماً للآخر ،والأولان باطلان لأنه لو كان المؤثر أحدهما فقط ، كان ذكر الآخر ضائعا لا فائدة فيه ، وكون الذم لا يلحق بواحد منهما باطل قطعا ، فان مشاقة الرسول موجبة للوعيد مع قطع النظر عمن أتبعه ، ولحوق الذم بكل منهما وان انفرد عن الآخر لا تدل عليه الآية فان الوعيد فيها انما هو على المجموع ، بقى القسم الآخر وهو أن كلا من الوصفين يقتضى الوعيد لأنه مستلزم للآخر، كما يقال مثل ذلك فى معصية الله والرسول ومخالفة القرآن والاسلام ، فيقال من خالف القرآن والاسلام ، أو من خرج عن القرآن والاسلام فهو من أهل النار ، ومثله قوله: (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا)فان الكفر بكل من هذه الأصول يستلزم الكفر بغيره، فمن كفر بالله كفر بالجميع ، ومن كفر بالملائكة كفر بالكتب والرسل ، فكان كافراً بالله إذ كذب رسله وكتبه ، وكذلك إذ كفر باليوم الآخر كذب الكتب والرسل ، فكان كافراً وكذلك قوله : (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون)ذمهم على الوصفين وكل منهما مقتض للذم وهما متلازمان ولهذا نهى عنهما جميعا فى قوله : (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) فانه من لبس الحق بالباطل فغطاه به فغلط به لزم أن يكتم الحق

الذى تبين أنه باطـــل ، إذ لو بينه زال الباطل الذى لبس به الحق ، فهكذا مشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين من شاقه فقد اتبع غير سبيلهم ، وهذا ظاهر ومن اتبع غير سبيلهم فقد شاقه أيضا ،فانه قد جعل له مدخلا فى الوعيد فدل على أنه وصف مؤثر فى الذم ، فمن خرج عن اجماعهم فقد اتبع غير سبيلهم قطعاً،والآية توجب ذم ذلك ، وإذا قيل هى إنما ذمته مع مشاقة الرسول . قلنا : لأنهما متلازمان ، وذلك لأن كل ما أجمع عليه المسلمون فانه يكون منصوصا عن الرسول ، فالمخالف لهم مخالف للرسول كما أن المخالف للرسول مخالف لله ، ولـكن هذا يقتضى أن كل ما أجمع عليه قد بينه الرسول وهذا هو الصواب .

فلا يوجد قط مسألة مجمع عليها إلا وفيها بيان من الرسول ، ولـكن قد يخفى ذلك على بعض الناس ، ويعلم الإجماع فيستدل به كما أنه يستدل بالنص من لم يعرف دلالة النص ، وهو دليل ثان مع النص كالأمثال المضروبة فى القرآن ، وكذلك الاجماع دليل آخر . كما يقال : قد دل على ذلك الـكتاب والسنة والاجماع ، وكل من هذه الأصول يدل على الحق مع تلازمها فان ما دل عليه الاجماع ، فقد دل عليه الـكتاب والسنة ، وما دل عليه القرآن فعن الرسول أخذ ، فالـكتاب والسنة كلاهما مأخوذ عنه ولا يوجد مسألة يتفق الاجماع عليها إلا وفيها نص .

وقد كان بعض الناس يذكر مسائل فيها إجماع بلا نص ، كالمضاربة وليس كذلك ، بل المضاربة كانت مشهورة بينهم فى الجاهلية لا سيما قريش فان الأغلب كان عليهم التجارة ، وكان أصحاب الأموال يدفعونها إلى العمال

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد سافر بمال غيره قبل النبوة ، كما سافر بمال خديجة ، والعير التى كان فيها أبو سفيان كان أكثرها مضاربة مع أبى سفيان وغيرها ، فلما جاء الاسلام أقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أصحابه يسافرون بمال غيرهم مضاربة ولم ينه عن ذلك ، والسنة قوله وفعله واقراره فلما أقرها ، كانت ثابتة بالسنة والأثر المشهور فيها عن عمر الذى رواه مالك فى الموطأ ، ويعتمد عليه الفقهاء لما أرسل أبو موسى بمال أقرضه لابنيه واتجرا فيه وربحا ، وطلب عمر أن يأخذ الربح كله للمسلمين ، لكونه خصهما بذلك دون سائر الجيش فقال له أحدهما : لو خسر المال كان علينا فكيف يكون لك الربح وعلينا الضمان ، فقال له بعض الصحابة : اجعله مضاربا فجعله مضاربة ، وإنما قال ذلك لأن المضاربة كانت معروفة بينهم والعهد بالرسول قريب لم يحدث بعده ، فعلم انها كانت معروفة بينهم على عهد الرسول ، كما كانت الفلاحة وغيرها من الصناعات كالخياطة والجزارة وعلى هذا فالمسائل المجمع عليها قد تكون طائفة من المجتهدين لم يعرفوا فيها نصا ، فقالوا فيها باجتهاد الرأى الموافق للنص ، لكن كان النص عند غيرهم وابن جرير وطائفة يقولون: لا ينعقد الاجماع إلا عن نص نقلوه عن الرسول مع قولهم بصحة القياس .

ونحن لا نشترط أن يكونوا كلهم علموا النص فنقلوه بالمعنى كما تنقل الأخبار ، لكن استقرأنا موارد الاجماع فوجدنا كلها منصوصة ، وكثير من العلماء لم يعلم النص ، وقد وافق الجماعة كما أنه قد يحتج بقياس ، وفيها اجماع لم يعلمه فيوافق الاجماع ، وكما يكون فى المسألة نص خاص ، وقد

استدل فيها بعضهم بعموم كاستدلال ابن مسعود وغيره بقوله : (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) وقال ابن مسعود سورة النساء القصرى نزلت بعد الطولى أى بعد البقرة وقوله : (أجلهن أن يضعن حملهن) يقتضى انحصار الأجل فى ذلك ، فلو أوجب عليها أن تعتد بأبعد الأجلين لم يكن أجلها أن تضع حملها ، وعلى وابن عباس وغيرهما أدخلوها فى عموم الآيتين ، وجاء النص الخاص فى قصة سبيعة الأسلمية بما يوافق قول ابن مسعود .

وكذلك لما تنازعوا فى المفوضة إذا مات زوجها هل لها مهر المثل ، أفتى ابن مسعود فيها برأيه : أن لها مهر المثل ، ثم رووا حديث بروع بنت واشق بما يوافق ذلك ، وقد خالفه على وزيد وغيرهما . فقالوا : لا مهر لها .

فثبت أن بعض المجتهدين قد يفتى بعموم أو قياس ويكون فى الحادثة نص خاص لم يعلمه فيوافقه ، ولا تعلم مسألة واحدة اتفقوا على أنه لا نص فيها ، بل عامة ما تنازعوا فيه كان بعضهم يحتج فيه بالنصوص ، أولئك يحتجوا بنص كالمتوفى عنها الحامل ، وهؤلاء احتجوا بشمول الآيتين لها ، والآخرين قالوا : إنما يدخل فى آية الحمل فقط وان آية الشهور فى غير الحامل كما أن آية القروء فى غير الحامل .

وكذلك لما تنازعوا فى الحرام احتج من جعله يمينا بقوله : (لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك والله غفور رحيم قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) .

وكذلك لما تنازعوا فى المبتوتة هل لها نفقة أو سكنى ، احتج هؤلاء بحديث

فاطمة ، وبأن السكنى التى فى القرآن للرجعية وأولئك قالوا بل هى لهما ودلالات النصوص قد تكون خفية ، فخص الله بفهمهن بعض الناس كما قال على : إلا فهما يؤتيه الله عبدا فى كتابه .

وقد يكون النص بينا ويذهل المجتهد عنه كتيمم الجنب ، فانه بين فى القرآن فى آيتين ، ولما احتج أبو موسى على ابن مسعود بذلك . قال : الحاضر مادرى عبد الله ما يقول ، إلا أنه قال لو أرخصنا لهم فى هذا لأوشك أحدهم إذا وجد المرء البرد أن يتيمم ، وقد قال ابن عباس وفاطمة بنت قيس وجابر : أن المطلقة فى القرآن هى الرجعية بدليل قوله : (لاتدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) وأى أمر يحدثه بعد الثلاثة .

وقداحتج طائفة على وجوب العمرة بقوله : (وأتموا الحج والعمرة لله) واحتج بهذه الآية من منع الفسخ وآخرون يقولون : إنما أمر بالاتمام فقط ، وكذلك أمر الشارع أن يتم ، وكذلك فى الفسخ قالوا : من فسخ العمرة إلى غير حج فلم يتمها ، أما إذا فسخها ليحج من عامه فهذا قد أتى بما تم مما شرع فيه ، فانه شرع فى حج مجرد فأتى بعمرة فى الحج ، ولو لم يكن هذا إتماما لما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه عام حجة الوداع .

وتنازعوا فى الذى بيده عقدة النكاح وفى قوله : (أو لامستم النساء) ونحو ذلك مما ليس هذا موضع استقصائه .

وأما مسألة مجردة اتفقوا على أنه لا يستدل فيها بنص جلى ولا خفى فهذا ما لا أعرفه .

والجد لما قال أكثرهم أنه أب استدلوا على ذلك بالقرآن بقوله : (كما أخرج أبويكم من الجنة) وقال ابن عباس : لو كانت الجن تظن أن الانس تسمى أبا الأب جداً لما قالت : (وأنه تعالى جد ربنا) تقول إنما هو أب لكن أب أبعد من أب .

وقد روى عن على وزيد أنهما احتجا بقياس ، فمن ادعى اجماعهم على ترك العمل بالرأى والقياس مطلقاً فقد غلط ،ومن ادعى أن من المسائل ما لم يتكلم فيها أحد منهم إلا بالرأى والقياس فقد غلط ، بل كان كل منهم يتكلم بحسب ما عنده من العلم ، فمن رأى دلالة الكتاب ذكرها ، ومن رأى دلالة الميزان ذكرها .

والدلائل الصحيحة لا تتناقض ، لكن قد يخفى وجه اتفاقها أو ضعف أحدها على بعض العلماء .

وللصحابة فهم فى القرآن يخفى على أكثر المتأخرين ، كما أن لهم معرفة بأمور من السنة ، وأحوال الرسول لا يعرفها أكثر المتأخرين، فانهم شهدوا التنزيل وعاينوا الرسول ، وعرفوا من أقواله وأفعاله وأحواله ما يستدلون به على مرادهم ما لم يعرفه أكثر المتأخرين الذين لم يعرفوا ذلك . فطلبوا الحكم مما اعتقدوه من اجماع أو قياس .

ومن قال من المتأخرين أن الاجماع مستند معظم الشريعة ، فقد أخبر عن حاله ، فانه انقص معرفته بالكتاب والسنة احتاج إلى ذلك ،وهذا كقولهم: إن أكثر الحوادث يحتاج فيها إلى القياس لعدم دلالة النصوص عليها ، فانما هذا قول من لا معرفة له بالكتاب والسنة ودلالتهما على الأحكام .

وقد قال الامام أحمد رضى الله عنه : أنه ما من مسألة إلا وقد تكلم فيها الصحابة أو فى نظيرها ،فانه لما فتحت البلاد وانتشر الاسلام ،حدثت جميع أجناس الأعمال فتكلموا فيها بالكتاب والسنة ، وإنما تكلم بعضهم بالرأى فى مسائل قليلة . والاجماع لم يكن يحتج به عامتهم ولا يحتاجون اليه إذ هم أهل الإجماع فلا إجماع قبلهم ، لكن لما جاء التابعون كتب عمر إلى شريح : اقض بما فى كتاب الله فان لم تجد فبما فى سنة رسول الله فان لم تجد فبما بهقضى الصالحون قبلك ، وفى رواية : فبما أجمع عليه الناس ، وعمر قال : قدم الكتاب ثم السنة ، وكذلك ابن مسعود قال مثل ما قال عمر قدم الكتاب ثم السنة ثم الاجماع ، وكذلك ابن عباس كان يفتى بما فى الكتاب ثم بما فى السنة ، ثم بسنة أبى بكر وعمر لقوله : « اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر » .

وهذه الآثار ثابتة عن عمر وابن مسعود وابن عباس ، وهم من أشهر الصحابة بالفتيا والقضاء وهذا هو الصواب ، ولكن طائفة من المتأخرين قالوا : يبدأ المجتهد بأن ينظر أولا فى الاجماع فان وجده لم يلتفت إلى غيره ، وإن وجد نصاً خالفه اعتقد أنه منسوخ بنص لم يبلغه ، وقال بعضهم الإجماع نسخه .

والصواب طريقة السلف ، وذلك لأن الاجماع إذا خالفه نص فلا بد أن يكون مع الاجماع نص معروف بهأن ذاك منسوخ ، فاما أن يكون النص المحكم قدضيعته الأمة وحفظت النص المنسوخ فهذا لا يوجد قط ، وهو نسبة الأمة إلى حفظ ما نهيت عن اتباعه ، واضاعة ما أمرت باتباعه ، وهى معصومة عن ذلك .

ومعرفة الاجماع قد تتعذر كثيراً أو غالباً ، فمن ذا الذى يحيط بأقوال المجتهدين بخلاف النصوص فان معرفتها ممكنة متيسرة ، وهم إنما كانوا يقضون بالكتاب أولا لأن السنة لا تنسخ الكتاب ، فلايكون فى القرآن شىء منسوخ بالسنة بل إن كان فيه منسوخ كان فى القرآن ناسخه ، فلايقدم غير القرآن عليه ثم إذا لم يجد ذلك طلبه فى السنة ، ولايكون فى السنة شىء منسوخ إلا والسنة نسخته، لا ينسخ السنة إجماع ولا غيره ولا تعارض السنة باجماع وأكثر ألفاظ الآثار، فان لم يجد فالطالب قد لا يجد مطلوبه فى السنة مع أنه فيها ، وكذلك فى القرآن فيجوز له إذا لم يجده فى القرآن أن يطلبه فى السنة ، وإذا كان فى السنة لم يكن مافى السنة معارضاً لما فى القرآن ، وكذلك الاجماع الصحيح لايعارض كتابا ولا سنة .

تم بحمد الله وعونه وصلواته على خير بريته محمد وآله .

تمت الرسالة الثانية

ويليها الرسالة الثالثة : التبيان فى نزول القرآن

الرسالة الثالثة

التبيان فى نزول القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام العلامة المحقق ؛ أبو العباس أحمد بن تيمية ، رحمه الله تعالى ورضى عنه .

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين أما بعد فهذا :

﴿ فصل ﴾ فى نزول القرآن ، ولفظ النزول حيث ذكر فى كتاب الله تعالى ، فان كثيراً من الناس فسروا النزول فى مواضع من القرآن بغير ماهو معناه المعروف لاشتباه المعنى فى تلك المواضع ، وصار ذلك حجة لمن فسر نزول القرآن بتفسير أهل البدع .

فمن الجهمية من يقول : أنزل: بمعنى خلق ، كقوله تعالى : (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) أو يقول : خلقه فى مكان عال ثم أنزله من ذلك المكان .

ومن الكلابية من يقول : أنزله بمعنى الاعلام به وافهامه للملك أو نزول الملك بما فهمه .

وهذا الذى قالوه باطل فى اللغة والشرع والعقل ، والمقصود هنا ذكر النزول .

فنقول وبالله التوفيق : النزول فى كتاب الله عز وجل . ثلاثة أنواع : نزول مقيد بأنه منه ، ونزول مقيد بأنه من السماء ، ونزول غير مقيد لا بهذا ولا بهذا .

فالاول : لم يرد إلا فى القرآن كما قال تعالى : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) وقال تعالى : (نزله روح القدس من ربك بالحق) وقال تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وفيها قولان: أحدهما : لا حذف فى الكلام بل قوله : تنزيل الكتاب . مبتدأ وخبره : من الله العزيز الحكيم . والثانى : أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هذا تنزيل الكتاب ، وعلى كلا القولين ، فقد ثبت أنه منزل منه ، وكذلك قوله : (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) والتنزيل : بمعنى المنزل . تسمية للمفعول باسم المصدر وهو كثير، ولهذا يقال :القرآن كلام الله ليس بمخلوق منه بدا ، قال أحمد وغيره : واليه يعود . أى هو المتكلم به. وقال : كلام الله من الله ليس ببائن منه، أى لم يخلقه فى غيره ، فيكون مبتدأ منزلا من ذلك المخلوق، بل هو منزل من الله كما أخبر به ومن الله بدا لا من مخلوق ، فهو الذى تكلم به لخلقه .

وأما النزول المقيد بالسماء بقوله : (وأنزلنا من السماء) والسماء اسم جنس لكل ما علا ، فاذا قيد بشىء معين لقوله فى غير موضع من السماء مطلق أى فى العلو ، ثم قد بينه فى موضع آخر بقوله : (ءأنتم أنزلتموه من المزن) وقوله : (فترى الودق يخرج من خلاله) أى أنه منزل من السحاب وما يشبه نزول القرآن قوله : (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) فنزول الملائكة هو نزولهم بالوحى من أمره الذى هو كلامه وكذلك : (تنزل الملائكة والروح فيها) يناسب قوله : (فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا انا كنا مرسلين) فهذا شبيه بقوله : (قل نزله روح القدس) .

وأما المطلق ففى مواضع ، منها ما ذكره من انزال السكينة لقوله : (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) وقوله : (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين) إلى غير ذلك .

ومن ذلك إنزال الميزان ، ذكره مع الكتاب فى موضعين ، وجمهور المفسرين على أن المراد به العدل ، وعن مجاهد رحمه الله هو ما يوزن به ولا منافاة بين القولين ، وكذلك العدل ومايعرف به العدل منزل فى القلوب والملائكة قد تنزل على قلوب المؤمنين لقوله: (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا)فذلك الثبات نزل فى القلوب بواسطة الملائكة وهو السكينة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من طلب القضاء واستعان عليه وكل اليه ومن لم يطلب القضاء ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده » فالله ينزل عليه ملكا، وذلك الملك يلهمه السداد وهو ينزل فى قلبه .

ومنه حديث حذيفة رضى الله عنه الذى فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله أنزل الأمانة فى جذر قلوب الرجال فعلموا من القرآن وعلموا من السنة » والأمانة هى الإيمان أنزلها فى أصل قلوب الرجال وهو كانزال الميزان والسكينة وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله » الحديث إلى آخره فذكر أربعة عشر غشيان الرحمة ، وهى أن تغشاهم كما يغشى اللباس لابسه ، وكما يغشى الرجل المرأة ، والليل النهار ثم قال: (ونزلت عليهم السكينة وهو انزالها فى قلوبهم : (وحفتهم الملائكة) أى جلست حولهم وذكرهم الله فيمن عنده من الملائكة .

وذكر الله الغشيان فى مواضع مثل قوله تعالى : (يغشى الليل النهار) وقوله : (فلما تغشاها حملت حملا خفيفا) وقوله :(والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى) وقوله :(ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون) هذا كله فيه احاطة من كل وجه .

وذكر تعالى انزال النعاس فى قوله : (ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون) هذا كله فيه إحاطة من كل وجه .

وذكر تعالى إنزال النعاس فى قوله : (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم) هذا يوم أحد. وقال فى يوم بدر :(إذ يغشاكم النعاس أمنة منه) والنعاس ينزل فى الرأس بسبب نزول الأبخرة التى تدخل فى الدماغ فتنعقد فيحصل منها النعاس .

وطائفة من أهل الكلام منهم : أبو الحسن الأشعرى ومن اتبعه من أصحاب مالك والشافعى وأحمد، جعلوا النزول والاتيان والمجىء حدثا يحدثه منفصلا عنه ، فذاك هو اتيانه واستواؤه على العرش فقالوا : استواؤه فعل يفعله فى العرش يصير به مستويا من غير فعل يقوم بالرب ، لكن أكثر الناس خالفوهم وقالوا : المعروف أنه لايجىء شىء من الصفات والأعراض إلا بمجىء شىء فاذا قالوا جاء البرد وجاء الحر ، فقد جاء الهواء الذى يحمل الحر والبرد ، وهو عين قائمة بنفسها ، وإذا قالوا جاءت الحمى : فالحمى حر وبرد تقوم بعين قائمة بسبب أخلاط تتحرك وتتحول من حال إلى حال فيحدث الحر والبرد بذلك ، وهذا بخلاف العرض الذى يحدث بلا تحول من حامل مثل لون الفاكهة ، فانه لا يقال فى هذا جاء به الحمرة والصفرة

والخضرة ، بل يقال أحمر وأصفر وأخضر ، وإذا كان كذلك فانزاله تعالى العدل والسكينة والنعاس والأمانة ، وهذه صفات تقوم بالعباد إنما تكون إذا أفضى بها إليهم ، فأعيان قائمة توصف بالنزول كما توصف الملائكة بالنزول بالوحى والقرآن ، فاذا نزل بها الملائكة قيل أنها نزلت .

وكذلك لو نزل غير الملائكة كالهواء الذى نزل بالأسباب فيحدث الله منه البخار الذى يكون معه النعاس ، فكان قد أنزل النعاس سبحانه مايحمله .

وقد ذكر سبحانه إنزال الحديد والحديد يخلق فى المعادن .

وما يذكر عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن ادم عليه السلام نزل من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد : السندان والكلبتان والميقعة والمطرقة والابرة ، فهو كذب لا يثبت مثله .

وكذلك الحديث الذى رواه الثعلبي عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ان الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض فأنزل الحديد والماء والنار والملح » حديث موضوع مكذوب فى إسناده سيف ابن محمد ابن أخت سفيان الثورى رحمه الله من الكذابين المعروفين بالكذب.

قال ابن الجوزى هو سيف بن محمد ابن أخت سفيان الثورى ، يروى عن الثورى وعاصم الأحول والأعمش قال أحمد رحمه الله : هو كذاب يضع الحديث ، وقال مرة ليس بشىء ، وقال يحيى كان كذابا خبيثاً ، وقال مرة ليس بثقة ولا مأمون ، وقال الدارقطنى ضعيف متروك ، والناس يشهدون

أن هذه الأمة تصنع من حديد المعادن مايريدون ، فان قيل ان آدم عليه السلام نزل معه جميع الآلات ، فهذه مكابرة للعيان وان قيل بل نزل معه آلة واحدة، تلك لاتعرف ، فأى فائدة فى هذا لسائرالناس ثم ما يصنع بهذه الآلات إذا لم يكن ثم حديد موجود يطرق بهذه الآلات ، وإذا خلق الله الحديد صنعت منه هذه الآلات ، مع أن المأثور أن أول من خط وخاط إدريس عليه السلام ، وآدم عليه السلام لم يخط ثوبا فما يصنع بالابرة .

ثم أخبر أنه أنزل الحديد فكان المقصود الأكبر بذكر الحديد ، هو اتخاذ آلات الجهاد منه كالسيف والسنان والنصل وما أشبه ذلك ، الذى به ينصر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وهذا لم ينزل من السماء ، فان قيل نزلت الآلة التى يطبع بها ، قيل فالله أخبر أنه أنزل الحديد لهـــذه المعانى المتقدمة ، والآلة وحدها لاتكفى بل لابد من مادة يصنع بها آلات الجهاد ، لكن لفظ النزول أشكل على كثير من الناس حتى قال قطرب رحمه الله معناه جعله نزلا ، كما يقال أنزل الأمر على فلان نزلا حسناً أى جعله نزلا ، قال ومثله قوله تعالى : (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) وهذا ضعيف فان النزل إنما يطلق على ما يؤكل لاعلى ما يقابل به قال الله تعالى : (فنزل من حميم) والضيافة سميت نزلالأن العادة أن الضيف يكون راكباً فينزل فى مكان يؤتى إليه بضيافته فيه ، فسميت نزلا لأجل نزوله ، ونزل ببنى فلان ضيف ، ولهذا قال نوح عليه السلام : (ربى أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) لأنه كان راكباً فى السفينة وسميت المواضع التى ينزل بها المسافرون منازل ، لأنهم يكونون ركباناً فينزلون والمشاة تبع للركبان ، وتسمى المساكن منازل .

وجعل بعضهم : نزول الحديد بمعنى الخلق لأنه أخرجه من المعادن وعلمهم صنعته ، فان الحديد إنما يخلق فى المعادن ، والمعادن إنما تكون فى الجبال ، فالحديد ينزله الله من معادنه التى فى الجبال لينتفع به بنو آدم ، وقال تعالى : (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) .

وهذا مما أشكل أيضاً فمنهم من قال جعل ، ومنهم من قال خلق لكونها تخلق من الماء ، فان به يكون النبات الذى ينزل أصله من السماء وهو الماء وقال قطرب : جعلناه نزلا ولا حاجة إلا إخراج اللفظ عن معناه المعروف لغة ، فان الأنعام تنزل من بطون أمهاتها ومن أصلاب آبائها تأتى بطون أمهاتها ، ويقال للرجل قد أنزل الماء ، وإذا أنزل وجب عليه الغسل ، مع أن الرجل غالب إنزاله ، وهو على جنب ، إما وقت الجماع وإما بالاحتلام ، فكيف بالأنعام التى غالب إنزالها مع قيامها على رجليها وارتفاعها على ظهور الاناث .

ومما يبين هذا أنه لم يستعمل النزول فيما خلق من السفليات ، فلم يقل أنزل النبات ولا أنزل المرعى ، وإنما استعمل فيما يخلق فى محل عال وأنزله الله من ذلك المحل كالحديد والأنعام .

وقال تعالى : (يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشاً الآية) وفيها قراءتان إحداهما بالنصب فيكون لباس التقوى أيضاً منزلا ، وأما قراءة الرفع فلا وكلتاهما حق ، وقد قيل خلقناه ، وقيل أنزلنا أسبابه ، وقيل ألهمناهم كيفية صنعته ، وهذه الأقوال ضعيفة ، فان النبات الذى ذكروا لم يجىء فيه لفظ أنزلنا ولم يستعمل فى كل ما يصنع أنزلنا ، فلم يقل أنزلنا

الدور وأنزلنا الطبخ ونحو ذلك ، وهو لم يقل انا أنزلنا كل لباس ورياش ، وقد قيل إن الريش والرياش المراد به اللباس الفاخر كلاهما بمعنى واحد مثل اللبس واللباس ، وقد قيل هما المال والخصب والمعاش ، وارتاش فلان حسنت حالته .

والصحيح أن الريش هو الأثاث والمتاع ، قال أبو عمرو والعرب تقول : أعطانى فلان ريشه أى كسوته وجهازه ، وقال غيره الرياش فى كلام العرب الأثاث وما ظهر من المتاع والثياب والفرش ونحوها ، وبعض المفسرين أطلق عليه لفظ المال ، والمراد به مال مخصوص قال ابن زيد جمالا ، وهذا لأنه مأخوذ من ريش الطائر وهو مايروش به ويدفع عنه الحر والبرد ، وجمال الطائر ريشه ، وكذلك مايبيت فيه الإنسان من الفرش وما يبسطه تحته ونحو ذلك ، والقرآن مقصوده جنس اللباس الذى يلبس على البدن وفى البيوت كما قال تعالى : (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا الآية) فامتن سبحانه بما ينتفعون به من الأنعام فى اللباس والأثاث ، وهذا والله أعلم معنى إنزاله ، فإنه ينزله من ظهور الأنعام وهو كسوة الأنعام من الاصواف والأوبار والأشعار ، وينتفع به بنو آدم من اللباس والرياش ، فقد أنزلها عليهم ، وأكثر أهل الأرض كسوتهم من جلود الدواب ، فهى لدفع الحر والبرد ، وأعظم مما يصنع من القطن والكتان والله تعالى ذكر فى سورة النحل إنعامه على عباده ، فذكر فى أول السورة أصول النعم التى لايعيش بنو آدم إلا بها ، وذكر فى أثنائها تمام النعم التى لايطيب عيشهم إلا بها فذكر فى أولها الرزق الذى لابد لهم منه ، وذكر مايدفع البرد من الكسوة بقوله : (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنها تأكلون) ثم فى أثناء السورة

ذكر لهم المساكن ومنافع التى يسكنونها مساكن الحاضرة والبادية ومساكن المسافرين فقال تعالى : (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً الآية) ثم ذكر إنعامه بالظلال التى تقيهم الحر والبأس فقال : (والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا — إلى قوله — كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) ولم يذكر هنا مايتى من البرد لأنه قد ذكره فى أول السورة وذلك فى أصول النعم لأن البرد يقتل فلا يقدر أحد أن يعيش فى البلاد الباردة بلا دفء بخلاف الحر ، فانه أذى لكنه لايقتل كما يقتل البرد ، فإن الحر قد يتقى بالظلال واللباس وغيرهما ، وأهله أيضاً لايحتاجون إلى وقاية كما يحتاج إليه البرد ، بل أدنى وقاية تكفيهم وهم فى الليل وطرفى النهار ، ولا يتأذون به تأذياً كثيراً بل لايحتاجون اليه أحياناً حاجة قوية فجمع بينهما فى قوله : (سرابيل تقيكم الحر . وسرابيل تقيكم بأسكم)ولاحذف فى اللفظ ولا قصور فى المعنى كما يظنه من لم يحسن القرآن ، بل لفظه أتم لفظ ومعناه أكمل المعانى فاذا كان اللباس والرياش ينزل من ظهور الأنعام ، وكسوة الأنعام منزلة من الأصلاب والبطون كما تقدم ، فهو منزل من الجهتين فانه على ظهور الأنعام لاينتفع به بنو آدم حتى ينزل .

فقد تبين أن ليس فى القرآن ولافى السنة لفظ نزول إلا فيه معنى النزول المعروف ، هذا هو اللائق بالقرآن فإنه نزل بلغة العرب ولاتعرف العرب منزولا إلا بهذا المعنى ، ولوأريد غير هذا المعنى لكان خطابا بغير لغتها، ثم هو استعمال اللفظ المعروف له معنى فى معنى آخر بلا بيان ، وهذا لايجوز بما ذكرنا ، وبهذا يحصل مقصود القرآن واللغة الذى أخبر الله تعالى أنه بينه

وجعله هدى للناس ، وليكن هذا آخره والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً .

وسئل أيضاً رحمه الله تعالى : عن عرض الأديان عند الموت ، هل لذلك أصل فى الكتاب والسنة أم لا . وقوله صلى الله عليه وسلم : « إنكم لتفتنون فى قبوركم » ما المراد بالفتنة وإذا ارتد العبد والعياذ بالله تعالى هل يجازى بأعماله الصالحة قبل الردة أم لا .

الجواب : الحمد لله ، أما عرض الأديان على العبد وقت الموت فليس هو أمراً عاماً لكل أحد ، ولا هو أيضاً منتفياً عن كل أحد ، بل من الناس من تعرض عليه الأديان ، ومنهم من لا تعرض عليه ، وقد وقع ذلك لأقوام وذلك كله من فتنة المحيا والممات التى أمرنا أن نستعيذ منها فى صلاتنا ، منها ما فى الحديث الصحيح الذى أمرنا النبى صلى الله عليه وسلم أن نستعيذ فى صلاتنا من أربع : من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال . ولكن وقت الموت يكون الشيطان أحرص ما يكون على إغواء ابن آدم لأنه وقت الحاجة ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « الأعمال بخواتيمها » وقال صلى الله عليه وسلم : « إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار وإن العبد ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة » ولهذا روى أن الشيطان أشد ما يكون على ابن آدم حين الموت ، يقول لأعوانه دونكم هذا فانه إن فاتكم لن تظفروا به أبداً ،

وحكاية عبد الله بن أحمد بن حنبل مع أبيه وهو يقول لابعد لابعد مشهورة ، ولهذا يقال أن من لم يحج يخاف عليه من ذلك، لما روى أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله الحرام ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً » قال الله تعالى :(ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن العالمين) قال عكرمة : لما نزلت هذه الآية : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) قالت اليهود والنصارى : نحن مسلمون . فقال الله لهم : (ولله على الناس حج البيت) فقالوا : لانحجه . فقال الله تعالى : (ومن كفر فان الله غنى عن العالمين) .

وأما الفتنة فى القبور ، ففى الامتحان والاختبار للميت حين يسأله الملكان فيقولان له : ماربك وما دينك ومن نبيك ، ويقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم محمد ، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت . فيقول المؤمن : الله ربى ، والإسلام دينى ، ومحمد نبى ، ويقول : هو محمد رسول الله جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه ، فينتهرانه انتهارة شديدة ، وهى آخر فتنة التى يفتن بها المؤمن فيقولان له كما قال أولا .

وقد تواترت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فى هذه الفتنة من حديث البراء بن عازب وأنس بن مالك وأبى هريرة وغيرهم رضى الله عنهم ، وهى عامة للمكلفين إلا النبيين فقد اختلف فيهم ، وكذلك اختلف فى غير المكلفين كالصبيان والمجانين . فقيل : لايفتنون لأن المحنة إنما تكون للمكلفين

وهذا قول القاضى أبو يعلى وابن عقيل ، وعلى هذا فلا يلقنون بعد الموت ، وقيل بل يلقنون ويفتنون أيضاً ، وهذا قول أبى حكيم وأبى الحسن بن عبيد ، ونقله عن أصحابه وهو مطابق لقول من يقول : أنهم مكلفون يوم القيامة ، كما هو قول أكثر أهل العلم ، وأهل السنة من أهل الحديث والكلام ، وهو الذى ذكره أبو الحسن الأشعرى عن أهل السنة واختاره ، وهو مقتضى نصوص الإمام أحمد .

وأما الردة عن الإيمان ، بأن يصير الرجل كافراً مشركا ، أو كتابياً فانه إذا مات على ذلك والعياذ بالله تعالى حبط عمله باتفاق العلماء ، كما نطق بذلك القرآن فى غير موضع كقوله تعالى : (ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وقوله : (ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله) وقوله : (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) وقوله : (لئن أشركت ليحبطن عملك) والمراد غير النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكن التنازع فيما إذا ارتد ثم عاد إلى الإسلام ، هل تحبط الأعمال التى عملها قبل الردة ، ويجب عليه قضاؤها ، أم لا تحبط إلا إذا مات مرتداً ، على قولين مشهورين هما قولان فى مذهب الإمام أحمد .

والحبوط مذهب الإمامين مالك وأبى حنيفة ، وهو الراجح والوقف مذهب الشافعى ، وتنازع الناس أيضاً فى المرتد ، هل يقال كان له إيمان صحيح فحبط بالردة أم يقال بل الردة تبين أن إيمانه كان فاسداً وأن الإيمان الصحيح لا يزول البتة ، على قولين لطوائف من الناس ، وعلى ذلك

يفنى قول المستثنى: أنا مؤمن إن شاء الله ، هل يعود الاستثناء إلى كمال الإيمان فى الحال ، أو يعود إلى الموافاة فى المـال ، والله أعلم .

قاله أحمد بن تيمية ، أحسن الله جزاءه وتوفيقه .

تمت الرسالة الثالثـة

ويليها الرسالة الرابعة : الوصية الصغرى

الرسالة الرابعة

الوصية الصغرى

بسم الله الرحمن الرحيم

سؤال أبي القاسم ، القاسم بن يوسف بن محمد التجيبي السبتي؛ يتفضل سيدنا الشيخ الفقيه الإمام الفاضل العالم ، بقية السلف قدوة الخلف المبدع المغرب المعرب المفصح ، أعلم من لقيت ببلاد المشرق والمغرب ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية أبقى الله علينا بركته ، بأن يوصيني بما يكون فيه صلاح ديني ودنياي ، ويرشدني إلى كتاب يكون عليه اعتمادي في علم الحديث ، وكذلك في غيره من العلوم الشرعية ، وينبهني على أفضل الأعمال الصالحة بعد الواجبات ويبين لي أرجح المكاسب ، كل ذلك على قصد الإيماء والاختصار . والله تعالى يحفظه والسلام الكريم عليه ورحمة الله وبركاته .

قال شيخ الإسلام بحر العلوم ابن تيمية رحمه الله ورضي عنه :

الحمد لله رب العالمين ﴿ أما الوصية ﴾ فما أعلم وصية أنفع من وصية الله ورسوله لمن عقلها واتبعها قال الله تعالى : (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) ووصى النبي صلى الله عليه وسلم معاذا لما بعثه إلى اليمن فقال يامعاذ : « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » وكان معاذ رضي الله عنه من النبي صلى الله عليه وسلم بمنزلة علية ، فإنه قال له : « يامعاذ والله إني لأحبك » وكان يردفه وراءه ، وروى فيه أنه أعلم الأمة بالحلال والحرام ، وأنه يحشر أمام العلماء برتوة : أي بخطوة . ومن فضله بعثه النبي صلى الله عليه وسلم مبلغاً عنه داعياً ومفقهاً ومفتياً وحاكماً إلى أهل اليمن ، وكان يشبهه بإبراهيم الخليل عليه

السلام ، وإبراهيم إمام الناس ، وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول : إن معاذا كان أمة قانتاً حنيفاً ولم يك من المشركين . تشبيهاً له بإبراهيم ثم أنه وصاه هذه الوصية ، فعلم أنها جامعة وهى كذلك لمن عقلها ، مع أنها تفسير الوصية القرآنية .

أما بيان جمعها فلأن العبد عليه حقان : حق لله عز وجل ، وحق لعباده ، ثم الحق الذى عليه لابد أن يخل ببعضه أحياناً ، اما ترك مأموربه أوفعل منهى عنه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اتق الله حيثما كنت » وهذه كلمة جامعة ، وفى قوله حيثما كنت تحقيق لحاجته إلى التقوى فى السر والعلانية ، ثم قال : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » فإن الطبيب متى تناول المريض شيئاً مضراً أمره بما يصلحه ، والذنب للعبد كأنه أمر حتم ، فالكيس هو الذى لايزال يأتى من الحسنات بما يمحو السيئات ، وإنما قدم فى لفظ الحديث السيئة وإن كانت مفعولة ، لأن المقصود هنا محوها لافعل الحسنة ، فصار كقوله : « صبوا على بوله ذنوباً من ماء » .

وينبغى أن تكون الحسنات من جنس السيئات ، فإنه أبلغ فى المحو والذنوب يزول موجبها بأشياء . أحدها : التوبة . والثانى : الاستغفار من غير توبة ، فان الله تعالى يغفر له إجابة لدعائه وإن لم يتب ، فاذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال . الثالث : الأعمال الصالحة المغفرة ، أما الكفارات المقدرة كما يكفر المجامع فى رمضان ، والمظاهر والمرتكب لبعض محظورات الحج ، أو تارك بعض واجباته ، أو قاتل الصيد بالكفارات المقدرة وهى أربعة أجناس : هدى ، وعتق ، وصدقة ، وصيام . وأما

الـكفارات المطلقة كما قال حذيفة لعمر : فتنة الرجل فى أهله وماله وولده ، يكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد دل على ذلك القرآن والأحاديث الصحاح فى التكفير بالصلوات الخمس والجمعة والصيام والحج وسائر الأعمال التى يقال فيها : من قال كذا وعمل كذا غفر له ، أو غفر له ما تقدم من ذنبه ، وهى كثيرة لمن تلقاها من السنن خصوصاً ما صنف من فضائل الأعمال .

واعلم أن العناية بهذا من أشد ما بالإنسان الحاجة إليه ، فان الإنسان من حين يبلغ خصوصاً فى هذه الأزمنة ، ونحوها من أزمنة الفترات التى تشبه الجاهلية من بعض الوجوه ، فان الإنسان الذى ينشأ بين أهل علم ودين قد يتلطخ من أمور الجاهلية بعدة أشياء ، فكيف بغير هذا وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم من حديث أبى سعيد رضى الله عنه : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا : يارسول الله اليهود والنصارى . قال : فمن هذا خبر تصديقه فى قوله تعالى : (فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذى خاضوا) ولهذا شواهد فى الصحاح والحسان ، وهذا أمر قد يسرى فى المنتسبين إلى الدين من الخاصة كما قال غير واحد من السلف منهم ابن عيينة ، فان كثيراً من أحوال اليهود قد ابتلى به بعض المنتسبين إلى العلم ، وكثيراً من أحوال النصارى قد ابتلى به بعض المنتسبين إلى الدين ، كما يبصر ذلك من فهم دين الإسلام الذى بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم ثم نزله على أحوال الناس ، وإذا كان الأمر كذلك : فمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه وكان ميتاً فأحياه الله وجعل له نوراً يمشى به فى الناس لابد أن

يلاحظ أحوال الجاهلية وطرفى الأمتين المغضوب عليهم ،والضالين من اليهود والنصارى فيرى أن قد ابتلى ببعض ذلك .

فأنفع ما للخاصة والعامة العلم بما يخلص النفوس من هـذه الورطات ، وهو اتباع السيئات الحسنات ، والحسنات ماندب الله إليه على لسـان خاتم النبيين من الأعمال والأخلاق والصفات ، ومما يزيل موجب الذنوب المصائب المكفرة ، وهى كل ما يؤلم من هم أو حزن أو أذى فى مال أو عرض أو جسد أو غير ذلك ، لـكن ليس هذا من فعل العبد .

فلما قضى بهاتين الكلمتين حق الله من عمل الصالح وإصلاح الفاسد قال : « وخالق الناس بخلق حسن » وهو حق الناس .

وجماع الخلق الحسن مع الناس، أن تصل من قطعك بالسلام والإكرام والدعاء له والاستغفار والثناء عليه والزيارة له ، وتعطى من حرمك من التعليم والمنفعة والمال ، وتعفو عمن ظلمك فى دم أو مال أو عرض ، وبعض هذا واجب وبعضه مستحب .

وأما الخلق العظيم الذى وصف الله به محمداً صلى الله عليه وسـلم ، فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقاً ، هكذا قال مجاهد وغيره وهو تأويل القرآن كما قالت عائشة رضى الله عنها : كان خلقه القرآن وحقيقته المبادرة إلى امتثال مايحبه الله تعالى بطيب نفس وانشراح صدر .

وأما بيان أن هذا كله فى وصية الله ، فهو ان اسم تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به إيجابا واستحباباً ، وما نهى عنه تحريماً وتنزيهاً ، وهذا يجمع

حقوق الله وحقوق العباد ، لكن لما كان تارة يعنى بالتقوى خشية العذاب المقتضية للانكفاف عن المحارم ، جاء مفسراً فى حديث معاذ ، وكذلك فى حديث أبى هريرة رضى الله عنهما الذى رواه الترمذى وصححه قيل : يارسول الله ما أكثر مايدخل الناس الجنة . قال : « تقوى الله وحسن الخلق » وقيل ماأكثر مايدخل الناس النار. قال: « الأجوفان: الفم والفرج » وفى الصحيح عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » فجعل كمال الإيمان فى كمال حسن الخلق ومعلوم أن الإيمان كله تقوى الله، وتفصيل أصول التقوى وفروعها لايحتمله هذا الموضع ، فانها الدين كله لكن ينبوع الخير وأصله إخلاص العبد لربه عبادة واستعانة كما فى قوله : (إياك نعبد وإياك نستعين) وفى قوله : (فاعبده وتوكل عليه) وفى قوله : (عليه توكلت وإليه أنيب) وفى قوله : (فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه) واشكروا له بحيث يقطع العبد تعلق قلبه من المخلوقين انتفاعا بهم أوعملا لأجلهم ، ويجعل همته ربه تعالى ، وذلك بملازمة الدعاء له فى كل مطلوب ؛ من فاقة وحاجة ومخافة وغير ذلك ، والعمل له بكل محبوب ، ومن أحكم هذا فلا يمكن أن يوصف ما يعقبه ذلك .

وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض : فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه ومايناسب أوقاتهم ، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد ، لكن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره ملازمة ذكر الله دائماً ، هو أفضل ماشغل العبد به نفسه فى الجملة ، وعلى ذلك حديث أبى هريرة الذى رواه مسلم : « سبق المفردون . قالوا : يا رسول الله ومن

المفردون . قال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » وفيما رواه أبو داود عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم . قالوا : بلى يارسول الله . قال : ذكر الله » والدلائل القرآنية والإيمانية بصراً وخبراً ونظراً على ذلك كثيرة ، وأقل ذلك أن يلازم العبد الأذكار المأثورة عن معلم الخير وإمام المتقين صلى الله عليه وسلم ، الأذكار المؤقتة فى أول النهار وآخره ، وعند أخذ المضجع ، وعند الاستيقاظ من المنام ، وأدبار الصلوات ، والأذكار المقيدة مثل مايقال عند الأكل والشرب واللباس والجماع ودخول المنزل والمسجد والخلاء والخروج من ذلك وعند المطر والرعد إلى غير ذلك ، وقد صنفت له الكتب المسماة « بعمل يوم وليلة » ثم ملازمة الذكر مطلقاً وأفضله لا إله إلا الله ، وقد تعرض أحوال يكون بقية الذكر مثل : سبحان الله والحمد لله والله أكبر ولاحول ولاقوة إلا بالله أفضل منه ، ثم يعلم أن كل ما تكلم به اللسان وتصوره القلب مما يقرب إلى الله من تعلم علم وتعليمه وأمر بمعروف ونهى عن منكر فهو من ذكر الله ، ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد أداء الفرائض ، أو جلس مجلساً يتفقه أو يفقه فيه الفقه الذى سماه الله ورسوله فقهاً ، فهذا أيضاً من أفضل ذكر الله ، وعلى ذلك إذا تدبرت لم تجد بين الأولين فى كلماتهم فى أفضل الأعمال كبير اختلاف ، وما اشتبه أمره على العبد فعليه بالاستخارة المشروعة ، فما ندم من استخار الله تعالى ، وليكثر من ذلك ومن الدعاء فانه مفتاح كل خير ولايعجل فيقول : قد دعوت فلم يستجب لى

وليتحر الأوقات الفاضلة كآخر الليل وأدبار الصلوات وعند الأذان ووقت نزول المطر ونحو ذلك.

﴿ وأما أرجح المكاسب ﴾ فالتوكل على الله والثقة بكفايته وحسن الظن به ، وذلك أنه ينبغى للمهتم بأمر الرزق أن يلجأ فيه إلى الله ويدعوه ، كما قال سبحانه فيما يأثر عنه نبيه : « كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ياعبادى كلكم عار الامن كسوته فاستكسونى أكسكم » وفيما رواه الترمذى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع فانه إن لم ييسره لم يتيسر » وقد قال الله تعالى فى كتابه : (واسألوا الله من فضله) وقال سبحانه : (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) وهذا وإن كان فى الجمعة فمعناه قائم فى جميع الصلوات ، ولهذا والله أعلم أمر النبي صلى الله عليه وسلم للذى يدخل المسجد أن يقول : اللهم افتح لى أبواب رحمتك . وإذا خرج أن يقول : اللهم إنى أسألك من فضلك ، وقد قال الخليل صلى الله عليه وسلم : « فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له » وهذا أمر والأمر يقتضى الايجاب فالاستعانة بالله واللجأ إليه فى أمر الرزق وغيره أصل عظيم .

ثم ينبغى له أن يأخذ المال بسخاوة نفس ليبارك له فيه ، ولا يأخذه باشراف وهلع ، بل يكون المال عنده بمنزلة الخلاء الذى يحتاج اليه من غير أن يكون له فى القلب مكانة ، والسعى فيه إذا سعى كاصلاح الخلاء .

وفى الحديث المرفوع رواه الترمذى وغيره : « من أصبح والدنيا

أكبر همه شتت الله عليه شمله وفرق عليه ضيعته ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ومن أصبح والآخرة أكبر همه جمع الله عليه شمله وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة » وقال بعض السلف : أنت محتاج إلى الدنيا وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج . فان بدأت بنصيبك من الآخرة مر على نصيبك من الدنيا فانتظمه انتظاما قال الله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) .

فأما تعيين مكسب على مكسب من صناعة أو تجارة أو بناية أو حراثة أو غير ذلك، فهذا مختلف باختلاف الناس ، ولا أعلم فى ذلك شيئاً عاما لكن إذا عن للإنسان جهة فليستخر الله تعالى فيها الاستخارة المتلقاة عن معلم الخير صلى الله عليه وسلم ، فان فيها من البركة مالا يحاط به ثم ماتيسر له فلا يتكلف غيره إلا أن يكون منه كراهة شرعية .

وأما ماتعتمد عليه من الكتب فى العلوم ، فهذا باب واسع وهو أيضاً يختلف باختلاف نشأ الإنسان فى البلاد ، فقد يتيسر له فى بعض البلاد من العلم أو من طريقه ومذهبه فيه مالا يتيسر له فى بلد آخر ، لكن جماع الخير أن يستعين بالله سبحانه فى تلقى العلم الموروث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فانه هو الذى يستحق أن يسمى علماً ، وماسواه إما أن يكون علماً فلا يكون نافعاً ، وإما أن لايكون علماً وإن سمى به ، ولإن كان علماً نافعاً فلابد أن يكون فى ميراث محمد صلى الله عليه وسلم مايغنى عنه ، مما هو مثله وخير منه ، ولتكن همته فهم مقاصد الرسول فى أمره ونهيه وسائر كلامه ، فاذا

اطمأن قلبه أن هذا هو مراد الرسول فلايعدل عنه فيما بينه وبين الله تعالى، ولامع الناس إذا أمكنه ذلك .

وليجتهد أن يعتصم فى كل باب من أبواب العلم بأصل مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وإذا اشتبه عليه مما قد اختلف فيه الناس فليدع بما رواه مسلم فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قام يصلى من الليل : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون إهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك أنت تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » فان الله تعالى قد قال فيما رواه عنه رسوله : « ياعبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم » .

وأما وصف الكتب والمصنفين ، فقد سمع منا فى أثناء المذاكرة مايسره الله سبحانه ، ومافى الكتب المصنفة المبوبة كتاب أنفع من صحيح محمد ابن إسماعيل البخارى ، لكن هو وحده لايقوم بأصول العلم ، ولايقوم بتمام المقصود للمتبحر فى أبواب العلم ، إذ لابد من معرفة أحاديث أخر ، وكلام أهل الفقه وأهل العلم فى الأمور التى يختص بعلمها بعض العلماء . وقد أوعبت الأمة فى كل فن من فنون العلم إيعابا من نور الله ، قلبه هداه بما يبلغه من ذلك ، ومن أعماه لم تزده كثرة الكتب إلا حيرة وضلالا ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن لبيد الأنصارى : « أوليست التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغنى عنهم » فنسأل الله العظيم أن يرزقنا الهدى والسداد ، ويلهمنا رشدنا ، ويقينا شر أنفسنا ، وأن لايزيغ قلوبنا بعد إذ

هدانا ، ويهب لنامن لدنه رحمة ، إنه هو الوهاب . والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على أشرف المرسلين .

وجد بأصله ما نصه

سمع هذه الوصية على مصنفها شيخنا إمام الأئمة الأعلام شيخ الإسلام ، سيد الحفاظ والمحدثين ، قدوة المسلمين مفتى الفرق ، علم الهدى ، تقى الدين أبى العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرانى رضى الله عنه ، أخوه الإمام العالم شرف الدين أبو محمد عبدالله ، والشيخ الإمام العالم الزاهد شمس الدين محمد بن أبى العباس الدباهى ، وعز الدين عبد العزيز بن عبد اللطيف ابن عبد العزيز بن عبدالسلام بن تيمية ، ونور الدين محمد بن شرف الدين محمد ابن علاء الدين محمد بن عبد القادر بن عبد الخالق الأنصارى ابن الصائغ ، والشيخ أبو بكر بن قاسم بن أبى بكر الرحبى الكنانى ، وزين الدين عبادة ابن عبد الغنى بن منصور بن منصور بن ابراهيم بن سلامة الحرانى ، وجرير ابن سعيد بن حميد الغسانى ، وعبد المجيد بن محمود بن احمد الجيلى ، وناصر الدين محمد بن أحمد بن عبد الغنى بن العلائى الحرانى . وذلك بقراءة القاسم بن محمد ابن يوسف البرزالى فى ليلة ثالث شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وستمائة بدار الحديث بالقصاعين بدمشق .

والحمد لله رب العالمين ، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم ، وصلى الله على محمد ، وآله وصحبه وسلم انتهى .

تمت الرسالة الرابعة . ويليها الرسالة الخامسة : النية

الرسالة الخامسة

النية

بسم الله الرحمن الرحيم

مسألة فى النية : فى الطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والعتق ، والجهاد وغير ذلك ، فهل محل ذلك القلب أم اللسان ، وهل يجب أن يجهر بالنية أم يستحب ذلك ،أو قال أحد من المسلمين : إن لم يفعل ذلك بطلت صلاته وغيرها ، أو قال أحد : أن صلاة الجاهر أفضل من صـــلاة المخافت إماما كان أو مأموماً أو منفرداً ، والتلفظ بها : هل هو واجب أو لا أو قال أحد من الأئمة الاربعة أو غيرهم من أئمة المسلمين: إن لم يتلفظ بالنية بطلت صلاته ، وإن كانت غير واجبة، فهل يستحب التلفظ بها، وما السنة التى كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون فى ذلك ، وإذا أصر على الجهر بها معتقدا أن ذلك مشروع ، فهل هو مبتدع مخالف لشريعة الاسلام ، وهل يستحق التعزير على ذلك والعقوبة عليه إذا لم ينته أم لا .

فأجاب عنها الشيخ الإمام العالم الزاهد العابد الورع شيخ الاسـلام ، مفتى الأنام أوحد عصره وفريد دهره ، تقى الدين أبو العبـاس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرانى رضى الله عنه وأرضاه ، فى شهر صفر سنة خمس وعشرين وسبعمائة وهو فى دمشق المحروسة .

الحمد لله رب العالمين . محل النية : القلب دون اللسان باتفاق أئمة المسلمين فى جميع العبادات : الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والعتق والجهاد وغير ذلك ، ولو تكلم بلسانه بخلاف ما نوى فى قلبه ، كان الاعتبار بما نوى لا بما لفظ ،ولو تـكلم بلسانه بالنية ولم تحصل النية فى قلبه لم يجز ذلك باتفاق

أئمة المسلمين ، فان النية هى من جنس القصد والعزم ، تقول العرب : نواك الله بخير أى قصدك بخير ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر اليه» مراده صلى الله عليه وسلم بالنية : النية التى فى القلب دون اللسان ، باتفاق أئمة المسلمين الأئمة الأربعة وغيرهم ، وسبب الحديث يدل على ذلك ، فان سببه أن رجلا هاجر من مكة إلى المدينة ليتزوج امرأة يقال لها أم قيس ، فسمى مهاجر أم قيس ، فخطب النبي صلى الله عليه وسلم الناس على المنبر وذكر هذا الحديث فهذا كانت نيته فى قلبه .

والجهر بالنية لا يجب ولا يستحب ، باتفاق المسلمين ولا تبطل صلاة من لم يجهر بها عند أحد من المسلمين ، بل الجاهر بالنية مبتدع مخالف للشريعة إذا فعل ذلك معتقدا أنه من الشرع ، فهل جاهل ضال مستحق التعزير والعقوبة على ذلك إذا أصر على ذلك بعد تعزيره والبيان له ، لا سيما إذا آذى من إلى جانبه برفع صوته ، أو كرر ذلك مرة بعد مرة ، فانه يستحق التعزير البليغ على ذلك ، ولم يقل أحد من المسلمين أن صلاة الجاهر أفضل من صلاة المخافت بها ، سواء كان إماما أو مأموماً أو منفرداً ، وأما التلفظ بها سراً فلا يجب أيضاً عند الأئمة الأربعة وسائر أئمة المسلمين ، ولم يقل أحد من الأئمة أن التلفظ بالنية واجب لا فى طهارة ولا صلاة ولا صيام ولا حج ، ولا يجب على المصلى أن يقول بلسانه أصلى الظهر أو العصر ، ولا يقول إماما ولا مأموما ، ولا يقول بلسانه فرضا ولا نفلا ولا غير ذلك بل يكفى أن تكون نيته فى قلبه والله يعلم ما فى القلوب ، وكذلك نية الغسل من الجنابة والوضوء يكفى فيه نية القلب ، وكذلك نية

الصيام فى رمضان ، لا يجب على أحد أن يقول بلسانه أنا صائم غدا باتفاق الأئمة بل يكفى نية قلبه ، والنية تبليغ العلم فمن علم ما يريد أن يفعله فلا بد أن ينويه ، فاذا علم المسلم أن غدا من رمضان فهو ممن يصوم رمضان فلابد أن ينوى الصيام ، فاذا علم أن غدا العيد لم ينو الصيام تلك الليـــلة وكذلك الصلاة إذا علم أن الصلاة القائمة صلاة الفجر أو الظهر وهو يعلم أنه يريد صلاة الفجر أو الظهر ، فانه إنما ينوى تلك الصلاة لا يمكنه أن يعلم أنها الفجر وينوى الظهر، وكذلك إذا علم أنه يصلى إماماً أو مأموماً فانه لا بد أن ينوى ذلك ، وان علم أنه يصلى وحده فلا بد أن ينوى ذلك ، والنية يتبع العلم والاعتقاد اتباعاً ضرورياً إذا كان يعلم ما يريد أن يفعله ، فاذا كان يعلم أنه يريد أن يصلى الظهر ، وقد علم أن تلك الصلاة صلاة الظهر امتنع أن يقصد غيرها ، ولو اعتقد أن الوقت باق فنوى الصلاة فى وقتها فتبين أن الوقت قد خرج أجزأته صلاته باتفاق الأئمة ، ولو اعتقد أنه خرج فنوى الصلاة بعد الوقت فتبين أنها فى الوقت أجزأته الصلاة باتفاق الأئمة ، وإذا كان قصده أن يصلى خلف الامام بعينه ، مثل زيد فكان الامام غيره لم يكن قد صلى خلف ذلك، وإنما إذا كان قصده أن يصلى خلف الامام الحاضر أى امام كان واعتقد أنه زيد فظهر أنه عمر لم يضره ذلك ، وكذلك لو كان مقصوده أن يصلى على الجنازة الحاضرة أى جنازة كانت فظنها رجلا فكانت امرأة صحت صلاته ، بخلاف ما إذا كان مقصوده أن لا يصلى إلا على من يعتقد أنه فلان ، فصلى على من يعتقد أنه فلان فتبين غيره، فانه هنا لم يقصد الصلاة على ذلك الحاضر .

والمقصود هنا أن التلفظ بالنية لا يجب عند أحد من الأئمة ، ولكن

بعض المتأخرين خرج وجها من مذهب الشافعي لوجوب ذلك ، غلطه جماهير أئمة أصحاب الشافعي ، وكان غلطه أن الشافعي قال : ان الصلاة لابد من النطق في أولها ، فظن هذا الغالط أن الشافعي أراد النطق بالنية ففعله أصحاب الشافعي جميعهم ، ولكن التلفظ بها هل هو مستحب أم لا فيه قولان معروفان للفقهاء ، منهم من استحب التلفظ بها كما ذكر ذلك من ذكره من أصحاب أبي حنيفة والشافعي وأحمد ، وقالوا التلفظ بها أوكد واستحبوا التلفظ بها في الصلاة والصيام والحج وغير ذلك ، ومنهم من لم يستحب التلفظ بها كما قال ذلك من قال من أصحاب مالك وأحمد وغيرهما وهذا هو المنصوص عن مالك وأحمد وغيرهما من الأئمة ، وقال أبو داود قلت لأحمد : أتقول قبل التكبير شيئا. قال: لا . وهذا القول هو الصواب ، فان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يقول قبل التكبير شيئا. ولم يكن يتلفظ بالنية لا في الصلاة ولا في الحج ولا غيرهما من العبادات، ولا خلفاؤه ولا أمر أحداً أن يتلفظ بالنية ، بل قال لمن علمه الصلاة إذا قمت إلى الصلاة فكبر ، وكان إذا قام إلى الصلاة كبر كما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتتح الصلاة بالتكبير ، ويفتتح القراءة بالحمد لله رب العالمين ، ولم يتلفظ قبل التكبير بنية ولا غيرها ولا علم ذلك أحدا من المسلمين ، ولو كان ذلك مستحبا لفعله ولعلمه للمسلمين، وكذلك في الحج إنما كان يفتتح الاحرام بالتلبية ويشرع للمسلمين أن يلبوا في أول الحج ، وقال لضباعة بنت الزبير: حجي واشترطي فقولي لبيك اللهم لبيك ومحلي حيث حبستني ، فأمرها أن تشترط بعد التلبية ، ولم يشرع لأحد أن يقول قبل التلبية شيئا ، لا يقول اللهم اني أريد العمرة أو الحج أو العمرة والحج ، ولا أن يقول فيسره علي وتقبل مني، ولا أن يقول نويت الحج والعمرة

أو نويتهما جميعا ، ولا أن يقول أحرمت لله ولا غير ذلك من العبارات، ولا أن يقول قبل التلبية شيئا ، بل جعل التلبية فى الحج كالتكبير فى الصلاة، وكان هو وأصحابه يقولون : فلان أهل بالحج أهل بالعمرة وأهل بهما ، كما يقال : كبر للصلاة ، والاهلال رفع الصوت بالتلبية ، وكان يقول فى تلبيته : لبيك عمرة وحجا . فيسمى ما يريد فعله بعد التلبية لا قبلها ، وجميع ما أحدثه الناس من التلفظ بالنية قبل التكبير ، وقبل التلبية وفى الطهارة وسائر العبادات ، فهى البدع التى لم يشرعها ، وكل ما يحدث فى العبادات المشروعة من الزيادات التى لم يشرعها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل كان يداوم فى العبادات على تركها ففعلها والمداومة عليها بدعة وضلالة من وجهين ، من حيث اعتقاد المعتقد أن ذلك مشروعا مستحبا ، يكون فعله خيراً من تركه مع أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يفعله البتة ، فينبغى حقيقة هذا القول أن مافعلناه أكمل وأفضل مما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد سأل رجل مالك بن أنس عن الاحرام قبل الميقات . فقال : أخاف عليه الفتنة فقال له السائل : وأى فتنة فى ذلك وإنما هى زيادة امتثال فى طاعة الله . فقال : وأى فتنة أعظم من أن تظن فى نفل أنك خصصت بفضل لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلا قوله تعالى : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) .

وقد ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال : « من رغب عن سنتى فليس منى » أى من ظن أن غير سنتى أفضل من سنتى فرغب عما سننته معتقداً أن مارغب فيه أفضل مما رغب عنه فليس منى « ألا إن خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد » كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه كان يخطب بذلك يوم الجمعة ،

فمن قال أن هدى غير محمد أفضل من هدى محمد فهو مفتون ضال قال تعالى : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) وهو قد أمر المسلمين باتباعه ، وأن يعتقد وجوب ما أوجبه واستحباب ما أحبه وأنه لا أفضل من ذلك ، فمن لم يعتقد هذا فقد عصى أمره ، وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قد هلك المتنطعون قالها ثلاثا » وقال أبي بن كعب وابن مسعود : اقتصاد فى سنة خير من اجتهاد فى بدعة ، وفى صحيح مسلم عن ابن عمر أنه قال : « صلاة السفر ركعتان من خالف السنة فقد كفر » أى من اعتقد أن الركعتين فى السفر لا تجزىء المسافر فقد كفر .

الوجه الثانى : من حيث المداومة على خلاف ما داوم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العبادات فان هذا بدعة باتفاق الأئمة ، وان ظن الظان أن فيه زيادة خير كما أحدث بعض المتقدمين الأذان والاقامة فى العيدين فنهى عن ذلك وكرهه أئمة الإسلام ، وكما لو صلى عقب السعى ركعتين قياساً على ركعتى الطواف ، وقد استحب ذلك بعض المتأخرين من أصحاب الشافعى ، واستحب بعض المتأخرين من أصحاب أحمد فى الحاج إذا دخل المسجد الحرام أن يفتتح بتحية المسجد ، فخالف الأئمة والسنة ، وإنما السنة أن يفتتح المحرم بالطواف ، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل المسجد ، بخلاف المقيم الذى يريد الصلاة فيه دون الطواف ، فهذا إذا صلى تحية المسجد فحسن .

وفى الجملة فالنبي صلى الله عليه وسلم قد أكمل الله له ولأمته الدين وأتم عليهم به النعمة ، فمن جعل عملا واجبا مالم يوجبه الله ورسوله أو مستحباً

مالم يستحبه الله ورسوله فهو غالط ، كما أن جعل حراما أو مكروها مالم يحرمه الله ورسوله أولم يكرهه الله ورسوله فهو غالط ، فجماع الدين لاحرام إلا ما حرمه الله ورسوله ، ولا دين إلا ماشرعه الله ورسوله ، ومن خرج عن هذا وهذا فقد دخل فى حزب من شرع من الدين ما لم يأذن به الله وحرم مالم يحرمه الله .

وهذا من دين أهل الجاهلية المخالفين للرســـول الذين ذمهم الله فى سورة الأنعام والأعراف وغيرهما من السور ، حيث شرعوا من الدين مالم يأذن به الله ، وحرموا مالم يحرمه الله وأحلوا ما حرمه الله فذمهم الله وعابهم على ذلك ، فلهذا كان دين المؤمنين بالله ورسوله ان الأحكام الخمسة: الإيجاب ، والاستحباب ، والتحليل ، والكراهة ، والتحريم . لا تؤخذ إلا عن الله ورسوله ، فلا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله ، ولا مستحبا إلا ما أحبه الله ورسوله ، ولا حلال إلا ما أحله الله ورسوله ، ولا مكروه إلا ما كرهه الله ورسوله ، ولامحرم إلا ماحرمه الله ورسوله ، فمن ذلك مااتفق عليه أئمة الدين ومنه ما تنازعوا فيه ، فما تنازعوا فيه رد إلى الله ورسوله كما قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) وأما من تكلم بجهل وبما خالف اتفاق الأئمة ، ينهى عن ذلك ويؤدب على الاصرار كما يفعل بأمثاله من الجهال ولا يقتدى فى خلاف الشريعة بأحد من أئمة الغلاة وإن كان مشهوراً بالفقه والعلم ، بل يسأل عما عنده من العلم كما قال بعض السلف : لا تنظر إلى عمل الفقيه ولكن سله يصدقك ، والحمد لله وحده .

وهذه فتوى أخرى فى المسألة السابقة

سئل الشيخ الامام العالم العلامة شيخ الاسلام مفتى الأنام ، تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن تيمية رضى الله عنه وأرضاه ، بالديار المصرية سنة ثمان وسبعمائة .

فى رجل يجهر بالنية ويقول : أصلى فرض كذا وكذا ويعين الصلاة بعينها ويعد الركعات بحيث يشوش على من إلى جانبه ، فأنكر عليه رجل وقال : هذا لم يأمر الله به ولا رسوله . فقال له : بل هذا مما أمر الله به ورسوله وكان يجهر الامام بالتلاوة وهو يقرأ خلفه ، فهل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله ، أو أحد من الصحابة ، أو أحد من الأئمة الاربعة وغيرهم ، فاذا لم يكن فعله أحد من أئمة المسلمين وعلمائهم فماذا يجب على من ينسب هذا إليهم ويقول كل من يعمل فى دينه مايشتهى بل أنت جاهل فيما تنكره انتهى.

أجاب رضى الله عنه وأرضاه :

الحمد لله رب العالمين . الجهر بلفظ النية ليس بمشروع ولا نقل ذلك أحد من علماء المسلمين ولا فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أحد من الخلفاء الراشدين وأصحابه وسلف الأمة وأئمتها ، ومن ادعى أن ذلك دين الله أو أنه واجب ، فانه يجب تعريفه الشريعة واستتابته من هذا القول ، فان أصر على ذلك قتل ، بل النية الواجبة فى العبادات : كالوضوء ، والغسل ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والكفارة وغير ذلك ، محلها القلب باتفاق أئمة المسلمين إذ النية هى القصد والإرادة، والقصد والإرادة محلهما القلب دون اللسان باتفاق العقلاء ، فلو نوى بقلبه خلاف ما تكلم به بلسانه كانت العبرة بما نواه

لا باللفظ ، ومتى نوى بقلبه ولم يتلفظ بلسانه صحت نيته عند الأئمة الأربعة وسائر أئمة المسلمين من الأولين والآخرين ، وليس فى ذلك خلاف عند أحد ممن يقتدى به ويفتى بقوله ، ولكن بعض المتأخرين من أتباع الأئمة زعم أن اللفظ بالنية واجب ولم يقل أن الجهر بها واجب ، ومع هذا فهذا القول خطأ صريح مخالف لإجماع المسلمين ،إنما علم بالاضطرار من دين الاسلام عند من يعلم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة خلفائه، وكيف كان يصلى الصحابة والتابعون ، فان كل من يعلم ذلك يعلم أنهم لم يكونوا يتلفظون بالنية . ولا أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، ولا علمه لأحد من أصحابه بل قد ثبت فى الصحيحين وغيرهما أنه قال للاعرابى المسىء فى صلاته : « إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن » وفى السنن عنه أنه قال : « مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم » وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين ، وقد ثبت بالنقل المتواتر واجماع المسلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة كانوا يفتتحون الصلاة بالتكبير ولم ينقل مسلم لا عن النبي ﷺ ولا عن أحد من الصحابة أنه تلفظ قبل التكبير بلفظ النية لا جهرا ولا سرآ ولا أنه أمر بذلك، مع أنه من المعلوم أن الهمم والدواعى متوفرة على نقل ذلك لو كان ، وأنه يمتنع على أهل التواتر عادة وشرعاً كتمان نقل ذلك ، فاذا لم ينقله أحد علم قطعاً أنه لم يكن . ولهذا يتنازع الفقهاء المتأخرون فى التلفظ بالنية هل هو مستحب مع النية التى فى القلب، فاستحب طائفة من أصحاب أبى حنيفة والشافعى وأحمد قالوا: لأنه أوكد وأتم تحقيقا للنية . ولم يستحب طائفة من أصحاب مالك وأحمد وغيرهم . بل رأوا أنه

بدعة مكروهة قالوا : لأنه لو كان مستحباً لفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأمر به، فانه صلى الله عليه وسلم قد بين كل ما يقرب إلى الله لا سيما الصلاة التى إنما تؤخذ صفتها عنه. وقد ثبت عنه فى الصحيح أنه قال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » فزيادة هذا وأمثاله فى صفة الصلاة بمنزلة سائر الزيادات المحدثة فى العبادات ، كمن زاد فى العيدين الأذان والاقامة ومن زاد فى السعى صلاة ركعتين على المروة وأمثال ذلك . قالوا: وأيضاً فان التلفظ بالنية فاسد فى العقل فان قول القائل : أنوى أن أفعل كذا وكذا بمنزلة قوله : أنوى انى آكل هذا الطعام لأشبع وانى ألبس هذا الثوب لأستتر، وأمثال ذلك من النيات الموجودة فى القلب التى يستقبح النطق بها وقد قال تعالى : (قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات ومافى الأرض) وقال طائفة من السلف فى قوله: (إنما نطعمكم لوجه الله) قالوا : لم يقولوا بألسنتهم وانما علمه الله من قلوبهم .

وبالجملة فلا بد من النية فى القلب بلا نزاع ، وأما التلفظ بها سراً فهل يكره أو يستحب فيه نزاع بين المتأخرين ، وأما الجهر بها فهو مكروه منهى عنه غير مشروع باتفاق المسلمين ، وكذلك تكريرها وسواء الامام والمأموم والمنفرد ، فكل هؤلاء لايشرع لأحد منهم أن يجهر بلفظ النية ولا يكررها باتفاق المسلمين بل ينهون عن ذلك ، بل جهر المنفرد بالقراءة إذا كان فيه أذى لغيره لم يشرع كما خرج النبى صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يصلون فقال أيها الناس : « كلكم يناجى ربه فلا يجهر بعضكم على بعض بالقراءة » وأما المأموم فصفته المخافتة باتفاق المسلمين ، لكن إذا جهر أحيانا بشىء من الذكر فلا بأس ، كالإمام إذا أسمعهم أحيانا الآية فى صلاة السر ، فقد ثبت فى الصحيح عن أبى قتادة أنه أخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان فى

صلاة الظهر والعصر يسمعهم الآية أحيانا ، وثبت فى الصحيح أن من الصحابة المأمومين من جهر بدعاء حين افتتاح الصلاة وعند رفع رأسه من الركوع ، ولم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك .

ومن أصر على فعل البدع وتحسينها ، فانه ينبغى أن يعزر تعزيراً يردعه وأمثاله عن مثل ذلك ، ومن نسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الباطل خطأفانه يعرف، فان لم ينته عوقب ولا يحل لأحد أن يتكلم فى الدين بلا علم، ولا يعين من تكلم فى الدين بلا علم ، أو أدخل فى الدين ماليس منه .

وأماقول القائل: كل من يعمل فى دينه ما يشتهى ، فهى كلمة عظيمة يجب أن يستتاب منها وإلا عوقب ، بل الاصرار على اعتقاد مثل هذه الكلمة توجب القتل ، فليس لأحد أن يعمل فى الدين إلا ماشرعه الله ورسوله دون ما يشتهيه ويهواه قال تعالى : (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله وان كثيراً ليضلون باهوائهم بغير علم) وقال : (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) وقال : (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) وقال تعالى : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) وقد قال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما). وقد روى عنه أنه قال : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » وقد قال تعالى : (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً

وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا) وقال تعالى : (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) وقال تعالى: (المص كتاب أنزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ماتذكرون) وقال تعالى : (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) وأمثال هذا فى القرآن كثير يبين أن على العبد أن يتبع الحق الذى بعث الله به رسوله ، ولا يجعل دينه تبعاً لهواه والله تعالى أعلم .

وأجاب عن المسألة المذكورة أيضاً ، الشيخ الإمام العالم قاضى القضاة جمال الدين أبو الربيع سليمان بن عمر الشافعى رضى الله عنه وأرضاه .

الحمد لله رب العالمين الله الموفق . النية المعتبرة فى الصلاة وجميع العبادات محلها القلب ، فلا يضر عدم النطق بها كما لو نوى بقلبه الظهر وسبق لسانه إلى العصر ، ولا يكفى النطق بها مع غفلة القلب ، وإنما استحب بعض أصحابنا مساعدة اللسان القلب من غير جهر ، وقد شذ صاحب الافصاح بما نقله عن بعض أصحابنا أنه لابد من التلفظ بها فى الصلاة ، وهو خلاف قول جمهور الأصحاب ، وأما الجهر بها وبالقراءة خلف الإمام فليس من السنة بل مكروه ، فان حصل به تشويش على المصلين فحرام ومن قال بأن الجهر بلفظ النية من السنة فهو مخطىء ، ولا يحل له ولا لغيره أن يقول فى دين الله تعالى بغير علم ، ولا يجوز لأحد اعانة من قال فى الدين بغير علم وقوله : كل من يعمل فى دينه ما يشتهى .فهذا قول جاهل يعزر على ذلك ،

إذ ليس لأحد أن يعمل فى دين الله تعالى إلا ما شرعه الله تعالى ورسوله ، ومن فعل غير ذلك فقد اتبع هواه نعوذ بالله تعالى من اتباع الهوى ، وقد تكرر فى الكتاب العزيز الذم والانكار على من اتبع هواه ، وقد قال سبحانه وتعالى : (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) وقال تعالى : (وان كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم) إلى غير ذلك مما ورد فى القرآن من أمثاله والله أعلم والحمد لله وحده .

وأجاب عنها الشيخ الإمام العالم العلامة ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الحريرى الأنصارى عفا الله عنه .

الحمد لله رب العالمين اللهم وفق والطف . ما كان النبى صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك ولا أحد من أصحابه رضى الله عنهم ولا أحد من الأئمة الأربعة ، ولاعلماء المسلمين تفعل مثل ذلك ، والنية هى الإرادة والشرط أن يعلم بقلبه أى صلاة يصلى ، أما الذكر باللسان فلا معتبر به ويحسن ذلك لاجتماع عزيمته ، فان زعم الفاعل لذلك أن هـذا هو دين الله تعالى ، فقد كذب على الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وأدخل فى دين الله تعالى ما ليس فيه ، يستتاب بعد التعريف وتزاح عنه هذه الشبهة التى عرضت له ، فان تاب وإلا قتل بذلك ، والجهر بالتلاوة خلف الإمام لا يجوز ، ولا نقل عن النبى صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من أصحابه ، والعلماء على خلافه ويجب تعزيره على ذلك ، ولا يحل لأحد أن يعينه على هذا ومن أعانه وجب تعزيره ، وقوله : كل من يعمل فى دينه ما يشتهى . فقد كذب على الشريعة

المطهرة بل يجب علينا اتباع ما جاء به كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فان اعتقد أن هذا هو الدين فقد كفر بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فيستتاب فان تاب وإلا قتل والحالة هذه والله أعلم .

وأجاب عنها الشيخ الإمام العالم العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم التونسى المالكى رحمه الله تعالى .

الحمدلله اللهم ارحم ووفق. النية من أعمال القلوب ، فالجهر بها بدعة مع ما فى ذلك من التشويش على الناس ، وكذلك الجهر بالقرآن فيزجر عن ذلك ويلزم بالاتباع للسنة ، وانكاره على المنكر عليه جهل ودعوى باطلة ، وقوله: كل من يعمل فى دينه ما يشتهى . فهذا أمر شنيع يقارب الكفر يجب تأديبه عليه وأن يتوب منه ، ونعوذ بالله من الجهل واتباع الهوى ، ونسأله الهدى والعصمة، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وأجاب عنها الشيخ الإمام العالم العلامة علاء الدين ابن العطار عفا الله عنه .

الحمد لله لا يشرع تعيين عدد الركعات ولا الجماعة فى النية ، وأما التلفظ بها من غير تشويش فلا بأس به ، إذا كان مطابقا للقلب ولا يشترط ولا يجب، ورفع الصوت به مع التشويش على المصلين حرام إجماعا ، ومع عدمه بدعة قبيحة ، فان قصد به الرياء كان حراما من وجهين كبيرة من الكبائر ، والمنكر عليه مصيب ومصوبه مخطىء ، ونسبته إلى دين الله تعالى اعتقاداً كفر وغير اعتقاد معصية ، ولا يحل ترك كل أحد ودينه خصوصا إذا كان قدوة وعمله

مخالفا للسنة، بل يجب على كل مؤمن تمكن فى زجره زجره ومنعه وردعه ، ولم ينقل هذا النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من أصحابه ، ولا عن أحد ممن يقتدى به من علماء الإسلام وأصل النية مشروع فى جميع الأعمال الصلاة وغيرها ومحلها القلب ، وهل يشترط مقارنتها لأول العبادة بمعنى أنها جزء العبادة أو لا يشترط ذلك ويجعلها شرطا لصحة العبادة ، لا يضر تقدمها عليها ، مذهب الشافعى رحمه الله الأول ، ومذهب بعض أصحابه وجماعة من العلماء الثانى ، ومن فعل النية على ما ذكر فى الاستفتاء فعمله غير صحيح . قال معاذ بن جبل رضى الله عنه الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه : أعلم أمتى بالحلال والحرام . قال معاذ : العمل الصالح هو الذى يسبقه العلم والنية والصبر والاخلاص مشتمل عليه ، فكل عمل لم يشتمل على هذه الأربعة فليس بصالح ، ونية هذا الرجل ليس على وفق العمل ولا قصد بها الصبر على مقتضاه ولا أخلص فيها لله تعالى، والله يعلم المفسد من المصلح .

تمت الرسالة الخامسة

ويليها الرسالة السادسة : العرشية

الرسالة السادسة

العرشية

بسم الله الرحمن الرحيم

سئل شيخ الإسلام تقى الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى، عن العرش هل هو كرى أم لا ؟ فاذا كان كريا والله من ورائه محيط به بائن عنه ، فما فائدة أن العبد يتوجه إلى الله تعالى حين دعائه ، فيقصد العلو دون التحت ، فلا فرق حينئذ وقت الدعاء بين قصد جهة العلو وغيرها من الجهات التى تحيط بالداعى ، ومع هذا نجد قلوبنا قصداً تطلب العلو لا تلتفت يمنة ولا يسرة ، فأخبرنا عن هذه الضرورة التى نجدها فى قلوبنا ، فقد فطرنا عليها أدام الله النفع بكم وبعلومكم آمين .

فأجاب رحمه الله تعالى بما نصه :

الحمد لله رب العالمين . الجواب عن هذا السؤال بثلاث مقالات: إحداها: ان القائل الذى يقول لم يثبت بدليل يعتمد عليه ، أن العرش فلك من الأفلاك المستديرة الكرية الشكل ، لا بدليل شرعى ولا بدليل عقلى ، وإنما ذكر هذا طائفة من المتأخرين الذين نظروا فى علم الهيئة وغيرها من الفلسفة، فرأوا أن الأفلاك تسعة وأن التاسع وهو الأطلس يحيط بها مستديراً كاستدارتها ، وهو الذى يحركها الحركة الشوقية ، وإن كان لكل فلك حركة تخصه غير هذه الحركة العامة ، ثم سمعوا من أخبار الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ذكر عرش الله وكرسيه وذكر السموات السبع . فقالوا بطريق الظن : أن العرش هو الفلك التاسع ، لاعتقادهم أنه ليس وراء التاسع

شيء إما مطلقاً ، وإما أنه ليس وراءه مخلوق ، ثم أن منهم من رأى أن التاسع هو الذي يحرك الأفلاك كلها ، فجعلوه مبدأ الحوادث ، وزعموا أن الله يحدث فيه ما يقدره في الأرض أو يحدثه في النفس التي زعموا أنها متعلقة، أو في العقل الذي زعموا أنه الذي صدر عنه هذا الفلك ، وربما سماه بعضهم الروح ، وربما جعل بعضهم النفس هي الروح ، وربما جعل بعضهم النفس هي اللوح المحفوظ كما يجعل العقل هو القلم ، وتارة يجعلون اللوح العقل الفعال العاشر الذي لفلك القمر . أو النفس المتعلقة به ، وربما جعلوا ذلك بالنسبة إلى الحق كالدماغ بالنسبة إلى الإنسان ، يقدر فيه ما يفعله قبل أن يكون إلى غير ذلك من المقالات التي شرحناها وبينا فسادها في غير هذا الموضع . ومنهم من يدعى أنه علم ذلك بطريق الكشف والمشاهدة ويكون كاذبا فيما يدعيه ، وإنما أخذ ذلك عن هؤلاء المتفلسفة تقليداً لهم أو موافقة لهم على طريقتهم الفاسدة ، كما فعل أصحاب رسائل اخوان الصفا وأمثالهم . وقد يتخيل في نفسه ما يقلده عن غيره فيظنه كشفا كما يتخيل النصراني التثليث الذي يعتقده . وقد يرى ذلك في منامه فيظنه كشفاً ، وإنما هو تخييل لما اعتقده ، وكثير من أرباب الاعتقادات الفاسدة إذا ارتاضوا صقلت الرياضة نفوسهم . فيتمثل لهم اعتقاداتهم فيظنونها كشفا ، وقد بسطنا الكلام على هذا في غير ما موضع .

والمقصود هنا أن ما ذكروه من أن العرش هو الفلك التاسع ، قد يقال أنه ليس لهم عليه دليل لا عقلي ولا شرعي ، أما العقل فان أئمة الفلاسفة مصرحون بأنه لم يقم عندهم دليل على أن الأفلاك هي تسعة فقط ، بل يجوز أن تكون أكثر من ذلك ولكن دلتهم الحركات والكسوفات ونحو ذلك

على ما ذكروه ، وما لم يكن لهم دليل على ثبوته فهم لا يعلمون ثبوته ولا انتفاءه ، مثال ذلك أنهم علموا أن هذا الكوكب تحت هذا بأن السفلى يكسف العلوى من غير عكس ، فاستدلوا بذلك على أنه من فلك فوقه ، كما استدلوا بالحركات المختلفة على أفلاك مختلفة ، حتى جعلوا فى الفلك الواحد عدة أفلاك كفلك التدوير وغيره ، فأما ما كان موجوداً فوق هذا ولم يكن لهم ما يستدلون به على ثبوته ، فهم لا يعلمون نفيه ولا إثباته بطريقهم ، وكذلك قول القائل أن حركة التاسع مبدأ الحوادث خطأ وضلال على أصولهم ، فانهم يقولون أن الثامن له حركة تخصه بما فيه من الثوابت ، ولتلك الحركة قطبان غير قطبي التاسع ، وكذلك السابع والسادس ، وإذا كان لكل فلك حركة تخصه والحركات المختلفة هى سبب الأشكال الحادثة المختلفة الفلكية فتلك الأشكال سبب الحوادث السفلية ، كانت حركة التاسع جزء السبب لحركة غيره والأشكال الحادثة فى الفلك كمقارنة الكوكب لكوكب فى درجة واحدة ومقابلته له إذا كان بينهما نصف الفلك ، وهو مائة وثمانون درجة وتثليثه له إذا كان بينهما ثلث الفلك، وهو مائة وعشرون درجة ، وتربيعه له إذا كان بينهما ربعه تسعون درجة ، وتسديسه له إذا كان بينهما سدس الفلك ستون درجة ، وأمثال ذلك من الأشكال إنما حدثت بحركات مختلفة وكل حركة ليست عن الأخرى ، إذ حركة الثامن التى تخصه ليست عن حركة التاسع ، وإن كان تابعا له فى الحركة الكلية ، كالانسان المتحرك فى السفينة إلى خلاف حركتها ، وكذلك حركة السابع التى تخصه ليست عن التاسع ولا عن الثامن ، وكذلك سائر الأفلاك فكيف يجوز أن يجعل مبدأ الحوادث كلها بحرد حركة التاسع كما زعمه من ظن أنه العرش ، كيف والفلك التاسع

عندهم بسيط متشابه الأجزاء لا اختلاف فيه أصلا ، فكيف يكون سببا لأمور مختلفة لا باعتبار القوابل وأسباب أخر .

ولكن هم قوم ضالون يجعلونه مع هذا ثلاثمائة وستين درجة ،ويجعلون لكل درجة من الأثر ما يخالف الأخرى ، لا باختلاف القوابل كمن يجيء إلى ماء واحد فيجعل لبعض أجزائه من الأثر ما يخالف الآخر لابحسب القوابل ، بل يجعل أحد أجزائه مسخنا والآخر مبرداً ، والآخر مسعداً والآخر مشقياً ، وهذا مما يعلمون هم وكل عاقل أنه باطل وضلال ، وإذا كان هؤلاء ليس عندهم ما ينفي وجـــود شيء آخر فوق الأفلاك التسعة ، كان الجزم بأن ما أخبرت به الرسل من أن العرش هو الفلك التاسع رجما بالغيب تهاولا بلا علم ، هذا كله بتقدير ثبوت الأفلاك التسعة على المشهور عند أهل الهيئة إذ فى ذلك من النزاع والاضطراب ، وفى أدلة ذلك ماليس هذا موضعه ، وإنما نتكلم على هذا التقدير والأفلاك فى أشكالها وإحاطة بعضها ببعض من جنس واحد ، فنسبة السابع إلى السادس كنسبة السادس إلى الخامس ، وإذا كان هناك فلك تاسع فنسبته إلى الثامن كنسبة الثامن إلى التاسع .

وأما العرش: فالأخبار تدل على مباينته لغيره من المخلوقات ، وأنه ليس نسبة إلى بعضها كنسبة بعضها إلى بعض قال الله تعالى : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به) الآية وقال سبحانه : (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) فأخبر أن للعرش حملة اليوم ويوم القيامة ، وأن حملته ومن حوله يسبحون ويستغفرون للمؤمنين ، ومعلوم أن قيام ذلك من الأفلاك بقدرة الله تعالى كقيام سائر الأفلاك ، لافرق فى ذلك

بين كرة وكرة وإن قدر أن لبعضها ملائكة فى نفس الأمر تحملها ، فحكمه حكم نظيره وقال تعالى : (وترى الملائكة حافين من حول العرش) الآية فذكر هناك أن الملائكة تحف من حول العرش ، وذكر فى موضع آخر أن له حملة وجمع فى موضع ثالث بين حملته ومن حوله فقال : (الذين يحملون العرش ومن حوله) وأيضا فقد أخبر أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض كما قال تعالى : (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء) وقد ثبت فى صحيح البخارى رحمه الله تعالى عن عمران بن حصين رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض » وفى رواية له : « كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب فى الذكر كل شيء » وفى رواية لغيره صحيحة : « كان الله ولم يكن شيء معه وكان عرشه على الماء ثم كتب فى الذكر كل شيء » وفى صحيح مسلم رحمه الله تعالى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ان الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » انتهى .

تمت الرسالة السادسة

ويليها الرسالة السابعة : الوصية الكبرى

الرسالة السابعة

الوصية الكبرى

بسم الله الرحمن الرحيم

من أحمد بن تيمية عفا الله عنه إلى من يصل إليه هذا الكتاب من المسلمين المنتسبين إلى السنة والجماعة ، المنتمين إلى جماعة الشيخ العارف القدوة أبي البركات عدى بن مسافر الأموى رحمه الله ومن نحا نحوهم ، وفقهم الله لسلوك سبيله ، وأعانهم على طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وجعلهم معتصمين بحبله المتين ، مهتدين لصراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وجنبهم طريق أهل الضلال والاعوجاج الخارجين عما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم من الشرعة والمنهاج حتى يكونوا ممن أعظم عليهم المنة بمتابعة الكتاب والسنة ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد : فانا نحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وهو للحمد أهل وهو على كل شيء قدير ، ونسأله أن يصلى على خاتم النبيين وسيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم وأكرم الخلق على ربه ، وأقربهم إليه زلفى وأعظمهم عنده درجة ؛ محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً .

أما بعد : فان الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ، وأنزل عليه الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، وأكمل له ولأمته الدين وأتم عليهم النعمة ، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس فهم يوفون سبعين أمة هم خيرها

وأكرمها على الله ، وجعلهم أمة وسطا أى عدلا وخياراً ، ولذلك جعلهم شهداء على الناس هداهم لما بعث به رسله جميعهم من الدين الذى شرعه لجميع خلقه ، ثم خصهم بعد ذلك بما ميزهم به وفضلهم من الشرعة والمنهاج الذى جعله لهم ، فالأولى مثل أصول الإيمان وأعلاها وأفضلها هو التوحيد ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله كما قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال تعالى : (واسأل من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وقال تعالى : (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى) وقال تعالى : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) ومثل الإيمان بجميع كتب الله وجميع رسله كما قال تعالى: (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) ومثل قوله تعالى : (قل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم) ومثل قوله تعالى: (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) إلى آخرها . ومثل الإيمان باليوم الآخر وما فيه من الثواب والعقاب كما أخبر عن إيمان من تقدم من مؤمنى الأمم به حيث قال : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم

أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون) ومثل أصول الشرائع كما ذكر فى سورة الأنعام والأعراف وسبحان وغيرهن من السور المكية ، من أمره بعبادته وحده لاشريك له ، وأمره ببر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والعدل فى المقال ، وتوفية الميزان والمكيال ، وإعطاء السائل والمحروم ، وتحريم قتل النفس بغير الحق ، وتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وتحريم الاثم والبغى بغير الحق ، وتحريم الكلام فى الدين بغير علم ، مع ما يدخل فى التوحيـــد من إخلاص الدين لله والتوكل على الله ، والرجاء لرحمة الله ، والخوف من الله ، والصبر لحكم الله ، والقيام لأمر الله ، وأن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد من أهله وماله والناس أجمعين ، إلى غير ذلك من أصول الإيمان التى أنزل الله ذكرها فى مواضع من القرآن ، كالسور المكية وبعض المدنية . وأما الثانى : فما أنزله الله فى السور المدنية من شرائع دينه وما سنه الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته ، فان الله سبحانه أنزل عليه الكتاب والحكمة وامتن على المؤمنين بذلك ، وأمر أزواج نبيه بذكر ذلك فقال : (وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم) وقال : (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) وقال : (واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) قال غير واحد من السلف : الحكمة هى السنة لأن الذى كان يتلى فى بيوت أزواجه رضى الله عنهن سوى القرآن ، هو سنته صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « ألا انى أوتيت الكتاب ومثله معه » وقال حسان بن عطيه : كان جبريل عليه السلام ينزل على النبى صلى الله عليه وسلم بالسنة كما ينزل بالقرآن ، فيعلمه إياها كما يعلمه القرآن .

وهذه الشرائع التي هدى الله بها هذا النبي وأمته ، مثل الوجهة والمنسك والمنهاج ، وذلك مثل الصلوات الخمس في أوقاتها بهذا العدد ، وهذه القراءة والركوع والسجود واستقبال الكعبة ، ومثل فرائض الزكاة ونصبها التي فرضها في أموال المسلمين من الماشية والحبوب والثمار والتجارة والذهب والفضة ، ومن جعلت له حيث يقول : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) ومثل صيام شهر رمضان ، ومثل حج البيت الحرام ، ومثل الحدود التي حدها لهم في المناكح والمواريث والعقوبات والمبايعات ، ومثل السنن التي سنها لهم من الأعياد والجمعات والجماعات في المكتوبات والجماعات في الكسوف والاستسقاء وصلاة الجنازة والتواريح وما سنه لهم في العادات مثل المطاعم والملابس والولادة والموت ، ونحو ذلك من السنن والآداب والأحكام التي هي حكم الله ورسوله بينهم في الدماء والأموال والإبضاع والأعراض والمنافع والابشار ، وغير ذلك من الحدود والحقوق إلى غير ذلك مما شرعه لهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، وحبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم فجعلهم متبعين لرسوله صلى الله عليه وسلم وعصمهم أن يجتمعوا على ضلالة كما ضلت الأمم قبلهم ، إذ كانت كل أمة إذا ضلت أرسل الله تعالى رسولا إليهم كما قال تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال تعالى: (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) .

ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء لا نبي بعده ، فعصم الله أمته أن تجتمع على ضلالة ، وجعل فيها من تقوم به الحجة إلى يوم القيامة ، ولهذا

كان إجماعهم حجة كما كان الكتاب والسنة حجة ، ولهذا امتاز أهل الحق من هذه الأمة والسنة والجماعة عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب ، ويعرضون عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعما مضت عليه جماعة المسلمين .

فان الله أمر فى كتابه باتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولزوم سبيله ، وأمر بالجماعة والائتلاف ونهى عن الفرقة والاختلاف فقال تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا ليطاع باذن الله) وقال تعالى : (إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) وقال تعالى : (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما) وقال تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا) وقال تعالى : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء) وقال تعالى : (ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءتهم البينات وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) وقال تعالى : (وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وقال تعالى فى أم الكتاب : (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » .

فأمر سبحانه فى أم الكتاب ،التى لم ينزل فى التوراة ولا فى الإنجيل

ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثلها ، التى أعطيها نبينا صلى الله عليه وسلم من كنز تحت العرش ، التى لا تجزىء صلاة إلا بها أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم كاليهود ، ولا الضالين كالنصارى .

وهذا الصراط المستقيم : هو دين الإسلام المحض ، وهو مافى كتاب الله تعالى وهو السنة والجماعة ، فان السنة المحضة هى دين الإسلام المحض ، فان النبي صلى الله عليه وسلم روى عنه من وجوه متعددة رواها أهل السنن والمسانيد، كالإمام أحمد وأبى داود والترمذى وغيرهم . أنه قال : «ستفترق هذه الأمة على اثنتين وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة» وفى رواية : «من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى» .

وهذه الفرقة الناجية : أهل السنة وهم وسط فى النحل ، كما أن ملة الإسلام وسط فى الملل ، فالمسلمون وسط فى أنبياء الله ورسله وعباده الصالحين ، لم يغلوا فيهم كما غلت النصارى ، فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ، ولا جفوا عنهم كما جفت اليهود فكانوا يقتلون الأنبياء بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ، وكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقاً وقتلوا فريقاً .

بل المؤمنون : آمنوا برسل الله وعزروهم ونصروهم ووقروهم وأحبوهم وأطاعوهم ، ولم يعبدوهم ولم يتخذوهم أرباباً كما قال تعالى : (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من

دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) .

ومن ذلك : أن المؤمنين توسطوا فى المسيح فلم يقولوا : هو الله ، ولا ابن الله ، ولا ثالث ثلاثة ، كما تقوله النصارى ، ولا كفروا به وقالوا على مريم بهتانا عظيما ، حتى جعلوه ولد غية ، كما زعمت اليهود بل قالوا هذا عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول وروح منه .

وكذلك المؤمنون ؛ وسط فى شرائع دين الله ، فلم يحرموا على الله أن ينسخ ماشاء ويمحو ماشاء ويثبت كما قالته اليهود ، كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله : (سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها) وبقوله : (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم) ولا جوزوا لأكابر علمائهم وعبادهم أن يغيروا دين الله فيأمروا بما شاءوا وينهوا عما شاؤا ، كما يفعله النصارى كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) قال عدى بن حاتم رضى الله عنه : قلت يارسول الله ماعبدوهم . قال: ماعبدوهم ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم . والمؤمنون قالوا : لله الخلق والأمر ، فكما لايخلق غيره لايأمر غيره ، وقالوا : سمعنا وأطعنا فأطاعوا كل ما أمر الله به . وقالوا : إن الله يحكم ما يريد . وأما المخلوق فليس له أن يبدل أمر الخالق تعالى ولو كان عظيما .

وكذلك فى صفات الله تعالى ، فان اليهود وصفوا الله تعالى بصفات المخلوق الناقصة . فقالوا : هو فقير ونحن أغنياء . وقالوا : يد الله مغلولة . وقالو : انه تعب من الخلق فاستراح يوم السبت إلى غير ذلك . والنصارى وصفوا المخلوق بصفات الخالق المختصة به فقالوا : انه يخلق ويرزق ويغفر ويرحم ويتوب على الخلق ويثيب ويعاقب ، والمؤمنون آمنوا بالله سبحانه وتعالى ليس سمى ولاند ، ولم يكن له كفواً أحد ، وليس كمثله شىء ، فانه رب العالمين وخالق كل شىء ، وكل ماسواه عباد له فقراء إليه : (إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدهم عداً وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً) .

ومن ذلك أمر الحلال والحرام ، فان اليهود كما قال الله تعالى: (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) فلا يأكلون ذوات الظفر مثل : الإبل والبط ، ولاشحم الثرب والكليتين ، ولا الجدى فى لبن أمه إلى غير ذلك ، مما حرم عليهم من الطعام واللباس وغيرهما حتى قيل أن المحرمات عليهم ثلاثمائة وستون نوعاً ، والواجب عليهم مائتان وثمانية وأربعون أمراً ، وكذلك شدد عليهم فى النجاسات حتى لايؤاكلوا الحائض ولايجامعوها فى البيوت ، وأما النصارى فاستحلوا الخبائث وجميع المحرمات وباشروا جميع النجاسات ، وإنما قال لهم المسيح : (ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم) ولهذا قال تعالى : (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولايحرمون ماحرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) وأما المؤمنون فكما نعتهم الله به فى قوله : (ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون

ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) وهذا باب يطول وصفه .

وهكذا أهل السنة والجماعة فى الفرق ، فهم فى باب أسماء الله وآياته وصفاته وسط بين أهل التعطيل الذين يلحدون فى أسماء الله وآياته ، ويعطلون حقائق ما نعت الله به نفسه حتى يشبهونه بالعدم والموات ، وبين أهل التمثيل الذين يضربون له الأمثال ويشبهونه بالمخلوقات .

فيؤمن أهل السنة والجماعة بما وصف الله به نفسه ، وما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف وتمثيل .

وهم فى باب خلقه وأمره وسط بين المكذبين بقدرة الله الذين لا يؤمنون بقدرته الكاملة ومشيئته الشاملة وخلقه لكل شىء ، وبين المفسدين لدين الله الذين يجعلون العبد ليس له مشيئة ولا قدرة ولا عمل ، فيعطلون الأمر والنهى والثواب والعقاب ، فيصيرون بمنزل المشركين الذين قالوا : (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء) .

فيؤمن أهل السنة بأن الله على كل شىء قدير، فيقدر أن يهدى العباد ويقلب قلوبهم ، وأنه ماشاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فلا يكون

فى ملكه مالا يريد ولا يعجز عن إنفاذ مراده ، وأنه خالق كل شىء من الأعيان والصفات والحركات .

ويؤمنون أن العبد له قدرة ومشيئة وعمل ، وأنه مختار ولا يسمونه مجبوراً إذ المجبور من أكره على خلاف اختياره ، والله سبحانه جعل العبد مختاراً لما يفعله ، فهو مختار مريد والله خالقه وخالق اختياره وهذا ليس له نظير ، فان الله ليس كمثله شىء لا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله .

وهم فى باب الأسماء والأحكام والوعد والوعيد ، وسط بين الوعيدية الذين يجعلون أهل الكبائر من المسلمين مخلدين فى النار ويخرجونهم من الإيمان بالكلية ويكذبون بشفاعة النبى صلى الله عليه وسلم ، وبين المرجئة الذين يقولون إيمان الفساق مثل إيمان الأنبياء ، والأعمال الصالحة ليست من الدين والإيمان ، ويكذبون بالوعيد والعقاب بالكلية .

فيؤمن أهل السنة والجماعة بأن فساق المسلمين ، معهم بعض الإيمان وأصله ، وليس معهم جميع الإيمان الواجب الذى يستوجبون به الجنة وأنهم لا يخلدون فى النار ، بل يخرج منها من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان أو مثقال خردلة من إيمان .

وأن النبى صلى الله عليه وسلم ادخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته .

وهم أيضاً فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم ، وسط بين الغالية الذين يغالون فى على رضى الله عنه ، فيفضلونه على أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ويعتقدون أنه الإمام المعصوم دونهما وأن الصحابة

ظلموا وفسقوا وكفروا الأمة بعدهم ، كذلك وربما جعلوه نبياً أو إلهاً وبين الجافية الذين يعتقدون كفره ، وكفر عثمان رضى الله عنهما ويستحلون دماءهما ودماء من تولاهما ، ويستحبون سب على وعثمان ونحوهما ، ويقدحون فى خلافة على رضى الله عنه وإمامته .

وكذلك فى سائر أبواب السنة وهم وسط لأنهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وما اتفق عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان .

﴿ فصل ﴾ وأنتم أصلحكم الله ، قد من الله عليكم بالانتساب إلى الاسلام الذى هو دين الله ، وعافاكم الله مما ابتلى به من خرج عن الإسلام من المشركين وأهل الكتاب ، والإسلام أعظم النعم وأجلها فان الله لا يقبل من أحد ديناً سواه : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) وعافاكم الله بانتسابكم إلى السنة من أكثر البدع المضلة ، مثل كثير من بدع الروافض والجهمية والخوارج والقدرية ، بحيث جعل عندكم من البغض لمن يكذب بأسماء الله ، وصفاته ، وقضائه ، وقدره ، أو يسب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ماهو من طريقة أهل السنة والجماعة ، وهذا من أكبر نعم الله على من أنعم عليه بذلك ، فان هذا من تمام الإيمان وكمال الدين ، ولهذا كثر فيكم من أهل الصلاح والدين وأهل القتال المجاهدين مالا يوجد مثله فى طوائف المبتدعين ، ومازال فى عساكر المسلمين المنصورة وجنود الله المؤيدة منكم ، من يؤيد الله به الدين ويعز به المؤمنين ، وفى أهل الزهادة والعبادة منكم ، من له الأحوال الزكية والطريقة المرضية ، وله

المكاشفات والتصرفات ، وفيكم من أولياء الله المتقين من له لسان صدق فى العالمين ، فان قدماء المشايخ الذين كانوا فيكم مثل الملقب بشيخ الإسلام أبى الحسن على بن أحمد بن يوسف القرشى الهكارى ، وبعده الشيخ العارف القدوة عدى بن مسافر الأموى ومن سلك سبيلهما ، فيهم من الفضل والدين والصلاح والاتباع للسنة ، ماعظم الله به أقدارهم ورفع به منارهم ، والشيخ عدى قدس الله روحه كان من أفاضل عباد الله الصالحين ، وأكابر المشايخ المتبعين ، وله من الأحوال الزكية والمناقب العلية ما يعرفه أهل المعرفة بذلك ، وله فى الأمة صيت مشهور ، ولسان صدق مذكور وعقيدته المحفوظة عنه لم يخرج فيها عن عقيدة من تقدمه من المشايخ الذين سلك سبيلهم كالشيخ الإمام الصالح أبى الفرج عبد الواحد بن محمد بن على الأنصارى الشيرازى ، ثم الدمشقى وكشيخ الإسلام الهكارى ونحوهما ، وهؤلاء المشايخ لم يخرجوا فى الأصول الكبار عن أصول أهل السنة والجماعة ، بل كان لهم من الترغيب فى أصول أهل السنة والدعاء إليها والحرص على نشرها ، ومنابذة من خالفها مع الدين والفضل والصلاح ، مارفع الله به أقدارهم وأعلا منارهم وغالب مايقولونه فى أصولها الكبار جيد ، مع أنه لابد وأن يوجد فى كلامهم وكلام نظرائهم من المسائل المرجوحة ، والدلائل الضعيفة كأحاديث لاتثبت ، ومقاييس لاتطرد ، مايعرفه أهل البصيرة .

وذلك أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لاسيما المتأخرون من الأمة الذين لم يحكموا معرفة الكتاب والسنة والفقه فيهما ، ويميزوا بين صحيح الأحاديث وسقيمها ، وناتج المقاييس وعقيمها ، مع ماينضم إلى ذلك من غلبة الأهواء ، وكثرة الآراء وتغلظ

الاختلاف والافتراق ، وحصول العداوة والشقاق فان هذه الأسباب ونحوها مما يوجب قوة الجهل والظلم ، اللذين نعت الله بهما الانسان فى قوله : (وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) فاذا من الله على الإنسان بالعلم والعدل أنقذه من هذا الضلال وقد قال سبحانه : (والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وقد قال تعالى : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) .

وأنتم تعلمون أصلحكم الله، أن السنة التى يجب اتباعها ويحمد أهلها ويذم من خالفها ، هى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمور الاعتقادات ، وأمور العبادات وسائر أمور الديانات ، وذلك إنما يعرف بمعرفة أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم الثابتة عنه فى أقواله وأفعاله ، وماتركه من قول وعمله ثم ما كان عليه السابقون والتابعون لهم بإحسان وذلك فى دواوين الإسلام المعروفة ، مثل صحيحى البخارى ، ومسلم ، وكتب السنن مثل: سنن أبى داود والنسائى ، وجامع الترمذى ، وموطأ الإمام مالك ، ومثل المسانيد المعروفة كمثل : مسند الإمام أحمد وغيره ، ويوجد فى كتب التفاسير والمغازى وسائر كتب الحديث جملها وأجزائها من الآثار مايستدل ببعضها على بعض وهذا أمر قد أقام الله له من أهل المعرفة من اعتنى به حتى حفظ الله الدين على أهله .

وقد جمع طوائف من العلماء الأحاديث والآثار المروية فى أبواب عقائد أهل السنة ، مثل حماد بن سلمة ، وعبد الرحمن بن مهدى، وعبدالله بن عبدالرحمن

الدارمى ، وعثمان بن سعيد الدارمى وغيرهم فى طبقتهم ، ومثلها مابوب عليه البخارى ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه وغيرهم فى كتبهم ، ومثل: مصنفات أبى بكر الأثرم ، وعبد الله بن أحمد ، وأبى بكر الخلال ، وأبى القاسم الطبرانى ، وأبى الشيخ الأصبهانى ، وأبى بكر الآجرى ، وأبى الحسن الدارقطنى ، وأبى عبد الله بن منده ، وأبى القاسم اللالكائى ، وأبى عبد الله ابن بطه ، وأبى عمر الطلمنكى ، وأبى نعيم الأصبهانى ، وأبى بكر البيهقى ، وأبى ذر الهروى ، وإن كان يقع فى بعض هذه المصنفات من الأحاديث الضعيفة ما يعرفه أهل المعرفة .

﴿ وقد ﴾ يروى كثير من الناس فى الصفات وسائر أبواب الاعتقادات وعامة أبواب الدين ، أحاديث كثيرة تكون مكذوبة موضوعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى قسمان :

منها ما يكون كلاما باطلا لا يجوز أن يقال ، فضلا عن أن يضاف إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

والقسم الثانى ؛ من الكلام ما يكون قد قاله بعض السلف أو بعض العلماء أو بعض الناس ، ويكون حقاً أو مما يسوغ فيه الاجتهاد أو مذهباً لقائله ، فيعزى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا كثير عند من لا يعرف الحديث ، مثل المسائل التى وضعها الشيخ أبو الفرج عبد الواحد بن محمد بن على الأنصارى ، وجعلها محنة يفرق فيها بين السنى والبدعى ، وهى مسائل معروفة ، عمل بعض الكذابين وجعل لها إسناداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعلها من كلامه ، وهذا يعلمه من له أدنى معرفة أنه مكذوب

مفترى ، وهذه المسائل وإن كان غالبها موافقاً لأصول السنة ، ففيها ما إذا خالفه الإنسان لم يحكم بأنه مبتدع ، مثل أول نعمة أنعم بها على عبده فان هذه المسألة فيها نزاع بين أهل السنة ، والنزاع فيها لفظى لأن مبناها على أن اللذة يعقبها ألم هل تسمى نعمة أم لا ، وفيها أيضاً أشياء مرجوحة .

فالواجب أن يفرق بين الحديث الصحيح والحديث الكذب ، فان السنة هى الحق دون الباطل ، وهى الأحاديث الصحيحة دون الموضوعة فهذا أصل عظيم لأهل الإسلام عموما ولمن يدعى السنة خصوصاً .

﴿ فصل ﴾ وقد تقدم أن دين الله وسط بين الغالى فيه والجافى عنه ، والله تعالى ما أمر عباده بأمر إلا اعترض الشيطان فيه بأمرين لايبالى بأيهما ظفر ، اما إفراط فيه ، وإما تفريط فيه ، وإذا كان الإسلام الذى هو دين الله لا يقبل من أحد سواه ، قد اعترض الشيطان كثيراً ممن ينتسب اليه حتى أخرجه عن كثير من شرائعه ، بل أخرج طوائف من أعبد هذه الأمة وأورعها عنه ، حتى مرقوا منه كما يمرق السهم من الرمية ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتال المارقين منه ، فثبت عنه فى الصحاح وغيرها من رواية أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وأبى سعيد الخدرى ، وسهيل بن حنيف ، وأبى ذر الغفارى ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وابن مسعود رضى الله عنهم وغير هؤلاء ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر الخوارج فقال : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية أينما لقيتموهم فاقتلوهم أوفقاتلوهم فان فى قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة

لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد ، وفى رواية : شر قتلى تحت أديم السماء خير قتلى من قتلوه وفى رواية : لو يعلم الذين يقاتلونهم ما زوى لهم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم لنكلوا عن العمل ، وهؤلاء لما خرجوا فى خلافة أمير المؤمنين على بن طالب رضى الله عنه ، قاتلهم هو وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر النبي صلى الله عليه وسلم وتحضيضه على قتالهم ، واتفق على قتالهم جميع أئمة الإسلام .

وهكذا كل من فارق جماعة المسلمين وخرج عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشريعته من أهل الأهواء المضلة والبدع المخالفة ، ولهذا قاتل المسلمون أيضاً الرافضة الذين هم شر من هؤلاء ، وهم الذين يكفرون جماهير المسلمين ، مثل الخلفاء الثلاثة وغيرهم ، ويزعمون أنهم هم المؤمنون ومن سواهم فر ، ويكفرون من يقول أن الله يرى فى الآخرة ، أو يؤمن بصفات الله وقدرته الكاملة ومشيئته الشاملة ، ويكفرون من خالفهم فى بدعهم التى هم عليها ، فانهم يمسحون القدمين ولا يمسحون على الخف ، ويؤخرون الفطور والصلاة إلى طلوع النجم ، ويجمعون بين الصلاتين من غير عذر ، ويقنتون فى الصلوات الخمس ، ويحرمون الفقاع وذبائح أهل الكتاب ، وذبائح من خالفهم من المسلمين ، لأنهم عندهم كفار ، ويقولون على الصحابة رضى الله عنهم أقوالا عظيمة لاحاجة إلى ذكرها هنا ، إلى أشياء أخر . فقاتلهم المسلمون بأمر الله ورسوله .

فاذا كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، قد انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة ، حتى أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتالهم ، فيعلم أن المنتسب إلى الإسلام أو السنة فى هذه الأزمان

قد يمرق أيضاً من الإسلام والسنة حتى يدعى السنة من ليس من أهلها ، بل قد مرق منها وذلك بأسباب :

منها : الغلو الذى ذمه الله تعالى فى كتابه حيث قال : (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه — إلى قوله — وكفى بالله وكيلا) وقال تعالى : (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل) وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إياكم والغلو فى الدين فانما أهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين » وهو حديث صحيح .

ومنها : التفرق والاختلاف الذى ذكره الله تعالى فى كتابه العزيز .

ومنها : أحاديث تروى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى كذب عليه باتفاق أهل المعرفة ، يسمعها الجاهل بالحديث فيصدق بها لموافقة ظنه وهواه .

وأصل الضلال : اتباع الظن والهوى كما قال الله تعالى فى حق من ذمهم: (ان يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) وقال فى حق نبيه صلى الله عليه وسلم : (والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى) فنزهه عن الضلال والغواية اللذين هما الجهل والظلم ، فالضال هو الذى لا يعلم الحق ، والغاوى الذى يتبع هواه ، وأخبر أنه ما ينطق عن هوى النفس ، بل هو وحى أوحاه الله اليه فوصفه بالعلم ونزهه عن الهوى .

وأنا أذكر جوامع من أصول الباطل التى ابتدعها طوائف ممن ينتسب إلى السنة ، وقد مرق منها وصار من أكابر الظالمين وهى فصول .

الفصل الأول — أحاديث رووها فى الصفات زائدة على الأحاديث التى فى دواوين الإسلام ، مما نعلم باليقين القاطع أنها كذب وبهتان ، بل كفر شنيع ، وقد يقولون من أنواع الكفر مالا يروون فيه حديثا مثل حديث يروونه : أن الله ينزل عشية عرفة على جمل أورق يصافح الركبان ويعانق المشاة . وهذا من أعظم الكذب على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . وقائله من أعظم القائلين على الله غير الحق ، ولم يرو هذا الحديث أحد من علماء المسلمين أصلا ، بل أجمع علماء المسلمين وأهل المعرفة بالحديث على أنه مكذوب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال أهل العلم كابن قتيبة وغيره : هذا وأمثاله إنما وضعه الزنادقة ليشينوا به أهل الحديث ويقولون أنهم يروون مثل هذا .

وكذلك حديث آخر فيه : انه رأى ربه حين أفاض من مزدلفة يمشى أمام الحجيج وعليه جبة صوف أو ما يشبه هذا البهتان والافتراء على الله ، الذى لا يقوله من عرف الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وهكذا حديث فيه : أن الله يمشى على الأرض فاذا كان موضع خضرة قالوا هذا موضع قدميه ويقرءون قوله تعالى (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحى الأرض بعد موتها) هذا أيضا كذب باتفاق العلماء ولم يقل الله فانظر إلى آثار خطى الله ، وإنما قال أثر رحمة الله ورحمته هنا النبات .

وهكذا أحاديث فى بعضها : أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه فى

الطواف وفى بعضها أنه رآه وهو خارج من مكة ، وفى بعضها أنه رآه فى بعض سكك المدينة إلى أنواع أخر .

وكل حديث فيه أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعينه فى الأرض، فهو كذب باتفاق المسلمين وعلمائهم ، هذا شيء لم يقله أحد من علماء المسلمين ولا رواه أحد منهم .

وإنما كان النزاع بين الصحابة فى أن محمداً صلى الله عليه وسلم هل رأى ربه ليلة المعراج ، فكان ابن عباس رضى الله عنهما وأكثر علماء السنة يقولون : أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه ليلة المعراج ، وكانت عائشة رضى الله عنها وطائفة معها تنكر ذلك ، ولم ترو عائشة رضى الله عنها فى ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم شيئا ولا سألته عن ذلك ، ولا نقل فى ذلك عن الصديق رضى الله عنه ، كما يروونه ناس من الجهال أن أباها سأل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : نعم . وقال لعائشة : لا . فهذا الحديث كذب باتفاق العلماء ، ولهذا ذكر القاضى أبو يعلى وغيره أنه اختلفت الرواية عن الإمام أحمد رحمه الله ، هل يقال أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعينى رأسه ، أو يقال بعين قلبه ، أو يقال رآه ولا يقال بعين رأسه ولا بعين قلبه ، على ثلاث روايات .

وكذلك الحديث الذى رواه أهل العلم أنه قال : رأيت ربى فى صورة كذا وكذا . يروى من طريق ابن عباس ومن طريق أم الطفيل وغيرهما ، وفيه أنه وضع يده بين كتفى حتى وجدت برد أنامله على صدري ، هذا الحديث لم يكن ليلة المعراج ، فان هذا الحديث كان بالمدينة ، وفى الحديث

أن النبي صلى الله عليه وسلم نام عن صلاة الصبح ثم خرج إليهم وقال : رأيت كذا وكذا وهو من رواية من لم يصل خلفه إلا بالمدينة كأم الطفيل وغيرها ، والمعراج إنما كان من مكة باتفاق أهل العلم ، وبنص القرآن والسنة المتواترة كما قال الله تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) .

فعلم أن هذا الحديث كان رؤيا منام بالمدينة كما جاء مفسراً فى كثير من طرقه أنه كان رؤيا منام ، مع أن رؤيا الأنبياء وحى لم يكن رؤيا يقظة ليلة المعراج ، وقد اتفق المسلمون على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير ربه بعينيه فى الأرض ، وأن الله لم ينزل له إلى الأرض ، وليس عن النبي صلى الله عليه وسلم قط حديث فيه أن الله نزل له إلى الأرض .

بل الأحاديث الصحيحة أن الله يدنو عشية عرفة ، وفى رواية إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له .

وثبت فى الصحيح أن الله يدنو عشية عرفة ، وفى رواية إلى سماء الدنيا ، فيباهى الملائكة بأهل عرفة . فيقول : انظروا إلى عبادى أتونى شعثا غبراً ما أراد هؤلاء ، وقد روى أن الله ينزل ليلة النصف من شعبان إن صح الحديث فان هذا مما تكلم فيه أهل العلم .

وكذلك ماروى بعضهم أن النبى صلى الله عليه وسلم لما نزل من حراء تبدى له ربه على كرسى بين السماء والأرض ، غلط باتفاق أهل العلم بل الذى

فى الصحاح : أن الذى تبدى له الملك الذى جاءه بحراء فى أول مرة وقال له : اقرأ. فقلت : لست بقارىء . فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى . فقال : اقرأ . فقلت : لست بقارىء. فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى . فقال : (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) فهذا أول ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم ثم جعل النبي صلى الله عايه وسلم يحدث عن فترة الوحى قال : « فبينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا فرفعت رأسى فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض » رواه جابر رضى الله عنه فى الصحيحين فأخبر أن الملك الذى جاءه بحراء رآه بين السماء والأرض ، وذكر أنه رعب منه فوقع فى بعض الروايات الملك ، فظن القارىء أنه الملك وأنه الله ، وهذا غلط وباطل .

وبالجملة ان كل حديث فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعينيه فى الأرض ، وفيه أنه نزل له إلى الأرض ، وفيه أن رياض الجنة من خطوات الحق ، وفيه أنه وطىء على صخرة بيت المقدس ، كل هذا كذب باطل باتفاق علماء المسلمين من أهل الحديث وغيرهم .

وكذلك كل من ادعى أنه رأى ربه بعينيه قبل الموت ، فدعواه باطل باتفاق أهل السنة والجماعة ، لأنهم اتفقوا جميعهم على أن أحداً من المؤمنين لا يرى ربه بعينى رأسه حتى يموت ، وثبت ذلك فى صحيح مسلم عن النواس ابن سمعان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما ذكر الدجال قال : « واعلموا أن أحدا منكم لن يرى ربه حتى يموت » وكذلك روى هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه أخر يحذر أمته فتنة الدجال ، وبين لهم أن أحداً منهم

لن يرى ربه حتى يموت، فلا يظنن أحد أن هذا الدجال الذى رآه هو ربه، ولكن الذى يقع لأهل حقائق الإيمان من المعرفة بالله ويقين القلوب ومشاهدتها وتجلياتها هو على مراتب كثيرة قال النبي صلى الله عليه وسلم لما سأله جبريل عليه السلام عن الاحسان قال: «الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك».

وقد يرى المؤمن ربه فى المنام فى صور متنوعة على قدر إيمانه ويقينه، فاذا كان إيمانه صحيحا لم يره إلا فى صورة حسنة، وإذا كان فى إيمانه نقص رأى ما يشبه إيمانه، ورؤيا المنام لها حكم غير رؤيا الحقيقة فى اليقظة، ولها تعبير وتأويل لما فيها من الأمثال المضروبة للحقائق.

﴿ وقد ﴾ يحصل لبعض الناس فى اليقظة أيضا من الرؤيا نظير ما يحصل للنائم فى المنام، فيرى بقلبه مثل ما يرى النائم. وقد يتجلى له من الحقائق ما يشهده بقلبه فهذا كله يقع فى الدنيا.

وربما غلب أحدهم ما يشهده قلبه وتجمعه حواسه، فيظن أنه رأى ذلك بعيني رأسه حتى يستيقظ، فيعلم أنه منام وربما علم فى المنام أنه منام.

فهكذا من العباد من يحصل له مشاهدة قلبية تغلب عليه حتى تفنيه عن الشعور بحواسه فيظنها رؤية بعينه، وهو غالط فى ذلك وكل من قال من العباد المتقدمين أو المتأخرين أنه رأى ربه بعيني رأسه، فهو غالط فى ذلك باجماع أهل العلم والايمان.

نعم رؤية الله بالابصار هى للمؤمنين فى الجنة، وهى أيضا للناس فى

عرصات القيامة كما تواترت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : « إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب وكما ترون القمر ليلة البدر صحواً ليس دونه سحاب » وقال صلى الله عليه وسلم : « جنات الفردوس أربع جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه فيقولون ما هو ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار فيكشف الحجاب فينظرون اليه فما أعطاهم شيئا أحب اليهم من النظر اليه وهى الزيادة » .

وهذه الأحاديث وغيرها فى الصحاح وقد تلقاها السلف والأئمة بالقبول ، واتفق عليها أهل السنة والجماعة ، وإنما يكذب بها أو يحرفها الجهمية ومن تبعهم من المعتزلة والرافضة ونحوهم ، الذين يكذبون بصفات الله تعالى وبرؤيته وغير ذلك ، وهم المعطلة شرار الخلق والخليقة .

ودين الله وسط بين تكذيب هؤلاء بما أخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم فى الآخرة ، وبين تصديق الغالية بأنه يرى بالعيون فى الدنيا وكلاهما باطل .

وهؤلاء الذين يزعم أحدهم أنه يراه بعينى رأسه فى الدنيا ، هم ضلال كما تقدم ، فان ضموا إلى ذلك أنهم يرونه فى بعض الأشخاص ، اما بعض الصالحين أو بعض المردان أو بعض الملوك أو غيرهم ، عظم ضلالهم

وكفرهم وكانوا حينئذ أضل من النصارى الذين يزعمون أنهم رأوه فى صورة عيسى ابن مريم ، بل هم أضل من أتباع الدجال الذى يكون فى آخر الزمان ويقول للناس أنا ربكم ويأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت ويقول للخربة اخرجى كنوزك فتتبعه كنوزها ، وهذا هو الذى حذر منه النبى صلى الله عليه وسلم أمته وقال : « ما من خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أعظم من الدجال » وقال : « إذا جلس أحدكم فى الصلاة فليستعذ بالله من أربع ليقل : اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال » فهذا ادعى الربوبية وأتى بشبهات فتن بها الخلق حتى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم : « انه أعور وان ربكم ليس بأعور واعلموا أن أحدا منكم لن يرى ربه حتى يموت » فذكر لهم علامتين ظاهرتين يعرفهما جميع الناس ، لعلمه صلى الله عليه وسلم بأن من الناس من يضل فيجوز أن يرى ربه فى الدنيا فى صورة البشر كهؤلاء الضلال الذين يعتقدون ذلك ، وهؤلاء قد يسمون الحلولية والاتحادية .

وهم صنفان : قوم يخصونه بالحلول أو الاتحاد فى بعض الأشياء كما يقوله النصارى فى المسيح عليه السلام ، والغالية فى على رضى الله عنه ونحوه ، وقوم فى أنواع من المشايخ ، وقوم فى بعض الملوك ، وقوم فى بعض الصور الجميلة إلى غير ذلك من الأقوال التى هى شر من مقالة النصارى .

وصنف يعمون فيقولون : بحلوله أو اتحاده فى جميع الموجودات حتى الكلاب والخنازير والنجاسات وغيرها ، كما يقول ذلك قوم من الجهمية ومن تبعهم من الاتحادية كأصحاب ابن عربى ، وابن سبعين ، وابن الفارض ، والتلمسانى ، والبليانى وغيرهم .

ومذهب جميع المرسلين ومن تبعهم من المؤمنين وأهل الكتب ، أن الله سبحانه خالق العالمين ورب السموات والأرض وما بينهما ، ورب العرش العظيم ، والخلق جميعهم عباده وهم فقراء إليه .

وهو سبحانه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ، ومع هذا فهو معهم أينما كانوا كما قال سبحانه وتعالى : (هو الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستةأيام ثم استوى على العرش يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) .

فهؤلاء الضلال الكفار الذين يزعم أحدهم أنه يرى ربه بعينيه ، وربما زعم أنه جالسه وحادثه أو ضاجعه ، وربما يعين أحدهم آدميا اما شخصا أو صبيا أو غير ذلك ، ويزعم أنه كلمهم يستتابون ، فان تابوا وإلا ضربت أعناقهم ، وكانوا كفاراً إذهم أكفر من اليهود والنصارى الذين قالوا : (إن الله هو المسيح ابن مريم) فان المسيح رسول كريم وجيه عند الله فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، فاذا كان الذين قالوا : انه هوالله وانه اتحد بهأوحل فيهقد كفرهم وعظم كفرهم، بل الذين قالوا :انهاتخذولدا حتى قال : (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً ان كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً) فكيف بمن يزعم فى شخص من الأشخاص أنه هو هذا أكفر من الغالية الذين يزعمون أن علياً رضى الله عنه أو غيره من أهل البيت هو الله .

وهؤلاء هم الزنادقة الذين حرقهم على رضى الله عنه بالنار ، وأمر بأخاديد خدت لهم عند باب كنده ، وقذفهم فيها بعد أن أجلهم ثلاثا ليتوبوا ، فلما لم يتوبوا أحرقهم بالنار ، واتفقت الصحابة رضى الله عنهم على قتلهم ، لكن ابن عباس رضى الله عنهما كان مذهبه أن يقتلوا بالسيف بلا تحريق ، وهو قول أكثر العلماء وقصتهم معروفة عند العلماء .

فصل — وكذلك الغلو فى بعض المشايخ ، اما فى الشيخ عدى ويونس القنى أوالحلاج وغيرهم ، بل الغلو فى على بن أبى طالب رضى الله عنه ونحوه ، بل الغلو فى المسيح عليه السلام ونحوه ، فكل من غلا فى حى أو فى رجل صالح كمثل على رضى الله عنه أو عدى أو نحوه ، أوفى من يعتقد فيه الصلاح كالحلاج أو الحاكم الذى كان بمصر ، أو يونس القنى ونحوهم ، وجعل فيه نوعا من الإلهية مثل أن يقول : كل رزق لا يرزقنيه الشيخ فلان ما أريده ، أو يقول إذا ذبح شاة باسم سيدى أو يعبده بالسجود له أو لغيره ، أو يدعوه من دون الله تعالى ، مثل أن يقول ياسيدى فلان اغفرلى أو ارحمنى أو انصرنى أو ارزقنى أو أغثنى أو أجرنى أو توكلت عليك أو أنت حسبى أو أنا فى حسبك ، أو نحو هذه الأقوال والأفعال التى هى من خصائص الربوبية التى لا تصلح إلا لله تعالى ، فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه ، فان تاب وإلا قتل فان الله إنما أرسل الرسل ، وأنزل الكتب لنعبدالله وحده لاشريك له ولا نجعل مع الله إلها آخر .

والذين كانوا يدعون مع الله آلهة أخرى مثل : الشمس والقمر والكواكب والعزير والمسيح والملائكة واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ويغوث ويعوق ونسرا وغير ذلك ، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق

الخلائق ، أو أنها تنزل المطر أو أنها تنبت النبات ، وإنما كانوا يعبدون الأنبياء والملائكة والكواكب والجن والتماثيل المصورة لهؤلاء ، أويعبدون. قبورهم ويقولون إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى .

ويقولون : هم شفعاؤنا عند الله ، فأرسل الله رسله تنهى أن يدعى أحد من دونه لا دعاء عبادة ، ولا دعاء استغاثة وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا) .

قال طائفة من السلف : كان أقوام يدعون المسيح وعزيراً والملائكة فقال الله لهم : هؤلاء الذين تدعونهم يتقربون إلىّ كما تتقربون ويرجون رحمتي كما ترجون رحمتي ويخافون عذابي كما تخافون عذابي . وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ومالهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فأخبر سبحانه أن ما يدعى من دون الله ليس له مثقال ذرة فى الملك ولا شرك فى الملك ، وأنه ليس له من الخلق عون يستعين به ، وأنه لا تنفع الشفاعة عنده إلا باذنه .

وقال تعالى : (وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيأ إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وقال تعالى : (أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض ثم اليه ترجعون) وقال تعالى : (ويعبدون من دون

الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبؤن الله بمالا يعلم فى السموات ولا فى الأرض) الآية .

وعبادة الله وحده هى أصل الدين ، وهو التوحيد الذى بعث الله به الرسل، وأنزل به الكتب فقال تعالى : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وقال تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحقق التوحيد ويعلمه أمته حتى قال له رجل: ما شاء الله وشئت فقال : « أجعلتنى لله نداً بل ما شاء الله وحده » وقال : « لا تقولوا ماشاء الله وشاء محمد ولكن ماشاء الله ثم ماشاء محمد » ونهى عن الحلف بغير الله فقال : « من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » وقال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » وقال : « لا تطرونى كما اطرت النصارى عيسى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » .

ولهذا اتفق العلماء على أنه ليس لأحد أن يحلف بمخلوق كالكعبة ونحوها.

ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن السجود له ، ولما سجد بعض أصحابه نهاه عن ذلك وقال : « لا يصلح السجود إلا لله » وقال : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » وقال لمعاذ بن جبل رضى الله عنه : « أرأيت لو مررت بقبرى أكنت ساجداً له قال لا قال فلا تسجد لى » .

ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ القبور مساجد فقال فى مرض

موته : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما فعلوا قالت عائشة رضى الله عنها : ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجداً وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال قبل أن يموت بخمس : « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا بيتى عيداً ولا بيوتكم قبوراً وصلوا على حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغنى » ولهذا اتفق أئمة الاسلام على أنه لايشرع بناء المسجد على القبور ، ولاتشرع الصلاة عند القبور ، بل كثير من العلماء يقول : الصلاة عندها باطلة .

والسنة فى زيارة قبور المسلمين ، نظير الصلاة عليهم قبل الدفن قال الله تعالى فى كتابه عن المنافقين : (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) فكان دليل الخطاب أن المؤمنين يصلى عليهم ويقام على قبورهم .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا : « السلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين ، وانا إن شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية ، اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم واغفر لنا ولهم » .

وذلك أن من أكبر أسباب عبادة الأوثان كان التعظيم للقبور بالعبادة ونحوها ، قال الله تعالى فى كتابه : (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) .

قال طائفة من السلف : كانت هذه أسماء قوم صالحين فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم وعبدوها .

ولهذا اتفق العلماء على أن متى سلم على النبى صلى الله عليه وسلم عند قبره ، أنه لا يتمسح بحجرته ولا يقبلها ، لأن التقبيل والاستلام إنما يكون لأركان بيت الله الحرام فلا يشبه بيت المخلوق ببيت الخالق .

وكذلك الطواف والصلاة والاجتماع للعبادات ، إنما تقصد فى بيوت الله وهى المساجد التى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، فلا تقصد بيوت المخلوقين فتتخذ عيداً كما قال ﷺ : « لا تتخذوا بيتى عيداً » كل هذا لتحقيق التوحيد الذى هو أصل الدين ورأسه الذى لا يقبل الله عملا إلا به ، ويغفر لصاحبه ولا يغفر لمن تركه وكما قال تعـــالى : (إن الله لا يغفر أن تشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقدافترى إثماعظيما).

ولهذا كانت كلمة التوحيد أفضل الكلام وأعظمه ، فأعظم آية فى القرآن آيةالكرسى : (الله لاإله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم) وقال صلى الله عليه وسلم : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » والإله الذى يألهه القلب عبادة له واستعانة ورجاء له وخشية واجلالا واكراما .

فصل — ومن ذلك الاقتصاد فى السنة واتباعها كما جاءت بلا زياد ولا نقصان ، مثل الكلام فى القرآن وسائر الصفات ، فان مذهب سلف الأمة وأهل السنة : أن القرآن كلام الله منزل غيرمخلوق منه بدا واليه يعود ، هكذا قال غير واحد من السلف ، روى عن أبى سفيان بن عيينة عن عمرو ابن دينار وكان من التابعين الأعيان قال : مازلت أسمع الناس يقولون ذلك .

والقرآن الذى أنزله الله على رسوله ﷺ ، هو هذا القرآن الذى يقرؤه المسلمون ويكتبونه فى مصاحفهم ، وهو كلام الله لا كلام غيره ، وان تلاه العباد وبلغوه

بحركاتهم وأصواتهم، فان الكلام لمن قاله مبتدئاً لا لمن قاله مبلغا مؤديا قال الله تعالى : (وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه)وهذا القرآن فى المصاحف كما قال تعالى : (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) وقال تعالى : (يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة) وقال : (انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون) والقرآن كلام الله بحروفه ونظمه ومعانيه ، كل ذلك يدخل فى القرآن وفى كلام الله ، واعراب الحروف هو من تمام الحروف كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات » وقال أبو بكر وعمر رضى الله عنهما : حفظ إعراب القرآن أحب الينا من حفظ بعض حروفه .

وإذا كتب المسلمون مصحفاً فان أحبوا أن لاينقطوه ولا يشكلوه جاز ذلك كما كان الصحابة يكتبون المصاحف من غير تنقيط ولا تشكيل ، لأن القوم كانوا عربا لا يلحنون ، وهكذا هى المصاحف التى بعث بها عثمان رضى الله عنه إلى الأمصار فى زمن التابعين .

ثم فشا اللحن فنقطت المصاحف وشكلت بالنقط الحمر ، ثم شكلت بمثل خط الحروف ، فتنازع العلماء فى كراهة ذلك ، وفيه خلاف عن الامام أحمد رحمه الله وغيره من العلماء. قيل : يكره ذلك لأنه بدعة. وقيل : لايكره للحاجة اليه . وقيل :يكره النقط دون الشكل لبيان الاعراب ، والصحيح أنه لابأس به .

والتصديق بما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم : ان الله يتكلم بصوت وينادى آدم عليه السلام بصوت ، إلى أمثال ذلك من الأحاديث فهذه الجملة كان عليها سلف الأمة وأئمة السنة .

وقال أئمة السنة : القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق حيث تلى وحيث كتب ، فلا يقال لتلاوة العبد بالقرآن أنها مخلوقة لأن ذلك يدخل فيه القرآن المنزل ، ولا يقال غير مخلوقة لأن ذلك يدخل فيه أفعال العباد .

ولم يقل قط أحد من أئمة السلف : أن أصوات العباد بالقرآن قديمة ، بل أنكروا على من قال لفظ العبد بالقرآن غير مخلوق ، وأما من قال : أن المداد قديم ، فهذا من أجهل الناس وأبعدهم عن السنة قال الله تعالى : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا) فأخبر أن المداد يكتب به كلماته .

وكذلك من قال : ليس القرآن فى المصحف وإنما فى المصحف مداد وورق أو حكاية وعبارة ، فهو مبتدع ضال ، بل القرآن الذى أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم هو مابين الدفتين ، والكلام فى المصحف على الوجه الذى يعرفه الناس له خاصة يمتاز بها عن سائر الأشياء .

وكذلك من زاد على السنة فقال : ان ألفاظ العباد وأصواتهم قديمة ، فهو مبتدع ضال كمن قال : ان الله لا يتكلم بحرف ولا بصوت ، فانه أيضاً مبتدع منكر للسنة .

وكذلك من زاد وقال : ان المداد قديم فهو ضال ، كمن قال ليس فى المصاحف كلام الله ، وأما من زاد على ذلك من الجهال الذين يقولون : ان الورق والجلد والوتد وقطعة من الحائط كلام الله ، فهو بمنزلة من يقول: ما تكلم الله بالقران ولا هو كلامه ، هذا الغلو من جانب الاثبات يقابل التكذيب من جانب النفى ، وكلاهما خارج عن السنة والجماعة .

وكذلك إفرادالكلام فىالنقطة والشكلة بدعة نفياً واثباتاً ، وإنماحدثت هذه البدعة من مائة سنةأو أكثر بقليل . فان من قال ان المداد الذى تنقط به الحروف ويشكل به قديم فهو ضال جاهل ، ومن قال ان اعراب حروف القرآن ليس من القرآن فهو ضال مبتدع .

بل الواجب أن يقال : هذا القرآن العربى هو كلام الله ، وقد دخل فى ذلك حروفه باعرابها كما دخلت معانيه ، ويقال ما بين اللوحين جميعه كلام الله ، فان كان المصحف منقوطاً مشكولا أطلق على مابين اللوحين جميعه أنه كلام الله ، وان كان غير منقوط ولا مشكول كالمصاحف القديمة التى كتبها الصحابة كان أيضاً ما بين اللوحين هو كلام الله ، فلا يجوز أن تلقى الفتنة بين المسلمين بأمر محدث ونزاع لفظى لاحقيقة له ، ولا يجوز أن يحدث فى الدين ما ليس منه .

فصل — وكذلك يجب الاقتصاد والاعتدال فى أمر الصحابة والقرابة رضى الله عنهم ، فان الله تعالى أثنى على أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم من السابقين والتابعين لهم باحسان ، وأخبر أنه رضى عنهم ورضوا عنه وذكرهم فى آيات من كتابه مثل قوله تعالى : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما) وقال تعالى : (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً) .

وفى الصحاح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » .

وقد اتفق أهل السنة والجماعة على ما تواتر عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر رضى الله عنهما ، واتفق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة عثمان بعد عمر رضى الله عنهما ، وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم تصير ملكا » وقال صلى الله عليه وسلم : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فان كل بدعة ضلالة » .

وكان أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، آخر الخلفاء الراشدين المهديين .

وقد اتفق عامة أهل السنة من العلماء والعباد والأمراء والأجناد ، على أن يقولوا : أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على رضى الله عنهم ، ودلائل ذلك وفضائل الصحابة كثير ليس هذا موضعه .

وكذلك نؤمن بالامساك عما شجر بينهم ، ونعلم أن بعض المنقول فى ذلك كذب ، وهم كانوا مجتهدين إما مصيبين لهم أجران ، أو مثابين على عملهم الصالح مغفور لهم خطؤهم ، وما كان من السيآت . وقد سبق لهم من الله الحسنى . فإن الله يغفرها لهم إما بتوبة أو بحسنات ماحية أو مصائب مكفرة أو غير ذلك . فإنهم خير قرون هذه الأمة كما قال صلى الله عليه وسلم:

« خير القرون قرنى الذى بعثت فيهم ثم الذين يلونهم وهذه خير أمة أخرجت للناس » .

ونعلم مع ذلك أن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، كان أفضل وأقرب إلى الحق من معاوية وممن قاتله معه لما ثبت فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين تقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق » وفى هذا الحديث دليل على أنه مع كل طائفة حق ، وأن علياً رضى الله عنه أقرب إلى الحق .

وأما الذين قعدوا عن القتال فى الفتنة كسعد بن أبى وقاص وابن عمر وغيرهما رضى الله عنهم فاتبعوا النصوص التى سمعوها فى ذلك عن القتال فى الفتنة . وعلى ذلك أكثر أهل الحديث .

وكذلك آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لهم من الحقوق ما يجب رعايتها . فان الله جعل لهم حقاً فى الخمس والفىء ، وأمر بالصلاة عليهم مع الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لنا : « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل ابراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل ابراهيم إنك حميد مجيد » وآل محمد هم الذين حرمت عليهم الصدقة . هكذا قال الشافعى وأحمد بن حنبل وغيرهما من العلماء رحمهم الله ، فان النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ان الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد » وقد قال الله تعالى فى كتابه : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) وحرم الله عليهم الصدقة لأنها أوساخ الناس ، وقد قال بعض السلف : حب أبى بكر وعمر إيمان وبغضهما نفاق .

وفى المسانيد والسنن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للعباس لما شكا اليه جفوة قوم لهم قال : « والذى نفسى بيده لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم من أجلى ».

وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله اصطفى بنى اسماعيل واصطفى بنى كنانة من بنى اسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى بنى هاشم من قريش واصطفانى من بنى هاشم » .

وقد كانت الفتنة لما وقعت بقتل عثمان وافتراق الأمة بعده ، صار قوم ممن يحب عثمان ويغلو فيه ، ينحرف عن على رضى الله عنه ، مثل كثير من أهل الشام ممن كان إذ ذاك يسب علياً رضى الله عنه ويبغضه .

وقوم ممن يحب علياً رضى الله عنه ويغلو فيه ، ينحرف عن عثمان رضى الله عنه مثل كثير من أهل العراق ، ممن كان يبغض عثمان ويسبه رضى الله عنه .

ثم تغلظت بدعتهم بعد ذلك ، حتى سبوا أبا بكر وعمر رضى الله عنهما وزاد البلاء بهم حينئذ .

والسنة محبة عثمان وعلى جميعاً ، وتقديم أبى بكر وعمر عليهما رضى الله عنهم ، لما خصهما الله به من الفضائل التى سبقا بها عثمان وعلياً جميعاً ، وقد نهى الله فى كتابه عن التفرق والتشتت ، وأمر بالاعتصام بحبله .

فهذا موضع يجب المؤمن أن يتثبت فيه ويعتصم بحبل الله ، فان السنة مبناها على العلم والعدل والاتباع لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

فالرافضة لما كانت تسب الصحابة ، صار العلماء يأمرون بعقوبة من يسب

الصحابة ، ثم كفرت الصحابة وقالت عنهم أشياء قد ذكرنا حكمهم فيها في غير هذا الموضع .

ولم يكن أحد إذ ذاك يتكلم فى يزيد بن معاوية ، ولا كان الكلام فيه من الدين ، ثم حدثت بعد ذلك أشياء ، فصار قوم يظهرون لعنة يزيد بن معاوية ، وربما كان غرضهم بذلك التطرق إلى لعنة غيره ، فكره أكثر أهل السنة لعنة أحد بعينه، فسمع بذلك قوم ممن كان يتسنن ، فاعتقد أن يزيد كان من كبار الصالحين وأئمة الهدى ، وصار الغلاة فيه على طرفى نقيض ، هؤلاء يقولون أنه كافر زنديق وأنه قتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقتل الأنصار وأبناءهم بالحرة ليأخذ بثأر أهل بيته الذين قتلوا كفاراً ، مثل جده لأمه عتبة بن ربيعة، وخاله الوليد وغيرهما ، ويذكرون عنه من الاشتهار بشرب الخمر واظهار الفواحش أشياء ، وأقوام يعتقدون أنه كان إماما عادلا هادياً مهديا ، وأنه كان من الصحابة أو أكابر الصحابة ، وأنه كان من أولياء الله تعالى ، وربما اعتقد بعضهم أنه كان من الأنبياء ويقولون : من وقف فى يزيد وقفه الله على نار جهنم ، ويروون عن الشيخ حسن بن عدى : أنه كان كذا وكذا ولياً وقفوا على النار لقولهم فى يزيد ، وفى زمن الشيخ حسن زادوا أشياء باطلة نظماً ونثراً ، وغلوا فى الشيخ عدى وفى يزيد بأشياء مخالفة لما كان عليه الشيخ عدى الكبير قدس الله روحه ، فان طريقته كانت سليمة لم يكن فيها من هذه البدع ، وابتلوا بروافض عادوهم وقتلوا الشيخ حسنا ، وجرت فتن لا يحبها الله ولا رسوله .

وهذا الغلو فى يزيد من الطرفين، خلاف لما أجمع عليه أهل العلم بالايمان.

فان يزيد بن معاوية ولد فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ولم يدرك النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا كان من الصحابة باتفاق العلماء ، ولا كان من المشهورين بالدين والصلاح وكان من شبان المسلمين ، ولا كان كافراً ولا زنديقاً ، وتولى بعد أبيه على كراهة من بعض المسلمين ، ورضا من بعضهم ، وكان فيه شجاعة وكرم ، ولم يكن مظهراً للفواحش كما يحكى عنه خصومه .

وجرت فى إمارته أمور عظيمة ، أحدها مقتل الحسين رضى الله عنه ، وهو لم يأمر بقتل الحسين ، ولا أظهر الفرح بقتله ، ولا نكت بالقضيب على ثناياه رضى الله عنه ، ولا حمل رأس الحسين رضى الله عنه إلى الشام ، لكن أمر بمنع الحسين رضى الله عنه وبدفعه عن الأمر ، ولو كان بقتاله فزاد النواب على أمره ، وحض الشمر ذى الجيوش على قتله لعبيد الله بن زياد فاعتدى عليه عبيد الله بن زياد ، فطلب منهم الحسين رضى الله عنه أن يجيء إلى يزيد ، أو يذهب إلى الثغر مرابطاً ، أو يعود إلى مكة . فمنعوه رضى الله عنه إلا ان يستأسر لهم ، وأمر عمر بن سعد بقتاله فقتلوه مظلوماً له ولطائفة من أهل بيته رضى الله عنهم .

وكان قتله رضى الله عنه من المصائب العظيمة ، فان قتل الحسين وقتل عثمان قبله كانا من أعظم أسباب الفتن فى هذه الأمة ، وقتلتهما من شرار الخلق عند الله ، ولما قدم أهلهم رضى الله عنهم على يزيد بن معاوية ، أكرمهم وسيرهم إلى المدينة ، وروى عنه أنه لعن زياداً على قتله وقال : كنت أرضى من طاعة أهل العراق بدون قتل الحسين ، لكنه مع هذا لم يظهر منه إنكار قتله والانتصار له والأخذ بثأره ، كان هو الواجب عليه ، فصار أهل الحق

يلومونه على تركه للواجب ، مضافا إلى أمور أخرى وأما خصومه فيزيدون عليه من الفرية أشياء .

وأما الأمر الثانى : فان أهل المدينة النبوية نقضوا بيعته وأخرجوا نوابه وأهله ، فبعث إليهم جيشاً وأمره إذا لم يطيعوه بعد ثلاث أن يدخلها بالسيف ويبيحها ثلاثاً ، فصار عسكره فى المدينة النبوية ثلاثاً يقتلون وينهبون ويفتضون الفروج المحرمة ، ثم أرسل جيشاً إلى مكة المشرفة فحاصروا مكة . وتوفى يزيد وهم محاصرون مكة ، وهذا من العدوان والظلم الذى فعل بأمره .

ولهذا كان الذى عليه مقتصد أهل السنة وأئمة الأمة أنه لا يسب ولا يحب. قال صالح بن أحمد بن حنبل : قلت لأبى إن قوما يقولون : أنهم يحبون يزيد . قال : يابنى وهل يحب يزيد أحد يؤمن بالله واليوم الآخر .فقلت : يا أبتى فلماذا لا تلعنه.قال : يابنى ومتى رأيت أباك يلعن أحداً .

وروى عنه : قيل له تكتب الحديث عن يزيد بن معاوية . فقال : لا . ولا كرامة ، أو ليس هو الذى فعل بأهل المدينة مافعل .

فيزيد عند علماء أئمة المسلمين ملك من الملوك ، لايحبونه محبة الصالحين وأولياء الله ، ولا يسبونه فانهم لايحبون لعنة المسلم المعين لما روى البخارى فى صحيحه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « أن رجلا كان يدعى حماراً وكان يكثر شرب الخمر وكان كلما أتى به إلى النبى صلى الله عليه وسلم ضربه فقال رجل لعنه الله ما أكثر مايؤتى به إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا تلعنه فانه يحب الله ورسوله » .

ومع هذا فطائفة من أهل السنة يجيزون لعنته ، لأنهم يعتقدون أنه فعل من الظلم مايجوز لعنة فاعله ، وطائفة أخرى ترى محبته لأنه مسلم تولى على عهد الصحابة وبايعه الصحابة ، ويقولون لم يصح عنه ما نقل عنه وكانت له محاسن ، ولم يصح عنه مانقل عنه أو كان مجتهداً فيما فعله .

والصواب هو ماعليه الأئمة ، من أنه لم يخص بمحبة ولايلعن ، ومع هذا فان كان فاسقاً أو ظالماً فالله يغفر للفاسق والظالم لاسيما إذا أتى بحسنات عظيمة .

وقد روى البخارى فى صحيحه عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور له » وأول جيش غزاها كان أميرهم يزيد بن معاوية ، وكان معه أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه .

وقد يشتبه يزيد بن معاوية بعمه يزيد بن أبى سفيان ، فان يزيد ابن أبى سفيان كان من الصحابة ، وكان من خيار الصحابة وهو خير آل حرب وكان أحد أمراء الشام الذين بعثهم أبو بكر رضى الله عنه فى فتوح الشام ، ومشى أبو بكر فى ركابه يوصيه مشيعاً له . فقال له : ياخليفة رسول الله إما أن تركب وإما أن أنزل . فقال : لست براكب ولست بنازل إنى أحتسب خطاى هذه فى سبيل الله ، فلما توفى بعد فتوح الشام فى خلافة عمر ، ولى عمر رضى الله عنه مكانه أخاه معاوية ، وولد له يزيد فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وأقام معاوية بالشام إلى أن وقع ماوقع .

فالواجب الاقتصار فى ذلك ، والاعراض عن ذكر يزيد بن معاوية وامتحان المسلمين به ، فان هذا من البدع المخالفة لأهل السنة والجماعة ، فانه بسبب ذلك اعتقد قوم من الجهال أن يزيد بن معاوية من الصحابة ، وأنه من أكابر الصالحين وأئمة العدل وهو خطأ بين .

فصل — وكذلك التفريق بين الأمة وامتحانها بما لم يأمر الله به ولارسوله، مثل أن يقال للرجل أنت شكيلى أو قرفندى ، فان هذه أسماء باطلة ما أنزل الله بها من سلطان ، وليس فى كتاب الله ولا سنة رسوله ولافى الآثار المعروفة عن سلف الأئمة لاشكيلى ولاقرفندى ، والواجب على المسلم إذا سئل عن ذلك أن يقول : لاأنا شكيلى ولاقرفندى بل أنا مسلم متبع لكتاب الله وسنة رسوله .

وقد روينا عن معاوية بن أبى سفيان أنه سأل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فقال: أنت على ملة على أو ملة عثمان. فقال : لست على ملة على ولا على ملة عثمان بل أنا على ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك كان كل من السلف يقولون : كل هذه الأهواء فى النار . ويقول أحدهم : ما أبالى أى النعمتين أعظم على أن هدانى الله للاسلام ، أوأن جنبنى هذه الأهواء والله تعالى قد سمانا فى القرآن المسلمين المؤمنين عباد الله ، فلا نعدل عن الأسماء التى سمانا الله بها إلى أسماء أحدثها قوم وسموها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان .

بل الأسماء التى قد يسوغ التسمى بها مثل : انتساب الناس إلى إمام كالحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى ، أو إلى شيخ كالقادرى والعدوى

ونحوهم ، أو مثل الانتساب إلى القبائل كالقيسى واليمانى ، وإلى الأمصار كالشامى والعراقى والمصرى .

فلايجوز لأحد أن يمتحن الناس بها ، ولا يوالى بهذه الأسماء ، ولا يعادى عليها ، بل أكرم الخلق عند الله أتقاهم من أى طائفة كان .

وأولياء الله الذين هم أولياؤه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ، فقد أخبر سبحانه أن أولياءه هم المؤمنون المتقون وقد بين المتقين فى قوله تعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) والتقوى هى فعل ما أمر الله به ، وترك ما نهى الله عنه .

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن حال أولياء الله ، وما صاروا به أولياء ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تبارك وتعالى من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ولايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش ولأن سألنى لأعطينه ولان استعاذ بى لأعيذنه وما ترددت عن شىء أنا

فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره المـــوت وأكره مساءته ولابد له منه .

فقدذكر فى هذا الحديث أن التقرب إلى الله تعالى على درجتين : إحداهما: التقرب إليه بالفرائض . والثانيـة : هى التقرب إلى الله بالنوافل بعـد أداء الفرائض . فالأولى : درجة المقتصدين الأبرار أصحاب اليمين . والثانية : درجة السابقين المؤمنين كما قال الله تعالى : (إن الأبرار لفى نعيم على الأرائك ينظرون تعرف فى وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيـق مختوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : يمزج لأصحاب اليمين مزجاً ، ويشربه المقربون صرفا .

وقد ذكر الله هذا المعنى فى عدة مواضع من كتابه ، فـكل من آمن بالله ورسوله ، واتقى الله فهو من أولياء الله .

والله سبحانه قد أوجب موالاة المؤمنين بعضهم لبعض ، وأوجب عليهم معاداة الـكافرين فقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم إن الله لايهدى القوم الظالمين فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين ويقـول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم

عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولايخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون) .

فقد أخبر سبحانه أن ولى المؤمن هو الله ورسوله وعباده والمؤمنين ، وهذا عام فى كل مؤمن موصوف بهذه الصفة ، سواء كان من أهل نسبة أو بلدة أو مذهب أو طريقة أو لم يكن . وقال الله تعالى : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) وقال تعالى : (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض — إلى قوله — والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم) وقال تعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا — إلى قوله تعالى — فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) .

وفى الصحاح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » وفى الصحاح أيضاً أنه قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً وشبك بين أصابعه » وفى الصحاح أيضاً أنه قال : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وقال

صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه » وأمثال هذه النصوص فى الكتاب والسنة كثيرة .

وقد جعل الله فيها عباده المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، وجعلهم أخوة وجعلهم متناصرين متراحمين متعاطفين ، وأمرهم سبحانه بالائتلاف ، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف فقال : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) .

وقال : (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله) الآية .

فكيف يجوز مع هذا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن تفترق وتختلف ، حتى يوالى الرجل طائفة ويعادى طائفة أخرى ، بالظن والهوى بلا برهان من الله تعالى ، وقد برأ الله نبيه صلى الله عليه وسلم ممن كان هكذا .

فهذا فعل أهل البدع ، كالخوارج الذين فارقوا جماعة المسلمين ، واستحلوا دماء من خالفهم .

وأما أهل السنة والجماعة فهم معتصمون بحبل الله ، وأقل ما فى ذلك أن يفضل الرجل من يوافقه على هواه وإن كان غيره أتقى لله منه .

وإنما الواجب أن يقدم من قدمه الله ورسوله ، ويوخر من أخره الله ورسوله ، ويحب ما أحبه الله ورسوله ، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله ، وينهى عما نهى الله عنه ورسوله ، وأن يرضى بما رضى الله به ورسوله ، وأن يكون المسلمون يداً واحدة ، فكيف إذا بلغ الأمر ببعض الناس إلى أن

يضلل غيره ويكفره ، وقد يكون الصواب معه وهو الموافق للكتاب والسنة ، ولو كان أخوه المسلم قد أخطأ فى شىء من أمور الدين فليس كل من أخطأ يكون كافراً ولا فاسقاً ، بل قد عفا الله لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وقد قال تعالى فى كتابه فى دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) وثبت فى الصحيح أن الله قال : قد فعلت .

لاسيما وقد يكون من يوافقكم فى أخص من الإسلام ، مثل أن يكون مثلكم على مذهب الشافعى ، أو منتسباً إلى الشيخ عدى ، ثم بعد هذا قد يخالف فى شىء وربما كان الصواب معه ، فكيف يستحل عرضه ودمه أوماله ، مع ما قد ذكر الله تعالى من حقوق المسلم والمؤمن .

وكيف يجوز التفريق من الأمة بأسماء مبتدعة لا أصل لها فى كتاب الله ، ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وهذا التفريق الذى حصل من الأمة علمائها ومشايخها وأمرائها وكبرائها ، هو الذى أوجب تسلط الأعداء عليها ، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله كما قال تعالى : (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء) .

فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به ، وقعت بينهم العداوة والبغضاء ، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا ، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا ، فان الجماعة رحمة والفرقة عذاب .

وجماع ذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كما قال تعالى : (يا أيها

الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا — إلى قوله — ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) .

فمن الأمر بالمعروف : الأمر بالائتلاف والاجتماع ، والنهى عن الاختلاف والفرقة ، ومن النهى عن المنكر : إقامة الحدود على من خرج من شريعة الله تعالى .

فمن اعتقد فى بشر أنه إله ، أو دعا ميتاً أو طلب منه الرزق والنصر والهداية وتوكل عليه أو سجد له فانه يستتاب فان تاب وإلا ضربت عنقه .

ومن فضل أحداً من المشايخ على النبى صلى الله عليه وسلم ، أو اعتقد أن أحداً يستغنى عن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم استتيب ، فان تاب وإلا ضربت عنقه .

وكذلك من اعتقد أن أحداً من أولياء الله يكون مع محمد صلى الله عليه وسلم ، كما كان الخضر مع موسى عليه السلام فانه يستتاب ، فان تاب وإلا ضربت عنقه ، لأن الخضر لم يكن من أمة موسى عليه السلام ، ولا كان يجب عليه طاعته ، بل قال له : إنى على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه ، وكان مبعوثا إلى بنى إسرائيل كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم : « وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » .

ومحمد صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى جميع الثقلين إنسهم وجنهم ، فمن اعتقد أنه يسوغ لأحد الخروج عن شريعته وطاعته فهو كافر يجب قتله .

وكذلك من كفر المسلمين أو استحل دماءهم وأموالهم ببدعة ابتدعها ، ليست فى كتاب الله ولا سنة رسوله ، فانه يجب عن ذلك ، وعقوبته بما يزجره ، ولو بالقتل أو القتال ، فانه إذا عوقب المعتقدون من جميع الطوائف ، وأكرم المتقون من جميع الطوائف ، كان ذلك من أعظم الأسباب التى ترضى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ويصلح أمر المسلمين ، ويجب على أولى الأمر وهم علماء كل طائفة وأمراؤها ومشايخها ، أن يقوموا عامتهم ويأمروهم بالمعروف ، وينهوهم عن المنكر ، فيأمرونهم بما أمر الله به ورسوله ، وينهونهم عما نهى الله عنه ورسوله صلى الله عليه وسلم .

فالأول مثل شرائع الإسلام . وهى الصلوات الخمس فى مواقيتها ، وإقامة الجمعة والجماعات من الواجبات والسنن الراتبات كالأعياد ، وصلاة الكسوف والاستسقاء والتراويح وصلاة الجنائز وغير ذلك ، وكذلك الصدقات المشروعة والصوم المشروع وحج البيت الحرام ، ومثل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والإيمان بالقدر خيره وشره ، ومثل الاحسان وهو أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ، ومثل سائر ما أمر الله به ورسوله من الأمور الباطنة والظاهرة ، ومثل إخلاص الدين لله والتوكل على الله . وأن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، والرجاء لرحمة الله والخشية من عذابه ، والصبر لحكم الله والتسليم لأمر الله ، ومثل صدق الحديث والوفاء بالعهود وأداء الأمانات إلى أهلها ، وبر الوالدين وصلة الأرحام ، والتعاون على البر والتقوى والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والصاحب والزوجة والمملوك ، والعدل فى المقال والفعال ثم الندب إلى مكارم الأخلاق مثل : أن تصل من قطعك

وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك قال الله تعالى : (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لايحب الظالمين ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) .

وأما المنكر الذى نهى الله عنه ورسوله فأعظمه الشرك بالله ، وهو أن يدعو مع الله إلها آخر اماالشمس واما القمر أو الكواكب ، أو ملكا من الملائكة ، أو نبياً من الأنبياء أو رجلا من الصالحين ، أو أحداً من الجن ، أو تماثيل هؤلاءأو قبورهم،أوغير ذالك مما يدعىمن دون اللهتعالىأو يستغاث به أو يسجد له ، فكل هذا وأشباهه من الشرك الذى حرمه الله على لسان جميع رسله .

وقد حرم الله قتل النفس بغير حقها ، وأكل أموال الناس بالباطل اما بالغصب واما بالربا ، أو الميسر كالبيوع والمعاملات التى نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك قطيعة الرحم ، وعقوق الوالدين ، وتطفيف المكيال والميزان ، والاثم والبغى بغير الحق .

وكذلك ما حرمه الله تعالى أن يقول الرجل على الله مالا يعلم ، مثل أن يروى عن الله ورسوله أحاديث يجزم بها وهو لا يعلم صحتها ، أو يصف الله بصفات لم ينزل بها كتاب من الله ، ولا اثارة من علم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سواء كانت من صفات النفى ، والتعطيل مثل قول الجهمية أنه ليس فوق العرش ولا فوق السموات ، وأنه لايرى فى الآخرة ، وأنه لايتكلم

ولا يحب ، ونحو ذلك مما كذبوا به الله ورسوله أو كانت من صفات الاثبات والتمثيل مثل من يزعم أنه يمشى فى الأرض ، أو يجالس الخلق أو أنهم يرون بأعينهم أو أن السموات تحويه وتحيط به أو أنه سار فى مخلوقاته إلى غير ذلك من أنواع الفرية على الله .

وكذلك العبادات المبتدعة التى لم يشرعها الله ورسوله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) فان الله شرع لعباده المؤمنين عبادات ، فأحدث لهم الشيطان عبادات ضاهاها بها مثل : أنه شرع لهم عبادة الله وحده لاشريك له ، فشرع لهم شركاء وهى عبادة ما سواه والاشراك به ، وشرع لهم الصلوات الخمس وقراءة القرآن فيها والاستماع له ، والاجتماع لسماع القرآن خارج الصلاة أيضاً ، فأول سورة أنزلها على نبيه صلى الله عليه وسلم : (اقرأ باسم ربك الذى خلق) أمر فى أولها بالقراءة وفى آخرها بالسجود بقوله تعالى : (فاسجد واقترب).

ولهذا كان أعظم الأذكار التى فى الصلاة: قراءة القرآن . وأعظم الأفعال : السجود لله وحده لا شريك له وقال تعالى : (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) وقال تعالى : (وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ والباقى يستمعون ، وكان عمر بن الخطاب يقول لأبى موسى رضى الله عنهما : ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يستمعون ، ومر النبى صلى الله عليه وسلم بأبى موسى رضى الله عنه وهو يقرأ فجعل يستمع لقراءته فقال : يا أبا موسى

مررت بك البارحة فجعلت استمع لقراءتك . فقال : لو علمت لحبرته لك تحبيراً ، وقال : لله أشد أذنا — أى استماعا — إلى الرجل يحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته .

وهذا هو سماع المؤمنين وسلف الأمة وأكابر المشايخ كمعروف الكرخى والفضيل بن عياض وأبى سليمان الدارانى ونحوهم ، وهو سماع المشايخ المتأخرين الأكابر كالشيخ عبد القادر والشيخ عدى بن مسافر والشيخ أبى مدين وغيرهم من المشايخ رحمهم الله ، وأما المشركون فكان سماعهم كما ذكره الله تعالى فى كتابه بقوله تعالى : (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) .

قال السلف : المكاء : الصفير . والتصدية : التصفيق باليد . فكان المشركون يجتمعون فى المسجد الحرام يصفقون ويصوتون ، يتخذون ذلك عبادة وصلاة ، فذمهم الله على ذلك وجعل ذلك من الباطل الذى نهى عنه .

فمن اتخذ نظير هذا السماع ، عبادة وقربة يتقرب بها إلى الله ، فقد ضاها هؤلاء فى بعض أمورهم ، وكذلك لم تفعله القرون الثلاثة التى أثنى عليها النبى صلى الله عليه وسلم ولا فعله أكابر المشايخ .

وأما سماع الغناء على وجه اللعب ، فهذا من خصوصية الأفراح للنساء والصبيان كما جاءت به الآثار ، فان دين الاسلام واسع لا حرج فيه .

وعماد الدين الذى لا يقوم إلا به ، هو الصلوات الخمس المكتوبات ، ويجب على المسلمين من الاعتناء بها مالا يجب من الاعتناء بغيرها .

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يكتب إلى عماله : أن أهم أمركم عندى

الصلاة ، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة .

وهى أول ما أوجبه الله من العبادات ، والصــلوات الخمس تولى الله ايجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج ، وهى آخر ما وصى به النبي صلى الله عليه وسلم أمته وقت فراق الدنيا جعل يقول: « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم» وهى أول ما يحاسب عليه العبد من عمله ، وآخر ما يفقد من الدين ، فاذا ذهبت ذهب الدين كله ، وهى عمود الدين فمتى ذهبت سقط الدين .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « رأس الأمر الاسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله » وقد قال الله فى كتابه: (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا) .

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه وغيره: اضاعتها: تأخيرها عن وقتها ولو تركوها كانوا كفاراً وقال تعالى : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) والمحافظة عليها : فعلها فى أوقاتها وقال تعالى : (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) وهم الذين يؤخرونها حتى يخرج الوقت .

وقد اتفق المسلمون على أنه لا يجوز تأخير صلاة النهار إلى الليل ،ولا تأخير صلاة الليل إلى النهار ، لا لمسافر ولا لمريض ولا غيرهما ، لكن يجوز عند الحاجة أن يجمع المسلم بين صلاتى النهار ، وهى الظهر والعصر فى وقت إحداهما ، ويجمع بين صلاتى الليل وهى المغرب والعشاء فى وقت احداهما وذلك لمثل المسافر والمريض ، وعند المطر ونحو ذلك من الأعذار .

وقد أوجب الله على المسلمين أن يصلوا بحسب طاقتهم كما قال الله تعالى : (اتقوا الله ما استطعتم) فعلى الرجل أن يصلى بطهارة كاملة ، وقراءة كاملة ، وركوع وسجود كامل ، فان كان عادما للماء ، أو يتضرر باستعماله لمرض أو برد أو غير ذلك ، وهو محدث أو جنب يتيمم الصعيد الطيب ، وهو التراب يمسح به وجهه ويديه ، ويصلى ولا يؤخرها عن وقتها باتفاق العلماء.

وكذلك إذا كان محبوساً أو مقيداً أو زمناً أو غير ذلك صلى على حسب حاله، وإذا كان بإزاء عدوه صلى أيضاً صلاة الخوف قال الله تعالى : (وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك - إلى قوله - وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم - إلى قوله - فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) .

ويجب على أهل القدرة من المسلمين أن يأمروا بالصلاة كل أحد من الرجال والنساء حتى الصبيان .

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم على تركها لعشر وفرقوا بينهم فى المضاجع » .

والرجل البالغ إذا امتنع من صلاة واحدة من الصلوات الخمس ، أو ترك بعض فرائضها المتفق عليها فانه يستتاب ، فان تاب وإلا قتل .

فمن العلماء من يقول : يكون مرتداً كافراً لا يصلى عليه ولا يدفن

بين المسلمين ، ومنهم من يقول يكون كقاطع الطريق وقاتل النفس والزانى المحصن ، وأمر الصلاة عظيم شأنها أن تذكر هنا ، فانها قوام الدين وعماده وتعظيمه تعالى لها فى كتابه فوق جميع العبادات، فانه سبحانه يخصها بالذكر تارة ويقرنها بالزكاة تارة ، وبالصبر تارة ، وبالنسك تارة كقوله تعالى: (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وقوله : (واستعينوا بالصبر والصلاة) وقوله: (فصل لربك وانحر) وقوله: (ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) وتارة يفتتح بها أعمال البر ويختمها بها كما ذكره فى سورة سأل سائل ، وفى أول سورة المؤمنين قال تعالى : (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) .

نسأل الله العظيم : أن يجعلنا وإياكم من الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا .

تمت الرسالة السابعة

ويليها الرسالة الثامنة : الإرادة والأمر

الرسالة الثامنة

الإرادة والأمر

بسم الله الرحمن الرحيم

سؤال ورد على الشيخ تقى الدين رضى الله عنه من الديار المصرية ، فى شوال سنة أربع عشرة وسبعمائة ، فى حسن إرادة الله تعالى لخلق الخلق وانشاء الأنام ، وهل يخلق لعلة أو لغير علة ، فإن قيل لا لعلة فهو عبث تعالى الله عنه ، وإن قيل لعلة فان قلتم انها لم تزل لزم أن يكون المعلول لم يزل ، وإن قلتم أنها محدثة لزم أن يكون لها علة والتسلسل محال .

الجواب : الحمد لله رب العالمين . هذه المسألة من أجل المسائل الكبار التى تكلم فيها الناس وأعظمها شعوباً وفروعاً ، وأكثرها شبهاً ومحارات فان لها تعلقاً بصفات الله تعالى وأسمائه وأفعاله وأحكامه ، من الأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، وهى داخلة فى خلقه وأمره ، فكل مافى الوجود متعلق بهذه المسألة فان المخلوقات جميعها متعلقة بها ؛ وهى متعلقة بالخالق سبحانه ، وكذلك الشرائع كلها : الأمر والنهى ، والوعد والوعيد متعلق بها ، وهى متعلقة بمسائل القدر والأمر ، ومسائل الصفات والأفعال ، وهذه جوامع علوم الناس ، فعلم الفقه هو الأمر والنهى .

وقد تكلم الناس فى تعليل الأحكام الشرعية والأمر والنهى ، كالأمر بالتوحيد والصدق والعدل والصلاة والزكاة والصيام والحج ، والنهى عن الشرك والكذب والظلم والفواحش ، هل أمر بذلك لحكمة ومصلحة وعلة اقتضت ذلك ، أم ذلك لمحض المشيئة وصرف الارادة ، وهل علل الشرع بمعنى الداعى والباعث ، أو بمعنى الأمارة والعلامة .

وهل يسوغ فى الحكمة أن ينهى الله عن التوحيد والصدق والعدل ، ويأمر بالشرك والكذب والظلم أم لا .

وتكلم الناس فى تنزيه الله تعالى عن الظلم ، هل هو منزه عنه مع قدرته عليه ، أم الظلم ممتنع لنفسه لا يمكن وقوعه ، وتكلموا فى محبة الله ورضاه ، وغضبه وسخطه ، هل هو بمعنى إرادته وهو الثواب والعقاب المخلوق ، أم هذه صفات أخص من الارادة .

وتنازعوا فيما وقع فى الأرض من الكفر والفسوق والعصيان ، هل يريده ويحبه ويرضاه كما يريد ويحب سائر ما يحدث ، أم هو واقع بدون قدرته ومشيئته وهو لا يقدر أن يهدى ضالا ولا يضل مهتدياً ، أم هو واقع بقدرته ومشيئته ولا يكون فى ملكه ما لا يريد ، وله فى جميع خلقه حكمة بالغة وهو يبغضه ويكرهه ويمقت فاعله ، ولا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يريده الارادة الدينية المتضمنة لمحبته ورضاه ، وإن إرادة الارادة الكونية التى تتناول ما قدره وقضاه ، وفروع هذه المسألة كثيرة ولأجل تجاذب الأصل ووقوع الاشتباه فيه صار الناس فيه إلى التقديرات الثلاثة المذكورة فى سؤال السائل ، وكل تقدير قال به طوائف من بنى آدم من المسلمين وغير المسلمين .

﴿فالتقدير الأول﴾ هو قول من يقول : خلق المخلوقات وأمر بالمأمورات لا لعلة ولا لداع ولا باعث ، بل فعل ذلك لمحض المشيئة وصرف الارادة ، وهذا قول كثير ممن يثبت القدر وينتسب إلى السنة من أهل الكلام والفقه وغيرهم ، وقد قال بهذا طوائف من أصحاب مالك والشافعى وأحمد وغيرهم

وهو قول الأشعرى وأصحابه وقول كثير من نفاة القياس الظاهرية كابن حزم وأمثاله .

ومن حجة هؤلاء أنه لو خلق الخلق لعلة لكان ناقصاً بدونها مستكملا بها ، فانه إما أن يكون وجود تلك العلة وعدمها بالنسبة اليه سواء، أويكون وجودها أولى به ، فان كان الأول امتنع أن يفعل لأجلها ، وإن كان الثانى ثبت أن وجودها أولى به فيكون مستكملا بها فيكون قبلها ناقصاً .

ومن حجتهم ما ذكره السائل من أن العلة إن كانت قديمة وجب قدم المعلول لأن العلة الغائية وإن كانت متقدمة على المعلول فى العلم والقصد كما يقال : أول الفكرة آخر العمل وأول البغية آخر الدرك ويقال : إن العلة الغائية بها صار الفاعل فاعلا ،فلا ريب أنها متأخرة فى الوجود عن العمل ، فمن فعل فعلا لمطلوب يطلبه بذلك الفعل كان حصول المطلوب بعد الفعل ، فاذا قدر أن ذلك المطلوب الذى هو العلة قديماً كان الفعل قديما بطريق الأولى ﴿ فلو قيل ﴾:انه يفعل لعلة قديمة لزم أن لا يحدث شىء من الحوادث وهوخلاف المشاهدة ،وإن قيل أنه فعل لعلة حادثة لزم محذوران أحدهما أن يكون محلا للحوادث فان العلة إذا كانت منفصلة عنه فان لم يعد اليه منها حكم امتنع أن يكون وجودها أولى به من عدمها ، وإذا قدر أنه عاد اليه منها حكم كان ذلك حادثا ، فيقوم به الحوادث ، والمحذور الثانى : أن ذلك يستلزم التسلسل من وجهين : أحدهما : أن تلك العلة الحادثة المطلوبة بالفعل ، هى أيضا مما يحدثه الله تعالى بقدرته ومشيئته ، فان كانت لغير علة لزم العبث كما تقدم ،وإن كان لعلة عاد التقسيم فيها ، فإذا كان كلما أحدثه أحدثه لعلة والعلة مما

أحدثه ، لزم تسلسل الحوادث . الثانى : أن تلك العلة إما أن تكون مرادة لنفسها أو لعلة أخرى ، فان كانت مرادة لنفسها امتنع حدوثها لأن ما أراده الله تعالى لذاته وهو قادر عليه لا يؤخر إحداثه ، وإن كانت مرادة لغيرها، فالقول فى ذلك الغير كالقول فيها، ويلزم التسلسل ، وهذاونحوه من حجج من ينفى تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه .

والتقدير الثانى : قول من يجعل العلة الغائية قديمة كما يجعل العلة الفاعلية قديمة ، كما يقول ذلك طوائف من المسلمين ، كما سيأتى بيانه كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة القائلين بقدم العالم ، وهؤلاء أصل قولهم إن المبدع للعالم علة تامة تستلزم معلولها لايجوز أن يتأخر عنها معلولها ، وأعظم حججهم قولهم: إن جميع الأمور المعتبرة فى كونه فاعلا إن كانت موجودة فى الأزل لزم وجود المفعول فى الأزل ، لأن العلة التامة لايتأخر عنها معلولها ، فانه لو تأخر لم تكن جميع شروط الفعل وجدت فى الأزل ، فانا لانعنى بالعلة التامة إلا ما يستلزم المعلول فإذا قدر أنه تخلف عنها المعلول لم تكن تامة ، وإن لم تكن العلة التامة التى هى جميع الأمور المعتبرة فى الفعل وهى المقتضى التام لوجود الفعل ، وهى جميع شروط الفعل التى يلزم من وجودها وجود الفعل ، وإن لم يكن جميعها فى الأزل فلابد إذا وجد المفعول بعد ذلك من تجدد سبب ، وإلالزم ترجيح أحد طرفى الممكن بلا مرجح ، وإذا كان هناك سبب حادث فالقول فى حدوثه كالقول فى الحادث الأول ، ويلزم التسلسل قالوا: فالقول بانتفاء العلة التامة المستلزمة للمفعول يوجب إما التسلسل وإما الترجيح بلا مرجح .

ثم أكثر هؤلاء يثبتون علة غائية للفعل ، وهى بعينها الفاعلة لكونهم متناقضين فإنهم يثبتون له العلة الغائية ويثبتون لفعله العلة الغائية ، ويقولون مع هذا ليس له إرادة بل هو موجب بالذات لافاعل بالاختيار .

وقولهم باطل من وجوه كثيرة . منها أن يقال: هذا القول يستلزم أن لايحدث شيء ، وإن كان كلما حدث حدث بغير إحداث محدث، ومعلوم ان بطلان هذا بين من بطلان التسلسل وبطلان الترجيح بلامرجح ، وذلك ان العلة التامة المستلزمة لمعلولها يقترن بها معلولها ، ولايجوز أن يتأخر عنها شيء من معلولها، فكل ماحدث من الحوادث لايجوز أن يحدث عن هذه العلة التامة، وليس هناك ما يصدر عنه الممكنات سوى الواجب بنفسه الذى سماه هؤلاء علة تامة ، فإذا امتنع صدور الحوادث عنه وليس هناك مايحدثها غيره لزم أن يحدث بلا محدث ، وأيضاً فلو قدر أن غيره أحدثها ، فان كان واجباً بنفسه كان القول فيه كالقول فى الواجب الاول ، وأصل قولهم ان الواجب بنفسه علة تامة تستلزم مقارنة معلوله له ، فلا يجوز أن يصدر على قولهم عن العلة التامة حادث لابواسطة ولا بغير واسطة ، لأن تلك الواسطة إن كانت من لوازم وجود كانت قديمة معه فامتنع صدور الحوادث عنها وان كانت حادثة كان القول فيها كالقول فى غيرها ، وان قدر ان المحدث لحوادث غير واجب بنفسه ، كان ممكنا مفتقراً إلى موجب يجب به ، ثم إن قيل انه محدث كان من الحوادث ، وإن قيل أنه قديم كان له علة تامة مستلزمة له وامتنع حينئذ حدوث الحوادث عنه ، فان الممكن لايوجد هو ولا شيء من صفاته وأفعاله إلاعن الواجب بنفسه فاذاقدر حدوث الحوادث عن ممكن قديم معلول لعلة قديمة قيل : هل حدث فيه سبب يقتضى الحدوث أم لا فان قيل

لم يحدث سبب لزم الترجيح بلا مرجح وإن قيل حدث سبب لزم التسلسل كما تقدم .

الوجه الثانى: الذى يبين بطلان قولهم أن يقال مضمون الحجة أنه إذا لم يكن ثم علة قديمة لزم التسلسل أو الترجيح بلا مرجح والتسلسل عندكم جائز، فإن أصل قولهم ان هذه الحوادث متسلسلة شيأ بعد شيء ، وان حركات الفلك توجب استعداد القوابل لأن تفيض عليها الصور الحادثة من العلة القديمة ، سواء قلتم هى العقل الفعال أو هى الواجب الذى يصدر عنه بتوسط العقول أو غير ذلك من الوسائط ، وإذا كان التسلسل جائز عندكم لم يمتنع حدوث الحوادث من غير علة موجبة للمعلول ، وإن لزم التسلسل بل هـذا خير فى الشرع والعقل من قولكم وذلك ان الشرع أخبر أن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام وهذا مما اتفق عليه الملل المسلمون واليهود والنصارى . فإن قيل: انه خلقها بسبب حادث قبل ذلك ، كان خيراً من قولهم: أنها قديمة أزلية معه فى الشرع ، وكان أولى فى العقل ، لأن العقل ليس فيه ما يدل على قدم هـذه الأفلاك ، حتى يعارض الشرع ، وهذه الحجة العقلية إنما تقتضى أنه لايحدث شيء إلا بسبب حادث ، فإذا قيل إن السموات والأرض خلقها الله تعالى بما حدث قبل ذلك ، لم يكن فى حجتكم العقلية ما يبطل هذا .

الوجه الثالث : أن يقال حدوث حادث بعد حادث بلا نهاية ، إما أن يكون ممكناً فى العقل أو ممتنعاً ، فإن كان ممتنعاً فى العقل لزم أن الحوادث جميعها لها أول كما يقول ذلك من يقوله من أهل الكلام وبطل قولهم بقدم

حركات الأفلاك ، وان كان محدثاً أمكن أن يكون حدوث ما أحدثه الله تعالى كالسموات والأرض موقوفاً على حوادث قبل ذلك كما تقولون أنتم فيما يحدث فى هذا العالم من الحيوان والنبات والمعادن والمطر والسحاب وغير ذلك فيلزم فساد حجتكم على التقديرين، ثم يقال إما أن تثبتوا لمبدع العالم حكمة وغاية مطلوبة، وإما أن لا تثبتوا، فان لم تثبتوا بطل قولكم بإثبات العلة الغائية وبطل ما تذكرونه من حكمة البارى تعالى فى خلق الحيوان وغير ذلك من المخلوقات وأيضاً فالوجود يبطل هذا القول ، فان الحكمة الموجودة فى الوجود أمر يفوق العد والإحصاء ، كاحداثه سبحانه لما يحدثه من نعمته ورحمته وقت حاجة الخلق إليه ، كاحداث المطر وقت الشتاء بقدر الحاجة وإحداثه للانسان الآلات التى يحتاج اليها بقدر حاجته ، وأمثال ذلك مما ليس هذا موضع بسطه، وإن أثبتم له حكمة مطلوبة وهى باصطلاحكم العلة الغائية لزمكم أن تثبتوا له المشيئة والإرادة بالضرورة ، فان القول بأن الفاعل فعل كذا لحكمة كذا بدون كونه مريداً لتلك الحكمة المطلوبة جمع بين النقيضين، وهؤلاء المتفلسفة من أكثر الناس تناقضاً ، ولهذا يجعلون العلم هو العالم ، والعلمَ هو الإرادة، والإرادة هى القدرة وأمثال ذلك .

وأما التقدير الثالث : وهو أنه فعل المفعولات وأمر بالمأمورات لحكمة محمودة فهذا قول أكثر الناس من المسلمين وغير المسلمين، وقول طوائف من أصحاب أبى حنيفة والشافعى ومالك وأحمد وغيرهم ، وقول طوائف من أهل الكلام من المعتزلة والكرامية والمرجئة وغيرهم ، وقول أكثر أهل الحديث والتصوف وأهل التفسير وأكثر قدماء الفلاسفة وكثير من متأخريهم كأبى البركات وأمثاله، لكن هؤلاء على أقوال : منهم من قال ان الحكمة المطلوبة

مخلوقة منفصلة عنه أيضاً كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة والشيعة ومن وافقهم وقالوا: الحكمة فى ذلك إحسانه إلى الخلق والحكمة فى الأمر تعريض المكلفين للثواب وقالوا : إن فعل الإحسان إلى الغير حسن محمود فى العقل فخلق الخلق لهذه الحكمة من غير أن يعود إليه من ذلك حكم ولاقام به فعل ولانعت فقال لهم الناس : أنتم متناقضون فى هذا القول لأن الإحسان إلى الغير محمود لكونه يعود منه على فاعله حكم يحمد لأجله ، إما لتكميل نفسه بذلك ، وإما لقصده الحمد والثواب بذلك ، وإما لرقة وألم يجده فى نفسه يدفع بذلك الإحسان الألم وإما لالتذاذه وسروره وفرحه بالإحسان، فان النفس الكريمة تفرح وتسر وتلتذ بالخير الذى يحصل منها إلى غيرها ، فالاحسان إلى الغير محمود لكون المحسن يعود إليه من فعله هذه الأمور، اما إذا قدر أن وجود الإحسان وعدمه بالنسبة إلى الفاعل سواء، لم يعلم أن مثل هذا الفعل يحسن منه ، بل مثل هذا يعد عبثاً فى عقول العقلاء، وكل من فعل فعلا ليس فيه لنفسه لذة ولا مصلحة ولامنفعة بوجه من الوجوه لاعاجلة ولا آجلة ، كان عبثاً ولم يكن محموداً على هذا وأنتم عللتم أفعاله فراراً من العبث فوقعتم فى العبث فان العبث هو الفعل الذى ليس فيه مصلحة ولامنفعة ولا فائدة تعود على الفاعل ، ولهذا لم يأمر الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من العقلاء أحداً بالإحسان إلى غيره ونفعه ونحو ذلك ، إلا لماله فى ذلك من المنفعة والمصلحة ، وإلا فأمر الفاعل بفعل لايعود إليه منه لذة ولا سرور ولا منفعة ولا فرح بوجه من الوجوه لافى العاجل ولافى الآجل لايستحسن من الآمر .

ونشأ من هذا الكلام نزاع بين المعتزلة وغيرهم ومن وافقهم فى مسألة

التحسين والتقبيح العقلي، فأثبت ذلك المعتزلة وغيرهم ومن وافقهم من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وأهل الحديث وغيرهم، وحكوا ذلك عن أبي حنيفة نفسه ونفى ذلك الأشعرية ومن وافقهم من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم ، واتفق الفريقان على أن الحسن والقبح إذا فسر بكون الفعل نافعاً للفاعل ملائماً له، وكونه ضاراً للفاعل منافراً له ، انه يمكن معرفته بالعقل كما يعرف بالشرع، وظن من ظن من هؤلاء أن الحسن والقبح المعلوم بالشرع خارج عن هذا وهذا ليس كذلك ، بل جميع الأفعال التي أوجبها الله تعالى وندب إليها ، هي نافعة لفاعليها ومصلحة لهم، وجميع الأفعال التي نهى الله عنها هي ضارة لفاعلها ومفسدة في حقهم، والثواب المترتب على طاعة الشارع نافع للفاعل ومصلحة له ، والذم والعقاب المترتب على معصيته ضار للفاعل ومفسدة له .

والمعتزلة أثبتت الحسن في أفعال الله تعالى ، لا بمعنى حكم يعود إليه من أفعاله ، ومنازعوهم لما اعتقدوا أن لا حسن ولا قبح إلا ما عاد إلى الفاعل منه حكم ، نفوا ذلك وقالوا : القبيح في حق الله تعالى هو الممتنع لذاته ، وكل ما يقدر ممكنا من الأفعال فهو حسن ، إذ لا فرق بالنسبة إليه عندهم بين مفعول ومفعول ، وأولئك أثبتوا حسناً وقبحاً لا يعود إلى الفاعل منه حكم يقوم بذاته ، إذ عندهم لا يقوم بذاته وصف ولا فعل ولا غير ذلك ، وإن كانوا قد يتناقضون ثم أخذوا يقيسون ذلك على ما يحسن من العبد ويقبح ، فجعلوا يوجبون على الله سبحانه ما يوجبون على العبد ، ويحرمون عليه من جنس ما يحرمون على العبد ، ويسمون ذلك العدل والحكمة ، مع قصور عقلهم عن معرفة حكمته ، فلا يثبتـــون له مشيئة عامة ولا قدرة تامة ،

فلا يجعلونه على كل شيء قديراً ، ولا يقولون ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا يقرون بأنه خالق كل شيء ، ويثبتون له من الظلم مانزه نفسه عنه سبحانه فانه قال : (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما) أى لايخاف أن يظلم فيحمل عليه من سيئات غيره ولا يهضم من حسناته وقال تعالى : (ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد) وقال صلى الله عليه وسلم فى حديث البطاقة الذى رواه الترمذى وغيره: « يجاء برجل من أمتى يوم القيامة فتنشر له تسعة وتسعون سجلا كل سجل مد البصر فيقال له هل تنكر من هذا شيئاً فيقول لا يارب فيقال له لاظلم عليك اليوم ويؤتى ببطاقة فيها شهادة أن لا إله إلا الله فتوضع البطاقة فى كفة والسجلات فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » فقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أنه لايظلم بل يثاب على ما أتى به من التوحيد كما قال تعالى : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

وجمهور هؤلاء الذين يسمون أنفسهم عدلية يقولون : من فعل كبيرة واحدة أحبطت جميع حسناته وخلد في نار جهنم ، فهذا الذى سماه الله ورسوله ظلماً ، يصفون الله به مع دعواهم تنزيهه عن الظلم ، ويسمون تخصيصه من يشاء برحمته وفضله وخلقه ما خلقه لما فيه من الحكمة البالغة ظلماً .

والكلام فى هذه الأمور مبسوط فى غير هذا الموضع ، لكن نبهنا على مجامع أصول الناس فى هذا المقام ، وهؤلاء المعتزلة ومن وافقهم من الشيعة يوجبون على الله سبحانه أنه يفعل بكل عبد ماهو الأصلح فى دينه ،

وتنازعوا فى وجوب الأصلح فى دنياه ، ومذهبهم أنه لا يقدر أن يفعل مع مخلوق من المصلحة الدينية غير مافعل ، ولا يقــــدر أن يهدى ضالا ولا يضل مهتدياً .

وأما سائر الطوائف الذين يقولون بالتعليل من الفقهاء وأهل الحديث والصوفية وأهل الكلام وغيرهم والمتفلسفة أيضاً فلا يوافقونهم على هذا ، بل يقولون : أنه يفعل مايفعل سبحانه لحكمة يعلمها وهو يعلم العباد أو بعض العباد من حكمته ما يطلعهم عليه وقد لا يعلمون ذلك ، والأمور العامة التى يفعلها تكون لحكمة عامة ورحمة عامة كإرساله محمداً صلى الله عليه وسلم فانه كما قال تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فان إرساله كان من أعظم النعمة على الخلق ، وفيه أعظم حكمة للخالق ورحمة منه لعباده ، كما قال تعالى : (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) وقال تعالى : (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) وقال تعالى : (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً) قالوا هو محمد صلى الله عليه وسلم .

فاذا قال القائل : فقد تضرر برسالته طائفة من الناس كالذين كذبوه من المشركين وأهل الكتاب .

كان عن هذا جوابان : أحدهما : أنه نفعهم بحسب الامكان ، فانه أضعف شرهم الذى كانوا يفعلونه لولا الرسالة باظهار الحجج والآيات التى زلزلت ما فى قلوبهم ، وبالجهاد والجزية التى أخافتهم وأذلتهم حتى قل شرهم ،

ومن قتله منهم مات قبل أن يطول عمره فى الكفر فيعظم كفره ، وكان ذلك تقليلا لشره ، والرسل صلوات الله عليهم بعثوا لتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان .

والجواب الثانى : أن ما حصل من الضرر أمر مغمور فى جنب ماحصل من النفع ، كالمطر الذى نفعه إذا خرب به بعض البيوت أو احتبس به بعض المسافرين والمكتسبين كالقصارين ونحوهم ، وما كان نفعه ومصلحته عامة كان خيراً مقصوداً ورحمة محبوبة ، وإن تضرر به بعض الناس ، وهذا الجواب أجاب به طوائف من المسلمين وأهل الكلام والفقه ، وغيرهم من الحنفية والحنبلية وغيرهم ، ومن الكرامية والصوفية وهو جواب كثير من المتفلسفة .

وقال هؤلاء: جميع ما يحدثه فى الوجود من الضرر فلا بد فيه من حكمة قال تعالى : (صنع الله الذى أتقن كل شىء) وقال : (الذى أحسن كل شىء خلقه) والضرر الذى يحصل به حكمة مطلوبة لا يكون شراً مطلقا ، وان كان شراً بالنسبة إلى من تضرر به .

ولهذا لا يجىء فى كلام الله تعالى ، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم إضافة الشر وحده إلى الله ، بل لا يذكر الشر إلا على أحد وجوه ثلاثة : إما أن يدخل فى عموم المخلوقات ، فانه إذا دخل فى العموم أفاد عموم القدرة والمشيئة والخلق ، وتضمن ما اشتمل عليه من حكمة تتعلق بالعموم ، واما أن يضاف إلى السبب الفاعل ، وإما أن يحذف فاعله فالأول كقوله تعالى : (الله خالق كل شىء) ونحو ذلك .

ومن هذا الباب : اسماء الله المقترنة كالمعطى المانع ، والضار النافع ، المعز المذل ، الخافض الرافع . فلا يفرد الاسم المانع عن قرينه ، ولا الضار عن قرينه، لأن اقترانها يدل على العموم ، وكل مافى الوجود من رحمة ونفع ومصلحة فهو من فضله تعالى ، ومافى الوجود من غير ذلك فمن عدله ، فكل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل . كما فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فانه لم يغض مافى يمينه والقسط بيده الأخرى يخفض ويرفع » فأخبر أن يده اليمنى فيها الاحسان إلى الخلق ، ويده الأخرى فيها العدل والميزان الذى به يخفض ويرفع ، فخفضه ورفعه من عدله وإحسانه إلى خلقه من فضله .

وأما حذف الفاعل فمثل قول الجن : (وانا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) وقوله تعالى : (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) ونحو ذلك .

وإضافته إلى السبب كقوله : (من شر ماخلق) وقوله : (فأردت أن أعيبها) مع قوله : (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما) وقوله تعالى : (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وقوله : (ربنا ظلمنا أنفسنا) وقوله تعالى : (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم) وأمثال ذلك .

ولهذا ليس فى أسماء الله الحسنى اسم يتضمن الشر ، وإنما يذكر الشر فى مفعولاته كقوله : (نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو

العذاب الأليم) وقوله : (ان ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم) وقوله : (اعلموا أن الله شديد العقاب) الآية وقوله : (ان بطش ربك لشديد انه هو يبدىء ويعيد وهو الغفور الودود) فبين سبحانه ان بطشه شديد ، وأنه هو الغفور الودود .

واسم المنتقم ليس من أسماء الله الحسنى الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم وإنما جاء فى القرآن مقيدا كقوله تعالى : (إنا من المجرمين منتقمون) وقوله (إن الله عزيز ذو انتقام) والحديث الذى فى عدد الأسماء الحسنى الذى يذكر فيه المنتقم ، ، وذكر فى سياقه البر التواب المنتقم العفو الرؤوف ، ليس هو عند أهل المعرفة بالحديث ، من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، بل هذا ذكره الوليد بن مسلم عن بعض شيوخه ، ولهذا لم يروه أحـــد من أهل الكتب المشهورة إلا الترمذى ، رواه من طريق الوليد بن مسلم بسياق ، ورواه غيره باختلاف فى الأسماء وفى ترتيبها يبين أنه ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وسائر من روى هذا الحديث عن أبى هريرة ثم عن الأعرج ثم عن أبى الزناد، لم يذكروا أعيان الأسماء ، بل ذكروا قوله صلى الله عليه وسلم: «ان لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة » وهكذا أخرجه أهل الصحيح كالبخارى ومسلم وغيرهما ، ولكن روى عدد الأسماء من طريق أخرى من حديث محمد بن سيرين عن أبى هريرة ورواه ابن ماجه واسناده ضعيف ، يعلم أهل الحديث أنه ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وليس فى عدد الأسماء عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا هذان الحديثان كلاهما مرويان من طريق أبى هريرة ، وهذا مبسوط فى موضعه .

والمقصود هنا التنبيه على أصول تقع فى معرفة هذه المسألة فان نفوس بنى آدم لا تزال يجول فيها من هذه المسألة أمر عظيم .

وإذ علم العبد من حيث الجملة أن لله فيما خلقه وما أمر به حكمة عظيمة كفاه هذا ، ثم كلما ازداد علماً وإيماناً ظهر له من حكمة الله ورحمته ما يبهر عقله ويبين له تصديق ما أخبر الله به فى كتابه حيث قال : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) فانه صلى الله عليه وسلم قال فى الحديث الصحيح : « لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها » وفى الصحيحين عنه أنه قال : « إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة فبها يتراحم الخلق حتى ان الدابة لترفع حافرها عن ولدها من تلك الرحمة واحتبس عنده تسعة وتسعين رحمة فاذا كان يوم القيامة جمع هذه إلى تلك فرحم بها عباده » أو كما قال .

ثم هؤلاء الجمهور من المسلمين وغيرهم ، كأئمة المذاهب الأربعة وغيرهم من السلف والعلماء الذين يثبتون حكمة فلا ينفونها كما نفاها الأشعرية ونحوهم الذين يثبتون إرادة بلا حكمة ، ومشيئة بلا رحمة ، ولا محبة ولا رضا ، وجعلوا جميع المخلوقات بالنسبة اليه سواء لا يفرقون بين الارادة والمحبة والرضا ، بل ما وقع من الكفر والفسوق والعصيان قالوا : أنه يحبه ويرضاه كما يريده ، وإذا قالوا لا يحبه ولا يرضاه ديناً قالوا : انه لا يريده ديناً ، وما لم يقع من الايمان والتقوى فانه لا يحبه ولا يرضاه عندهم كما لا يريده وقد قال تعالى : (إذ يبيتون مالا يرضى من القول) فأخبر أنه لا يرضاه مع أنه قدره وقضاه ، ولا يوافقون المعتزلة على إنكار قدر الله تعالى وعموم خلقه ومشيئته وقدرته

ولا يشبهونه بخلقه فيما يجب ويحرم كما فعل هؤلاء ، ولا يسلبونه ما وصف به نفسه من صفاته وأفعاله ، بل أثبتوا له ما أثبته لنفسه من الصفات والأفعال ونزهوه عما نزه نفسه من الصفات والأفعال وقالوا : ان الله خالق كل شيء ومليكه وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وهو على كل شيء قدير ، وهو يحب المحسنين والمتقين ويرضى عن السابقين الاولين من المهاجـــرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان ، ولا يرضى لعباده الكفر ولا يرضى بالقول المخالف لأمر الله ورسوله وقالوا : مع أنه خالق كل شيء وربه ومليكه ، فقد فرق بين المخلوقات أعيانها وأفعالها كما قال تعالى : (أفنجعل المسلمين كالمجرمين) وكما قال : (أم حسب الذين اجترحوا السيآت أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) وقال تعالى : (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعل المتقين كالفجار) وقال : (وما يســـتوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل والحرور وما يستوى الاحياء ولا الاموات) وأمثال ذلك مما يبين الفرق بين المخلوقات وانقسام الخلق الى شقى وسعيد كما قال تعالى : (هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) وقال تعالى : (فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة) وقال تعالى : (يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما) وقال تعالى : (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون) ونظائر هذا فى القرآن كثير .

وينبغى أن يعلم أن هذا المقام زل فيه طوائف من أهل الكلام والتصوف وصاروا فيه إلى ماهو شر من قول المعتزلة ونحوهم من القدرية ، فان هؤلاء

يعظمون الأمر والنهى والوعد والوعيد وطاعة الله ورسوله ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، لكن ضلوا فى القدر واعتقدوا أنهم إذا أثبتوا مشيئة عامة وقدرة شاملة وخلقاً متناولا لكل شىء لزم من ذلك القدح فى عدل الرب وحكمته وغلطوا فى ذلك ، فقابل هؤلاء قوم من العلماء والعباد وأهل الكلام والتصوف فأثبتوا القدر ، وآمنوا بأن الله رب كل شىء ومليكه وأنه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن وأنه خالق كل شىء . وهذا حسن وصواب لكنهم قصروا فى الأمر والنهى والوعد والوعيد وأفرطوا حتى غلا بهم إلى الالحاد ، فصاروا من جنس المشركين الذين قالوا : (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء) فأولئك القدرية وان كانوا يشبهون المجوس من حيث أنهم أثبتوا فاعلا لما اعتقدوه شراً غير الله سبحانه فهؤلاء شابهوا المشركين الذين قالوا : (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء) فالمشركون شر من المجوس ، فان المجوس يقرون بالجزية باتفاق المسلمين ، وذهب بعض العلماء إلى حل نسائهم وطعامهم ، وأما المشركون فاتفقت الأمة على تحريم نكاح نسائهم ، ومذهب الشافعى وأحمد فى المشهور عنه وغيرهما أنهم لا يقرون بالجزية ، وجمهور العلماء على أن مشركى العرب لا يقرون بالجزية وان أقرت المجوس ، فان النبى صلى الله عليه وسلم لم يقبل الجزية من المشركين بل قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وانى رسول الله فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل » .

والمقصود هنا أن من أثبت القدر واحتج به على ابطال الأمر والنهى فهو شر ممن أثبت الأمر والنهى ولم يثبت القدر ، وهذا متفق عليه بين المسلمين وغيرهم من أهل الملل بل جميع الخلق ، فان من احتج بالقدر وشهد الربوبية

العامة لجميع المخلوقات، ولم يفرق بين المأمور والمحظور ، والمؤمن والكافر، وأهل الطاعة وأهل المعصية، لم يؤمن بأحد من الرسل ولا بشيء من الكتب وكان عنده آدم وابليس سواء ، ونوح وقومه سواء ، وموسى وفرعون سواء والسابقون الأولون والكافرون سواء ، وهذا الضلال قد كثر في كثير من أهل التصوف والزهد والعبادة ، لاسيما إذا قرنوا به توحيد أهل الكلام المثبتين للقدر والمشيئة من غير إثبات المحبة والبغض والرضا والسخط ، الذين يقولون التوحيد هو توحيد الربوبية ، والإلهية عندهم هي القدرة على الاختراع ، ولايعرفون توحيد الإلهية ولايعلمون أن الإله هو المألوه المعبود ، وأن مجرد الاقرار بأن الله رب كل شيء لا يكون توحيداً حتى تشهد أن لا إله إلا الله كما قال تعالى : (ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) قال عكرمة نسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون : الله وهم يعبدون غيره .

وهؤلاء يدعون التوحيد والفناء في التوحيد ويقولون : ان هذا نهاية المعرفة وأن العارف إذا صار في هذا المقام لايستحسن حسنة ، ولا يستقبح سيئة لشهوده الربوبية العامة والقيومية الشاملة .

وهذا الموضع وقع فيه من الشيوخ الكبار ، من شاء الله ولاحول ولاقوة إلا بالله .

وهؤلاء غاية توحيدهم هو توحيد المشركين الذين كانوا يعبدون الأصنام الذين قال تعالى عنهم (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولايجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فاني تسحرون) وقال تعالى : (ولئن

سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون) وقال : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون) وقال تعالى : (قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله قل أفلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون كذلك حقت كلمت ربك على الذين فسقوا أنهم لايؤمنون قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدى إلا أن يهدى فمالكم كيف تحكمون) وقال تعالى : (أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون أم من جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون أم من يبدء الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) فان هؤلاء المشركين كانوا مقرين بأن الله خالق السموات والأرض وخالقهم، وبيده ملكوت كل شيء وكانوا مقرين بالقدر .

فان العرب كانوا يثبتون القدر فى الجاهلية ، وهو معروف عنهم فى

النظم والنثر ، ومع هذا فلما لم يكونوا يعبدون الله وحده لا شريك له ، بل عبدوا غيره كانوا مشركين شراً من اليهود والنصارى .

فمتى كان غاية توحيده وتحقيقه هو هذا التوحيد ، كان غاية توحيده توحيد المشركين .

وهذا المقام : مقام وأى مقام زلت فيه أقدام ، وضلت فيه أفهام وبدل فيه دين المسلمين ، والتبس فيه أهل التوحيد بعباد الأصنام على كثير ممن يدعون نهاية التوحيد والتحقيق والمعرفة والكلام .

ومعلوم عند كل من يؤمن بالله ورسوله أن المعتزلة والشيعة القدرية المثبتين للأمر والنهى والوعد والوعيد : خير ممن يسوى بين المؤمن والكافر والبر والفاجر ، والنبي الصادق والمتنبيء الكاذب ، وأولياء الله وأعدائه الذين ذمهم السلف ، بل هم أحق بالذم من المعتزلة كما قال الخلال فى كتاب «السنة فى الرد على القدرية» وقولهم ان الله أجبر العباد على المعاصى وذكر المروزى قال : قلت لأبى عبد الله رجل يقول ان الله أجبر العباد فقال : هكذا لا نقول ، وانكر ذلك وقال : يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء .

وذكر عن المروزى أن رجلا قال : ان الله لم يجبر العباد على المعاصى فرد عليه آخر فقال : ان الله جبر العباد ، أراد بذلك اثبات القدر فسألوا عن ذلك أحمد بن حنبل : فأنكر عليهما جميعا حتى قال : أو أمر أن يقال يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ، وذكر عن عبد الرحمن بن مهدى قال أنكر سفيان الثورى جبر وقال ان الله جبل العباد .

قال المروزى أراد قول النبي صلى الله عليه وسلم لاشج عبد القيس . يعنى قوله : ان فيك لخلتين يحبهما الله الحلم والاناة. فقال : أخلقين تخلقت بهما أم خلقين جبلت عليهما فقال : بل خلقين جبلت عليهما فقال : الحمد لله الذى جبلنى على خلقين يحبهما .

وذكر عن أبى اسحاق الفزارى قال : قال الاوزاعى أتانى رجلان فسألانى عن القدر فأحببت أن آتيك بهما تسمع كلامهما وتجيبهما قلت : رحمك الله أنت أولى بالجواب قال : فأتانى الاوزاعى ومعه الرجلان .فقال: تكلما فقالا : قدم علينا ناس من أهل القدر فنازعونا فى القدر ونازعناهم فيه حتى بلغ بنا وبهم إلى أن قلنا : الله جبرنا على ما نهانا عنه ، وحال بيننا وبين ما أمرنا به ، ورزقنا ما حرم علينا. فقلت : يا هؤلاء إن الذين أتوكم بما أتوكم به قد ابتدعوا بدعة وأحدثوا حدثا ، وإنى أراكم قد خرجتم من البدعة إلى مثل ما خرجوا اليه . فقال : أصبت وأحسنت يا أبا اسحاق .

وذكر عن بقية بن الوليد قال : سألت الزبيدى والاوزاعى عن الجبر . فقال الزبيدى : أمر الله أعظم وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل ولكن يقضى ويقدر ، ويخلق ويجبل عبده على ما أحب .

وقال الاوزاعى : ما أعرف للجبر أصلا من القرآن والسنة فأهاب أن أقول ذلك ، ولكن القضاء والقدر ، والخلق والجبل ، فهذا يعرف فى القرآن والحديث . وقال مطرف بن الشخير: لم نوكل إلى القدر واليه نصير. وقال ضمرة بن ربيعة : لم نؤمر أن نتوكل على القدر وإليه نصير .

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة ومقعده من النار . قالوا : يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب ، فقال : لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له » وهذا باب واسع .

والمقصود هنا أن الخلال وغيره أدخلوا القائلين بالجبر فى مسمى القدرية وإن كانوا لا يحتجون بالقدر على المعاصى ، فكيف بمن يحتج به على المعاصى ومعلوم أنه يدخل فى ذم من ذم الله من القدرية من يحتج به على إسقاط الأمر والنهى أعظم مما يدخل فيه المنكر له ، فان ضلال هذا أعظم ولهذا قرنت القدرية بالمرجئة فى كلام غير واحد من السلف . وروى فى ذلك حديث مرفوع لأن كلا من هاتين البدعتين تفسد الأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، فالارجاء يضعف الإيمان بالوعيد ويهون أمر الفرائض والمحارم ، والقدرى إن احتج به كان عونا للمرجىء ، وإن كذب به كان هو والمرجىء قد تقابلا ، هذا يبالغ فى التشديد حتى لا يجعل العبد يستعين بالله على فعل ما أمر به وترك مانهى عنه ، وهذا يبالغ فى الناحية الأخرى .

ومن المعلوم أن الله تعالى أرسل الرسل ، وأنزل الكتب لتصديق الرسل فيما أخبرت ، وتطاع فيما أمرت كما قال تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع باذن الله) وقال تعالى : (ومن يطع الرسول فقد أطاع الله) والإيمان بالقدر من تمام ذلك ، فمن أثبت القدر وجعل ذلك معارضا للأمر فقد أذهب الأصل ومعلوم أن من أسقط الأمر والنهى الذى بعث الله به رسله فهو كافر باتفاق المسلمين واليهود والنصارى ، بل هؤلاء قولهم متناقض

لا يمكن أحدهم أن يعيش به ، ولا تقوم به مصلحة أحد من الخلق ولا يتعاشر عليه اثنان ، فان القدر ان كان حجة فهو حجة لكل أحد وإلا فليس حجة لأحد فاذا قدر أن الرجل ظلمه ظالم ، أو شتمه شاتم ، أو أخذ ماله أو أفسد أهله أو غير ذلك ، فمتى لامه أو ذمه أو طلب عقوبته أبطل الاحتجاج بالقدر ، ومن ادعى أن العارف إذا شهد الارادة سقط عنه الأمر ، كان هذا الكلام من الكفر الذى لا يرضاه اليهود ولا النصارى ، بل ذلك ممتنع فى العقل محال فى الشرع ، فان الجائع يفرق بين الخبز والتراب ، والعطشان يفرق بين الماء والشراب فيحب ما يشبعه ويرويه دون مالا ينفعه ، والجميع مخلوق لله تعالى ، فالحى وإن كان من كان لا بد أن يفرق بين ما ينفعه وينعمه ويسره ، وبين ما يضره ويشقيه ويؤلمه ، هذا حقيقة الأمر فان الله تعالى أمر العباد بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم .

﴿ والناس فى الشرع والقدر على أربعة أنواع ﴾ فشر الخلق من يحتج بالقدر لنفسه ولا يراه حجة لغيره ، يستند اليه فى الذنوب والمعائب ولا يطمئن اليه فى المصائب ، كما قال بعض العلماء : أنت عند الطاعة قدرى وعند المعصية جبرى أى مذهب وافق هواك تمذهبت به ، وبازاء هؤلاء خير الخلق الذين يصبرون على المصائب ويستغفرون من المعائب كما قال تعالى (فاصبر ان وعد الله حق واستغفر لذنبك) وقال : (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور) . وقال تعالى : (ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) قال بعض السلف : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى

ويسلم . قال تعالى : (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) .

وقد ذكر الله تعالى عن آدم عليه السلام أنه لما فعل ما فعل قال : (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وعن إبليس انه قال : (فبما أغويتني لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين) فمن تاب أشبه أباه آدم ، ومن أصر واحتج بالقدر أشبه إبليس .

﴿ والحديث الذى فى الصحيحين فى احتجاج آدم وموسى عليهما السلام ﴾

لما قال له موسى : « أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وعلمك أسماء كل شيء لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة فقال له آدم : أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه وخط لك التوراة بيده فبكم وجدت مكتوبا على قبل أن أخلق وعصى آدم ربه فغوى قال : بكذا وكذا سنة قال : فحج آدم موسى » . وهذا الحديث فى الصحيحين من حديث أبى هريرة وقد روى باسناد جيد عن عمر رضى الله عنه ، فآدم إنما حج موسى لأن موسى لامه على ما فعل لأجل ما حصل لهم من المصيبة بسبب أكله من الشجرة ، ولم يكن لومه لأجل حق الله فى الذنب ، فان آدم كان قد تاب من الذنب كما قال تعالى : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) وقال تعالى : (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) ومن هو دون موسى عليه السلام يعلم أنه بعد التوبة والمغفرة لا يبقى ملام على الذنب ، وآدم أعلم بالله من أن يحتج بالقدر على الذنب ، وموسى عليه السلام أعلم بالله تعالى من أن يقبل هذه الحجة ، فان هذه لو كانت

حجة على الذنب لكانت حجة لإبليس عدو آدم ، وحجة لفرعون عدو موسى، وحجة لكل كافر وبطل أمر الله ونهيه ، بل إنما كان القدر حجة لآدم على موسى ، لأنه لام غيره لأجل المصيبة التى حصلت له بفعل ذلك ، وتلك المصيبة كانت مكتوبة عليه . وقد قال تعالى :(ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) وقال أنس : خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى أف قط ، ولا قال لى لشىء فعلته لم فعلته ، ولا لشىء لم أفعله لم لا فعلته . وكان بعض أهله إذا عتبنى على شىء يقول : « دعوه فلو قضى شىء لكان » وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : ماضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده خادما ولا امرأة ولا دابة ولا شيئا قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله ولا نيل منه قط شىء فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله، فاذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شىء حتى ينتقم لله . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ففى أمر الله ونهيه يسارع إلى الطاعة ويقيم الحدود على من تعدى حدود الله ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، وإذا آذاه مؤذ أو قصر مقصر فى حقه عفا عنه ولم يؤاخذه نظراً إلى القدر ، فهذا سبيل الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، وهذا واجب فيما قدر من المصائب بغير فعل آدمى كالمصائب السماوية ، أو بفعل لا سبيل فيه إلى العقوبة ، كفعل آدم عليه السلام فانه لاسبيل إلى لومه شرعا لأجل التوبة ، ولاقدراً لأجل القضاء والقدر ، وأما إذا ظلم رجل رجلا فله أن يستوفى مظلمته على وجه العدل ، وإن عفا عنه كان أفضل له كما قال تعالى : (والجروح قصاص) فمن تصدق به فهو كفارة له .

وأما الصنف الثالث : فهم الذين لا ينظرون إلى القدر لافى المعائب ولافى المصائب التى هى من أفعال العباد ، بل يضيفون ذلك إلى العبد وإذا أساءوا استغفروا وهذا حسن ، لكن إذا أصابتهم مصيبة بفعل العبد لم ينظروا إلى القدر الذى مضى بها عليهم ، ولا يقولون لمن قصر فى حقهم دعوه فلو قضى شيء لكان ، لا سيما وقد تكون تلك المصيبة بسبب ذنوبهم ، فلا ينظرون إليها وقد قال تعالى : (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم) وقال تعالى : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) وقال تعالى : (وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فان الإنسان كفور) ومن هذا قوله تعالى : (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) .

فان هذه الآية تنازع فيها كثير من مثبتى القدر ونفاته ، هؤلاء يقولون الأفعال كلها من الله لقوله تعالى : (قل كل من عند الله) وهؤلاء يقولون الحسنة من الله والسيئة من نفسك لقوله : (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وقد يجيبهم الأولون بقراءة مكذوبة ، فمن نفسك بالفتح على معنى الاستفهام ، وربما قدر بعضهم تقديرا ، أى أفمن نفسك ، وربما قدر بعضهم القول فى قوله تعالى : (وما أصابك) فيقولون تقدير الآية : فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا يقولون فيحرفون لفظ القرآن ومعناه ويجعلون ماهو من قول الله قول الصدق من قول المنافقين الذين أنكر الله قولهم ، ويضمرون فى القرآن مالا دليل على ثبوته بل سياق

الـكلام ينفيه ، من هاتين الطائفتين جاهلة بمعنى القرآن وبحقيقة المذهب الذى ينصره ، وأما القرآن فالمراد هنا بالحسنات والسيئات النعم والمصائب ، ليس المراد الطاعات والمعاصى وهذا كقوله تعالى : (إن تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا) وكقوله : (ان تصبك حسنة تسؤهم وان تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا) الآية ومنه قوله تعالى : (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) كما قال تعالى : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون) أى بالنعم والمصائب هذا بخلاف قوله تعالى : (من جاء بالحسنة فله خير منها) وقوله تعالى : (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها) وأمثال ذلك فان المراد بها الطاعة والمعصية ، وفى كل موضع مايبين المـــراد باللفظ ، فليس فى القرآن العزيز بحمد الله تعالى اشكال بل هو مبين .

وذلك أنه اذا قال ما أصابك وما مسك ونحو ذلك ، كان من فعل غيرك بك كما قال : (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وكما قال تعالى : (ان تصبك حسنة تسؤهم) وقال تعالى : (وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم) وإذا قال من جاء بالحسنة كانت من فعله لأنه هو الجانى بها ، فهذا يكون فيما فعله العبد لا فيما فعل به ، وسياق الآيتين يبين ذلك فانه ذكر هذا فى سياق الحض على الجهـــاد وذم المتخلفين عنه فقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا وان منكم لمن ليبطئن فان أصابتـكم مصيبة قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كان لم تـكن بينكم وبينه مودة ياليتنى

كنت معهم فأفوز فوزا عظيما) فأمر سبحانه بالجهاد وذم المثبطين ، وذكر ما يصيب المؤمنين تارة من المصيبة فيه ، وتارة من فضل الله فيه كما أصابهم يوم أحد فقال : (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هـذا قل هو من عند أنفسكم) وأصابهم يوم بدر فضل من الله بنصره لهم وتأييده كما قال تعالى : (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) ثم انه سبحانه قال : (فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة) الآية وقال تعالى : (وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان -إلى قوله- أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك) فهذا من كلام الكفار والمنافقين إذا أصابهم نصر وغيره من النعم قالوا : هذه من عند الله وإن أصابهم ذل وخوف وغير ذلك من المصائب قالوا : هذه من عند محمد بسبب الدين الذى جاء به فان الكفار كانوا يضيفون ما أصابهم من المصائب إلى فعل أهل الإيمان ، وقد ذكر نظير ذلك فى قصة موسى وفرعون قال تعالى: (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) ونظيره قوله تعالى فى سورة يس: (قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم) فاخبر الله تعالى أن الكفار كانوا يتطيرون بالمؤمنين ، فاذا أصابهم بلاء جعلوه بسبب أهل الإيمان ، وما أصابهم من الخير جعلوه من الله عز وجل فقال تعالى : (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) والله تعالى نزل أحسن الحديث ، فلو فهموا القرآن لعلموا أن الله أمرهم بالمعروف ونهاهم عن

المنكر ، أمر بالخير ونهى عن الشر ، فليس فيما بعث الله به رسله ما يكون سبباً للشر بل الشر حصل بذنوب العباد فقال تعالى : (ما أصابك من حسنة فمن الله) أى ما أصابك من نصر ورزق وعافية فمن الله نعمة أنعم بها عليك ، وان كانت بسبب أعمالك الصالحة فهو الذى هداك وأعانك ويسرك لليسرى ، ومن عليك بالايمان وزينه فى قلبك ، وكره اليك الكفر والفسوق والعصيان ، وفى آخر الحديث الصحيح الإلهى حديث أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : « يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

وفى الصحيح : « سيد الاستغفار اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى فاغفر لى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت من قالها إذا أصبح موقنا بها فمات من يومه دخل الجنة ومن قالها إذا أمسى موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة » ثم قال تعالى : (وما أصابك من سيئة) من ذل وخوف وهزيمة كما أصابهم يوم أحد (فمن نفسك) أى بذنوبك وخطاياك وإن كان ذلك مكتوبا مقدراً عليك .

فان القدر ليس حجة لأحد على الله ولا على خلقه ، ولو جاز لأحد أن يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات لم يعاقب ظالم ، ولم يقتل مشرك ، ولم يقم حد ، ولم يكف أحد عن ظلم أحد ، وهذا من الفساد فى الدين والدنيا المعلوم ضرورة ، وافساده بصريح المعقول المطابق لما جاء به الرسول ، فالقدر

يؤمن به ولا يحتج به ، فمن لم يؤمن بالقدر ضارع المجوس ، ومن احتج به ضارع المشركين ، ومن أقر بالامر والقدر وطعن فى عدل الله وحكمته كان شبيها بابليس، فان الله تعالى ذكر عنه أنه طعن فى حكمته وعارضه برأيه وهواه وانه قال : (فبما أغويتنى لأزينن لهم فى الارض) .

وقد ذكر طائفة من أهل الكتاب وبعض المصنفين فى المقالات كالشهرستانى أنه ناظر الملائكة فى ذلك معارضا لله تعالى فى خلقه وأمره ، لكن هذه المناظرة بين إبليس والملائكة التى ذكرها الشهرستانى فى أول المقالات ، ونقلها عن بعض أهل الكتاب، ليس لها اسناد يعتمد عليه ولو وجدناها فى كتب أهل الكتاب ، لم يجز أن نصدقها لمجرد ذلك فان النبي صلى الله عليه وسلم ثبت عنه فى الصحيح أنه قال « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم فاما أن يحدثوكم بحق فتكذبونه واما أن يحدثوكم بباطل فتصدقونه » ويشبه والله أعلم ان تكون المناظرة من وضع بعض المكذبين بالقدر ، اما من أهل الكتاب واما من المسلمين ، والشهرستانى نقلها من كتب المقالات والمصنفون فى المقالات ينقلون كثيرا من المقالات من كتب المعتزلة ، كما نقل الأشعرى وغيره ما نقله فى المقالات من كتب المعتزلة ، فانهم من أكثر الطوائف وأولها تصنيفاً فى هذا الباب ، ولهذا توجد المقالات منقولة بعباراتهم فوضعوا هذه المناظرة على لسان ابليس ، كما رأينا كثيراً منهم يضع كتاباً أو قصيدة على لسان بعض اليهود أو غيرهم ، ومقصودهم بذلك الرد على المثبتين للقدر يقولون: ان حجة الله على خلقه لا تتم الا بالتكذيب بالقدر كما وضعوا فى مثالب ابن كلاب : أنه كان نصرانياً لانه أثبت الصفات ، وعندهم من أثبت

الصفات فقد أشبه النصارى ونتلقى أمثال هذه الحكايات بالقبول من المنتسبين إلى السنة ممن لم يعرف حقيقة أمرها .

والمقصود هنا أن الآية الكريمة حجة على هؤلاء وهؤلاء على من يحتج بالقدر ، فان الله تعالى أخبر انه عذبهم بذنوبهم فلو كانت حجتهم مقبولة لم يعذبهم بذنوبهم ، وحجة على من كذب بالقدر ، فانه سبحانه أخبر أن الحسنة من الله وأن السيئة من نفس العبد ، والقدرية متفقون على أن العبد هو المحدث للمعصية كما هو المحدث للطاعة ، والله عندهم ما أحدث هذا ولا هذا ولا هذا ، بل أمر بهذا ونهى عن هذا ، وليس عندهم لله نعمة أنعمها على عباده المؤمنين فى الدين ، إلا وقد أنعم بمثلها على الكفار ، فعندهم أن على بن أبى طالب رضى الله عنه وأبا لهب مستويان فى نعمة الله الدينية ، إذ كل منهما أرسل اليه الرسول وأقدر على الفعل وأجبر عليه ، لكن هذا فعل الإيمان بنفسه من غير أن يخصه بنعمة آمن بها ، وهذا فعل الكفر بنفسه من غير أن يفضل الله عليه ذلك المؤمن ، ولا خصه بنعمة آمن لاجلها ، وعندهم أن الله حبب الإيمان إلى الكفار كأبى لهب وأمثاله كما حببه إلى المؤمنين كعلى رضى الله عنه وأمثاله ، وزينه فى قلوب الطائفتين ، وكره الكفر والفسوق والعصيان إلى الطائفتين سواء ، لكن هؤلاء كرهوا ما كرهه الله إليهم بغير نعمة خصهم بها ، وهؤلاء لم يكرهوا ما كرهه الله إليهم.

ومن توهم منهم أو من نقل عنهم أن الطاعة من الله والمعصية من العبد فهو جاهل بمذهبهم ، فان هذا لم يقله أحد من علماء القدرية ولا يمكن أن يقوله فان أصل قولهم أن فعل العبد للطاعة كفعله للمعصية كلاهما فعله بقدرة

تحصل له من غير أن يخصه بإرادة خلقها فيه تختص بأحدهما ، فاذا احتجوا بهذه الآية على مذهبهم كانوا جاهلين بمذهبهم وكانت الآية حجة عليهم لا لهم لأنه قال تعالى : (قل كل من عند الله) وعندهم ليس الحسنات المفعولة ولا السيئات المفعولة من عند الله، بل كلاهما من العبد وقوله تعالى : (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) مخالف لقولهم، فان عندهم الحسنة المفعولة من العبد لا من الله سبحانه وتعالى .

وكذلك من احتج من مثبتة القدر بالآية على اثباته إذا احتج بقوله تعالى: (قل كل من عند الله) كان مخطئا فان الله ذكر هذه الآية رداً على من يقول: الحسنة من الله والسيئة من العبد ، ولم يقل أحد من الناس أن الحسنة المفعولة من الله والسيئة المفعولة من العبد ، وأيضاً فان نفس فعل العبد وان قال أهل الاثبات أن الله خلقه وهو مخلوق له ومفعول له ، فانهم لا ينكرون أن العبد هو المتحرك بالأفعال وبه قامت ومنه نشأت ، وإن كان الله خلقها، وأيضا فان قوله بعد هذا :(ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) يمتنع أن يفسر بالطاعة والمعصية ، فان أهل الاثبات لايقولون ان الله خلق احداهما دون الأخرى بل يقولون : بأن الله خالق لجميع الأفعال وكل الحوادث .

(ومما ينبغي أن يعلم) أن مذاهب سلف الأمة مع أن قولهم : الله خالق كل شيء وربه ومليكه ، وأنه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ، وأنه على كل شيء قدير ، وأنه هو الذى خلق العبد هلوعا إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ونحو ذلك ، أن العبد فاعل حقيقة وله مشيئة وقدرة قال تعالى : (لمن

شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين)وقال تعالى : (إن هذه تذكرة فمن شاء ذكره وما يذكرون إلا أن يشـــاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة) .

وهذا الموضع اضطرب فيه الخائضون فى القدر فقالت المعتزلة ونحوهم من النفاة : الكفر والفسوق والعصيان أفعال قبيحة ، والله منزه عن فعل القبيح باتفاق المسلمين ، فلا يكون فعلا له ، وقال من رد عليهم من المائلين إلى الجبر : بل هى فعله وليست أفعالا للعباد بل هى كسب للعبد . وقالوا : ان قدرة العبد لا تأثير لها فى حدوث مقدورها ولا فى صفة من صفاتها ، وأن الله أجرى العادة بخلق مقدورها مقارناً لها ، فيكون الفعل خلقا من الله وإبداعا ، واحداثا وكسباً من العبد لوقوعه مقارنا لقدرته .

وقالوا : أن العبد ليس محدثا لأفعاله ولا موجداً لها ، ومع هذا فقد يقولون أنا لا نقول بالجبر المحض بل نثبت للعبد قدرة حادثة ، والجبر المحض الذى لا يثبت للعبد قدرة ، وأخذوا يفرقون بين الكسب الذى أثبتوه وبين الخلق . فقالوا : الكسب عبارة عن اقتران المقدور بالقدرة الحادثة ، والخلق هو المقدور بالقدرة القديمة . وقالوا أيضاً : الكسب هو الفعل القائم بمحل القدرة عليه ، والخلق هو الفعل الخارج عن محل القدرة عليه ، فقال لهم الناس : هذا لا يوجب فرقا بين كون العبد كسباً ، وبين كونه فعلا وأوجد وأحدث وصنع وعمل ونحو ذلك ، فان فعله وإحداثه وعمله وصنعه هو أيضاً مقدور بالقدرة الحادثة وهو قائم فى محل القدرة الحادثة ، وأيضاً فهذا فرق لا حقيقة له ، فان كون المقدور فى محل القدرة أو خارجاً عن محلها لا يعود إلى تأثير القدرة فيه ، وهو مبنى على أصلين : ان الله لا يقدر على فعل يقوم

بنفسه وان خلقه للعالم هو نفس العالم ، وأكثر العقلاء من المسلمين وغيرهم على خلاف ذلك . والثانى : ان قدرة العبد لا يكون مقدورها خارجاً عن محلها وفى ذلك نزاع طويل ليس هذا موضعه ، وأيضاً فاذا فسر التأثير بمجرد الاقتران فلا فرق بين أن يكون الفارق فى المحل أوخارجا عن المحل ، وأيضاً قال لهم المنازعون من المستقر فى فطر الناس ، أن من فعل العدل فهو عادل ، ومن فعل الظلم فهو ظالم ، ومن فعل الكذب فهو كاذب ، فاذا لم يكن العبد فاعلا لكذبه وظلمه وعدله بل الله هو فاعل ذلك ، لزم أن يكون هو المتصف بالكذب والظلم .

قالوا : وهذا كما قلتم أنتم وسائر الصفاتية من المستقر فى فطر الناس أن من قام به العلم فهو عالم ، ومن قامت به القدرة فهو قادر ، ومن قامت به الحركة فهو متحرك ، ومن قام به التكلم فهومتكلم ، ومن قامت به الإرادة فهو مريد ، وقلتم : إذا كان الكلام مخلوقا كان كلاما للمحل الذى خلقه فيه كسائر الصفات ، فهذه القاعدة المطردة فيمن قامت به الصفات ، نظيرها أيضاً من فعل الأفعال . وقالوا أيضاً : القرآن مملوء بذكر إضافة هـــذه الأفعال إلى العباد كقوله تعالى : (جزاء بما كنتم تعملون) وقوله: (اعملوا ماشئتم) وقوله : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم) وقوله : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وأمثال ذلك . وقالوا أيضاً : إن الشرع والعقل متفقان على أن العبد يحمد ويذم على فعله ويكون حسنة له ، فلو لم يكن إلا فعل غيره لكان ذلك الغير هو المحمود المذموم عليها .

وفى المسألة كلام ليس هذا موضع بسطه ، لكن ننبه على نكت نافعة فى هذا الموضع المشكل .

فنقول : قول القائل: هذا فعل هذا وفعل هذا لفظ فيه احمال ، فانه تارة يراد بالفعل نفس الفعل، وتارة يراد به مسمى المصدر فيقول : فعلت هـــذا أفعله فعلا ، وعملت هذا أعمله عملا ، فاذا أريد بالعمل نفس الفعل الذى هو مسمى المصدر كصلاة الانسان وصيامه ونحو ذلك ، فالعمل هنا المعمول قال تعالى: (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات) فجعل هذه المصنوعات معمولة للجن ومن هـــذا الباب قوله تعالى : (والله خلقكم وما تعملون) فانه فى أصح القولين ما بمعنى الذى والمراد به ما تنحتونه من الأصنام كما قال تعالى : (أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون) أى والله خلقكم وخلق الأصنام التى تنحتونها ، ومنه حديث حذيفة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أن الله خالق كل صانع وصنعته » لكن قد يستدل بالآية على أن الله خلق أفعال العباد من وجه آخر . فيقال : إذا كان خالقاً لما يعملونه من المنحوتات لزم أن يكون هو الخالق للتأليف الذى أحدثوه فيها ، فانها إنما صارت معمولة بذلك التأليف ، وإلا فهى بدون ذلك ليست معمولة لهم ، وإذا كان خالقاً لما يعملونه من المنحوتات لزم أن يكون هو الخالق للتأليف الذى أحدثوه فيها ، فانها إنما صارت معمولة بذلك التأليف وإلا فهى بدون ذلك ليست معمولة لهم ، واذا كان خالقاً للتأليف كان خالقاً لأفعالهم .

والمقصود أن لفظ الفعل والعمل والصنع أنواع ، وذلك كلفظ البناء والخياطة والنجارة تقع على نفس مسمى المصدر وعلى المفعول ، وكذلك لفظ التلاوة والقراءة والكلام والقول يقع على نفس مسمى المصدر ، وعلى

مايحصل بذلك من نفس القول والكلام ، فيراد بالتلاوة والقراءة المقروء والمتلو كما يراد بها مسمى المصدر .

والمقصود هنا أن القائل إذا قال هذه التصرفات فعل الله أو فعل العبد ، فان أراد بذلك أنها فعل الله بمعنى المصدر فهذا باطل باتفاق المسلمين وبصريح العقل ، ولكن من قال هو فعل الله أراد به أنها مفعولة مخلوقة لله كسائر المخلوقات ، ثم من هؤلاء من قال أنه ليس لله فعل يقوم به فلا فرق عنده بين فعله ومفعوله وخلقه ومخلوقه .

وأما الجمهور الذين يفرقون بين هذا وهذا يقولون : هذه مخلوقة لله مفعولة ليست هى نفس فعله ، وأما العبد فهى فعله القائم به وهى أيضاً مفعولة له إذا أريد بالفعل المفعول ، فمن لم يفرق فى حق الرب تعالى بين الفعل والمفعول إذا قال أنها فعل لله تعالى وليس لمسمى فعل الله عنده معنيان ، فحينئذ فلا تكون فعلا للعبد ولا مفعولة له بطريق الأولى .

وبعض هؤلاء قال : هى فعل للرب وللعبد فأثبت مفعولا بين مفعولين ، وأكثر المعتزلة يوافقون هؤلاء على أن فعل الرب تعالى لا يكون إلا بمعنى مفعوله مع أنهم يفرقون بين الفعل والمفعول ، فلهذا عظم النزاع وأشكلت المسألة على الطائفتين ، وحاروا فيها .

وأما من قال : خلق الرب تعالى لمخلوقاته ليس هو نفس مخلوقاته قال إن أفعال العباد مخلوقة كسائر المخلوقات ومفعولة للرب كسائر المفعولات ، ولم يقل أنها نفس فعل الرب وخلقه بل قال : إنها نفس فعل العبد وعلى هذا تزول الشبهة فانه يقال الكذب والظلم ونحو ذلك من القبائح ، يتصف بها

من كانت فعلا له كما يفعلها العبد وتقوم به ، ولا يتصف بها من كانت مخلوقة له إذا كان قد جعلها صفة لغيره ، كما أنه سبحانه لا يتصف بما خلقه فى غيره من الطعوم والألوان والروائح والأشكال والمقادير والحركات وغير ذلك ، فاذا كان قد خلق لون الانسان لم يكن هو المتلون به ، وإذا خلق رائحة منتنة أو طعماً مراً أو صورة قبيحة ونحو ذلك مما هو مكروه مذموم مستقبح ، لم يكن هو متصفاً بهذه المخلوقات القبيحة المذمومة المكروهة والأفعال القبيحة ومعنى قبحها كونها ضارة لفاعلها وسبباً لذمه وعقابه وجالبة لألمه وعذابه ، وهذا أمر يعود على الفاعل الذى قامت به لا على الخالق الذى خلقها فعلا لغيره .

ثم على قول الجمهور الذين يقولون : له حكمة فيما خلقه فى العالم مما هو مستقبح وضار ومؤذ ، يقولون له فيما خلقه من هذه الأفعال القبيحة الضارة لفاعلها حكمة عظيمة ، كما له حكمة عظيمة فيما خلقه من الأمراض والغموم ، ومن يقول لا تعلل أفعاله ، لا يعلل لا هذا ولا هذا .

يوضح ذلك أن الله تعالى إذا خلق فى الإنسان عمى ومرضاً وجوعاً وعطشاً ووصباً ونصباً ونحو ذلك ، كان العبد هو المريض الجائع العطشان المتألم ، فضرر هذه المخلوقات وما فيها من الأذى والكراهة ، عاد اليه ولا يعود إلى الله تعالى شىء من ذلك ، فكذلك ما خلق فيه من كذب وظلم وكفر ونحو ذلك ، هى أمور ضارة مكروهة مؤذية وهذا معنى كونها سيآت وقبائح أى أنها تسوء صاحبها وتضره وقد تسوء أيضاً غيره وتضره ، كما أن مرضه ونتن ريحه ونحو ذلك قد يسوء غيره ويضره ، يبين ذلك أن القدرية سلموا

أن الله تعالى قد يخلق فى العبد كفراً أو فسوقا على سبيل الجزاء كما فى قوله تعالى: (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) وقوله: (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) وقوله : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) ثم أنه من المعلوم أن هذه المخلوقات تكون فعلا للعبد وكسبا له ، يجزى عليها ويستحق الذم عليها والعقاب وهى مخلوقة لله تعالى ، فالقول عند أهل الاثبات فيما يخلقه من أعمال العباد ابتداء ، كالقول فيما يخلقه جزاء من هذا الوجه وإن افترقا من وجه آخر ، وهم لا يمكنهم أن يفرقوا بينهما بفرق يعود إلى كون هذا فعلا لله دون هذا ، وهذا فعل للعبد دون هذا ، لكن يقولون هذا يحسن من الله تعالى لكونه جزاء للعبد ، وذلك لا يحسن منه لكونه ابتداء العبد بما يضره ، وهم لا يقولون لا يحسن منه أن يضر الحيوان إلا بجرم سابق أو عوض لاحق ، وأما أهل الاثبات للقدر فمن لم يعلل منهم لا يفرق بين مخلوق ومخلوق .

وأما القائلون بالحكمة وهم الجمهور فيقولون : لله تعالى فيما يخلقه من الحيوان حكم عظيمة كما له حكم فى غير هذا ، ونحن لا نحصر حكمته فى الثواب والعوض ، فان هذا قياس لله تعالى على الواحد من الناس وتمثيل لحكمة الله وعدله بحكمة الواحد من الناس وعدله ، والمعتزلة مشبهة فى الأفعال معطلة فى الصفات . ومن أصولهم الفاسدة : أنهم يصفون الله بما يخلقه فى العالم إذ ليس عندهم صفة لله قائمة به ، ولا فعل قائم به يسمونه به ويصفونه بما يخلقه فى العالم . مثل قولهم : هو متكلم بكلام يخلقه فى غيره ، ومريد بارادة يحدثها لا فى محل . وقولهم : ان رضاه وغضبه وحبه وبغضه ، هو نفس المخلوق الذى يخلقه من الثواب والعقاب . وقولهم : انه لو كان خالقا لظلم

العبد وكذبه لكان هو الظالم الكاذب ، وأمثال ذلك من الأقوال التى إذا تدبرها العاقل علم فسادها بالضرورة .

ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة عليهم ، لاسيما لما أظهروا القول بأن القرآن مخلوق ، وعلم السلف أن هذا فى الحقيقة هو إنكار لكلام الله تعالى ، وأنه لو كان كلامه هو ما يخلقه للزم أن يكون كل كلام مخلوق كلاما له ، فيكون انطاقه للجلود يوم القيامة ، وانطاقه للجبال والحصا بالتسبيح ، وشهادة الأيدى والأرجل ونحو ذلك كلاما له ، وإذا كان خالقا لكل شىء كان كل كلام موجود كلامه ، وهذا قول الحلولية والجهمية كصاحب الفصوص وأمثاله ولهذا يقولون :

وكل كلام فى الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

علم بصريح المعقول ، أن الله تعالى إذا خلق صفة فى محل كانت صفة لذلك المحل ، فاذا خلق حركة فى محل كان ذلك المحل هو المتحرك بها ، وإذا خلق لونا أو ريحا فى جسم كان هو المتلون المتروح بذلك ، وإذا خلق علما أو قدرة أو حياة فى محل كان ذلك المحل هو العالم القادر الحى ، فكذلك إذا خلق إرادة وحبا وبغضا فى محل كان هو المريد المحب المبغض ، فاذا خلق فعلا لعبد كان العبد هو الفاعل ، فاذا خلق له كذبا وظلما وكفراً كان هو الكاذب الظالم الكافر ، وإن خلق له صلاة وصوماً وحجاً كان العبد هو المصلى الصائم الحاج ، والله تعالى لا يوصف بشىء من مخلوقاته بل صفاته قائمة بذاته ، وهذا مطرد على أصول السلف وجمهور المسلمين من أهل السنة وغيرهم . ويقولون : إن خلق الله السموات والأرض ليس هو نفس السموات

والأرض ، بل الخلق غير المخلوق لاسيما مذهب السلف والأئمة وأهل السنة الذين وافقوهم على إثبات صفات الله وأفعاله ، فان المعتزلة ومن وافقهم من الجهمية القدرية ، نقضوا هذا الأصل على من لم يقل أن الخلق غير المخلوق كالأشعرى ومن وافقه . فقالوا : إذا قلتم ان الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل دون غيره ، كما ذكرتم فى الحركة والعلم والقدرة وسائر الأعراض ، انتقض ذلك عليكم بالعدل والإحسان وغيرهما من أفعال الله تعالى ، فانه يسمى عادلا بعدل خلقه فى غيره ، محسنا باحسان خلقه فى غيره فكذا يسمى متكلما بكلام خلقه فى غيره .

والجمهور من أهل السنة وغيرهم يجيبون بالتزام هذا الأصل . ويقولون: إنما كان عادلا بالعدل الذى قام بنفسه ، ومحسنا بالإحسان الذى قام بنفسه ، وأما المخلوق الذى حصل للعبد فهو أثر ذلك، كما أنه رحمن رحيم بالرحمة التى هى صفته ، وأما مايخلقه من الرحمة فهو أثر تلك الرحمة ، واسم الصفة تقع تارة على الصفة التى هى المصدر وتقع تارة على متعلقها الذى هو مسمى المفعول ، كلفظ الخلق يقع تارة على الفعل وعلى المخلوق أخرى ، والرحمة تقع على هذا وهذا ، وكذلك الأمر يقع على أمره الذى هو مصدر أمر يأمر أمراً ، ويقع على المفعول تارة كقوله تعالى : (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) وكذلك لفظ العلم يقع على المعلوم ، والقدرة تقع على المقدور ونظائر هذا متعددة .

وقد استدل أحمد وغيره من أئمة السنة ، فى جملة ما استدلوا على أن كلام الله غير مخلوق بقوله عليه الصلاة والسلام : « أعوذ بكلمات الله التامات»

ونحو ذلك ، وقالوا الاستعاذة لاتحصل لمخلوق وطرد هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك » .

ومن تدبر هذا الباب وجد أهل البدع والضلال لايستطيلون على فريق منتسبين إلى السنة والهدى إلا بما دخلوا فيه من نوع بدعة أخرى وضلال آخر لا سيما إذا وافقوهم على ذلك ، فيحتجون عليهم بما وافقوهم عليه من ذلك ويطلبون لوازمه حتى يخرجوهم من الدين ان استطاعوا خروج الشعرة من العجين ، كما فعلت القرامطة الباطنية والفلاسفة وأمثالهم بفريق فريق من طوائف المسلمين ، والمعتزلة استطالوا على الأشعرية ونحوهم من المثبتين للصفات والقدر بما وافقوهم عليه من نفي الأفعال القائمة بالله تعالى ، فنقضوا بذلك أصلهم الذي استدلوا به عليهم من أن كلام الله غير مخلوق ، وأن الكلام وغيره من الأمور إذا خلق بمحل عاد حكمه على ذلك المحل ، واستطالوا عليهم بذلك في مسألة القدر واضطروهم إلى أن جعلوا نفس مايفعله العبد من القبيح فعلا لله رب العالمين دون العبد .

ثم أثبتوا كسبا لا حقيقة له ، فانه لايعقل من حيث تعلق القدرة بالمقدور فرق بين الكسب والفعل ، ولهذا صار الناس يسخرون بمن قال هذا ويقولون : ثلاثة أشياء لاحقيقة لها طفرة النظام وأحوال أبي هاشم وكسب الأشعري ، اضطروهم إلى أن فسروا تأثير القدرة في المقدور بمجرد الاقتران العادي ، والاقتران العادي يقع بين كل ملزوم ولازمه ويقع بين المقدور والقدرة ، فليس جعل هذا مؤثراً في هذا الباب بأولى من العكس ،

ويقع بين المعلول وعلته المنفصلة عنه مع أن قدرة العباد عنده لا يتجاوز بمحلها، ولهذا فر القاضى أبو بكر إلى قول ، وأبو إسحاق الاسفرايني إلى قول، ، وأبو المعالى الجوينى إلى قول ، لما رأوا في هذا القول من التناقض ، والكلام على هذا مبسوط فى موضعه والمقصود هنا التنبيه .

ومن النكت فى هذا الباب ، أن لفظ التأثير ولفظ الجبر ولفظ الرزق ونحو ذلك ألفاظ مجملة ، فاذا قال القائل : هل قدرة العبد مؤثرة فى مقدورها أم لا . قيل له : أولا لفظ القدرة يتناول نوعين . أحدهما : القدرة الشرعية المصححة للفعل التى هى مناط الأمر والنهى . والثانى القدرة القدرية الموجبة للفعل التى هى مقارنة للمقدور لا يتأخر عنها ، فالأولى هى المذكورة فى قوله تعالى : (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) فان هذه الاستطاعة لو كانت هى المقارنة للفعل لم يجب حج البيت إلا على من حج ، فلا يكون من لم يحج عاصياً بترك الحج سواء كان له زاد وراحلة وهو قادر على الحج أو لم يكن ، وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين: « صل قائما فان لم تستطع فقاعداً فان لم تستطع فعلى جنب » وكذلك قوله تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم) وقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » لو أراد استطاعة لا تكون إلا مع الفعل لكان قد قال : فافعلوا منه ما تفعلون ، فلا يكون من لم يفعل شيئا عاصياً له ، وهذه الاستطاعة المذكورة فى كتب الفقه ولسان العموم والناس متنازعون فى مسمى الاستطاعة والقدرة ، فمنهم من لا يثبت استطاعة الا ما قارن الفعل ، وتجد كثيراً من الفقهاء يتناقضون . فاذا خاضوا مع من يقول من المتكلمين المثبتين للقدر أن الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل وافقوهم على ذلك ، واذا

خاضوا فى الفقه ، ثبتوا الاستطاعة المتقدمة التى هى مناط الأمر والنهى ، وعلى هذا تتفرع مسألة تكليف مالا يطاق ، فان الطاقة هى الاستطاعة وهى لفظ مجمل ، فالاستطاعة الشرعية التى هى مناط الأمر والنهى لم يكلف الله أحداً شيئاً بدونها ، فلا يكلف مالا يطاق بهذا التفسير ، وأما الطاقة التى لا تكون إلا مقارنة للفعل ، فجميع الأمر والنهى تكليف مالا يطاق بهذا الاعتبار ، فان هذه ليست مشروطة فى شيء من الأمر والنهى باتفاق المسلمين ، وكذا تنازعهم فى العبد : هل هو قادر على خلاف المعلوم . فاذا أريد بالقدرة القدرة الشرعية التى هى مناط الأمر والنهى كالاستطاعة المذكورة فى قوله تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم) فكل من أمره الله ونهاه فهو مستطيع بهذا الاعتبار وإن علم أنه لا يطيعه ، وان أريد بالقدرة القدرة القــدرية التى لا تكون إلا مقارنة المفعول ، فمن علم أنه لايفعل الفعل لم تكن هذه القدرة ثابتة له .

ومن هذا الباب تنازع الناس فى الأمر والإرادة ، هل يأمر بمالا يريد أو لايأمر إلا بما يريد ، فان الإرادة لفظ فيه احمال يراد بالارادة الارادة الكونية الشاملة لجميع الحوادث كقول المسلمين : ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن وكقوله تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء) وقول نوح عليه السلام : (ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم) ولا ريب أن الله يأمر العباد بما لا يريده بهذا التفسير والمعنى كما قال تعالى : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) فدل على أنه لم يؤت كل نفس هداها مع أنه أمر كل نفس بهداها . وكما اتفق العلماء على أن من حلف بالله

ليقضين دين غريمه غدا إن شاء الله ، أو ليردن وديعته أو غصبه ، أو ليصلين الظهر أو العصر إن شاء الله ، أو ليصومن رمضان إن شاء الله ونحو ذلك مما أمره الله به ، فانه إذا لم يفعل المحلوف عليه لايحنث مع أن الله أمره به لقوله : إن شاء الله. فعلم أن الله لم يشأه مع أمره به ، وأما الارادة الدينية فهى بمعنى المحبة والرضا ، وهى ملازمته للأمر كقوله تعالى : (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم) ومنه قول المسلمين هذا يفعل شيأ لايريده الله ، إذا كان يفعل بعض الفواحش ، أى أنه لايحبه ولايرضاه بل ينهى عنه ويكرهه .

وكذلك لفظ الجبر ، فيه إجمال يراد فيه اكراه الفعل على الفعل بدون رضاه . كما يقال : انالأب يجبر المرأة علىالنكاح ، والله تعالى أجلوأعظم من أن يكون مجبراً بهذا التفسير ، فانه يخلق للعبد الرضا والاختيار بما يفعله وليس ذلك جبراً بهذا الاعتقاد ، ويراد بالجبر خلق ما فى النفوس من الاعتقادات والارادات . كقول محمد بن كعب القرظى : الجبار الذى جبر العباد على ما أراد ، كما فى الدعاء المأثور عن على رضى الله عنه : جبارالقلوب على فطرتها شقيها وسعيدها ، والجبر ثابت بهذا التفسير فلما كان لفظ الجبر مجملا نهى الأئمة عن اطلاق اثباته أو نفيه ، وكذلك لفظ الرزق فيه إجمال ، فقد يراد بلفظ الرزق ما أباحه الله أو ملكه فلا يدخل الحرام فى مسمى هذا الرزق كما فى قوله تعالى : (ومما رزقناهم ينفقون) وقوله تعالى : (وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت) وقوله : (ومن رزقناه منا رزقا حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً) وأمثال ذلك ، وقد يراد بالرزق ما ينتفع به الحيوان وإن لم يكن هناك إباحة ولا تمليك فيدخل فيه الحرام كما فى قوله

تعالى : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) وقوله عليه الصلاة والسلام فى الصحيح : « فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقى أو سعيد » ولما كان لفظ الجبر والرزق ونحوهما فيه إجمال ، منع الأئمة من اطلاق ذلك نفياً واثباتاً كما تقدم عن الأوزاعى وأبى اسحاق الفزارى وغيرهما ، وكذا لفظ التأثير فيه إجمال فان القدرة مع المقدور ، كالسبب مع المسبب ، والعلة مع المعلول ، والشرط مع المشروط ، فان أريد بالقدرة القدرة الشرعية المصححة للفعل المتقدمة للفعل ، فتلك شرط للفعل وسبب من أسبابه وعلة ناقصة له ، وان أريد بالقدرة القدرة المقارنة للفعل المستلزمة له ، فتلك علة للفعل وسبب ومعلوم انه ليس فى المخلوقات شىء هو وحده علة تامة وسبب تام للحوادث ، بمعنى أن وجوده مستلزم لوجود الحوادث ، بل ليس هذا إلا مشيئة الله تعالى خاصة ، فما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن .

وأما الأسباب المخلوقة كالنار فى الاحراق ، والشمس فى الاشراق ، والطعام والشراب فى الاشباع والارواء ، فجميع هذه الأمور سبب لا يكون الحادث به وحده ، بل لابد أن ينضم إليه سبب آخر ، ومع هذا فلهما موانع تمنعهما عن الأثر ، فكل سبب فهو موقوف على وجود الشروط وانتفاء الموانع ، وليس فى المخلوقات واحد يصدر عنه وحده شىء .

وهذا مما يبين لك خطأ المتفلسفة الذين قالوا : الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ، واعتبر ذلك بالأسباب الطبيعية كالمسخن والمبرد ونحو ذلك ، فان هذا غلط فان التسخين لا يكون إلا بشيئين : أحدهما : فاعل كالنار . والثانى : قابل كالجسم القابل للسخونة والاحتراق ، وإلا فالنار إذا وقعت على السمندل

والياقوت لم تحرقه ، وكذلك الشمس فان شعاعها مشروط بالجسم المقابل للشمس الذى ينعكس عليه الشعاع ، وله موانع من السحاب والسقوف وغير ذلك ، فهذا الواحد الذى قدروه فى أنفسهم لا وجود له فى الخارج ، وقد بسط هذا فى موضع آخر ، فان الواحد العقلى الذى يثبته الفلاسفة ، كالوجود المجرد عن الصفات ، وكالعقول المجـــردة وكالـكليات التى يدعون تركب الأنواع منها ، وكالمادة والصورة العقليتين وأمثال ذلك لا وجود لهـا فى الخارج ، بل إنما توجد فى الأذهان لافى الأعيـان ، وهى أشد بعداً عن الوجود من الجوهر الفرد الذى يثبته من يثبته من أهل الـكلام ، فان هذا الواحد لا حقيقة له فى الخارج ، وكذلك الواحد كما قد بسط فى موضعه .

والمقصود هنا أن التأثير إذا فسر بوجود شرط الحادث ، أو بسبب يتوقف حدوث الحادث به على سبب آخر وانتفاء موانع ، وكل ذلك بخلق الله تعالى ، فهذا حق وتأثير قدرة العبد فى مقدورها ثابت بهـذا الاعتبار ، وان فسر التأثير بأن المؤثر مستقل بالأثر من غير مشارك معاون ولا معاوق مانع فليس شىء من المخلوقات مؤثرا ، بل الله وحده خالق كل شىء فلاشريك له ولاندله ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يـكن : (مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعـده قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملـكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ان أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون) ونظائر هذا فى القرآن كثيرة ، فإذا عرف مافى لفظ التأثير من الاجمال والاشتراك

ارتفعت الشبهة ورفع العـــدل المتوسط من الطائفتين ، فمن قال ان المؤمن والكافر سواء فيما أنعم الله عليهما من الأسباب المقتضية للإيمان ، وأن المؤمن لم يخصه الله بقدرة ولا إرادة آمن بها ، وان العبد إذا آمن لم تحدث له معرفة من الله وإرادة لم تكن قبل الفعل ، فقوله معلوم الفساد ، وقيل لهؤلاء : فعل العبد جملة الحوادث والممكنات ، فكل مابه يعلم أن الله تعالى أحدث غيره يعلم به أن الله أحدثه ، فيكون العبد فاعلا بعد أن لم يكن أمر ممكن حادث ، فان أنكر صدور هذا الممكن بدون محدث واجب يحدثه ويرجح وجوده على عدمه أمكن ذلك فى غيره فانتقض دليل إثبات الصانع ولاريب ان كثيراً من متكلمة الإثبات القائلين بالقدر ، سلموا للمعتزلة أن القادر المختار يمكنه ترجيح أحد مقدوريه على الآخر بلا مرجح ، وقالوا فى مسألة إحداث العالم ان القادر المختار أو الإرادة القديمة التى نسبتها إلى جميع الحوادث والأزمنة نسبة واحدة ، رجحت أنواعا من الممكنات فى الوقت الذى رجحته بلا حدوث سبب اقتضى الرجحان ، وادعوا أن القادر المختار يمكنه الترجيح بلا مرجح ، أو الارادة القديمة ترجح بلا مرجح آخر ، فاعترض عليهم هناك من نازعهم من أهل الملل والفلاسفة القائلين بأن الله لم يحدث الحوادث بأفعال تقوم بنفسه ، وأن الله خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ، والقائلين بقدم العالم قالوا : هذا الذى قلتموه معلوم الفساد بالضرورة ، وتجويز هذا يقتضى جواز حدوث الحوادث بلا سبب والترجيح بلا مرجح ، وذلك يسد باب إثبات الصانع .

ثم ان هؤلاء المثبتين للقدر احتجوا بهذه الحجة على نفاة القدر وقالوا : حدوث فعل العبد بعد أن لم يكن لابد له من محدث مرجح تام غير العبد ،

فان ما كان من العبد فهو محدث وعند وجود ذلك المحدث المرجح التام يجب وجود فعل العبد ، وهذا الذى قالوه حق وهو حجة قاطعة على القدرية ، لكنهم نقضوه وتناقضوا فيه فى فعل الرب تعالى ، وادعوا هناك أن البديهة فرقت بين فعل القادر وبين الموجب بالذات ، فان كان هذا الفرق صحيحاً بطلت حجتهم على المعتزلة ولم يبطل قول القدرية ، وإن كان باطلا بطل قولهم فى احداث الله وفعله للعالم ، وهذا هو الباطل فى نفس الأمر ، فان القول بأن الممكن لايترجح وجوده على عدمه إلا بمرجح تام أمر معلوم بالفطرة الضرورية لا يمكن القدح فيه ، وهو عام لاتخصيص فيه فالفرق المذكور باطل ، وذلك يبطل قولهم بأن خلق العالم هو العالم وانه حدث بعد ان لم يكن بغير سبب حادث، ومن قال ان قدرة العبد وغيرها من الأسباب التى خلق الله تعالى بها المخلوقات ليست أسبابا أو أن وجودها كعدمها ، وليس هناك إلا مجرد اقتران عادى كاقتران الدليل بالمدلول ، فقد جحد مافى خلق الله وشرعه من الأسباب والحكم ، ولم يجعل فى العين قوة تمتاز بها عن الخد تبصر بها ، ولافى القلب قوة يمتاز بها عن الرجل يعقل بها ، ولافى النار قوة تمتاز بها عن التراب تحرق بها ، وهؤلاء ينكرون مافى الأجسام المطبوعة من الطبائع والغرائز.

قال بعض الفضلاء : تكلم قوم من الناس فى إبطال الأسباب والقوى والطبائع فأضحكوا العقلاء على عقولهم ، ثم أن هؤلاء يقولون لاينبغى للانسان أن يقول أنه شبع بالخبز وروى بالماء ، بل يقول شبعت عنده ورويت عنده ، فان الله يخلق الشبع والرى ونحو ذلك من الحوادث عند هذه المقترنات بها عادة لابها ، وهذا خلاف الكتاب والسنة فان الله تعالى يقول:

(وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات) الآية وقال تعالى : (وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها) وقال تعالى : (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) وقال : (ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) وقال : (ونزلنا من السماء ماء فأنبتنا به جنات وحب الحصيد) وقال : (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء) وقال : (هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات) وقال تعالى : (إن الله لايستحيي أن يضرب مثلاما — إلى قوله — يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً) وقال : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) ومثل هذا فى القرآن كثير ، وكذلك فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم كقوله : « لايموتن أحد منكم إلا آذنتمونى حتى أصلى عليه فان الله جاعل بصلاتى عليه بركة ورحمة » وقال صلى الله عليه وسلم : « إن هذه القبور مملوءة على أهلها ظلمة وان الله جاعل بصلاتى عليهم نوراً » ومثل هذا كثير .

ونظير هؤلاء الذين أبطلوا الأسباب المقدورة فى خلق الله من إبطال الأسباب المشروعة فى أمر الله ، كالذين يظنون أن مايحصل بالدعاء والأعمال الصالحة وغير ذلك من الخيرات إن كان مقدراً حصل بدون ذلك ، وإن لم يكن مقدراً لم يحصل بذلك ، وهؤلاء كالذين قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم: أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب . فقال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » وفى السنن أنه قيل يارسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها وأرقية

نسترقى بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً فقال : «هى من قدر الله» ولهذا قال من قال من العلماء الالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا تغيير فى وجوه العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع ، والله سبحانه خلق الأسباب والمسببات ، وجعل هذا سببا لهذا فاذا قال القائل : إن كان هذا مقدوراً حصل بدون السبب وإلا لم يحصل .

جوابه : أنه مقدور بالسبب وليس مقدوراً بدون السبب كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : «إن الله خلق للجنة خلقا خلقها لهم وهم فى أصلاب آبائهم وبعمل أهل النار يعملون» وقال صلى الله عليه وسلم : «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : «إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقى أو سعيد ثم ينفخ فى الروح فوالذى نفسى بيده ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» فبين صلى الله عليه وسلم أن هذا يدخل الجنة بالعمل الذى يعمله ويختم له به ، وهذا يدخل النار بالعمل الذى يعمله ويختم له به كما قال صلى الله عليه وسلم : «إنما الأعمال بالخواتيم» وذلك لأن جميع الحسنات

تحبط بالردة ، وجميع السيئات تغفر بالتوبة ، ونظير ذلك من صام ثم أفطر قبل الغروب أو صلى وأحدث عمداً قبل كمال الصلاة ثم أبطل عمله ، وبالجملة فالذى عليه سلف الأمة وأئمتها مابعث الله به رسله وأنزل كتبه ، فيؤمنون بخلق الله وأمره بقدره وشرعه بحكمه الكونى وحكمه الدينى وإرادته الكونية والدينية كما قال فى الأول : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجا كأنما يصعد فى السماء) وقال نوح عليه السلام :(ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم) وقال تعالى فى الإرادة الدينية : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقال : (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم) وقال : (ما يريد الله ليجعل عليكم فى الدين من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم) وهم مع إقرارهم بأن الله خالق كل شىء وربه ومليكه وأنه خلق الأشياء بقدرته ومشيئته ، يقرون بأنه لا إله إلا هو ، لا يستحق العبادة غيره ، ويطيعونه ويطيعون رسله ، ويحبونه ويرجونه ويخشونه ويتكلون عليه وينيبون إليه ويوالون أولياءه ويعادون أعداءه ، ويقرون بمحبته لما أمر به ، ولعباده المؤمنين أيضا ورضاه بذلك وبغضه لما نهى عنه وللكافرين وسخطه لذلك ومقته له ، ويقرون بما استفاض عن النبي صلى الله عليه وسلم : « من أن الله أشد فرحا بتوبة عبده التائب من رجل أضل راحلته ، بأرض دوية مهلكة عليها طعامه وشرابه فطلبها فلم يجدها فقال تحت شجرة فلما استيقظ إذا بدابته عليها طعامه وشرابه ، فالله أشد فرحا بتوبة عبده من هذا براحلته » .

فهو إلههم الذى يعبدونه وربهم الذى يسألونه كما قال تعالى : (الحمد لله

رب العالمين — إلى قوله — إياك نعبد وإياك نستعين) فهو المعبود المستعان والعبادة تجمع كمال الحب مع كمال الذل ، فهم يحبونه أعظم مما يحب كل محب لمحبوبه كما قال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله) وكل مايحبونه سواه فانما يحبونه لأجله كما فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لايحبه إلا لله ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار » وفى الترمذى وغيره : « أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله ومن أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان » وهو سبحانه يحب عباده المؤمنين .

وكمال الحب هو الخلة التى جعلها الله لابراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، فإن الله اتخذ ابراهيم خليلا واستفاض عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الصحيح من غير وجه انه قال : « إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا » وقال : « لو كنت متخذا خليلا من أهل الأرض لاتخذت أبابكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله » يعنى نفسه ولهذا اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة وأهل المعرفة ، ان الله نفسه يحب ويحب وأنكرت الجهمية ومن تبعهم محبته ، وأول من أنكر ذلك : الجعد بن درهم شيخ الجهم بن صفوان ، فضحى به خالد ابن عبد الله القسرى بواسط وقال : يا أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فانى مضح بالجعد بن درهم انه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ، ثم نزل فذبحه وهذا أصل مسألة إبراهيم الذى جعله الله إماما للناس قال تعالى : (وإذ ابتلى

ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماماً) وقال : (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا) ومن قال ان المراد بمحبة الله محبة التقرب إليه فقوله متناقض ، فان محبة التقربُ إليه تبع لمحبته ، فمن أحب الله نفسه أحب التقرب إليه ، ومن كان لايحبه نفسه امتنع أن يحب التقرب إليه ، وأما من كان لايطيعه ولايمتثل أمره إلا لأجل غرض آخر ، فهو فى الحقيقة إنما يحب ذلك الغرض الذى عمل لأجله ، وقد جعل طاعة الله وسيلة إليه ، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد يا أهل الجنة ان لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه فيقولون ماهو ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعطاهم شيئاً أحب اليهم من النظر إليه » وهو الزيادة فأخبر ان النظر اليه أحب اليهم من كل مايتنعمون فيه ، ومحبة النظر اليه تبع لمحبته ، فانما أحبوا النظر اليه لمحبتهم إياه ، وما من مؤمن إلا ويجد فى قلبه محبة الله وطمأنينة بذكره وتنعماً بمعرفته ولذة وسروراً بذكره ومناجاته ، وذلك يقوى ويضعف ويزيد وينقص بحسب إيمان الخلق ، فكل من كان إيمانه أكمل كان تنعمه بهذا أكمل ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى رواه أحمد وغيره : «حبب إلى من دنياكم النساء والطيب — ثم قال — وجعلت قرة عينى فى الصلاة » وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « أرحنا بالصلاة يابلال » وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن عباده المؤمنين يحبونه وهو يحبهم سبحانه ، وحبهم له بحسب فعلهم لما يحبه كما فى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله

عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ولايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه وماترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه » .

فقد بين أن العبد إذا تقرب إلى الله بما يحبه من النوافل بعد الفرائض أحبه الله ، لحب الله لعبده بحسب فعل العبد لما يحبه الله وما يحبه الله من عبادته وطاعته فهو تبع لحب نفسه ، وحب ذلك هو سبب حب عباده المؤمنين فكان حبه للمؤمنين تبعاً لحب نفسه ، فالمؤمنون وإن كانوا يحمدون ربهم ويثنون عليه فهم لايحصون ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه كما فى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « اللهم انى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» وفى الصحيح أنه قال: «لاأحد أحب اليه المدح من الله» من أجل ذلك مدح نفسه . وقال له الأسود بن سريع : إنى حمدت ربى فقال: إن ربك يحب الحمد فهو يحب حمد العباد له وحمده لنفسه أعظم من حمد العباد له ويحب ثناءهم عليه وثناؤه على نفسه أعظم من ثنائهم عليه ، وكذلك حبه لنفسه وتعظيمه لنفسه فهو سبحانه أعلم بنفسه من كل أحد ، وهو الموصوف بسمات الكمال التى لايبلغها عقول الخلائق ، فالعظمة إزاره ، والكبرياء رداؤه وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قرأ: « وما قدروا الله حق قدره

والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه قال : يقبض الله الأرض ويطوى السموات بيمينه ثم يهزهن ثم يقول : أنا الملك أنا القدوس أنا السلام أنا المؤمن أنا المهيمن أنا الذى بدأت الدنيا ولم تك شيئاً أنا الذى أعيدها ، وفى رواية : يحمد الرب نفسه فهو يحمد نفسه ويثنى عليها ويمجد نفسه سبحانه ، وهو الغنى بنفسه لايحتاج إلى أحد غيره بل كل ماسواه فقير اليه يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن وهو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فاذا فرح بتوبة التائب وحب من تقرب إليه بالنوافل ورضى عن السابقين الاولين ، لم يجز أن يقال هو مفتقر بذلك إلى غيره ولامستكمل بسواه ، فانه هو الذى خلق هؤلاء وهداهم وأعانهم حتى فعلوا مايحبه ويرضاه ويفرح به ، فهذه المحبوبات لم تحصل إلا بقدرته ومشيئته وخلقه ، فله الملك لاشريك له ، وله الحمد فى الأولى والآخرة ، وله الحكم واليه ترجعون ، فهذا ونحوه يحتج به الجمهور الذين يثبتون لأفعاله حكمة تتعلق به يحبها ويرضاها ويفعل لأجلها قالوا وقول القائل : إن هذا يقتضى أنه مستكمل بغيره فيكون ناقصاً قبل ذلك .

فعنه أجوبة . أحدها : أن هذا منقوض بنفس مايفعله من المفعولات ، فما كان جوابا فى المفعولات كان جوابا عن هذا ، ونحن لانعقل فى الشاهد فاعلا لامستكملا بفعله .

الثانى : أنهم قالوا : كماله أن يكون لايزال قادراً على الفعل بحكمة ، فلوقدر كونه غير قادر على ذلك لكان ناقصاً .

الثالث : قول القائل : أنه مستكمل بغيره باطل ، فان ذلك إنما حصل بقدرته ومشيئته لاشريك له فى ذلك ، فلم يكن فى ذلك محتاجا إلى غيره ، وإذا قيل كمل بفعله الذى لايحتاج فيه إلى غيره ، كان كما لوقيل كمل بصفاته أو بذاته .

الرابع : قول القائل : كان قبل ذلك ناقصاً ، ان أراد به عدم ما تجدد فلا نسلم أن عدمه قبل ذلك الوقت الذى اقتضت الحكمة وجوده فيه يكون نقصا ، وان أراد بكونه ناقصاً معنى غير ذلك فهو ممنوع ، بل يقال عدم الشىء فى الوقت الذى لم تقتض الحكمة وجوده فيه من الكمال ، كما أن وجوده فى وقت اقتضاء الحكمة وجود كمال ، فليس عدم كل شىء نقصاً بل عدم مايصلح وجوده هو النقص ، كما أن وجود مالايصلح وجوده نقص ، فتبين أن وجود هذه الأمور حين اقتضت الحكمة عدمها هو النقص ، لا أن عدمها هو النقص ، ولهذا كان الرب تعالى موصوفاً بالصفات الثبوتية المتضمنة لكماله ، وموصوفا بالصفات السلبية المستلزمة لكماله أيضاً ، فكان عدم ماينفى عنه هو من الكمال ، كما أن وجود مايستحق ثبوته من الكمال ، وإذا عقل مثل هذا فى الصفات فكذلك فى الأفعال ونحوها ، وليس كل زيادة يقدرها الذهن من الكمال ، بل كثير من الزيادات تكون نقصاً فى كمال المزيد كما يفعل مثل ذلك فى كثير من الموجودات ، والانسان قد يكون وجود أشياء فى وقت نقصاً وعيباً فى حقه ، وفى وقت آخر كمالا ومدحاً فى حقه ، كما يكون فى وقت مضرة له وفى وقت منفعة له .

الخامس : أنا إذا قدرنا من يقدر على إحداث الحوادث لحكمة ، ومن

لا يقدر على ذلك كان معلوما ببديهة العقل ، أن القادر على ذلك أكمل ، مع أن الحوادث لا يمكن وجودها إلا حوادث لا تكون قديمة ، وإذا كانت القدرة على ذلك أكمل، وهذا المقدور لا يكون إلا حادثاً كان وجوده هو الكمال وعدمه قبل ذلك من تمام الكمال ، وعدم الممتنع الذى هو شرط فى وجود الكمال .

ثم الجمهور القائلون بهذا الأصل هنا ثلاث فرق : فرقة تقول : إرادته وحبه ورضاه ونحو هذا قديم ولم يزل راضياً عمن علم أنه يموت مؤمناً ، ولم يزل ساخطاً على من علم أنه يموت كافراً ، كما يقول ذلك من يقوله من الكلابية وأهل الحديث والفقهاء والصوفية ، فهؤلاء لا يلزمهم التسلسل لأجل حلول الحوادث ، لكن يعارضهم الأكثرون الذين ينازعونهم فى الحكمة المحبوبة كما ينازعونهم فى الإرادة ، فانهم قالوا إذا كانت الارادة قديمة لم تزل ونسبتها إلى جميع الأزمنة والحوادث سواء ، فاختصاص زمان دون زمان بالحدوث ، ومفعول دون مفعول تخصيص بلا مخصص قال أولئك : الارادة من شأنها أن تخصص . قال لهم المعارضون : من شأنها جنس التخصيص ، وأما تخصيص هذا المعين على هذا المعين فليس من لوازم الارادة ، بل لابد من سبب يوجب اختصاص أحدهما بالارادة دون الآخر ، والانسان يجد من نفسه أنه يخصص بارادته ولكنه يعلم أنه لايريد هذا دون هذا إلا لسبب اقتضاء التخصيص ، وإلا فلو تساوى ما يمكن إرادته من جميع الوجوه امتنع تخصيص الارادة لواحد من ذلك دون أمثاله ، فان هذا ترجيح بلا مرجح ، ومتى جوز هذا انسد باب إثبات الصانع . قالوا : ومن تدبر هذا وأمعن النظر فيه علمه حقيقة ، وإنما ينازع فيه من يقلد قولا

قاله غيره من غير اعتبار لحقيقته ، وهكذا يقول الجمهور إذا كان الله تعالى راضياً فى أزله ومحباً وفرحا بما يحدثه قبل أن يحدثه ، فاذا أحدثه هل حصل باحداثه حكمة يحبها ويرضاها ويفرح بها أو لم يحصل إلا ما كان فى الأزل، فان قلتم لم يحصل إلا ما كان فى الأزل قيل : ذاك كان حاصلا بدون ماأحدثه من المفعولات ، فامتنع أن تكون المفعولات فعلت لكى يحصل ذاك فقولكم كما تضمن أن المفعولات تحدث بلا سبب يحدثه الله ، تتضمن أنه يفعلها بلا حكمة يحبها ويرضاها . قالوا : فقولكم يتضمن نفى إرادته المقارنة ومحبته وحكمته التى لا يحصل الفعل إلا بها .

والفرقة الثانية : قالوا ان الحكمة المتعلقة به تحصل بمشيئته وقدرته كما يحصل الفعل بمشيئته وقدرته ، كما يقول ذلك من يقوله من الكلابية وأهل الحديث والصوفية . قالوا : وإن قام ذلك بذاته فهو كقيام سائر ما أخبر به من صفاته وأفعاله بذاته ، والمعتزلة تنفى قيام الصفات والأفعال به ، وتسمى الصفات أعراضاً والأفعال حوادث ، ويقولون : لا تقوم به الأعراض ولا الحوادث ، فيتوهم من لم يعرف حقيقة قولهم أنهم ينزهون الله تعالى عن النقائص والعيوب والآفات ، ولا ريب أن الله يجب تنزيهه عن كل عيب ونقص وآفة ، فانه القدوس السلام الصمد السيد الكامل فى كل نعت من نعوت الكمال ، كما لا يدرك الخلق حقيقته منزهاً عن كل نقص تنزيهاً لايدرك الخلق كماله ، وكل كمال ثبت لموجود من غير استلزام نقص فالخالق تعالى أحق به وأكمل فيه منه ، وكل نقص تنزه عنه مخلوق فالخالق أحق بتنزيهه عنه وأولى ببراءته منه .

روينا من طريق غير واحد كعثمان بن سعيد الدارمى وأبى جعفر الطبرى

والبيهق وغيرهم ، فى تفسير على بن أبي طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : (الصمد) قال السيد الذى كمل فى سؤدده ، والشريف الذى قد كمل فى شرفه ، والعظيم الذى قد كمل فى عظمته ، والحكيم الذى قد كمل فى حكمته ، والغنى الذى قد كمل فى غناه ، والجبار الذى قد كمل فى جبروته ، والعالم الذى قد كمل فى علمه ، والحليم الذى قد كمل فى حلمه ، وهو الذى قد كمل فى أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله عز وجل ، هذه صفته لاتنبغى إلا له ليس له كفؤ ولا كمثله شيء سبحانه الواحد القهار ، وهذا التفسير ثابت عن عبدالله ابن أبي صالح عن على بن أبي طلحة الوالبي ، لكن يقال أنه لم يسمع التفسير عن ابن عباس ، ولكن مثل هذا الكلام ثابت عن السلف ، وروى عن سعيد بن جبير أنه قال : (الصمد) الكامل فى صفاته وأفعاله ، وثبت عن أبي وائل شقيق ابن سلمة أنه قال : (الصمد) السيد الذى انتهى سؤدده ، وهذه الأقوال وما أشبهها لا تنافى ما قاله كثير من السلف كسعيد بن المسيب ، وابن جبير ، ومجاهد ، والحسن ، والسدى ، والضحاك وغيرهم ، من أن (الصمد) هو الذى لا جوف له ، وهذا منقول عن ابن مسعود وعن عبد الله ابن بريدة عن أبيه موقوفا أو مرفوعا فان كلا القولين حق كما بسط الكلام عليه ، ولفظ الاعراض فى اللغة قد يفهم منه ما يعرض للانسان من الأمراض ونحوها ، وكذلك لفظ الحوادث والمحدثات قد يفهم منه ما يحدثه الانسان من الأفعال المذمومة والبدع التى ليست مشروعة ، أو ما يحدث بالانسان من الأمراض ونحو ذلك ، والله تعالى يجب تنزيهه عما هو فوق ذلك مما فيه نوع نقص ، فكيف تنزيهه عن هذه الأمور ، ولكن لم يكن مقصود المعتزلة بقولهم هو منزه عن الأعراض والحوادث إلا نفى صفاته وأفعاله ، فعندهم لايقوم به علم ولا

قدرة ولا مشيئة ولا رحمة ولاحب ولا رضا ولا فرح ولا خلق ولاإحسان ولا عدل ولا إتيان ولا مجىء ولا نزول ولا استواء ولا غير ذلك من صفاته وأفعاله ، وجماهير المسلمين يخالفونهم فى ذلك ، ومن الطوائف من ينازعهم فى الصفات دون الأفعال ، ومنهم من ينازعهم فى بعض الصفات دون بعض ، ومن الناس من ينازعهم فى العلم القديم ويقول أن فعله قديم وإن كان المفعول محدثا كما يقول فى نظير من يقوله فى الارادة ، وبسطهذه الأقوال وذكر قائليها وأدلتهم مذكورة فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا التنبيه على مجامع أجوبة الناس عن السؤال المذكور ، وهذا الفريق الثانى إذا قال لهم الناس إذا أثبتم حكمة حدثت بعد أن لم تكن لزمكم التسلسل . قالوا : القول فى حدوث الحكمة كالقول فى سائر ماأحدثه من المفعولات ، ونحن نخاطب من يسلم لنا أنه إذا أحدث المحدثات بعد أن لم تكن ، فاذا قلنا أنه أحدثها بحكمة حادثة لم يكن له أن يقول هذا يستلزم التسلسل ، بل يقول له القول فى حدوث الحكمة كالقول فى حدوث المفعول الذى ترتبت عليه الحكمة فما كان جوابك عن هذا كان جوابنا عن هذا .

فلما خصم الفريق الثانى للفريق الأول ، قال لهم الفريق الثالث من أئمة الحديث والفقهاء والصوفية وأهل الكلام هذه حجة جدلية إلزامية ولم تشفوا الغليل بهذا الجواب ، وليس معكم فى الأدلة الشرعية ولا العقلية ما ينفى مثل هذا التسلسل ، بل التسلسل نوعان ، والدور نوعان ، أحدهما: التسلسل فى العلل والمعلولات فهذا ممتنع وفاقاً . والثانى: التسلسل فى الشروط والآثار ، فهذا فى جوازه

قولان معروفان للمسلمين وغيرهم ، وطوائف من أهل الكلام والحديث والفلسفة يجوزون هذا ، ومن هؤلاء السلف والأئمة الذين يقولون لم يزل الله متكلماً إذا شاء ، وأنه لم يزل يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال وغيرها ، وبين هؤلاء أن ما استدل به منازعوهم على نفى التسلسل فى الآثار، امتناع وجود مالا يتناهى فى الماضى أدلة ضعيفة كدليل ؛ المطابقة بين الجملتين مع زيادة أحدهما وكزيادة الشفع والوتر ونحو ذلك من الأدلة التى بين هؤلاء فسادها، ونقضوها عليهم بالحوادث فى المستقبل، وبعقود الاعداد وبمعلومات الله مع مقدوراته وغير ذلك مما قد بسط فى موضعه .

والدور نوعان: فالدور القبلى السبق ممتنع ، وأما الدور المعى الاقترانى وهو أن لا يكون هذا إلا مع هذا ، فهذا الدور فى الشروط وما أشبهها من المتضايفات والمتلازمات ، ومثل هذا جائز ، فهذه مجامع أجوبة الناس عن هذا السؤال وهى عدة أقوال :

الأول : قول من لا يعلل لا أفعاله ولا أحكامه .

والثانى : قول من يعلل ذلك بأمور مباينة له منفصلة عنه من جملة مفعولاته .

والثالث : قول من يعلل ذلك بأمور قائمة به متعلقة بقدرته ومشيئته لكن يقول جنسها حادث .

والرابع : قول من يعلل ذلك بأمور متعلقة بمشيئته وقدرته فان كان الفعل المقضى للحكمة حادث النوع كانت الحكمة كذلك ، وإن قدر أنه قام

به كلام أو فعل متعلق بمشيئته وأنه لم يزل كذلك كانت الحكمة كذلك ، ويكون النوع قديماً وإن كانت آحاده حادثة .

ويمكن الجواب عن السؤال بتقسيم حاصر بأن يقال : لا ريب أن الله عز وجل يحدث مفعولات لم تكن ، فإما أن تكون الأفعال المحدثة يجب أن يكون لها ابتداء ، ويجوز أن تكون غير متناهية فى الابتداء كما هى غير متناهية فى الانتهاء ، فان وجب أن يكون لها ابتداء أمكن حدوث الحوادث بدون تسلسلها ، فاذا قال القائل : لو فعل لعلة محدثة لكان القول فى حدوث تلك العلة كالقول فى حدوث معلولها ويلزم التسلسل ، كان جوابه على هذا التقدير : أن الحوادث يجب أن يكون لها ابتداء ، وإذا فعل الفعل لحكمة محدثة كان الفعل وحكمته محدثين ، ولا يجب أن يكون للعلة المحدثة علة محدثة إلا إذا جاز أن لا يكون للحوادث ابتداء ، فأما إذا جاز أن لا يكون لها ابتداء بطل هذا السؤال ، فكيف إذا وجب أن يكون لها ابتداء وإن قيل يجوز أن تكون الحوادث غير متناهية فى الابتداء ، كما أنها غير متناهية فى الانتهاء عند المسلمين وسائر أهل الحق ، ولم ينازع فى ذلك إلا بعض أهل البدع الذين يقولون بفناء الجنة والنار كما يقوله الجهم بن صفوان ، أو بفناء حركات أهل الجنة كما يقوله أبو الهذيل ، فان هذين أوجبا أن يكون لجنس الحوادث انتهاء ، كما يجوز أن يكون لها عندهم ابتداء ، وأكثر الذين وافقوهم على وجوب الابتداء خالفوهم فى الانتهاء وقالوا : لها ابتداء وليس لها انتهاء ، والأقوال الثلاثة معروفة فى طوائف المسلمين .

والمقصود هنا أن الجواب يحصل على التقديرين ، فمن جوز أن يكون لها

نهاية فى الابتداء جوز تسلسل الحوادث وقال : هـذا تسلسل فى الآثار والشروط لا تسلسل فى العلل والمؤثرات ، والممتنع إنما هو الثانى دون الأول ، وقال : أنه لا يقوم دليل على امتناع الثانى كما يقول ذلك طوائف من متقدمى أهل الكلام ومتأخريهم ، ومن أوجب أن يكون لها ابتداء قال فى حدوث العلة ما يقوله فى حدوث المفعول ، إذ لا فرق بينهما فى هذا المعنى .

ومن الأجوبة الحاصرة أن يقال : خلق الله إما أن يجوز تعليله أولا ، فان لم يجز تعليله كان هذا هو التقدير الأول ، وعلى هـذا التقدير فلا يسمى هذا عبثاً ، وإذا سماه المسمى عبثاً لم تكن تسميته عبثاً قدحاً فيما تحقق فانا نتكلم على تقدير امتناع التعليل ، وإذا كان النعليل ممتنعاً وجب القول به ، ولو سماه المسمى بأى شىء سماه ، وإن جاز تعليله فلا يخلو إما أن يجوز تعليله بعلة حادثة ، وإما أن لا يجوز ، فان قيل لا يجوز ذلك لزم كون العلة قديمة ، وامتنع على هذا التقدير قدم المعلول ، فانا نتكلم على تقدير جواز تعليل المفعول الحادث بعلة قديمة ، وإن قيل يجوز تعليله بعلة حادثة أمكن القول بذلك ، ثم إما أن يقال يجوز تعليل الحوادث بعلل متناهية للفاعل لئلا يلزم أن يقوم به شىء حادث يجب أن يقوم به لحكمة وإن كانت مقدورة مرادة له ، فإن قيل بالأول لزم كون العلة الحادثة منفصلة عنه ، ولزم على هذا كون الفاعل يحدث الحوادث بعد أن لم تكن لعلة حادثة بغيره من غير حدوث سبب يوجب أول الحوادث ، ولا قيام حادث بالمحدث ، وإن قيل بل لا يجوز أن يحدث الحوادث لغير معنى يعود إليه ، بل يجب أن يقوم به ما هو السبب والحكمة فى حدوث الحوادث فانه يجب القول بذلك ، ثم

إما أن يقال هذا يستلزم التسلسل أو لا يستلزمه ، فان قيل لا يستلزمه لم يكن التسلسل على هذا التقدير محذوراً ، لأن التقدير أنه يجوز تعليل أفعاله بعلة حادثة وأن ذلك يستلزم التسلسل ، ومن المعلوم أن الأمر الجائز لا يستلزم ممتنعاً ، فانه لو استلزم ممتنعاً لكان ممتنعاً بغيره وإن كان جائزاً بنفسه ، والتقدير أنه جائز جوازاً مطلقاً لا امتناع فيه ، وما كان جائزاً جوازاً مطلقاً لا امتناع فيه لم يلزمه ما يمتنع ثبوته ، فيكون التسلسل على هذا التقدير غير ممتنع ، فهذا جواب عن السؤال من غير التزام قول بعينه ، بل نبين أنه ليس فى نفس الأمر محذور ، ولكن السؤال مبنى على ست مقدمات : لزوم العبث وأنه منتف ، ولزوم قدم المفعول وأنه منتف ، ولزوم التسلسل وأنه منتف ، فصاحب القول الأول يقول : لا أسلم أنه يلزم العبث ، وصاحب القول الثانى يقول : لا أسلم أنه يلزم قدم المفعول ، وصاحب القول الثالث يقول : لا أسلم أنه يلزم التسلسل أو يقول : لا أسلم أن التسلسل فى الآثار ممتنع ، فهذه أربع ممانعات لا بد منها ، ويمتنع أن تكون كلها فاسدة بل لا بد من صحة واحد منها ، وأيها صح اندفع السؤال به وهو المقصود لأن القسمة العقلية تحصر من الأقسام فيما ذكر ، فمن توجه عنده أحد الأقسام قال به ، ونحن قد بسطنا الكلام على أصول هذه المسألة ولوازمها ، وأقوال الناس فيها فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا الذب عن مجموع المسلمين ، فان هذا السؤال مما أورده على الناس القائلون بقدم العالم ، وقد ذكرنا عنه أجوبة متعددة فيما كتبناه فى جواب شبهة القائلين بقدم العالم .

ومن جملة أجوبتهم أن يقال : هذا السؤال ليس مختصاً بحدوث العالم ،

بل هو وارد فى كل ما يحدث فى الوجود من الحوادث ، والحدوث مشهود محسوس متفق عليه بين العقلاء ، فكل ما يورده المورد على حدوث خلق السموات والأرض ، يورد عليه نظيره فى الحوادث المشهودة .

وقد نبهنا عن جنس ما تحتج به كل طائفة من الطوائف فى هذا المقام ، لكن استقصاء الكلام فى ذلك لا تسعه هذه الأوراق ، ومن فهم ما كتب انفتح له الكلام فى هذا الباب، وأمكنه أن يحصل تمام الكلام فى جنس هذه المسائل ، فإن الكلام فيها بالتدريج مقاماً بعد مقام هو الذى يحصل به المقصود ، وإلا فاذا هجم على القلب الجزم بمقالات لم يحكم أدلتها وطرقها والجواب عما يعارضها ، كان إلى دفعها والتكذيب بها أقرب منه إلى التصديق بها ، فلهذا يجب أن يكون الخطاب فى المسائل المشكلة بطريق ذكر كل قول ومعارضة الآخر له، حتى يتبين الحق بطريقه لمن يريد هدايته ، ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

تمت الرسالة الثامنة

ويليها الرسالة التاسعة : العقيدة الواسطية

الرسالة التاسعة

العقيدة الواسطية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقراراً به وتوحيدا ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما مزيدا .

اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة

أهل السنة والجماعة

الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره .

ومن الإيمان بالله : الإيمان بما وصف به نفسه فى كتابه ، وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل يؤمنون بأن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ويلحدون فى أسماء الله وآياته ، ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمى له ولا كفؤ له ولا ند له ، ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى ، فانه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثاً من خلقه ، ثم رسله صادقون مصدوقون بخلاف الذين يقولون عليه مالا يعلمون ، ولهذا قال سبحانه وتعالى : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل ، وسلام على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب ، وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه

بين النفى والاثبات ، فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاءت به المرسلون فانه الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وقد دخل فى هذه الجملة ماوصف به نفسه فى سورة الإخلاص التى تعدل ثلث القرآن حيث يقول : (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) وما وصف به نفسه فى أعظم آية من كتاب الله حيث يقول : (الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولانوم له مافى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولايؤده حفظهما (أى لايكرثه ولايثقله) وهو العلى العظيم) فلهذا كان من قرأ هذه الآية فى ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولايقربه شيطان حتى يصبح ، وقوله سبحانه وتعالى : (وتوكل على الحى الذى لايموت) وقوله سبحانه : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم) وقوله سبحانه : (هو العليم الخبير يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها وما ينزل من السماء ومايعرج فيها وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم مافى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولاحبة فى ظلمات الأرض ولارطب ولايابس إلا فى كتاب مبين وما تحمل من أنثى ولاتضع إلا بعلمه) وقوله : (ليعلموا أن الله على كل شىء قدير. وأن الله قد أحاط بكل شىء علما) وقوله : (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) وقوله: (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير). (إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيرا) وقوله : (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة إلا بالله). (ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ماجاءتهم البينات

ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر). (ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد). (أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد). (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجا كأنما يصعد فى السماء) وقوله: (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين). (وأقسطوا إن الله يحب المقسطين). (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين). (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين). (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه). (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص). (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) وقوله: (رضى الله عنهم ورضوا عنه) وقوله: (بسم الله الرحمن الرحيم). (ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً). (وكان بالمؤمنين رحيما). (كتب ربكم على نفسه الرحمة). (وهو الغفور الرحيم). (فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين) وقوله: (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه) وقوله: (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه) وقوله: (فلما آسفونا انتقمنا منهم ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم) وقوله: (كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) وقوله: (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور). (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك). (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا وجاء ربك والملك صفاً صفا). (يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا) وقوله: (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام)، (كل شىء هالك إلا وجهه) وقوله:

(مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى) . (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) وقوله : (واصبر لحكم ربك فانك باعيننا) وقوله : (وحملناه على ذات ألواح ودسر تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر) . (وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى) وقوله : (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما) . (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ماقالوا) . (أم يحسبون أنا لانسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون) . (اننى معكما أسمع وأرى) وقوله : (ألم تعلم بأن الله يرى). (الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين) . (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) وقوله : (شديد المحال) وقوله : (ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لايشعرون) وقوله : (انهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً) وقوله : (إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فان الله كان عفواً قديرا) . (وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) وقوله: (فلله العزة ولرسوله). (فبعزتك لأغوينهم أجمعين)وقوله : (تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام) وقوله : (فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) . (ولم يكن له كفواً أحد) . (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون). (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله) . (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً) . (يسبح لله مافى السموات ومافى الأرض). (له الملك وله الحمد يحى ويميت وهو على كل شىء قدير) . (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا الذى له ملك السموات والأرض ولم

يتخذ ولداً) . (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) . (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون) . (فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لاتعلمون) (قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالاتعلمون) وقوله : (الرحمن على العرش استوى) . (ثم استوى على العرش) . فى ستة مواضع : (ياعيسى انى متوفيك ورافعك إلى). (بل رفعه الله اليه). (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) . (ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فاطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا) . (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هى تمور أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير) وقوله : (هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها وماينزل من السماء ومايعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) . (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولاخمسة إلا هو سادسهم ولاأدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم) . (لاتحزن إن الله معنا) . (إننى معكما أسمع وأرى). (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) . (واصبروا إن الله مع الصابرين) . (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) وقوله : (ومن أصدق من الله حديثاً) . (ومن أصدق من الله قيلا). (وإذ قال الله ياعيسى بن مريم) . (وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا) . (وكلم الله

موسى تكليما) . (منهم من كلم الله) . (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه). (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً) . (وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين) . (وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة) . (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) . (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) . (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) . (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه) . (يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا) . (واتل ما أوحى اليك من كتاب ربك لامبدل لكلماته) . (إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل) . (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) . (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعامن خشية الله) . (وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بماينزل قالوا إنما أنت مفتربل أكثرهم لايعلمون). (قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنـوا وهدى وبشرى للمسلمين) . (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) . (وجوه يومئـذ ناضرة إلى ربها ناظرة) . (على الآرائك ينظرون) . (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) . (لهم مايشاءون عند ربهم) . (لهم مايشاءون فيها ولدينا مزيد) .

وهذا الباب فى كتاب الله تعالى كثير من تدبر القرآن طالب الهدى منه تبين له طريق الحق ، ثم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه وتعبر عنه ، وما وصف الرسول به ربه من الأحاديث الصحاح التى تلقاها أهل المعرفة بالقبول وجب الإيمان بها ، كذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر

فيقول من يدعونى فأستجيب له من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له، متفق عليه وقوله صلى الله عليه وسلم : « لله أشد فرحا بتوبة عبده من أحدكم براحلته » الحديث متفق عليه وقوله صلى الله عليه وسلم : « يضحك الله إلى رجلين أحدهما يقتل الآخر كلاهما يدخل الجنة » متفق عليه وقوله : « عجب ربنا من قنوط عباده وقرب خيره ينظر اليكم أذلين قنطين يظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب » حديث حسن وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه — وفى رواية عليها قدمه — فينزوى بعضها إلى بعض وتقول قط قط » متفق عليه وقوله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله يا آدم فيقول لبيك وسعديك فينادى بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار» متفق عليه وقوله فى رقية المريض: « ربنا الله الذى فى السماء تقدس اسمك أمرك فى السماء والارض كما رحمتك فى السماء اجعل رحمتك فى الأرض اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع » رواه أبو داود وقوله صلى الله عليه وسلم : « ألا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء » رواه البخارى وغيره وقوله : « والعرش فوق ذلك والله فوق ذلك والله فوق عرشه وهو يعلم ما أنتم عليه » رواه أبو داود والترمذى وغيرهما وقوله صلى الله عليه وسلم : « للجارية أين الله قالت فى السماء قال من أنا قالت أنت رسول الله قال أعتقها فانها مؤمنة » رواه مسلم وقوله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت » حديث حسن وقوله : « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فان الله قبل وجهه فلا يبصق قبل وجهه ولا عن يمينه ولكن عن يساره أو تحت قدمه » متفق عليه وقوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم

رب السموات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والقرآن أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عني الدين واغنني من الفقر » رواه مسلم وقوله لما رفع أصحابه أصواتهم بالذكر : « أيها الناس أربعوا على أنفسكم فانكم لاتدعون أصم ولا غائباً انما تدعون سميعاً قريباً ان الذين تدعونه أقرب الى أحدكم من عنق راحلته » متفق عليه وقوله : « انكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لاتضامون فى رؤيته فان استطعتم أن لاتغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة بعد غروبها فافعلوا » متفق عليه الى أمثال هذه الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه بما يخبر به .

﴿ فان الفرقة الناجية ﴾ أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك كما يؤمنون بما أخبر الله به فى كتابه من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل هم الوسط فى فرق الأمة كما أن الأمة هى الوسط فى الامم ، فهم وسط فى باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية ، وأهل التمثيل المشبهة ، وهم وسط فى باب أفعال الله تعالى بين القدرية والجبرية ، وفى باب وعيد الله بين المرجئة وبين الوعيدية من القدرية وغيرهم ، وفى باب الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية ، وفى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الخوارج وبين الروافض .

وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله، الإيمان بما أخبر الله به فى كتابه

وتواتر عن رسوله صلى الله عليه وسلم وأجمع عليه سلف الأمة ، من أنه سبحانه فوق سمواته على عرشه عليّ على خلقه وهو معهم سبحانه أينما كانوا ، يعلم ماهم عاملون كما جمع بين ذلك فى قوله : (هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم. والله بما تعملون بصير) وليس معنى قوله : وهو معكم أينما كنتم .أنه مختلط بالخلق فان هذا لاتوجبه اللغة ، وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة، وخلاف مافطر الله عليه الخلق ، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته هو موضوع فى السماء ، وهو مع المسافر أينما كان،وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطلع اليهم، إلى غير ذلك من معانى ربوبيته ، وكل هذا الكلام الذى ذكره الله من أنه فوق العرش وأنه معنا ، حق على حقيقته لايحتاج إلى تحريف ، ولكن يصان عن الظنون الكاذبة ، ودخل فى ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه كما قال تعالى : (وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » وما ذكر فى الكتاب والسنة من قربه ومعيته لاينافى ماذكر من علوه وفوقيته ، فانه سبحانه ليس كمثله شيء فى جميع نعوته، وهو عليّ فى دنوه، قريب فى علوه .

ومن الإيمان به وبكتبه : الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدا واليه يعود ، وان الله تكلم به حقيقة ، وان هذا القرآن الذى أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره ، ولايجوز

اطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله أو عبارة ، بل إذا قرأه الناس أو كتبوه فى المصاحف ، لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله حقيقة ، فان الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئاً لا إلى من قاله مبلغاً مؤدياً ، وقد دخل أيضاً فيما ذكرناه من الإيمان به وبكتبه وبرسله ، والايمان بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة عياناً بأبصارهم ، كما يرون الشمس صحواً ليس دونها سحاب ، وكما يرون القمر ليلة البدر لا يضامون فى رؤيته ، يرونه سبحانه وهم فى عرصات القيامة ، ثم يرونه بعد دخول الجنة كما يشاء الله سبحانه وتعالى .

ومن الإيمان باليوم الآخر : الإيمان بكل ما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم مما يكون بعد الموت ، فيؤمنون بفتنة القبر ، وبعذاب القبر وبنعيمه ، فأما الفتنة : فان الناس يفتنون فى قبورهم فيقال للرجل : من ربك وما دينك ومن نبيك ، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت. فيقول المؤمن : الله ربى ، والإسلام دينى ، ومحمد نبيي صلى الله عليه وسلم ، وأما المرتاب فيقول آه آه لا أدرى سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته ، فيضرب بمرزبة من حديد يصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعها الإنسان لصعق ، ثم بعد هذه الفتنة إما نعيم وإما عذاب إلى يوم القيامة الكبرى ، فتعاد الأرواح إلى الأجساد ، فتقوم القيامة التى أخبر الله تعالى بها فى كتابه على لسان رسوله ﷺ وأجمع عليها المسلمون ، فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين : حفاة عراة غرلا وتدنو منهم الشمس ، ويلجمهم العرق وتنصب الموازين ، فتوزن فيها أعمال العباد ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ، وتنشر الدواوين وهى صحائف الأعمال فآخذ كتابه بيمينه ، وآخذ كتابه بشماله ، أو من وراء ظهره ، كما قال سبحانه :

(وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) ويحاسب الله الخلائق ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه كما وصف ذلك فى الكتاب والسنة ، وأما الكفار فلا يحاسبون حساب من توزن حسناته وسيآته فانهم لاحسنات لهم ، ولكن تعد أعمالهم وتحصر فيوقفون عليها ويقررون بها ويجزون بها ، وفى عرصة القيامة الحوض المورود لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، آنيته عدد نجوم السماء ، طوله شهر ، وعرضه شهر ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً ، والصراط منصوب على متن جهنم ، وهو الجسر الذى بين الجنة والنار يمر الناس عليه على قدر أعمالهم ، فمنهم من يمر كلمح البصر ، ومنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كالفرس الجواد ، ومنهم من يمر كركاب الابل ، ومنهم من يعدو عدوا ومنهم من يمشى مشياً ، ومنهم من يزحف زحفاً ، ومنهم من يخطف فيلقى فى جهنم فان الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم ، فمن مر على الصراط دخل الجنة ، فاذا عبروا عليه وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض ، فاذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة .

وأول من يستفتح باب الجنة محمد صلى الله عليه وسلم وأول من يدخل الجنة .

وله فى القيامة ثلاث شفاعات : أما الشفاعة الأولى : فيشفع فى أهل الموقف حتى يقضى بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء : آدم ، نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى بن مريم — الشفاعة حتى تنتهى اليه ، وأما الشفاعة الثانية : فيشفع فى أهل الجنة أن يدخلوا الجنة ، وهاتان الشفاعتان خاصتان له وأما

الشفاعة الثالثة : فيشفع فيمن استحق النار ، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم ، فيمن استحق النار أن لا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها ، ويخرج الله من النار أقواما بغير شفاعة بل بفضل رحمته ، ويبقى فى الجنة فضل عمن دخلها من أهل الدنيا ، فينشيء الله له أقواما فيدخلهم الجنة وأصناف ما تتضمنه الدار الآخرة من الحساب والعقاب والجنة والنار، وتفاصيل ذلك مذكورة فى الكتب المنزلة من السماء والآثارة من العلم المأثورة عن الأنبياء ، وفى العلم الموروث عن محمد صلى الله عليه وسلم من ذلك ، ما يشفى ويكفى فمن ابتغاه وجده .

وتؤمن الفرقة الناجية من أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره ، والايمان بالقدر على درجتين : كل درجة تتضمن شيئين فالدرجة الأولى : الايمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذى هو موصوف به أزلا وأبداً ، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصى والأرزاق والآجال ، ثم كتب الله تعالى فى اللوح المحفوظ مقادير الخلائق فأول ما خلق الله القلم فقال: اكتب . فقال : ما أكتب؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، جفت الأقلام وطويت الصحف كما قال سبحانه : (ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير) وقال: (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها) وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون فى مواضع جملة وتفصيلا ، فقد كتب فى اللوح المحفوظ ما شاء ، فاذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه ، بعث اليه ملكا فيؤمر بأربع كلمات فيقال له : اكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أم سعيد ونحو

ذلك ، فهذا القدر قد كان ينكره غلاة القدرية قديماً ومنكروه اليوم قليل ، وأما الدرجة الثانية : فهو مشيئة الله تعالى النافذة ، وقدرته الشاملة ، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن،وأنه ما فى السموات والأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه ، لايكون فى ملكه إلا ما يريد،وأنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات ، فما من مخلوق فى الأرض ولا فى السماء إلا الله خالقه سبحانه لاخالق غيره ولا رب سواه ، وقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله،ونهاهم عن معصيته ، وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين ، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولا يرضى عن القوم الفاسقين ، ولا يأمر بالفحشاء ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يحب الفساد .

والعباد فاعلون حقيقة ، والله خالق أفعالهم ، والعبد هو المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والمصلى والصائم ، وللعباد قدرة على أعمالهم وإرادة ، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم كما قال : (لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم النبي صلى الله عليه وسلم مجوس هذه الأمة ، ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات حتى يسلبوا العبد قدرته واختياره ، ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها .

ومن أصول الفرقة الناجية ، أن الدين والإيمان قول وعمل ، قول القلب واللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح ، وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصى والكبائر كما

يفعله الخوارج ، بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصى كما قال سبحانه فى آية القصاص : (فمن عفى له من أخيه شيء) وقال : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة) .

ولا يسلبون الفاسق الملى اسم الإيمان بالكلية ويخلدونه فى النار كما تقول المعتزلة ، بل الفاسق يدخل فى اسم الإيمان فى مثل قوله : (فتحرير رقبة) ولا يدخل فى اسم الإيمان المطلق كما فى قوله : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس اليها فيها أبصارهم وهو حين ينتهبها مؤمن » ويقولون هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ، فلا يعطى الاسم المطلق ، ولا يسلب مطلق الإسم .

ومن أصول أهل السنة والجماعة : سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كما وصاهم الله فى قوله : (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم) وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله : « لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » ويقبلون ما جاء به الكتاب أو السنة أو الاجماع من فضائلهم ومراتبهم ، فيفضلون من أنفق من قبل الفتح وقاتل

وهو صلح الحديبية ، على من أنفق بعده وقاتل ، ويقدمون المهاجرين على الأنصار .

ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر وكانوا ثلاثمائةوبضعة عشر : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة ، كما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم ، بل قد رضى عنهم ورضوا عنه وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة .

ويشهدون بالجنة لمن شهد له النبي صلى الله عليه وسلم كالعشرة ، وكثابت ابن قيس بن شماس وغيرهم من الصحابة .

ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وغيره ، من أن خير هذه الأمة بعد نبيها : أبو بكر الصديق ، ثم عمر ، ثم يثلثون بعثمان ، ويربعون بعلى ، كما دلت عليه الآثار وكما أجمعت الصحابة على تقديم عثمان فى البيعة ، مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا فى عثمان وعلى بعد اتفاقهم على أبى بكر وعمر أيهما أفضل . فقدم قوم عثمان وسكتوا أو ربعوا بعلى ، وقدم قوم علياً وقوم توقفوا ، لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان ثم على ، وإن كانت هذه المسألة مسألة عثمان وعلى ، ليست من الأصول التى يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة ، لكن المسألة التى يضلل المخالف فيها مسألة الخلافة ، وذلك بأنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على . ومن طعن فى خلافة أحد من هؤلاء الأئمة ، فهو أضل من حمار أهله .

ويحبون أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رســـول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال فى يوم غدير خم : « أذكركم الله فى أهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى » وقال أيضا للعباس عمه وقد شكا إليه أن بعض قريش تجفو بنى هاشم فقال : « والذى نفسى بيده لايؤمنون حتى يحبونكم لله ولقرابتى » وقال : « إن الله اصطفى بنى إسماعيل واصطفى من بنى إسماعيل كنانة واصطفى من كنانة قريشاً واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم » .

ويتولون أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين ، ويقرون بأنهم أزواجه فى الآخرة ، خصوصاً خديجة أم أكثر الاولاد ، وأول من آمن به وعضده على أمره ، وكان لها منه المنزلة العلية ، والصديقة بنت الصديق ، التى قال النبي صلى الله عليه وسلم فيها : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » .

ويتبرءون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم ، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل .

ويمسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون : إن هذه الآثار المروية فى مساويهم منهـا ما هو كذب ، ومنها ما قد زيد ونقص وغير من وجهه ، والصحيح منه هم فيه معذورون ، إما مجتهدون مصيبون ، وإما مجتهدون مخطئون ، وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصـوم عن كبائر الإثم وصغائره ، بل يجوز عليهم الذنوب فى الجملة ولهم من السوابق والفضـائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر ، حتى أنه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم ، لأن لهم من الحسنات ما ليس لمن بعدهم ، وقد ثبت بقوله

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنهم خير القرون » فان المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهبا ممن بعدهم ، ثم إذا كان صدر عن أحد منهم ذنب فيكون قد تاب منه أو أتى بحسنات تمحوه ، أو غفر له بفضل سابقته أو بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم الذين أحق الناس بشفاعته ، أو ابتلى ببلاء فى الدنيا كفر عنه ، فاذا كان هـذا فى الذنوب المحققة فكيف بالأمور الذى كانوا فيها مجتهدين إن أصابوا فلهم أجران ، وإن أخطؤوا فلهم أجر واحد والخطأ مغفور .

ثم القدر الذى ينكر من فضل بعضهم قليل نزر مغمور فى جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الايمان بالله ورسوله ، والجهاد فى سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح ، ومن نظر فى سيرة القوم بعلم وبصيرة وما من الله به عليهم من الفضائل ، علم يقينا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء ، لا كان ولا يكون مثلهم ، فانهم الصفوة من قرون هذه الأمة، التى هى خير الأمم وأكرمها على الله .

ومن أصول أهل السنة : التصديق بكرامات الأولياء وما يجرى الله على أيديهم من خوارق العادات ، فى العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات ، كل المأثور عن سالف الأمم فى سورة الكهف وغيرها. وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر فرق الأمة ، وهى موجودة فيها إلى يوم القيامة .

ثم من طريقة أهل السنة والجماعة ، اتباع آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم باطنا وظاهراً ، واتباع سبيل السابقين الاولين من المهاجرين والأنصار، واتباع وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « عليكم بسنتى وسنة

الخلفاء الراشدين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فان كل بدعة ضلالة » .

ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويؤثرون كلام الله على غيره من كلام أخبار الناس، ويقدمون هدى محمد صلى الله عليه وسلم على هدى كل أحد .

وبهذا سموا أهل الكتاب والسنة ، وسموا أهل الجماعة ، لأن الجماعة هى الاجتماع وضدها الفرقة ، وإن كان لفظ الجماعة قد صار إسماً لنفس القوم المجتمعين ، والاجتماع هو الأصل الثالث الذى يعتمد عليه فى العلم والدين .

وهم يزنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أعمال وأفعال، باطنة أو ظاهرة مما له تعلق بالدين .

والاجتماع الذى ينضبط هو ما كان عليه السلف الصالح ، إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة .

ثم هم مع هذه الأصول ؛ يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، على ما توجبه الشريعة . ويرون إقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد مع الأمراء ، أبراراً كانوا أو فجاراً ويحافظون على الجماعات . ويدينون بالنصيحة للأمة ، ويعتقدون معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه » وقوله صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » . ويأمرون بالصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والرضا بمر القضاء . ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال. ويعتقدون معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أكمل المؤمنين إيمانا

أحسنهم خلقا » ويندبون إلى أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفوعمن ظلمك . ويأمرون ببر الوالدين ، وصلة الأرحام ، وحسن الجوار ، والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل ، والرفق بالمملوك ، وينهون عن الفخر والخيلاء والبغى ، والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق . ويأمرون بمعالى الأخلاق وينهون عن سفسافها . وكل ما يقولونه أويفعلونه من هذا أو غيره فإنما هم فيه متبعون الكتاب والسنة ، وطريقتهم هى دين الاسلام الذى بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم ، لكن لما أخبر صلى الله عليه وسلم : أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلهم فى النار إلا واحدة وهى الجماعة ، وفى حديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « هم من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابى » صار المتمثلون بالاسلام المحض الخالص عن المشوب : أهل السنة والجماعة . وفيهم الصديقون والشهداء والصالحون ، ومنهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى ، أولو المناقب المأثورة والفضائل المذكورة ، وفيهم الأبدال ، وفيهم الأئمة الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ، وهم الطائفة المنصورة التى قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة » .

فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم ، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب . والحمد لله رب العالمين ، وصلواته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه وعلى سائر النبيين وآل كل وسائر الصالحين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

تمت الرسالة التاسعة

ويليها الرسالة العاشرة : المناظرة فى العقيدة الواسطية

الرسالة العاشرة

المناظرة فى العقيدة الواسطية

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر ماوقع فى هذه العقيدة المباركة من الأبحاث التى جلاها جامعها للمعترضين .

نقل الشيخ علم الدين، أن الشيخ قدس سره قال فى مجلس السلطنة الافرم لما سأله عن اعتقاده ، وكان أحضر الشيخ عقيدته الواسطية . قال: هذه كتبتها من نحو سبع سنين قبل مجيء التتار إلى الشام فقرئت فى المجالس ، ثم نقل علم الدين عن الشيخ أنه قال : كان سبب كتابتها بعض قضاة واسط من أهل الخير والدين ، شكى ما الناس فيه ببلادهم فى دولة التتر، من غلبة الجهل والظلم ، ودروس الدين والعلم ، وسألنى أن أكتب له عقيدة . فقلت له : قد كتب الناس عقائد أئمة السنة فألح فى السؤال وقال : ما أحب إلا عقيدة تكتبها أنت ، فكتبت له هذه العقيدة وأنا قاعد بعد العصر ، فأشار الأمير لكاتبه فقرأها على الحاضرين حرفا حرفا، فاعترض بعضهم على قولى فيها :

ومن الإيمان بالله ؛ الإيمان بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، ومقصوده أن هذا ينفى التأويل الذى هو صرف اللفظ عن ظاهره، إما وجوبا وإما جوازاً . فقلت : إنى عدلت عن لفظ التأويل إلى لفظ التحريف ، لأن التحريف اسم جاء القرآن بذمه ، وأنا تحريت فى هذه العقيدة : اتباع الكتاب والسنة ، فنفيت ماذمه الله من التحريف ، ولم أذكر فيها لفظ التأويل لأنه لفظ له عدة معان كما بينته فى موضعه من القواعد ، فان معنى لفظ التأويل فى كتاب الله غير

لفظ التأويل فى اصطلاح المتأخرين من أهل الأصول والفقه ، وغير معنى لفظ التأويل فى اصطلاح كثير من أهل التفسير والسلف .

وقلت لهم : ذكرت فى النفى التمثيل ولم أذكر التشبيه ، لأن التمثيل نفاه الله بنص كتابه حيث قال : (ليس كمثله شيء) وأخذوا يذكرون نفى التشبيه والتجسيم ويطنبون فى هذا ، ويعرضون بما ينسبه بعض الناس إلينا من ذلك .

فقلت قولى من غير تكييف ولا تمثيل ينفى كل باطل ، وإنما اخترت هذين الاسمين لأن التكييف مأثور نفيه عن السلف كما قال : ربيعة ومالك وابن عيينة وغيرهم المقالة التى تلقاها العلماء بالقبول : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

فاتفق هؤلاء السلف على أن الكيف غير معلوم لنا ، فنفيت ذلك اتباعا لسلف الأمة وهو أيضا منفى بالنص ، فان تأويل آيات الصفات يدخل فيها حقيقة الموصوف ، وحقيقة صفاته غير معلومة ، وهذا من التأويل الذى لا يعلمه إلا الله ، كما قررت ذلك فى قاعدة مفردة ذكرتها فى التأويل والمعنى ، والفرق بين علمنا بمعنى الكلام ، وبين علمنا بتأويله .

وكذلك التمثيل منفى بالنص والاجماع القديم ، مع دلالة العقل على نفيه ونفى التكييف ، إذ كنه البارى غير معلوم للبشر .

وذكرت فى ضمن ذلك كلام الخطابى الذى نقل انه مذهب السلف ، وهو إجراء آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها ، مع نفى الكيفية والتشبيه عنها ، إذ الكلام فى الصفات فرع الكلام فى الذات يحتذى حذوه ، ويتبع فيه

مثاله ، فاذا كان اثبات الذات وجود لا إثبات تكييف ، فكذلك اثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات تكييف .

فقال أحد كبراء المخالفين : فحينئذ يجوز أن يقال هو جسم لا كالأجسام . فقلت له أنا وبعض الفضلاء : انما قيل أنه يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ، وليس فى الكتاب والسنة أن الله جسم حتى يلزم هذا .

وأول من قال ان الله جسم : هشام بن الحكم الرافضى ، وأما قولنا فهو فيهم الوسط فى فرق الأمة ، كما أن الأمة هى الوسط فى الأمم ، فهم وسط فى باب صفات الله بين أهل التعطيل الجهمية ، وأهل التمثيل المشبهة .

فقيل لى : أنت صنفت اعتقاد الامام أحمد . وأرادوا قطع النزاع لكونه مذهبا متبوعا . فقلت : ماخرجت إلا عقيدة السلف الصالح جميعهم ليس للامام أحمد اختصاص بهذا .

وقلت : قد أمهلت من خالفنى فى شىء منها ثلاث سنين ، فان جاء بحرف واحد عن القرون الثلاثة يخالف ماذكرته فانا أرجع عن ذلك ، وعلى أن آتى بنقول جميع الطوائف عن القرون الثلاثة يوافق ما ذكرته ، من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية والأشعرية وأهل الحديث وغيرهم .

ثم طلب المنازع الكلام فى مسألة الحرف والصوت . فقلت : هذا الذى يحكى عن أحمد وأصحابه ، ان صوت القارئين ومداد المصاحف قديم أزلى كذب مفترى ، لم يقل ذلك أحمد ولا أحد من علماء المسلمين ، وأخرجت كراسا

وفيه ما ذكره أبو بكر الخلال فى كتاب السنة عن الإمام أحمد ، وما جمعه صاحبه أبو بكر المروزى من كلام أحمد وكلام أئمة زمانه فى أن من قال : لفظى بالقرآن مخلوق فهو جهمى ، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع . قلت : فكيف بمن يقول لفظى أزلى فكيف بمن يقول صوتى قديم .

فقال المنازع : إنه انتسب إلى أحمد أناس من الحشوية والمشبهة ونحو هذا الكلام .

فقلت : المشبهة والمجسمة فى غير أصحاب الإمام أحمد أكثر منهم فيهم ، فهؤلاء أصناف الأكراد كلهم شافعية ، وفيهم من التشبيه والتجسيم مالايوجد فى صنف آخر ، وأهل جيلان فيهم شافعية وحنبلية ، وأما الحنبلية المحضة فليس فيهم من ذلك مافى غيرهم ، والكرامية المجسمة كلهم حنفية .

وقلت له : من فى أصحابنا حشوى بالمعنى الذى تريده؟ الأثرم . أبو داود. المروزى . الخلال . أبو بكر بن عبد العزيز . أبو الحسن التميمى . ابن حامد. القاضى أبو يعلى . أبو الخطاب . ابن عقيل ؟

ورفعت صوتى وقلت : سمهم قل لى من هم .

أبكذب ابن الخطيب وافترائه على النـــاس فى مذاهبهم تبطل الشريعة وتندرس معالم الدين ، كما نقل هو وغيره عنهم أنهم يقولون : القرآن القديم هو أصوات القارئين ، ومداد الكاتبين ، وان الصوت والمداد قديم أزلى .

من قال هذا وفى أى كتاب وجد منهم هذا قل لى ، وكما نقل عنهم أن الله لايرى فى الآخرة ، باللزوم الذى ادعاه والمقدمة التى نقلها عنهم .

ولما جاءت مسألة القرآن ، وأنه كلام الله غير مخلوق ، منه بدا واليه يعود ، نازع بعضهم فى كونه منه بدأ وإليه يعود وطلبوا تفسير ذلك .

فقلت : أما هذا القول فهو المأثور والثابت عن السلف ، مثل مانقله عمرو بن دينار . قال : أدركت الناس منذ سبعين سنة يقولون : الله الخالق وماسواه مخلوق إلا القرآن ، فانه كلام الله غير مخلوق منه بدا واليه يعود .

ومعنى منه بدا أى هو المتكلم به وهو الذى أنزله من لدنه ، ليس هو كما تقوله الجهمية أنه خلق فى الهواء أو غيره وبدأ من غيره .

وأما اليه يعود : فانه يسرى به فى آخر الزمان من المصاحف والصدور، فلا يبق فى الصدور منه كلمة ، ولا فى المصاحف منه حرف ، ووافق على ذلك غالب الحاضرين .

فقلت : هكذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ماتقرب العباد إلى الله بمثل ماخرج منه » يعنى القرآن وقال خباب بن الأرت : ياهنتاه تقرب إلى الله بما استطعت فلن يتقرب إلى الله بشىء أحب إليه مما خرج منه .

وقلت : وان الله تكلم به حقيقة ، وان هذا القرآن الذى أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره ، ولا يجوز اطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله ، أو عبارة بل إذا قرأ الناس القرآن أو كتبوه فى المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله ، فان الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبلغا مؤديا ، فامتعض بعضهم من إثبات كونه كلام الله حقيقة بعد تسليمه أن الله تكلم به حقيقة ، ثم أنه سلم ذلك لما بين له أن المجاز

يصح نفيه وهذا لايصح نفيه ، وأن أقوال المتقدمين المأثورة عنهم ، وشعر الشعراء المضاف اليهم هو كلامهم حقيقة ، ولما ذكر فيها أن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئاً لاإلى من قاله مبلغاً ،استحسنوا هذا الكلام وعظموه .

وذكرت ما أجمع عليه سلف الأمة : من أنه سبحانه فوق العرش وأنه معنى حق على حقيقته لايحتاج إلى تحريف ، ولكن يصان عن الظنون الكاذبة وليس معنى قوله : (وهو معكم أينما كنتم) أنه مختلط بالخلق ، فإن هذا لاتوجبه اللغة وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة ، وخلاف مافطر الله عليه الخلق ، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته ، وهو موضوع فى السماء وهو مع المسافر أينما كان .

ولما ذكرت أن جميع أسماء الله التى يسمى بها المخلوق كلفظ الوجود الذى هو مقول بالحقيقة على الواجب والممكن تنازع كبيران هل هو مقول بالاشتراك أو بالتواطؤ . فقال أحدهما : هو متواطىء ، وقال آخر : هو مشترك لئلا يلزم التركيب . وقال هذا قد ذكر فخر الدين ان هذا النزاع مبنى على أن وجوده هل هو عين ماهيته أم لا ، فمن قال أن وجود كل شىء عين ماهيته قال أنه مقول بالاشتراك ، ومن قال أن وجوده قدر زائد على ماهيته قال انه مقول بالتواطؤ ، فأخذ الاول يرجح قول من يقول : ان الوجود زائد على الماهية لينصر أنه مقول بالتواطؤ . فقال الثانى : مذهب الأشعرى وأهل السنة : أن وجوده عين ماهيته فأنكر الاول ذلك .

فقلت : أما متكلموا أهل السنة ، فعندهم أن وجود كل شىء عين ماهيته

وأما القول الآخر فهو قول المعتزلة : ان وجود كل شيء قدر زائد على ماهيته وكل منهما أصاب من وجه ، فان الصواب أن هذه الأسماء مقولة بالتواطؤ كما قد قررته فى غير هذا الموضع ، وأما بناء ذلك على كون وجود الشيء عين ماهيته أو ليس ، فهو من الغلط المضاف إلى ابن الخطيب ، فانا وإن قلنا أن وجود الشيء عين ماهيته لايجب أن يكون الاسم مقولا عليه وعلى نظيره بالاشتراك اللفظى فقط ، كما فى جميع أسماء الأجناس ، فان اسم السوادمقول علىهذا السواد ، وهذا السواد بالتواطؤ وليس عين هذا السواد هو عين هذا السواد ، إذ الاسم دال على القدر المشترك بينهما وهو المطلق الكلى ، لكنه لايوجد مطلقاً بشرط الإطلاق إلا فى الذهن ، ولايلزم من ذلك نفى القدر المشترك بين الأعيان الموجودة فى الخارج ، فانه على ذلك تنتفى الأسماء المتواطئة ، وهى جمهور الأسماء الموجودة فى اللغات ، وهى أسماء الأجناس اللغوية ، وهو الاسم المعلق على الشيء وما أشبهه ، سواء كان اسم عين أو اسم صفة جامداً أو مشتقاً ، وسواء كان جنساً منطقياً أو فقهياً أولم يكن ، بل اسم الجنس فى اللغة يدخل فيه الأجناس والأصناف والأنواع ونحو ذلك ، وكلها أسماء متواطئة وأعيان مسمياتها فى الخارج متميزة ، هذا آخر بعض ماعلقه الشيخ فيما يتعلق بالمناظرة، بحضرة نائب السلطنة والقضاة والفقهاء وغيرهم . قال الحافظ الذهبى ، ثم وقع الاتفاق على أن هـذا معتقد سلفى جيد .

تمت الرسالة العاشرة

ويليها الرسالة الحادية عشر : العقيدة الحموية الكبرى

الرسالة الحادية عشر

العقيدة الحموية الكبرى

بسم الله الرحمن الرحيم

ماقول السادة العلماء أئمة الدين أحسن الله اليهم أجمعين، فى آيات الصفات كقوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) وقوله : (ثم استوى إلى السماء) إلى غير ذلك من الآيات ، وأحاديث الصفات أيضاً كقوله صلى الله عليه وسلم : « إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن » وقوله : « يضع الجبار قدمه فى النار » إلى غير ذلك ، وما قالت العلماء فيه وليبسطوا القول فى ذلك مأجورين إن شاء الله تعالى .

فأجاب شيخنا شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رضى الله عنه وأرضاه :

الحمد لله رب العالمين . قولنا فيها ماقاله الله ورسوله والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان ، وما قاله أئمة الهدى بعد هؤلاء الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ، وهذا هو الواجب على جميع الخلق فى هذا الباب وفى غيره ، فان الله سبحانه وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور باذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، وشهد له بأنه بعثه داعياً اليه بإذنه ، وأمره أن يقول: هذه سبيلى ادعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى . ومن المحال فى العقل والدين أن يكون السراج المنير ، الذى أخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وأنزل معه الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وأمر الناس أن يردوا ماتنازعوا فيه من دينهم إلى مابعث به من الكتاب والحكمة ، وهو

يدعو إلى الله وإلى سبيله بإذنه على بصيرة ، وقد أخبره الله بأنه أكمل له ولأمته دينهم وأتم نعمته ، محال مع هذا وغيره أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبساً مشتبهاً ، ولم يميز مايجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العليا ، ومايجوز عليه ، ومايمتنع عليه ، فان معرفة هذا أصل الدين وأساس الهداية ، وأفضل وأوجب ما اكتسبته القلوب وحصلته النفوس وأدركته العقول ، فكيف يكون ذلك الكتاب ، وذلك الرسول ، وأفضل خلق الله بعد النبيين ، لم يحكموا هذا الباب اعتقاداً وقولا ، ومن المحال أيضاً أن يكون النبي صلى الله عليه سلم قد علم أمته كل شيء حتى الخراءة . وقال : « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها بعدى إلا هالك » وقال فيما صح عنه أيضاً : « مابعث الله من نبى إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينهاهم عن شر مايعلمه لهم » وقال أبو ذر : لقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه فى السماء إلا ذكرنا منه علماً . وقال عمر بن الخطاب : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً فذكر بدء الخلق ، حتى دخل أهل الجنة منازلهم ، وأهل النار منازلهم ، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه رواه البخارى . ومحال مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة فى الدين وإن دقت ، أن يترك تعليمهم مايقولونه بألسنتهم وقلوبهم فى ربهم ومعبودهم ، ورب العالمين الذى معرفته غاية المعارف ، وعبادته أشرف المقاصد ، والوصول إليه غاية المطالب ، هذا خلاصة الدعوة النبوية وزبدة الرسالة الإلهية ، فكيف يتوهم من فى قلبه أدنى مسكة من إيمان وحكمة أن لا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول على غاية التمام ، ثم إذا كان قد وقع ذلك منه ، فمن المحال أن خير أمة وأفضل قرونها قصروا فى هذا الباب زائدين فيه أو ناقصين عنه .

ثم من المحال أيضاً أن تكون القرون الفاضلة ، القرن الذى بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، كانوا غير عالمين وقائلين فى هذا الباب بغير الحق المبين ، لأن ضد ذلك اما عدم العلم والقول ، واما اعتقاد نقيض الحق وقول خلاف الصدق ، وكلاهما ممتنع . أما الأول : فلأن من فى قلبه أدنى حياة وطلب للعلم أو نهمة فى العبادة ، يكون البحث عن هذا الباب والسؤال عنه ومعرفة الحق فيه أكبر مقاصده وأعظم مطالبه ، وليست النفوس الصحيحة إلى شىء أشوق منها إلى معرفة هذا الأمر ، وهذا أمر معلوم بالفطرة الوجدية ، فكيف يتصور مع قيام هذا المقتضى الذى هو من أقوى المقتضيات ، أن يتخلف عنه مقتضاه فى أولئك السادة فى مجموع عصورهم ، هذا لايكاد يقع فى أبلد الخلق وأشدهم اعراضاً عن الله ، وأعظمهم اكبابا على طلب الدنيا والغفلة عن ذكر الله ، فكيف يقع فى أولئك .

وأما كونهم كانوا فيه معتقدين غير الحق أو قائليه ، فهذا لايعتقده مسلم ولا عاقل عرف حال القوم .

ثم الكلام فى هذا الباب عنهم أكثر من أن يمكن سطره فى هذه الفتوى أو أضعافها ، يعرف ذلك من طلبه وتتبعه ، ولايجوز أيضاً أن يكون الخالفون أعلم بالله من السالفين ، كما قد يقوله بعض الأغبياء ممن لم يقدر قدر السلف ، بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها ، من أن طريقة السلف أسلم ، وطريقة الخلف أعلم أو أحكم ، فان هذا القول إذا تدبره الانسان وجده فى غاية الجهالة بل فى غاية الضلالة ، كيف يكون هؤلاء المتأخرون لاسيما والاشارة بالخلف إلى ضرب من المتكلمين

الذين كثر فى باب الدين اضطرابهم ، وغلظ عن معرفة الله حجابهم ، وأخبر الواقف على نهاية إقدامهم بما انتهى اليه من مرامهم حيث يقول :

لعمرى قد طفت المعاهد كلها ... وسيرت طرفى بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر ... على ذقن أو قارعا سن نادم

وأقروا على أنفسهم بما قالوه متمثلين به ، أو منشئين له فيما صنفوه من كتبهم ، مثل قول بعض رؤسائهم :

نهاية إقدام العقول عقـــال ... وأكثر سعى العـالمين ضـلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا ... وحاصـــل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ويقول الآخر منهم : لقد خضت البحر الخضم ، وتركت أهل الإسلام وعلومهم ، وخضت فى الذى نهونى عنه ، والآن إن لم يتداركنى ربى برحمته فالويل لفلان وها أنا ذا أموت على عقيدة أمى .

ويقول الآخر منهم : أكثر الناس شكا عند الموت أصحاب الكلام ، ثم إذا حقق عليهم الأمر لم يوجد عندهم من حقيقة العلم بالله وخالص المعرفة به خبر ، ولا وقعوا من ذلك على عين ولا أثر ، كيف يكون هؤلاء المنقصون المحجوبون المفضولون المسبوقون الحيارى المنهوكون . أعلم بالله وآياته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان من ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل وأعلام الهدى ومصابيح الدجى ، الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا ، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر أتباع الأنبياء ، وأحاطوا

من حقائق المعارف وبواطن الحقائق بما لو جمعت حكمة غيرهم إليها ، لاستحيا من يطلب المقابلة ، ثم كيف يكون خير قرون الأمة أنقص فى العلم والحكمة ، لاسيما العلم بالله وأحكام أسمائه وآياته من هؤلاء الأصاغر بالنسبة إليهم ، أم كيف يكون أفراخ المتفلسفة واتباع الهند واليونان ، أعلم بالله من ورثة الأنبياء وأهل القرآن والإيمان ، وإنما قدمت هذه المقدمة لأن من استقرت هذه المقدمة عنده ، علم طريق الهدى أين هو فى هذا الباب وغيره، وعلم أن الضلال والتهوك إنما استولى على كثير من المتأخرين بنبذهم كتاب الله وراء ظهورهم ، وإعراضهم عما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم من البينات والهدى ، وتركهم البحث عن طريق السابقين والتابعين ، والتماسهم علم معرفة الله ، ممن لم يعرف الله باقراره على نفسه وبشهادة الأمة على ذلك وبدلالات كثيرة .

وليس غرضى واحداً معيناً ، وإنما أصف نوع هؤلاء ونوع هؤلاء ، وإذا كان كذلك فهذا كتاب الله من أوله إلى آخره ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من أولها إلى آخرها ، ثم عامة كلام الصحابة والتابعين ، ثم كلام سائر الأئمة مملوء بما هو إما نص وإما ظاهر ، فى أن الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء وعلى كل شيء، وأنه فوق العرش، وأنه فوق السماء مثل قوله: (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه). (إنى متوفيك ورافعك إلى). (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض). (أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً). (بل رفعه الله). (إليه تعرج الملائكة والروح إليه). (يخافون ربهم من فوقهم) ثم استوى على العرش فى ستة مواضع : (الرحمن على العرش استوى) . (ياهامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله

موسى وانى لأظنه كاذبا). (تنزيل من حكيم حميد). (منزل من ربك) إلى أمثال ذلك مما لا يكاد يحصى إلا بكلفة.

وفى الأحاديث الصحاح والحسان مالا يحصى، مثل قصة معراج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ربه، ونزول الملائكة من عند الله وصعودها إليه وقوله فى الملائكة «الذين يتعاقبون بالليل والنهار فيعرج الذين باتوا فيكم إلى ربهم فيسألهم وهو أعلم بهم» وفى الصحيح فى حديث الخوارج: «ألا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء يأتينى خبر السماء صباحاً ومساء» وفى حديث الرقية الذى رواه أبو داود وغيره: «ربنا الله الذى فى السماء تقدس اسمك أمرك فى السماء والأرض كما رحمتك فى السماء اجعل رحمتك فى الأرض اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع» وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا اشتكى أحد منكم أو اشتكى أخ من إخوانه فليقل ربنا الله الذى فى السماء» وذكره وقوله فى حديث الأوعال: «والعرش فوق ذلك والله فوق عرشه وهو يعلم ما أنتم عليه» وقوله فى حديث قبض الروح: «حتى يعرج به إلى السماء التى فيها الله».

وقول عبد الله بن رواحة الذى أنشده النبي صلى الله عليه وسلم وأقره عليه:

شهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا

وقول أمية بن أبى الصلت الثقفى الذى أنشده النبى صلى الله عليه وسلم هو وغيره من شعره فاستحسنه وقال : آمن شعره وكفر قلبه :

مجدوا الله فهو للمجد أهل ربنا فى السماء أمسى كبيرا
بالبناء الأعلى الذى سبق النا س وسوى فوق السماء سريرا
شرجعا ما يناله بصر العـــين ترى دونه الملائك صورا (١)

إلى أمثال ذلك مما لا يحصيه إلا الله ، مما هو من أبلغ التواترات اللفظية والمعنوية التى تورث علماً يقينياً من أبلغ العلوم الضرورية ، ان الرسول المبلغ عن الله ألقى إلى أمته المدعوين أن الله سبحانه على العرش استوى ، وأنه فوق السماء كما فطر الله على ذلك جميع الأمم ، عربهم وعجمهم فى الجاهلية والاسلام ، إلا من اجتالته الشياطين عن فطرته .

ثم عن السلف فى ذلك من الأقوال ما لو جمع لبلغ مئين أو ألوفا ، ثم ليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا عن أحد من سلف الأمة لا من الصحابة والتابعين ، ولا عن الأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف ، حرف واحد يخالف ذلك لا نصاً ولا ظاهراً ، ولم يقل أحد منهم قط أن الله ليس فى السماء ، ولا أنه ليس على العرش ، ولا أنه فى كل مكان ، ولا أن جميع الأمكنة بالنسبة اليه سواء . ولأنه لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصل ولا منفصل ، ولا أنه لا تجوز الاشارة الحسية اليه بالأصابع ونحوها ، بل قد ثبت فى الصحيح عن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم لما خطب خطبته العظيمة يوم عرفات فى أعظم مجمع حضره

(١) الشرجع : الطويل . . والصور : جمع أصور المائل العنق .

رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل يقول : « ألا هل بلغت فيقولون نعم فيرفع أصبعه إلى السماء وينكبها إليهم ويقول اللهم اشهد » غير مرة وأمثال ذلك كثيرة ، فلئن كان الحق ما يقوله هؤلاء السالبون النافون من هذه العبارات ونحوها ، دون ما يفهم من الكتاب والسنة ، إما نصاً وإما ظاهراً كيف يجوز على الله ثم على رسوله ثم على خير الأمة ، أنهم يتكلمون دائماً بما هو نص أو ظاهر فى خلاف الحق، ثم الحق الذى يجب اعتقاده لا يبوحون به قط، ولا يدلون عليه لا نصاً ولا ظاهراً ، حتى يجىء أنباط الفرس والروم وفروخ اليهود والفلاسفة ، يبينون للأمة العقيدة الصحيحة التى تجب على كل مكلف أو كل فاضل أن يعتقدها . لئن كان ما يقوله هؤلاء المتكلمون المتكلفون هو الاعتقاد الواجب ، وهم مع ذلك أحيلوا فى معرفته على مجرد عقولهم، وأن يدفعوا بمقتضى قياس عقولهم ما دل عليه الكتاب والسنة ظاهراً ، لقد كان ترك الناس بلا كتاب ولا سنة أهدى لهم وأنفع على هذا التقدير ، بل كان وجود الكتاب والسنة ضرراً محضاً فى أصل الدين . فان حقيقة الأمر على ما يقوله هؤلاء : انكم يا معشر العباد لا تطلبوا معرفة الله ولا ما يستحقه من الصفات نفياً وإثباتاً ، لا من الكتاب ولا من السنة ولا من طريق سلف الأمة ، ولكن انظروا أنتم فما وجدتموه مستحقاً له من الصفات فصفوه به، سواء كان موجوداً فى الكتاب والسنة أو لم يكن ، وما لم تجدوه مستحقاً له فى عقولكم فلا تصفوه به . ثم هم ههنا فريقان : أكثرهم يقولون ما لم تثبته عقولكم فانفوه ومنهم من يقول : بل توقفوا فيه وما نفاه قياس عقولكم الذى أنتم فيه مختلفون ومضطربون اختلافاً أكثر من جميع اختلاف على وجه الأرض فانفوه ، واليه عند التنازع فارجعوا فإنه الحق الذى تعبدتكم به ،

وما كان مذكوراً فى الكتاب والسنة مما يخالف قياسكم هذا، أو يثبت ما لم تدركه عقولكم على طريقة أكثرهم، فاعلموا أنى امتحنتكم بتنزيله لا لتأخذوا الهدى منه، لكن لتجتهدوا فى تخريجه على شواذ اللغة ووحشى الألفاظ وغرائب الكلام، أو أن تسكتوا عنه مفوضين علمه إلى.

هذا حقيقة الأمر على رأى المتكلمين، وهذا الكلام قد رأيته صرح بمعناه طائفة منهم وهو لازم لجماعتهم لزوما لا محيد عنه، ومضمونه أن كتاب الله لا يهتدى به فى معرفة الله، وأن الرسول معزول عن التعليم والأخبار بصفات من أرسله، وأن الناس عند التنازع لا يردون ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول بل إلى مثل ما كانوا عليه فى الجاهلية، وإلى مثل ما يتحاكم اليه من لا يؤمن بالأنبياء كالبراهمة والفلاسفة وهم المشركون والمجوس وبعض الصابئين، وإن كان هذا الرد لا يزيد الأمر إلا شدة ولا يرتفع به الخلاف، إذ لكل فريق طواغيت يريدون أن يتحاكموا اليهم وقد أمروا أن يكفروا بهم، وما أشبه حال هؤلاء المتكلمين بقوله سبحانه: (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً. وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً. فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقاً) فان هؤلاء إذا دعوا الى ما أنزل الله من الكتاب وإلى الرسول والدعاء اليه بعد وفاته الدعاء الى سنته، أعرضوا عن ذلك وهم يقولون: إنا قصدنا الاحسان علما وعملا بهذه الطريق التى سلكناها والتوفيق بين الدلائل العقلية والنقلية.

ثم عامة هـذه التسليمات التى يسمونها دلائل ، إنما تقلدوا أكثرها عن طاغوت من طواغيت المشركين والصابئين ، أو بعض ورثتهم الذين أمروا أن يكفروا بهم مثل فلان وفلان : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) . (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه) .

ولازم هذه المقالة أن لا يكون الكتاب هـدى للناس ، ولا بيانا ولا شفاء لما فى الصدور ولا نوراً ولا مرداً عند التنازع ، لأنا نعلم بالاضطرار أن ما يقوله هؤلاء المتكلفون أنه الحق الذى يجب اعتقاده ، لم يدل عليه الكتاب والسنة لا نصاً ولاظاهراً ، وإنما غاية المتخذلق أن يستنتج هذا من قوله : (ولم يكن له كفواً أحد) ، (هل تعلم له سمياً) وبالاضطرار يعلم كل عاقل أن من دل الخلق على أن الله ليس على العرش ولا فوق السموات ونحو ذلك بقوله : (هل تعلم له سميا) لقد أبعد النجعة وهو إما ملغز أو مدلس لم يخاطبهم بلسان عربى مبين .

ولازم هذه المقالة أن يكون ترك الناس بلا رسالة خيراً لهم فى أصل دينهم ، لأن مردهم قبل الرسالة وبعدها واحد ، وإنما الرسالة زادتهم عمى وضلالا ، يا سبحان الله كيف لم يقل الرسول يوما من الدهر ولا أحد من سلف الأمة هـــذه الآيات والأحاديث ، لاتعتقدوا ما دلت عليه ولكن

اعتقدوا الذى تقتضيه مقاييسكم ، أو اعتقدوا كذا وكذا فانه الحق ، وما خالفه ظاهره فلا تعتقدوا ظاهره ، أو انظروا فيها فما وافق قياس عقولكم فاعتقدوه وما لا يوافقه فتوقفوا فيه أو انفوه .

ثم الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبر بأن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، فقد علم ما سيكون ثم قال : « إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله » .

وروى عنه أنه قال فى صفة الفرقة الناجية : « هو من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى » فهلا قال من تمسك بظاهر القرآن فى باب الاعتقاد فهو ضال ، وإنما الهدى رجوعكم إلى مقاييس عقولكم وما يحدثه المتكلمون منكم بعد القرون الثلاثة ، وان كان قد نبغ أصلها فى أواخر عصر التابعين .

أصل هذه المقالة إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين وضلال الصابئين ، فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة ، أعنى أن الله ليس على العرش حقيقة ، وإنما استوى ؛ استولى ونحو ذلك ، أول ما ظهرت هذه المقالة من جعد بن درهم ، وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها ، فتنسب مقالة الجهمية إليه والجعد أخذ مقالته عن ابان بن سمعان ، وأخذها أبان من طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم ، وأخذها طالوت من لبيد بن أعصم اليهودى الساحر الذى سحر النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان الجعد هذا فيما قيل من أهل حران ، وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة بقايا أهل دين النمروذ الكنعانيين الذين صنف بعض المتأخرين فى سحرهم ، وكانوا يعبدون الكواكب ويبنون لها الهياكل ، ومذهبهم فى الرب أنه ليس له إلا صفات سلبية أو اضافية أو

مركبه منهما ، وهم الذين بعث ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم إليهم فيكون الجعد قد أخذها عن الصابئة الفلاسفة ، وأخذها الجهم أيضاً فيما ذكره الامام أحمد وغيره من السمنية بعض فلاسفة الهند ، وهم الذين يجحدون من العلوم ما سوى الحسيات ، فهذه أسانيد الجهم ترجع الى اليهود والصابئين والمشركين والفلاسفة الضالون ، هم إما من الصابئين وإما من المشركين .

ثم لما عربت الكتب الرومية فى حدود المائة الثانية ، زاد البلاء مع ما ألقى الشيطان فى قلوب الضلال ابتداء من جنس ما ألقاه فى قلوب أشباههم ، ولما كان فى حدود المائة الثانية انتشرت هذه المقالة التى كان السلف يسمونها مقالة الجهمية بسبب بشر بن غياث المريسى وطبقته ، وكلام الأئمة مثل : مالك رضى الله عنه ، وسفيان بن عيينة ، وأبى يوسف ، والشافعى ، وأحمد ، واسحاق ، والفضيل بن عياض ، وبشر الحافى وغيرهم ، فى بشر المريسى هذا كثير فى ذمه وتضليله ، وهذه التأويلات الموجودة اليوم بأيدى الناس مثل أكثر التأويلات التى ذكرها أبو بكر بن فورك فى كتاب التأويلات ، وذكرها أبو عبد الله محمد بن عمر الرازى فى كتابه الذى سماه تأسيس التقديس ، ويوجد كثير منها فى كلام خلق غير هؤلاء ، مثل أبى على الجبائى ، وعبد الجبار ابن أحمد الهمدانى ، وأبى الحسين البصرى ، وابن عقيل ، وأبى حامد الغزالى وغيرهم ، وهى بعينها التأويلات التى ذكرها بشر المريسى فى كتابه ، وان كان قد يوجد فى كلام بعض هؤلاء رد التأويل وإبطاله أيضا ، ولهم كلام حسن فى أشياء ، فإنما بينت أن عين تأويلاتهم فى عين تأويلات المريسى ، وعلمنا ذلك بكتاب الرد الذى صنفه عثمان بن سعيد الدارمى أحد الأئمة المشاهير فى

زمن البخارى ، صنف كتابا سماه نقض عثمان بن سعيد على الكاذب العنيد فيما افترى على الله فى التوحيد .

حكى فيه هذه التأويلات بأعيانها عن بشر المريسى بكلام يقتضى أن المريسى أقعد بها ، وأعلم بالمعقول والمنقول من هؤلاء المتأخرين الذين اتصلت اليهم من جهته ، ثم ردها عثمان بن سعيد بكلام إذا طالعه العاقل الذكى علم حقيقة ما كان عليه السلف ، فيتبين له ظهور الحجة لطريقهم وضعف حجة من خالفهم .

ثم إذا رأى الأئمة ، أئمة الهدى قد أجمعوا على ذم المريسة وأكثرهم كفروهم أو ضللوهم ، وعلم أن هذا القول السارى فى هؤلاء المتأخرين هو مذهب المريسى ، تبين الهدى لمن يريد الله هدايته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، والفتوى لا تحتمل البسط فى هذا الباب وإنما أشير اشارة إلى مبادىء الأمور والعاقل يسبر فينظر ، وكلام السلف فى هذا الباب موجود فى كتب كثيرة لا يمكن أن نذكر ههنا إلا قليلا منه ، مثل كتاب السنن للالكائى ، والإبانة لابن بطة ، والسنة لأبى ذر الهروى ، والأسماء والصفات للبيهقى ، وقبل ذلك السنة للطبرانى ، ولأبى الشيخ الأصبهانى ، وقبل ذلك السنة للخلال ، والتوحيد لابن خزيمة ، وكلام أبى العباس بن سريج ، والرد على الجهمية لجماعة ، وقبل ذلك السنة لعبد الله بن أحمد ، وكلام عبد العزيز المكى صاحب الحيدة فى الرد على الجهمية ، وكلام الامام أحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه وأشياء كثيرة .

وعندنا من الدلائل السمعية والعقلية ما لا يتسع هذا الموضع لذكره ،

وأنا أعلم أن المتكلمين لهم شبهات موجودة لكن لا يمكن ذكرها فى الفتوى فمن نظر فيها وأراد ابانة ما ذكروه من الشبه فانه يسير ، وإذا كان أصل هذه المقالة مقالة التعطيل والتأويل مأخوذاً عن تلامذة المشركين والصابئين واليهود ، فكيف تطيب نفس مؤمن بل نفس عاقل أن يأخذ سبيل هؤلاء المغضوب عليهم والضالين ، ويدع سبيل الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

ثم القول الشامل فى جميع هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، بما وصفه به السابقون الأولون ، لا يتجاوز القرآن والحديث .

قال الإمام أحمد رضى الله عنه : لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله لا يتجاوز القرآن والحديث ، ونعلم أن ما وصف الله به من ذلك فهو حق ليس فيه لغز ولا أحاجى ، بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه . وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء فى نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته ولا فى أفعاله ، فكما نتيقن أن الله سبحانه له ذات حقيقة وله أفعال حقيقة ، فكذلك له صفات حقيقة ، وهو ليس كمثله شيء لا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله ، وكل ما أوجب نقصا أو حدوثا فإن الله منزه عنه حقيقة ، وأنه سبحانه مستحق للكمال الذى لا غاية فوقه ، ويمتنع عليه الحدوث لامتناع العدم عليه ، واستلزام الحدوث سابقة العدم ، ولافتقار المحدث إلى محدث ولوجوب وجوده بنفسه سبحانه وتعالى .

ومذهب السلف : بين التعطيل وبين التمثيل ، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه ، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه ، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ، فيعطلون أسماءه الحسنى وصفاته العليا ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلحدون فى أسماء الله وآياته ، وكل واحد من فريق التعطيل والتمثيل فهو جامع بين التعطيل والتمثيل .

أما المعطلون ، فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق ، ثم شرعوا فى نفى تلك المفهومات فقد جمعوا بين التمثيل والتعطيل، مثلوا أولا وعطلوا آخراً ، وهـــذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته ، بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم ، وتعطيل لما يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة بالله سبحانه وتعالى . فإنه إذا قال القائل : لو كان الله فوق العرش للزم إما أن يكون أكبر من العرش أو أصغر أومساويا ، وكل ذلك محال، ونحو ذلك من الكلام، فانه لم يفهم من كون الله على العرش إلا ما يثبت لأى جسم كان على أى جسم كان ، وهـذا اللازم تابع لهـذا المفهوم ، أما استواء يليق بجلال الله ويختص به فلا يلزمه شىء من اللوازم الثلاثة ، كما يلزم سائر الأجسام ، وصار هذا مثل قول الممثل : إذا كان للعالم صانع فإما أن يكون جوهراً أو عرضاً ، إذ لا يعقل موجود إلا هذان ، أو قوله : اذا كان مستويا على العرش فهو مماثل لاستواء الانسان على السرير أو الفلك ، إذ لا يعلم الاستواء إلا هكذا ، فإن كلاهما مثل ، وكلاهما عطل حقيقة ما وصف الله به نفسه ، وامتاز الأول بتعطيل كل مسمى للاستواء الحقيقى ، وامتاز الثانى بإثبات استواء هو من خصائص المخلوقين .

والقول الفاصل : هو ما عليه الأمة الوسط ،من أن الله مستو على عرشه

استواء يليق بجلاله ويختص به ، فكما أنه موصوف بأنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه سميع بصير ونحو ذلك ، ولا يجوز أن نثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراض التى لعلم المخلوقين وقدرهم .

فكذلك هو سبحانه فوق العرش ، ولا نثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق ولوازمها .

واعلم أن ليس فى العقل الصريح ولا فى النقل الصحيح، ما يوجب مخالفة الطريقة السلفية أصلا ، لكن هذا الموضع لا يتسع للجواب عن الشبهات الواردة عن الحق ، فمن كان فى قلبه شبهة وأحب حلها فذلك سهل يسير .

ثم المخالفون للكتاب والسنة وسلف الأمة من المتأولين لهذا الباب فى أمر مريج ، فإن من ينكر الرؤية يزعم أن العقل يحيلها ، وأنه مضطر فيها الى التأويل ، ومن يحيل أن لله علما وقدرة وأن يكون كلامه غير مخلوق ونحو ذلك ، يقول : أن العقل أحال ذلك فاضطر الى التأويل ، بل من ينكر حقيقة حشر الأحياء والأكل والشرب الحقيقى فى الجنة ، يزعم أن العقل أحال ذلك وأنه مضطر الى التأويل ، ومن يزعم أن الله ليس فوق العرش، يزعم أن العقل أحال ذلك وأنه مضطر الى التأويل .

ويكفيك دليلا على فساد قول هؤلاء ، أنه ليس لواحد منهم قاعدة مستمرة فيما يحيله العقل ، بل منهم من يزعم أن العقل جوز أو أوجب مايدعى الآخر أن العقل أحاله .

ياليت شعرى ، بأى عقل يوزن الكتاب والسنة ، فرضى الله عن مالك

ابن أنس الامام حيث قال : أوكلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ماجاء به جبريل الى محمد صلى الله عليه وسلم لجدل هذا ، وكل من هؤلاء مخصوم بمثل ما خصم به الآخر وهو من وجوه .

أحدها : بيان أن العقل لا يحيل ذلك . والثانى : أن النصوص الواردة لا تحتمل التأويل. الثالث : أن عامة هـذه الأمور قد علم أن الرسول جاء بها بالاضطرار ، كما أنه جاء بالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان ، فالتأويل الذى يحيلها عن هذا بمنزلة تأويلات القرامطة والباطنية ، فى الحج والصوم والصلاة وسائر ما جاءت به النبوات ، على أن الأساطين من هؤلاء الفحول معترفون بأن العقل لاسبيل له الى اليقين فى عامة المطالب الإلهية ، وإذا كان هكذا ، فالواجب تلقى علم ذلك من النبوات على ما هو عليه ، ونحن نذكر من ألفاظ السلف باعيانها ، وألفاظ من نقل مذهبهم بحسب ما يحتمله هذا الموضع ما يعلم به مذهبهم .

روى أبو بكر البيهقى فى الأسماء والصفات بإسناد صحيح عن الأوزاعى قال : كنا والتابعون متوافرون نقول أن الله تعالى ذكره فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت السنة به من صفاته . فقد حكى الأوزاعى وهو أحد الأئمة الأربعة فى عصر تابعى التابعين الذين هم : مالك إمام أهـل الحجاز ، والأوزاعى إمام أهل الشام ، والليث إمام أهل مصر ، والثورى إمام أهل العراق ، حكى شهرة القول فى زمن التابعين بالايمان بأن الله فوق العرش وبصفاته السمعية ، وإنما قال الأوزاعى هذا بعد ظهور مذهب جهم المنكر لكون الله فوق عرشه والنافى لصفاته ، ليعرف الناس أن مذهب السلف كان بخلاف هذا .

وروى أبو بكر الخلال فى كتاب السنة عن الأوزاعى . قال : سئل مكحول والزهرى عن تفسير الأحاديث فقالا أمروها كما جاءت .

وروى أيضا عن الوليد بن مسلم قال : سألت مالك بن أنس ، وسفيان الثورى ، والليث بن سعد ، والاوزاعى عن الاخبار التى جاءت فى الصفات فقالوا: أمروها كما جاءت ، وفى رواية فقالوا: أمروها كما جاءت بلا كيف . فقولهم رضى الله عنهم أمروها كما جاءت رد على المعطلة ، وقولهم بلا كيف رد على الممثلة ، والزهرى ومكحول هما أعلم التابعين فى زمانهم ، والأربعة الباقون أئمة الدنيا فى عصر تابعى التابعين . ومن طبقتهم حماد بن زيد ، وحماد ابن سلمة وأمثالهما .

روى أبو القاسم الازجى بإسناده عن ابن مطرف بن عبد الله قال : سمعت مالك بن أنس إذا ذكر عنده من يدفع أحاديث الصفات يقول : قال عمر ابن عبد العزيز سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولاة الأمر بعده سننا ، الأخذ بها تصديق بكتاب الله ، واستكمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله ، ليس لأحد من خلق الله تغييرها ، ولا النظر فى شيء خالفها ، من اهتدى بها فهو مهتد ، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن خالفها واتبع سبيل غير المؤمنين ، ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً .

وروى الخلال بإسناد كلهم أئمة عن سفيان بن عيينة قال : سئل ربيعة ابن عبد الرحمن عن قوله : (الرحمن على العرش استوى) كيف استوى ؟ قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى

الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق ، وهذا الكلام مروى عن مالك بن أنس تلميذ ربيعة من غير وجه .

منها ما رواه أبو الشيخ الأصبهانى وأبو بكر البيهقى عن يحيي بن يحيي قال : كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال : يا أبا عبد الله ؛ الرحمن على العرش استوى كيف استوى ؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرحضاء ثم قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وما أراك إلا مبتدعا ، فأمر به أن يخرج .

وروى أبو عبد الله بن بطة فى الإبانة بإسناد صحيح عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة الماجشون ، وهو أحد أئمة المدينة الثلاثة وهم : مالك وابن الماجشون وابن أبى ذئب ، وقد سئل فيما جحدته الجهمية . أما بعد : فقد فهمت ما سألت فيما تتابعت الجهمية ومن خالفها فى صفة الرب العظيم ، الذى فاقت عظمته الوصف والتقدير ، وكلت الألسن عن تفسير صفته ، وانحسرت العقول دون معرفة قدره ، ردت عظمته العقول ، فلم تجد مساغاً فرجعت خاسئة وهى حسيرة ، وإنما أمروا بالنظر والتفكر فيما خلق بالتقدير ، وإنما يقال كيف لمن لم يكن مرة ثم كان ، فأما الذى لا يحول ولا يزول ولم يزل وليس له مثل ، فانه لا يعلم كيف هو إلا هو ، وكيف يعرف قدر من لم يبدأ ومن لا يموت ولا يبلى ، وكيف يكون لصفة شىء منه حداً ، ومنتهى يعرفه عارف أو يحد قدره واصف ، على أنه الحق المبين لا حق أحق منه ولا شىء أبين منه ، الدليل على عجز العقول عن تحقيق صفته ، عجزها عن تحقيق صفة أصغر خلقه ، لا تكاد تراه صغراً يحول ويزول ، ولا يرى له سمع ولا

بصر ، لما يتقلب به ويحتال من عقله أعضل وأخفى عليك مما ظهر من سمعه وبصره ، فتبارك الله أحسن الخالقين وخالقهم ، وسيد السادة وربهم ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، اعرف رحمك الله ، غناءك عن تكلف صفة ما لم يصف الرب من نفسه بعجزك عن معرفة قدر ما وصف منها إذا لم تعرف قدر ما وصف ، فما تكلفك علم ما لم يصف هل تستدل بذلك على شيء من طاعته ، أو تنزجر به عن شيء من معصيته .

وأما الذى جحد ما وصف الرب من نفسه تعمقاً وتكلفاً ، قد استهوته الشياطين فى الأرض حيران ، فصا يستدل بزعمه على جحد ما وصف الرب وسمى من نفسه بأن قال: لا بد ان كان له كذا من أن يكون له كذا ، فعمى عن البين بالخفى بجحد ماسمى الرب من نفسه، لصمت الرب عما لم يسم منها ، فلم يزل يملى له الشيطان حتى جحد قول الله عز وجل : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) فقال لا يراه أحد يوم القيامة بجحد والله أفضل كرامة الله التى أكرم بها أولياءه يوم القيامة ، من النظر إلى وجهه ونضرته إياهم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، قد قضى أنهم لا يموتون فهم بالنظر ينضرون الى أن قال :

وإنما جحد رؤيته يوم القيامة إقامة للحجة الضالة المضلة ، لأنه قدعرف إذا تجلى لهم يوم القيامة رأوا منه ما كانوا به قبل ذلك مؤمنين وكان له جاحداً ، وقال المسلمون يا رسول الله : هل نرى ربنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «هل تضارون فى رؤية الشمس ليس دونها سحاب ، قالوا : لا . قال : هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا : لا .

قال : فإنكم ترون ربكم يومئذ كذلك » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا تمتلىء النار حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول قط قط وينزوى بعضها إلى بعض » وقال لثابت بن قيس : « لقد ضحك الله مما فعلت بضيفك البارحة » .

وقال : « فيما بلغنا أن الله ليضحك من أزلكم[1] وقنوطكم وسرعة إجابتكم » فقال له رجل من العرب : إن ربنا ليضحك . قال : « نعم » قال: لا نعدم من رب يضحك خيراً ، فى أشباه هذا مما لم نحصه . وقال الله تعالى : (وهو السميع البصير) . (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) وقال : (ولتصنع على عينى) وقال : (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى) وقال: (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) فوالله ما دلهم على عظم ما وصف من نفسه وما تحيط به قبضته ، إلا صغر نظرها منهم عندهم ، إن ذلك الذى ألقى فى روعهم وخلق على معرفة قلوبهم ، فما وصف الله من نفسه فسماه على لسان رسوله ، سميناه كما سماه ولم نتكلف منه صفة ماسواه لا هذا ولا هذا ، لا نجحد ماوصف ، ولا نتكلف معرفة ما لم يصف .

اعلم رحمك الله : أن العصمة فى الدين أن تنتهى حيث انتهى به ، ولا تجاوز ما قد حد لك ، فإن من قوام الدين معرفة المعروف ، وإنكار المنكر ، فمابسطت عليه المعرفة وسكنت اليه الأفئدة ، وذكر أصله فى الكتاب والسنة ، وتوارثت علمه الأمة ، فلا تخافن فى ذكره وصفته من ربك ماوصف

(١) هكذا يروى وفى بعض طرقه من إلكم والأزل: الشدة والضيق .

من نفسه غيباً ، ولا تـكلفن لماوصف لك من ذلك قدراً ، وما أنكرته نفسك ولم تجد ذكره فى كتاب ربك ، ولا فى الحديث عن نبيك من ذكر صفة ربك ، فلا تتكلفن علمه بعقلك ، ولاتصفه بلسانك ، واصمت عنه كما صمت الرب عنه من نفسه ، فإن تكلفك معرفة ما لم يصف من نفسه مثل إنكارك ما وصف منها ، فكما أعظمت ما جحد الجاحدون مما وصف من نفسه ، فكذلك أعظم تكلف ما وصف الواصفون مما لم يصف منها ، فقد والله عز المسلمون الذين يعرفون المعروف وبمعرفتهم يعرف ، وينكرون المنكر وبإنكارهم ينكر ، يسمعون ما وصف الله به نفسه من هذا فى كتابه وما يبلغهم مثله عن نبيه ، فما مرض من ذكر هذا ، وتسميته من الرب قلب مسلم ، ولا تكلف صفة قدره ولا تسمية غيره من الرب مؤمن ، وما ذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سماه من صفة ربه ، فهو بمنزلة ماسمى ووصف الرب تعالى من نفسه ، والراسخون فى العلم الواقفون حيث انتهى علمهم ، الواصفون لربهم بما وصف به من نفسه ، التاركون لما ترك من ذكرها ، لا ينكرون صفة ما سمى جحداً ولا يتكلفون وصفه بما لم يسم تعمقاً ، لأن الحق ترك ما ترك ، وتسميته ما سمى : (فمن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً) وهب الله لنا ولكم حكما ، وألحقنا بالصالحين ، وهذا كله كلام ابن الماجشون الامام .

وروى أبو القاسم اللالكائى الحافظ الطبرى ، فى كتابه المشهور فى أصول السنة بإسناده ، عن محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة قال : اتفق الفقهاء كلهم من المشرق الى المغرب ، على الايمان بالقرآن والأحاديث التى جاء بها الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صفة الرب عز وجل ، من غير تفسير

ولا وصف ولا تشبيه ، فمن فسر اليوم شيأ من ذلك فقد خرج عما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وفارق الجماعة ، فانهم لم يصفوا ولم يفسروا ، ولكن أفتوا بما فى الكتاب والسنة ثم سكتوا ، فمن قال بقول جهم فقد فارق الجماعة، لأنه قد وصفه بصفة لا شىء ، محمد بن الحسن ، أخذ عن أبى حنيفة ومالك وطبقتهما من العلماء ، وقد حكى هذا الاجماع ، وأخبر أن الجهمية تصفه بالأمور السلبية غالبا أو دائما .

وروى البيهقى وغيره بأسانيد صحيحة ، عن أبى عبيد القاسم بن سلام قال : هذه الأحاديث التى تقول فيها ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب خيره وأن جهنم لا تمتلىء حتى يضع ربك قدمه فيها والكرسى موضع القدمين ، وهذه الأحاديث فى الرواية هى عندنا حق حملها الثقات بعضهم عن بعض ، غير أنا إذا سئلنا عن تفسيرها لا نفسرها ، وما أدركنا أحداً يفسرها .

أبو عبيد : أحد الأئمة الأربعة الذين هم: الشافعى ، وأحمد ، وإسحاق ، وأبو عبيد ، وله من المعرفة بالفقه واللغة والتأويل ما هو أشهر من أن يوصف، وقد كان فى الزمان الذى ظهرت فيه الفتن والأهواء ، وقد أخبر أنه ما أدرك أحداً من العلماء يفسرها .

وروى اللالكائى والبيهقى عن عبد الله بن المبارك أن رجلا قال له : يا أبا عبد الرحمن إنى أكره الصفة عنى صفة الرب . فقال له عبد الله ابن المبارك أنا أشد الناس كراهة لذلك ، ولكن إذا نطق الكتاب بشىء قلنا به ، وإذا جاءت الآثار بشىء جسرنا عليه . ونحو هذا ، أراد ابن المبارك

أنا نكره أن نبتدىء بوصف الله من تلقاء أنفسنا حتى يجىء به الكتاب والآثار .

وروى عبد الله بن أحمد وغيره بأسانيد صحاح عن ابن المبارك أنه قيل له : بماذا تعرف ربنا . قال : بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ، ولا نقول كما تقول الجهمية أنه ههنا فى الأرض ، وهكذا قال الامام أحمد وغيره وبإسناد صحيح عن سليمان بن حرب الامام سمعت حماد بن زيد ، وذكر هؤلاء الجهمية فقال : إنما يحاولون أن يقولوا ليس فى السماء شىء .

وروى ابن أبى حاتم عن سعيد بن عامر الضبعى امام أهل البصرة علماً وديناً من شيوخ أحمد ، أنه ذكر عنده الجهمية فقال : هم شر قولا من اليهود والنصارى ، وقد اجتمع اليهود والنصارى وأهل الأديان مع المسلمين على أن الله على العرش وقالوا هم ليس عليه شىء .

وقال محمد بن اسحاق بن خزيمة امام الأئمة ، من لم يقل أن الله فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ، وجب أن يستتاب ، فان تاب وإلا ضربت عنقه ، ثم ألقى على مزبلة لئلا يتأذى بنتن ريحه أهل القبلة وأهل الذمة .

وروى عبد الله بن أحمد عن عباد بن العوام الواسطى إمام أهل واسط، من طبقة شيوخ الشافعى وأحمد . قال : كلمت بشر المريسى وأصحاب بشر ، فرأيت آخر كلامهم ينتهى أن يقولوا ليس فى السماء شىء .

وعن عبد الرحمن بن مهدى الامام المشهور أنه قال : ليس فى أصحاب الأهواء شر من أصحاب جهم ، يدورون على أن يقولوا ليس فى السماء شىء ، أرى والله أن لا يناكحوا ولا يوارثوا .

وروى عبد الرحمن بن أبي حاتم فى كتاب الرد على الجهمية ، عن عبد الرحمن ابن مهدى قال : أصحاب جهم يريدون أن يقولوا ليس فى السماء شيء ، وأن الله ليس على العرش ، أرى أن يستتابوا فان تابوا وإلا قتلوا .

وعن الأصمعى قال : قدمت امرأة جهم فنزلت الدباغين فقال رجل عندها : الله على عرشه . فقالت: محدود . فقال الأصمعى : كافرة بهذه المقالة .

وعن عاصم بن على بن عاصم ، شيخ أحمد والبخارى وطبقتهما قال : ناظرت جهميا فتبين من كلامه ألا يؤمن أن فى السماء ربا .

وروى الإمام أحمد قال :أنبأنا شريح بن النعمان قال : سمعت عبد الله ابن نافع الصائغ قال : سمعت مالك بن أنس يقول : الله فى السماء وعلمه فى كل مكان لايخلو من علمه مكان .

وقال الشافعى رضى الله عنه : خلافة أبي بكر حق قضاها الله فى سمائه وجمع عليه قلوب عباده .

وفى الصحيح عن أنس بن مالك قال : كانت زينب تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تقول : زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات ، هذا مثل قول الشافعى ، وقصة أبي يوسف صاحب أبي حنيفة مشهورة فى استتابة بشر المريسى حتى هرب منه ، لما أن أنكر أن يكون الله فوق العرش ، وقد ذكرها ابن أبي حاتم وغيره .

وكلام الأئمة فى هذا الباب ، أطول وأكثر من أن تسع هذه الفتوى

عشره ، وكذلك كلام الناقلين لمذهبهم مثل : ماذكره أبو سليمان الخطابي في رسالته المشهورة في الغنية عن الكلام وأهله قال : فأما ماسألت عنه من الصفات ، وما جاء منها في الكتاب والسنة ، فان مذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها ، ونفي الكيفية والتشبيه عنها ، وقد نفاها قوم فابطلوا ما أثبته الله ، وخففها قوم من المثبتين ، فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف ، وإنما القصد في سلوك الطريقة المستقيمة بين الأمرين ودين الله تعالى بين الغالي فيه والمقصر عنه ، والأصل في هذا أن الكلام في الصفات نوع عن الكلام في الذات ويحتذى في ذلك حذوه ومثاله ، فاذا كان معلوماً أن إثباته الباري سبحانه، إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف ، فاذا قلنا : يد، وسمع ، وبصر ، وما أشبهها ، فانما هي صفات أثبتها الله لنفسه ، ولسنا نقول أن معنى اليد القوة أو النعمة ، ولا معنى السمع والبصر العلم ، ولا نقول أنها جوارح ، ولا نشبهها بالأيدي وبالأسماع وبالأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل .

ونقول : أن القول إنما وجبت بإثبات الصفات . لأن التوقف ورد بها ، وورد نفي التشبيه عنها ، لأن الله ليس كمثله شيء ، وعلى هذا جرى قول السلف في أحاديث الصفات ، هذا كله كلام الخطابي . وهكذا قاله أبو بكر الخطيب الحافظ في رسالة له ، أخبر فيها أن مذهب السلف على ذلك ، وهذا الكلام الذي ذكره الخطابي ، قد نقل نحوا منه من العلماء من لايحصى . مثل : أبي بكر الاسماعيلي ، والإمام يحيى بن عمار السنجري شيخ شيخ الإسلام أبي إسماعيل الأنصاري الهروي ، وأبي عثمان الصابوني شيخ الإسلام ، وأبي عمر بن عبد البر النمري إمام المغرب وغيرهم .

وقال أبو نعيم الأصبهانى صاحب الحلية فى عقيدة قال فى أولها : طريقتنا طريقة المتبعين للكتاب والسنة وإجماع الأمة قال : فما اعتقدوه أن الأحاديث التى ثبتت عن النبي صلى الله عليه وسلم فى العرش واستواء الله ، يقولون بها ويثبتونها من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ، وأن الله بائن من خلقه ، والخلق بائنون منه لا يحل فيهم ولا يمتزج بهم ، وهو مستو على عرشه فى سمائه من دون أرضه وخلقه .

وقال الإمام العارف معمر بن أحمد الأصبهانى شيخ الصوفية فى حدود المائة الرابعة فى بلاده قال : أحببت أن أوصى أصحابى بوصية من السنة ، وموعظة من الحكمة ، وأجمع ما كان عليه أهل الحديث والأثر ، وأهل المعرفة والتصوف من المتقدمين والمتأخرين . قال فيها : وان الله استوى على عرشه بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل ، والاستواء معقول والكيف فيه مجهول ، وأنه عز وجل بائن من خلقه ، والخلق منه بائنون بلا حلول ولا ممازجة ولا اختلاط ولا ملاصقة ، لأنه الفرد البائن من الخلق ، الواحد الغنى عن الخلق وأن الله عز وجل سميع بصير عليم خبير ، يتكلم ويرضى ، ويسخط ويضحك ، ويعجب ويتجلى لعباده يوم القيامة ضاحكا ، وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف شاء فيقول : هل من داع فأستجيب له ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من تائب فأتوب عليه ، حتى يطلع الفجر ، ونزول الرب إلى السماء بلا كيف ، ولا تشبيه ، ولا تأويل ، فمن أنكر النزول أو تأول فهو مبتدع ضال ، وسائر الصفوة من العارفين على هذا ، ومن متأخريهم الإمام أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلى قال فى كتاب الغنية له : أما معرفة الصانع بالآيات والدلالات على وجه الاختصار ، فهو أن تعرف وتتيقن أن

الله واحد ، إلى أن قال : وهو بجهة العلو مستو على العرش ، محتو على الملك محيط علمه بالأشياء ، إليه يصعد الكلم والعمل الصالح يرفعه ، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ، ولا يجوز وصفه بأنه فى كل مكان . بل يقال : أنه فى السماء على العرش كما قال : (الرحمن على العرش استوى) وذكر آيات وأحاديث إلى أن قال : وينبغى إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل ، وأنه استواء الذات على العرش قال : وكونه على العرش ، مذكور فى كل كتاب أنزل على نبي أرسل بلا كيف ، وذكر كلاما طويلا لايحتمل هــذا الموضع ، وذكر فى سائر الصفات نحو هذا ، ولو ذكرت ماقاله العلماء فى ذلك اطال جداً .

قال أبو عمر بن عبد البر : روينا عن مالك بن أنس وسفيان الثورى وسفيان بن عيينة والأوزاعى ومعمر بن راشد فى أحاديث الصفات : أنهم كلهم قالوا : أمروها كما جاءت قال أبو عمر : ماجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من نقل الثقات . أو جاء عن الصحابة رضى الله عنهم ، فهو علم يدان به ، وما أحدث بعدهم ولم يكن له أصل فيما جاء عنهم ، فهو بدعة وضلالة .

وقال فى شرح الموطأ لما تكلم على حديث النزول قال : هذا حديث ثابت من جهة النقل صحيح الاسناد ، ولا يختلف أهل الحديث فى صحته ، وهو منقول من طريق سوى هذه من أخبار العدول عن النبى صلى الله عليه وسلم وفيه دليل على أن الله فى السماء على العرش ، من فوق سبع سموات كما قالت الجماعة ، وهو حجتهم على المعتزلة فى قولهم : ان الله فى كل مكان . قال : والدليل على صحة قول أهل الحق قول الله ، وذكر بعض الآيات إلى أن قال:

وهذا أشهر وأعرف عند العامة والخاصة من أن يحتاج إلى أكثر من حكايته لأنه اضطرار لم يوقفهم عليه أحد ، ولا أنكره عليهم مسلم .

وقال أبو عمر بن عبد البر أيضاً : أجمع علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل قالوا فى تأويل قوله : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا وهو رابعهم) هو على العرش ، وعلمه فى كل مكان ، وما خالفهم فى ذلك من يحتج بقوله .

وقال أبو عمر أيضاً : أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها فى القرآن والسنة والإيمان بها ، وحملها على الحقيقة لا على المجاز ، إلا أنهم لا يكيفون شيئاً من ذلك ، ولا يحدون فيه صفة محصورة ، وأما أهل البدع الجهمية والمعتزلة كلها والخوارج ، فكلهم ينكرها ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة ، ويزعم أن من أقربها شبه وهم عند من أقربها نافون للمعبود ، والحق فيما قاله القائلون ، بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله وهم أئمة الجماعة هذا كلام ابن عبد البر إمام أهل المغرب ، وفى عصره الحافظ أبو بكر البيهقى مع توليه للمتكلمين من أصحاب أبي الحسن الأشعرى وذبه عنهم . قال فى كتاب الأسماء والصفات ، باب ماجاء فى إثبات اليدين صفتين لا من حيث الجارحة ، لورود خبر الصادق به قال الله : (يا إبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى) وقال : (بل يداه مبسوطتان) وذكر الأحاديث الصحاح فى هذا الباب مثل قوله فى غير حديث فى حديث الشفاعة : « يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده » ومثل قوله فى الحديث المتفق عليه : «أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك الألواح بيده » وفى لفظ : «وكتب لك

التوراة بيده . ومثل مافى صحيح مسلم : « وغرس كرامة أوليائه فى جنة عدن بيده » ومثل قوله صلى الله عليه وسلم : « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفأها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته فى السفر نزلا لأهل الجنة » وذكر أحاديث مثل قوله : « بيدك الأمر والخير بيديك والذى نفس محمد بيده . وان الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل » وقوله : « المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين » وقوله : « يطوى السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ثم يطوى الأرضين بشماله ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون » وقوله : « يمين الله ملأى لايغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فانه لم يغض مافى يمينه وعرشه على الماء وبيده الأخرى القبض يخفض ويرفع » وكل هذه الأحاديث فى الصحاح وذكر أيضاً قوله : « إن الله لما خلق آدم قال له ويداه مقبوضتان اختر أيهما شئت قال اخترت يمين ربى وكلتا يدى ربى يمين مباركة » وحديث : « ان الله لما خلق آدم مسح ظهره » إلى أحاديث أخر ذكرها من هذا النوع .

ثم قال البيهقى : أما المتقدمون من هذه الأمة فانهم لم يفسروا ما كتبنا من الآيات والأخبار فى هذا الباب ، وكذلك قال فى الاستواء على العرش وسائر الصفات الخبرية ، مع أنه يحكى قول بعض المتأخرين .

وقال القاضى أبو يعلى فى كتاب ابطال التأ[ويـ]ل : لايجوز رد هذه الأخبار

ولا التشاغل بتأويلها ، والواجب حملها على ظاهرها وانها صفات الله لاتشبه بسائر الموصوفين بها من الخلق ولا يعتقد التشبيه فيها ، لكن على ماروى عن الإمام أحمد وسائر الأئمة ، وذكر بعض كلام الزهرى ، ومكحول ، ومالك ، والثورى ، والأوزاعى ، والليث ، وحماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وابن عيينة ، والفضيل بن عياض ، ووكيع ، وعبد الرحمن بن مهدى ، وأسود بن سالم ، وإسحاق بن راهويه ، وأبى عبيد ، ومحمد بن جرير الطبرى وغيرهم فى هذا الباب ، وفى حكاية ألفاظهم طول إلى أن قال : ويدل على إبطال التأويل : أن الصحابة ومن بعدهم من التابعين حملوها على ظاهرها ولم يتعرضوا لتأويلها وصرفها عن ظاهرها ، ولو كان التأويل سائغاً لكانوا إليه أسبق لما فيه من إزالة التشبيه ورفع الشبهة .

وقال أبو الحسن على بن اسماعيل الأشعرى المتكلم ، صاحب الطريقة المنسوبة إليه فى الكلام فى كتابه الذى صنفه فى اختلاق المضلين ومقالات الإسلاميين ، ذكر فرق الروافض والخوارج والمرجئة والمعتزلة وغيرهم ثم قال :

مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث جملة قول أصحاب الحديث أهل السنة ؛ الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وبما جاء عن الله وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لايردون من ذلك شيئاً ، وأن الله واحد أحد فرد صمد لاإله غيره لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، وأن الله على عرشه كما قال : (الرحمن على العرش استوى) وأن له يدين بلا كيف ، كما قال : (خلقت بيدى) وكما قال : (بل

يداه مبسوطتان) وأن له عينين بلا كيف كما قال : (تجرى بأعيننا) وأن له وجهاً كما قال : (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وأن أسماء الله لا يقال أنها غير الله ، كما قالت المعتزلة والخوارج ، وأقروا أن لله علماً كما قال : (أنزله بعلمه) وكما قال : (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) وأثبتوا السمع والبصر ولم ينفوا ذلك عن الله كما نفته المعتزلة ، وأثبتوا لله القوة كما قال : (أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة) وذكر مذهبهم فى القدر إلى أن قال ويقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق ، والكلام فى اللفظ والوقف ، من قال باللفظ وبالوقف فهو مبتدع عندهم ، لا يقال اللفظ بالقرآن مخلوق ، ولا يقال غير مخلوق ، ويقرون أن الله يرى بالأبصار يوم القيامة ، كما يرى القمر ليلة البدر ، يراه المؤمنون ولا يراه الكافرون ، لأنهم عن الله محجوبون قال عز وجل : (كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) وذكر قولهم فى الإسلام والإيمان والحوض والشفاعة وأشياء إلى أن قال : ويقرون بأن الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص ، ولا يقولون مخلوق ، ولا يشهدون على أحد من أهل الكبائر بالنار إلى أن قال : وينكرون الجدل والمراء فى الدين ، والخصومة والمناظرة فيما يتناظر فيه أهل الجدل ويتنازعون من دينهم ، ويسلمون للروايات الصحيحة ولما جاءت به الآثار التى جاءت بها الثقات عدلا عن عدل ، حتى ينتهى ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يقولون كيف ولا لم ، لأن ذلك بدعة إلى أن قال :

ويقرون أن الله يجىء يوم القيامة كما قال : (وجاء ربك والملك صفاً صفا) وأن الله يقرب من خلقه كيف شاء كما قال : (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) إلى أن قال : ويرون مجانبة كل داع إلى بدعة ، والتشاغل

بقراءة القرآن ، وكتابة الآثار ، والنظر فى الفقه مع الاستكانة والتواضع وحسن الخلق ، مع بذل المعروف ، وكف الأذى وترك الغيبة والنميمة والسعاية، وتفقد المآكل والمشارب قال : فهذه جملة ما يأمرون به ويستسلمون إليه ويرونه ، وبكل ماذكرنا من قولهم نقول : وإليه نذهب وما توفيقنا إلا بالله وهو المستعان .

وقال الأشعرى أيضاً فى اختلاف أهل القبلة فى العرش فقال : قال أهل السنة وأصحاب الحديث : ليس بجسم ولا يشبه الأشياء ، وأنه استوى على العرش كما قال : (الرحمن على العرش استوى) ولا نتقدم بين يدى الله فى القول بل نقول : استوى بلا كيف ، وأن له وجهاً كما قال : (ويبقى وجه ربك) وأن له يدين كما قال : (خلقت بيدى) وأن له عينين كما قال : (تجرى بأعيننا) وأنه يجيء يوم القيامة هو وملائكته كما قال : (وجاء ربك والملك صفاً صفا) وأنه ينزل إلى السماء الدنيا كما جاء فى الحديث ، ولم يقولوا شيئاً إلا ما وجدوه فى الكتاب ، وجاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت المعتزلة : ان الله استوى على العرش بمعنى استولى ، وذكر مقالات أخرى .

وقال أيضاً أبو الحسن الأشعرى فى كتابه الذى سماه الإبانة فى أصول الديانة ، وقد ذكر أصحابه أنه آخر كتاب صنفه ، وعليه يعتمدون فى الذب عنه عند من يطعن عليه فقال :

﴿ فصل ﴾ فى إبانة قول أهل الحق والسنة ، فإن قال قائل : قد أنكرتم قول المعتزلة ، والقدرية ، والجهمية ، والحرورية ، والرافضة ، والمرجئة ،

فعرفونا قولكم الذى به تقولون وديانتكم الذى بها تدينون ، قيل له : قولنا الذى نقول به وديانتنا الذى ندين بها التماسك بكتاب ربنا وسنة نبينا ، وماروى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته ، قائلون ، ولما خالف قوله مخالفون لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل ، الذى أبان الله به الحق ، ودفع به الضلال ، وأوضح به المنهاج ، وقمع به بدع المبتدعين ، وزيغ الزائغين ، وشك الشاكين فرحمة الله عليه من إمام مقدم وجليل معظم وكبير مفهم .

وجملة قولنا : أنا نقر بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وبما جاءوا به من عند الله ، وبما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا نرد من ذلك شيئاً ، وأن الله واحد لا إله إلا هو ، فرد ، صمد ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، وأن الجنة حق ، والنار حق ، وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، وأن الله مستو على عرشه كما قال : (الرحمن على العرش استوى) وأن له وجهاً كما قال : (ويبقى وجه ربك ذى الجلال والاكرم) وأن له يدين بلا كيف كما قال : (خلقت بيدى) وكما قال : (بل يداه مبسوطتان) وأن له عينين بلا كيف كما قال : (تجرى بأعيننا) .

وأن من زعم أن أسماء الله غيره كان ضالا ، وذكر نحواً مما ذكر فى الفرق إلى أن قال : ونقول أن الإسلام أوسع من الإيمان ، وليس كل إسلام إيماناً .

وندين بأن الله يقلب القلوب بين أصبعين من أصابع الله عز وجل ، وأنه عز وجل يضع السموات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، كما جاءت الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن قال : وأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص .

ونسلم للروايات الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم التى رواها الثقات عدلا عن عدل ، حتى ينتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن قال :

ونصدق بجميع الروايات التى يثبتها أهل النقل من النزول إلى السماء الدنيا ، وأن الرب عز وجل يقول : هل من سائل ، هل من مستغفر ، وسائر مانقلوه وأثبتوه ، خلافا لما قال أهل الزيغ والتضليل .

ونعول فيما اختلفنا فيه على كتاب ربنا ، وسنة نبينا ، وإجماع المسلمين ، وما كان فى معناه ، ولا نبتدع فى دين الله مالم يأذن لنا به ، ولا نقول على الله مالا نعلم .

ونقول ان الله يجىء يوم القيامة كما قال : (وجاء ربك والملك صفاً صفا) وأن الله يقرب من عباده كيف شاء كما قال : (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) وكما قال : (ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى) إلى أن قال : وسنحتج لما ذكرناه من قولنا ، وما بقى مما لم نذكره بابا بابا ، ثم تكلم على أن الله يرى واستدل على ذلك ، ثم تكلم على أن القرآن غير مخلوق واستدل على ذلك ، ثم تكلم على من وقف على القرآن وقال : لا أقول أنه مخلوق ، ولا غير مخلوق ، ورد عليه ، ثم قال باب الاستواء على العرش فقال :

إن قال قائل : ماتقولون فى الاستواء قيل له نقول : إن الله مستو على عرشه كما قال : (الرحمن على العرش استوى) وقد قال الله : (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وقال : (بل رفعه الله إليه) وقال : (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه) وقال حكاية عن فرعون : (ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الاسباب أسباب السموات فاطلع إلى إله موسى وانى لأظنه كاذبا) كذب موسى فى قوله : أن الله فوق السموات وقال :(أءمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض) فالسموات فوقها العرش فلما كان العرش فوق السموات قال : (أءمنتم من فى السماء) لانه مستو على العرش الذى هو فوق السموات ، وكل ما علا فهو سماء ، والعرش أعلى السموات ، وليس إذا قال: (أءمنتم من فى السماء) يعنى جميع السماء ، وإنما أراد العرش الذى هو أعلى السموات ، ألا ترى أن الله ذكر السموات فقال: (وجعل القمر فيهن نوراً) فلم يرد أن القمر يملؤهن ، وأنه فيهن جميعاً ، ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء ، لأن الله على العرش الذى هو فوق السموات ، فلولا أن الله على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش ، كما لايحطونها إذا دعوا إلى الأرض ، ثم قال :

﴿ فصل ﴾ وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية : أن معنى قوله: (الرحمن على العرش استوى) أنه استولى وملك وقهر ، وأن الله عز وجل فى كل مكان ، وجحدوا أن يكون الله على عرشه كما قال أهل الحق ، وذهبوا فى الاستواء إلى القدرة ، فلو كان هذا كما ذكروه ، كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة لأن الله قادر على كل شىء ، والأرض فالله قادر عليها ، وعلى الحشوش وعلى كل ما فى العالم ، فلو كان الله مستويا على العرش بمعنى الاستيلاء ،

وهو عز وجل مستول على الأشياء كلها، لكان مستوياً على العرش، وعلى الأرض وعلى السماء، وعلى الحشوش والأقذار، لأنه قادر على الأشياء مستول عليها، وإذا كان قادراً على الأشياء كلها ولم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول: ان الله مستو على الحشوش والأخلية، لم يجز أن يكون الاستواء على العرش الاستيلاء الذى هو عام فى الأشياء كلها، ووجب أن يكون معنى الاستواء يختص العرش دون الأشياء كلها، وذكر دلالات من القرآن والحديث والإجماع والعقل ثم قال: باب الكلام فى الوجه والعينين والبصر واليدين وذكر الآيات فى ذلك، ورد على المتأولين بكلام طويل لايتسع هذا الموضع لحكايته مثل قوله: فان سئلنا أتقولون لله يدان قيل نقول ذلك، وقددل عليه قوله: (يدالله فوق أيديهم) وقوله: (لما خلقت بيدى).

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « ان الله مسح ظهر آدم بيده فاستخرج منه ذرية » وقد جاء فى الخبر المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم: « إن الله خلق آدم بيده وخلق جنة عدن بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده » وليس يجوز فى لسان العرب ولا فى عادة أهل الخطاب أن يقول القائل: عملت كذا بيدى، ويعنى به النعمة، وإذا كان الله إنما خاطب العرب بلغتها ومايجرى فى مفهومها، فى كلامها ومعقولا فى خطابها، وكان لايجوز فى خطاب أهل اللسان أن يقول القائل: فعلت بيدى ويعنى به النعمة، بطل أن يكون معنى قوله عز وجل: (بيدى) النعمة وذكر كلاما طويلا فى تقرير هذا ونحوه.

قال القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المتكلم، وهو أفضل المتكلمين المنتسبين إلى الأشعرى، ليس فيهم مثله لاقبله ولابعده. قال فى

كتاب الإبانة تصنيفه فان قال : فما الدليل على أن لله وجهاً ويداً قيل له : (ويبقى وجه ربك ذى الجلال والإكرام) وقوله تعالى : (مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى) فأثبت لنفسه وجهاً ويداً . فان قال : فما أنكرتم أن يكون وجهه ويده جارحة إذ كنتم لاتعقلون وجهاً ويداً إلا جارحة . قلنا : لايجب هذا كما لايجب إذا لم نعقل حياً عالماً قادراً إلا جسما ، أن نقضى نحن وأنتم بذلك على الله سبحانه ، وكما لايجب فى كل شىء كان قائماً بذاته أن يكون جوهراً ، لأنا وإياكم لانجد قائماً بنفسه فى شاهدنا إلا كذلك، وكذلك الجواب لهم إن قالوا ، فيجب أن يكون علمه وحياته وكلامه وسمعه وبصره وسائر صفاته عرضاً ، واعتلوا بالوجود .

قال : فان قال قائل : أتقولون أنه فى كل مكان . قيل له : معاذ الله بل هو مستو على عرشه كما أخبر فى كتابه . فقال : (الرحمن على العرش استوى)، وقال تعالى : (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه)وقال تعالى: (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هى تمور) قال : ولوكان فى كل مكان ، لكان فى بطن الإنسان وفمه والحشوش والمواضع التى يرغب عن ذكرها ، ولوجب أن يزيد بزيادة الأمكنة إذا خلق منها مالم يكن ، وينقص بنقصانها إذا بطل منها ما كان ، ولصح أن نرغب إليه إلى نحو الأرض وإلى خلفنا ،وإلى يميننا وشمالنا ، وهذا قد أجمع المسلمون على خلافه وتخطئة قائله .

وقال أيضاً فى هذا الكتاب : صفات ذاته التى لم يزل ولايزال موصوفا بها وهى الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والاراد ، والبقاء ، والوجه ، والعينان ، واليدان ، والغضب ، والرضا .

وقال فى كتاب التمهيد كلاما أكثر من هذا ، وكلامه وكلام غيره من المتكلمين فى هذا الباب ، مثل هذا كثير لمن تطلبه ، وإن كنا مستغنين بالكتاب والسنة وآثار السلف عن كل كلام .

وملاك الأمر أن يهب الله للعبد حكمة وإيماناً بحيث يكون له عقل ودين حتى يفهم ويدين ، ثم نور الكتاب والسنة يغنيه عن كل شىء ، ولكن كثير من الناس قد صار منتسباً إلى بعض طوائف المتكلمين ، ومحسنا للظن بهم دون غيرهم ، أو متوهما أنهم حققوا فى هذا الباب مالم يحققه غيرهم ، فلوأتى بكل آية ماتبعها حتى يؤتى بشىء من كلامهم ، ثم هم مع هذا مخالفون لأسلافهم غير متبعين لهم ، فلو أنهم أخذوا بالهدى الذى يجدونه فى كلام أسلافهم ، لرجى لهم مع الصدق فى طلب الحق أن يزدادوا هدى ، ومن كان لا يقبل الحق إلا من طائفة معينة ثم لا يستمسك بما جاءته به من الحق ، ففيه شبه من اليهود الذين قال الله فيهم : (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين) فان اليهود قالوا : لانؤمن إلا بما أنزل علينا قال الله لهم : (قل فلم قتلتم الأنبياء من قبل إن كنتم مؤمنين) بما أنزل عليهم يقول سبحانه لا لما جاءتكم به أنبياؤكم تتبعون ولا لما جاءتكم به سائر الأنبياء تتبعون ولكن إنما تتبعون أهواءكم .

فهذا حال من لم يتبع الحق لامن طائفته ولا من غيرها ، مع كونه يتعصب لطائفته دون طائفة بلا برهان من الله ولا بيان .

وكذلك قال أبو المعالى الجوينى فى كتاب الرسالة النظامية : اختلف

مسالك العلماء فى هـــذه الظواهر ، فرأى بعضهم تأويلها والتزم ذلك فى آى الكتاب وما يصح من السنن ، وذهب أئمة السلف الى الانكفاف عن التأويل ، وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الرب . قال: والذى نرتضيه رأياً وندين الله به عقداً ، اتباع سلف الأمة والدليل السمعى القاطع فى ذلك ، أن إجماع الأمة حجة متبعة وهو مستند معظم الشريعة ، وقد درج صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ترك التعرض لمعـانيها ودرك مافيها ، وهم صفوة الإسـلام والمستقلون بأعباء الشريعة ، وكانوا لايألون جهداً فى ضبط قواعد الملة والتواصى بحفظها ، وتعليم الناس مايحتاجون إليه منها ، فلو كان تأويل هذه الظواهر مسوغا أومحتوما ، لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة ، وإذا انصرم عصرهم وعصر التابعين على الاضراب عن التأويل ، كان ذلك هوالوجه المتبع ، فحق على ذى الدين أن يعتقد تنزه البارى عن صفات المحدثين ، ولايخوض فى تأويل المشـكلات ، ويكل معنـاها إلى الرب فليجر آية الاستواء والمجىء وقوله : (لمـا خلقت بيدى) ، (ويبقى وجه ربك) وقوله : (تجرى بأعيننا) وماصح من أخبار الرسول ، كخبر النزول وغيره على ماذكرناه .

﴿ قلت وليعلم السائل ﴾ أن الغرض من هذا الجواب ، ذكر ألفاظ بعض الأئمة فى هذا الباب ، وليس كل من ذكرنا شيئاً من قوله من المتكلمين وغيرهم ، نقول بجميع مايقوله فى غير هذا ، ولـكن الحق يقبل من كل من تـكلم به .

كان معاذ بن جبل رضى الله عنه يقول فى كلامه المشهور عنه ، الذى رواه أبو داود فى سننه: اقبلوا الحق من كل من جاء به وإن كان كافراً أو قال فاجراً

واحذروا زيغة الحكيم . قالوا : كيف نعلم أن الكافر يقول الحق . قال : على الحق نور أو كلاماً هذا معناه .

فأما تقرير ذلك بالدليل وإماطة مايعرض من الشبه ، وتحقيق الأمر على وجه يخلص إلى القلب مايبرد به من اليقين ، ويقف على مواقف ازاء العباد فى هذه المهامه ، فما تتسع له هذه الفتوى .

وقد كتبت شيئاً من ذلك قبل هذا ، وخاطبت ببعض ذلك بعض من يجالسنا ، وربما أكتب إن شاء الله فى ذلك مايحصل به المقصود .

وجماع الأمر فى ذلك : أن الكتاب والسنة يحصل منهما كمال الهدى والنور لمن تدبر كتاب الله وسنة نبيه وقصد اتباع الحق ، وأعرض عن تحريف الكلم عن مواضعه، والالحاد فى أسماء الله وآياته ، ولايحسب الحاسب أن شيئاً من ذلك يناقض بعضه بعضا البتة مثل أن يقول القائل : مافى الكتاب والسنة من أن الله فوق العرش يخالفه فى الظاهر قوله : (وهو معكم أينما كنتم) وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فان الله قبل وجهه » ونحو ذلك . فان هذا غلط ، وذلك أن الله معنا حقيقة ، وهو فوق العرش حقيقة كما جمع الله بينهما فى قوله سبحانه : (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها وماينزل من السماء ومايعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) فأخبر أنه فوق العرش يعلم كل شيء ، وهو معنا أينما كنا كما قال صلى الله عليه وسلم فى حديث الأوعال : « والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه » وذلك أن كلمة مع فى اللغة إذا أطلقت فليس ظاهرها

فى اللغة إلا المقارنة المطلقة ، من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال فاذا قيدت بمعنى من المعانى دلت على المقارنة فى ذلك المعنى فانه يقال : مازلنا نسير والقمر معنا ، أو والنجم معنا ، ويقال هذا المتاع معى لمجامعته لك ، وإن كان فوق رأسك ، فالله مع خلقه حقيقة ، وهو فوق عرشه حقيقة ، ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد ، فلما قال : (يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها وماينزل من السماء ومايعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) دل ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها ، أنه مطلع عليكم ، شهيد عليكم ، مهيمن عالم بكم ، وهذا معنى قول السلف ، أنه معهم بعلمه ، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته ، وكذلك قوله : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولاخمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة) ولما قال النبى صلى الله عليه وسلم لصاحبه فى الغار : « لا تحزن إن الله معنا » كان هذا إيضاً حقاً على ظاهره ، ودلت الحال عن أن حكم المعية هنا مع الاطلاع النصر والتأييد ، وكذلك قوله : (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) وكذلك قوله لموسى وهرون : (إنى معكما أسمع وأرى) .

هنا المعية على ظاهرها وحكمها فى هذا الموطن ، النصر والتأييد ، وقد يدخل على صبى من يخيفه فيبكى ، فيشرف عليه أبوه من فوق السقف ويقول: لا تخف أنا معك ، أو أنا هنا ، أو أنا حاضر ونحو ذلك ، ينبهه على المعية الموجبة بحكم الحال رفع المكروه ، ففرق بين معنى المعية وبين مقتضاها ، وربما صار مقتضاها من معناها فيختلف باختلاف المواضع ، فلفظ المعية قد استعمل فى الكتاب والسنة فى مواضع تقتضى فى كل موضع أموراً لا تقتضيها

فى الموضع الآخر ، فإما أن تختلف دلالتها بحسب المواضع ، أو تدل على قدر مشترك بين جميع مواردها وان امتاز كل موضع بخاصيته ، فعلى التقديرين ليس مقتضاها أن تكون ذات الرب مختلطة بالخلق حتى يقال : قد صرفت عن ظاهرها ونظيرها من بعض الوجوه الربوبية والعبودية ، فانها وان اشتركت فى أصل الربوبية والتعبيد فلما قال رب العالمين : (رب موسى وهرون) كانت ربوبية موسى وهرون لها اختصاص زائد على الربوبية العامة للخلق ، فان من أعطاه الله من الكمال أكثر مما أعطى غيره ، فقد ربه ورباه ربوبية وتربية أكمل من غيره ، وكذلك قوله : (عيناً يشرب بها) . (عباد الله) (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) .

﴿فإن العبد﴾ تارة يعنى به المعبد فيعم الخلق كما فى قوله : (إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً) وتارة يعنى به العابد فيخص ثم يختلفون ، فمن كان أعبد علما وحالا كانت عبوديته أكمل ، فكانت الإضافة فى حقه أكمل مع أنها حقيقة فى جميع المواضع ، ومثل هذه الألفاظ فيسميها بعض الناس مشككة لتشكك المستمع فيها ، هل هى من قبيل الأسماء المتواطئة ، أو من قبيل المشتركة فى اللفظ فقط ، والمحققون يعلمون أنها ليست خارجة عن جنس المتواطئة ، إذ واضع اللغة إنما وضع اللفظ بإزاء القدر المشترك وإن كانت نوعا مختصا من المتواطئة ، فلا بأس بتخصيصها بلفظ ، ومن علم أن المعية تضاف إلى كل نوع من أنواع المخلوقات . كإضافة الربوبية مثلا ، وأن الاستواء عن الشىء ليس إلا للعرش . وأن الله يوصف بالعلو والفوقية الحقيقية ، ولا يوصف بالسفول ولا بالتحتية قط ، لا حقيقة ولا مجازاً ، علم أن القرآن ما هو عليه من غير تحريف .

ثم من توهم أن كون الله فى السماء ، بمعنى أن السماء تحيط به وتحويه ، فهو كاذب إن نقله عن غيره ، وضال إن اعتقده فى ربه ، وما سمعنا أحداً يفهمه من اللفظ ، ولا رأينا أحداً نقله عن أحد ، ولو سئل سائر المسلمين هل يفهمون من قول الله ورسوله أن الله فى السماء ، أن السماء تحويه ، لبادر كل أحد منهم إلى أن يقول : هذا شيء لعله لم يخطر ببالنا ، وإذا كان الأمر هكذا ، فمن التكلف أن يجعل ظاهر اللفظ شيئا محالا ، ولا يفهمه الناس منه ثم يريد أن يتأوله ، بل عند المسلمين أن الله فى السماء وهو على العرش واحد، إذ السماء إنما يراد به العلو فالمعنى ؛ أن الله فى العلو لا فى السفل .

وقد علم المسلمون أن كرسيه سبحانه وسع السموات والأرض ، وأن الكرسى فى العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وأن العرش خلق من مخلوقات الله لا نسبة له إلى قدرة الله سبحانه وعظمته ، فكيف يتوهم بعد هذا أن خلقاً يحصره أو يحويه وقد قال سبحانه : (ولأصلبنكم فى جذوع النخل) وقال : (فسيروا فى الأرض) بمعنى على ونحو ذلك ، وهو كلام عربى حقيقة لا مجازاً ، وهذا يعلمه من عرف حقائق معانى الحروف وأنها متواطئة فى الغالب لا مشتركة ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فان الله قبل وجهه فلا يبصقن قبل وجهه » الحديث حق على ظاهره وهو سبحانه فوق العرش وهو قبل وجه المصلى ، بل هذا الوصف يثبت للمخلوقات ، فان الانسان لو أنه يناجى السماء ، أو يناجى الشمس والقمر ، لكانت السماء والشمس والقمر فوقه ، وكانت أيضاً قبل وجهه .

وقد ضرب النبى صلى الله عليه وسلم المثل بذلك ، ولله المثل الأعلى ،

ولكن المقصود بالتمثيل ، بيان جواز هذا وإمكانه لا تشبيه الخالق بالمخلوق، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد إلا سيرى ربه مخلياً به » فقال له أبو رزين العقيلي : كيف يا رسول الله وهو واحد ونحن جميع فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « سأنبئك بمثل ذلك فى آلاء الله هذا القمر كلكم يراه مخلياً به وهو آية من آيات الله فالله أكبر » أو كما قال صلى الله عليه وسلم وقال : « إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر » فشبه الرؤية بالرؤية وإن لم يكن المرئى مشابهاً للمرئى ، فالمؤمنون إذا رأوا ربهم يوم القيامة وناجوه ، كل يراه فوقه قبل وجهه كما يرى الشمس والقمر ولا منافاة أصلا، ومن كان له نصيب من المعرفة بالله والرسوخ فى العلم بالله يكون إقراره للكتاب والسنة على ما هما عليه أوكد .

واعلم أن من المتأخرين من يقول : مذهب السلف إقرارها على ما جاءت به مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد ، وهذا لفظ مجمل فان قوله : ظاهرها غير مراد . يحتمل أنه أراد بالظاهر نعوت المخلوقين وصفات المحدثين ، مثل أن يراد بكون الله قبل وجه المصلى أنه مستقر فى الحائط الذى يصلى اليه ، وأن الله معنا ظاهره أنه إلى جانبنا ونحو ذلك ، فلا شك أن هذا غير مراد ، ومن قال أن مذهب السلف أن هذا غير مراد فقد أصاب فى المعنى ، لكن أخطأ فى إطلاق القول بأن هذا ظاهر الآيات والأحاديث ، فان هذا المحال ليس هو الظاهر على ما قد بيناه فى غير هذا الموضع ، اللهم إلا أن يكون هذا المعنى الممتنع صار يظهر لبعض الناس ، فيكون القائل لذلك مصيباً بهذا الاعتبار معذوراً فى هذا الاطلاق ، فان الظهور والبطون قد يختلف باختلاف أحوال الناس ، وهو من الأمور النسبية ، وكان أحسن من هذا أن يبين لمن

اعتقد أن هذا هو الظاهر أن هذا ليس هو الظاهر ، حتى يكون قد أعطى كلام الله وكلام رسوله حقه لفظاً ومعنى ، وإن كان الناقل عن السلف أراد بقوله: الظاهر غير مراد عندهم ، أن المعانى التى تظهر من هذه الآيات والأحاديث مما يليق بجلال الله وعظمته ، ولا تختص بصفة المخلوقين ، بل هى واجبة لله أوجائزة عليه جوازاً ذهنياً، أو جوازاً خارجياً غير مراد ، فهذا قد أخطأ فيما نقله عن السلف ، أو تعمد الكذب فيما يمكن أحداً قط أن ينقل عن واحد من السلف ما يدل لا نصاً ولا ظاهراً ، أنهم كانوا يعتقدون أن الله ليس فوق العرش ، ولا أن الله ليس له سمع ولا بصر ولا يد حقيقة .

وقد رأيت هـذا المعنى ينتحله بعض من يحكيه عن السلف ويقول : أن طريقة أهل التأويل هى فى الحقيقة طريقة السلف بمعنى أن الفريقين اتفقوا على أن هـذه الآيات والأحاديث لم تدل على صفات الله سبحانه ، ولكن السلف أمسكوا عن تأويلها ، والمتأخرون رأوا المصلحة تأويلها لمسيس الحاجة إلى ذلك ويقول : الفرق أن هؤلاء قد يعينون المراد بالتأويل ، وأولئك لا يعينون لجوازأن يراد غيره ، وهذا القول على الاطلاق كذب صريح على السلف ، أما فى كثير من الصفات فقطعا مثل : أن الله فوق العرش ، فإن من تأمل كلام السلف المنقول عنهم الذى لم يحك هنا عشره ، علم بالاضطرار أن القوم كانوا مصرحين بأن الله فوق العـــرش حقيقة ، وأنهم ما اعتقدوا خلاف هذا قط ، وكثير منهم قد صرح فى كثير من الصفات بمثل ذلك .

والله يعلم أنى بعد البحث التام ، ومطالعة ما أمكن من كلام السلف ،

ما رأيت كلام أحد منهم يدل لا نصاً ولا ظاهراً ولا بالقرائن على نفي الصفات الخبرية في نفس الأمر ، بل الذي رأيته أن كثيراً من كلامهم يدل إما نصاً وإما ظاهراً على تقرير جنس هذه الصفات ، ولا أنقل عن كل واحد منهم إثبات كل صفة ، بل الذي رأيته أنهم يثبتون جنسها في الجملة ، وما رأيت أحداً منهم نفاها ، وإنما ينفون التشبيه وينكرون على المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه مع إنكارهم على من ينفي الصفات أيضاً ، كقول نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري : من شبه الله بخلقه فقد كفر .

وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهاً ، وكانوا إذا رأوا الرجل قد أغرق في نفي التشبيه من غير إثبات للصفات قالوا : هذا جهمي معطل ، وهذا كثير جداً في كلامهم ، فان الجهمية والمعتزلة إلى اليوم يسمون من أثبت شيئاً من الصفات مشبهاً كذباً منهم وافتراء ، حتى أن منهم من غلا ورمى الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين بذلك ، حتى قال ثمامة ابن الأشرس من رؤساء الجهمية : ثلاثة من الأنبياء مشبهة ، موسى حيث قال: إن هي إلا فتنتك . وعيسى قال : تعلم ما في نفسي . ومحمد حيث قال : ينزل ربنا . وحتى أن جل المعتزلة يدخل عامة الأئمة مثل مالك وأصحابه ، والثوري وأصحابه ، والأوزاعي وأصحابه ، والشافعي وأصحابه ، وإسحاق ابن راهويه ، وأبي عبيد وغيرهم في قسم المشبهة .

وقد صنف أبو إسحاق إبراهيم بن عثمان بن درباس الشافعي جزءاً سماه تنزيه أئمة الشريعة عن الألقاب الشنيعة ، وذكر فيه كلام السلف وغيرهم في معاني هذه الألقاب ، وذكر أن أهل البدع كل صنف منهم يلقب أهل السنة

بلقب افتراء يزعم أنه صحيح على رأيه الفاسد ، كما أن المشركين كانوا يلقبون النبي صلى الله عليه وسلم بألقاب افتروها ، فالروافض تسميهم نواصب ، والقدرية تسميهم مجبرة ، والمرجئة تسميهم شكاكا ، والجهمية تسميهم مشبهة ، وأهل الكلام يسمونهم حشوية ، ونوابت وغثاء وغثراً . إلى أمثال ذلك ، كما كانت قريش تسمى النبي صلى الله عليه وسلم تارة مجنوناً ، وتارة شاعراً ، وتارة كاهناً ، وتارة مفترياً ، قالوا : وهذا علامة الارث الصحيح والمتابعة التامة ، فان السنة هى ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتقاداً واقتصاداً وقولا وعملا ، فكما أن المنحرفين عنه يسمونه بأسماء مذمومة مكذوبة ، وإن اعتقدوا صدقها بناء على عقيدتهم الفاسدة ، فكذلك التابعون له على بصيرة الذين هم أولى الناس به فى المحيا والممات باطناً وظاهراً ، أما الذين وافقوهم ببواطنهم وعجزوا عن إقامة الظواهر ، أو الذين وافقوه بظواهرهم وعجزوا عن تحقيق البواطن ، أو الذين وافقوه ظاهراً وباطناً بحسب الإمكان ، لا بد للمنحرفين عن سنة أن يعتقدوا فيهم نقصاً يذمونهم به ويسمونهم بأسماء مكذوبة وإن اعتقدوا صدقها ، كقول الرافضى : من لم يبغض أبا بكر وعمر فقد أبغض علياً ، لأنه لا ولاية لعلى إلا بالبراءة منهما ، ثم يجعل من أحب أبا بكر وعمر ناصبياً بناء على هذه الملازمة الباطلة التى اعتقدها صحيحة أو عاند فيها وهو الغالب .

وكقول القدرى : من اعتقد أن الله أراد الكائنات وخلق أفعال العباد ، فقد سلب العباد الاختيار والقدرة ، وجعلهم مجبورين كالجمادات وكقول الجهمى : من قال أن الله فوق العرش فقد زعم أنه محصور ، وأنه جسم محدود ، وأنه مشابه لخلقه ، وكقول الجهمية المعتزلة : من قال أن لله علماً

وقدرة ، فقد زعم أنه جسم وهو مشبه ، لأن هذه الصفات أعراض، والعرض لا يقوم إلا بجوهر متحيز ، وكل متحيز جسم أو جوهر فرد .

ومن حكى عن الناس المقالات وسماهم بهذه الأسماء المكذوبة ، بناء على عقيدته التي هم مخالفون له فيها فهو وربه أعلم ، والله من ورائه بالمرصاد : (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) .

وجماع الامر أن الأقسام الممكنة فى آيات الصفات وأحاديثها ستة أقسام: كل قسم عليه طائفة من أهل القبلة . قسمان يقولون : تجرى على ظواهرها . وقسمان يقولون : هى على خلاف ظاهرها . وقسمان يسكتون . أما الأولون فقسمان : أحدهما : من يجريها على ظاهرها ويجعل ظاهرها من جنس صفات المخلوقين ، فهؤلاء المشبهة ومذهبهم باطل ، أنكره السلف وإليه توجه الرد بالحق . والثانى : من يجريها على ظاهرها اللائق بجلال الله ، كما يجرى اسم العليم ، والقدير ، والرب ، والإله ، والموجود ، والذات ونحو ذلك، على ظاهرها اللائق بجلال الله ، فإن ظواهر هذه الصفات فى حق المخلوق ، إما جوهر وإما عرض ، فالعلم ، والقدرة ، والكلام ، والمشيئة ، والرحمة ، والرضا ، والغضب ونحو ذلك ، فى حق العبد أعراض ، والوجه ، واليد ، والعين ، فى حقه أجسام . فاذا كان الله موصوفاً عند عامة أهل الإثبات ؛ بأن له علماً ، وقدرة ، وكلاما ، ومشيئة ، وإن لم يكن ذلك عرضا يجوز عليه ما يجوز على صفات المخلوقين ، جاز أن يكون وجه الله ويداه ليست أجساما يجوز عليها ما يجوز على صفات المخلوقين ، وهذا هو المذهب الذى حكاه الخطابى وغيره عن السلف ، وعليه يدل كلام جهورهم ، وكلام الباقين لا يخالفه ، وهو أمر

واضح فان الصفات كالذات ، فكما أن ذات الله ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس المخلوقات ، فمن قال لا أعقل علماً ويداً إلا من جنس العلم واليد المعهودتين . قيل له : فكيف تعقل ذاتاً من غير جنس ذوات المخلوقين .

ومن المعلوم أن صفات كل موصوف تناسب ذاته وتلائم حقيقته ، فمن لم يفهم من صفات الرب الذى ليس كمثله شيء إلا ما يناسب المخلوق ، فقد ضل فى عقله ودينه ، وما أحسن ما قال بعضهم : إذا قال الجهمى كيف استوى ، أو كيف ينزل إلى سماء الدنيا ، أو كيف يداه ونحو ذلك ، فقل له : كيف هو فى نفسه ، فاذا قال لك لا يعلم ما هو إلا هو ، وكنه البارى غير معلوم للبشر. فقل له : والعلم بكيفية الصفة مسبوق بالعلم بكيفية الموصوف، فكيف يمكن أن نعلم كيفية صفة لموصوف لم نعلم كيفيته ، وإنما نعلم الذات والصفات من حيث الجملة على الوجه الذى ينبغى لك ، بل هذه المخلوقات فى الجنة . قد ثبت عن ابن عباس أنه قال : ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء ، وقد أخبر الله أنه : (لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم : « أن فى الجنة ما لا عين رأت . ولا أذن سمعت . ولا خطر على قلب بشر » فاذا كان نعيم الجنة وهو خلق من خلق الله كذلك ، فما الظن بالخالق سبحانه وتعالى ، وهذه الروح التى فى بنى آدم قد علم العاقل اضطراب الناس فيها وإمساك النصوص على بيان كيفيتها ، أفلا يعتبر العاقل بها عن الكلام فى كيفية الله تعالى ، أما انا نقطع بأن الروح فى البدن ، وأنها تخرج منه وتعرج إلى السماء ، وأنها تسيل منه وقت النزوع ، كما نطقت بذلك النصوص الصحيحة ، لا نغالى فى تجريدها غلو

المتفلسفة ومن وافقهم ، حيث نفوا عنها الصعود والنزول والاتصال بالبدن والانفصال عنه ، وتخبطوا فيها حيث رأوها من غير جنس البدن وصفاته ، فعدم مماثلتها للبدن لا ينفي أن تكون هـذه الصفات ثابتة لها بحسبها ، إلا أن يفسروا كلامهم بما يوافق النصـــوص ، فيكونون قد أخطؤوا في اللفظ وأنى لهم بذلك .

وأما القسمان اللذان ينفيان ظاهرها ، أعني الذين يقولون ليس لها في الباطن مدلول ، هو صفة الله تعالى قط ، وأن الله لا صفة له ثبوتية ، بل صفاته إما سلبية ، وإما إضافية ، وإما مركبة منهما . أو يثبتون بعض الصفات وهي الصفات السبعة ، أو الثمانية ، أو الخمسة عشر ، أو يثبتون الأحوال دون الصفات على ما قد عرف من مذاهب المتكلمين ، فهؤلاء قسمان : قسم يؤولونها ويعينون المراد مثل قولهم استوى : بمعنى استولى أو بمعنى علو المكانة والقدر ، أو بمعنى ظهور نوره للعرش ، أو بمعنى انتهى الخلق إليه إلى غير ذلك من معاني المتكلمين ، وقسم يقولون: الله أعلم ما أراد بها لكنا نعلم أنه لم يرد إثبات صفة خارجة عما علمناه .

وأما القسمان الواقفان فقسم يقولون : يجوز أن يكون المراد بظاهرها اللائق بالله ، ويجوز أن لا يكون المراد صفة لله ونحو ذلك ، وهذه طريقة كثير من الفقهاء وغيرهم ، وقوم يمسكون عن هـــذا كله ولا يزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث ، معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هـذه التقديرات .

فهذه الأقسام الستة لا يمكن أن يخرج الرجل عن قسم منها .

والصواب فى كثير من آيات الصفات وأحاديثها القطع بالطريقة الثانية ، كالآيات والأحاديث الدالة على أن الله سبحانه فوق عرشه ، ونعلم أن طريقة الصواب فى هذا وأمثاله ، بدلالة الكتاب والسنة والإجماع على ذلك ، دلالة لا تحتمل النقيض ، وفى بعضها قد يغلب على الظن ذلك مع احتمال النقيض، وتردد المؤمن فى ذلك هو بحسب ما يؤتاه من العلم والإيمان : (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) .

ومن اشتبه عليه ذلك أو غيره ، فليدع بما رواه مسلم فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يصلى يقول : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » وفى رواية لأبى داود أنه كان يكبر فى صلاته ثم يقول ذلك ، فإذا افتقر العبد إلى الله ودعاه وأدمن النظر فى كلام الله وكلام رسوله ، وكلام الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، انفتح له طريق الهدى .

ثم إن كان قد خبر نهايات إقدام المتفلسفة والمتكلمين فى هذا الباب ، وعرف غالب ما يزعمونه برهانا وهو شبهة ، ورأى أن غالب ما يعتمدونه يؤول إلى دعوى لاحقيقة لها أو شبهة مركبة من قياس فاسد ، أو قضية كلية لا تصح إلا جزئية ، أو دعوى إجماع لا حقيقة له ، ثم إن ذلك إذا ركب بألفاظ كثيرة طويلة غريبة عمن لم يعرف اصطلاحهم ، أوهمت الغر مايوهمه السراب للعطشان ، ازداد إيماناً وعلماً بما جاء به الكتاب والسنة ، فان الضد

يظهر حسنه الضد ، وكل من كان بالباطل أعلم كان للحق أشد تعظيما وبقدره أعرف ، فأما المتوسط من المتكلمين فيخاف عليه ما لا يخاف على من لم يدخل فيه وعلى من قد أنهاه نهايته ، فإن من لم يدخل فيه هو فى عافية ، ومن أنهاه قد عرف الغاية فما بقى يخاف من شىء آخر ، فاذا ظهر له الحق وهو عطشان إليه قبله ، وأما المتوسط فتوهم بما تلقاه من المقالات المأخوذة تقليداً المعظمة تهويلا .

وقد قال الناس : أكثر ما يفسد الدنيا نصف متكلم ، ونصف متفقه ، ونصف متطبب ، ونصف نحوى ، هذا يفسد الأديان ، وهذا يفسد البلدان ، وهذا يفسد الأبدان ، وهذا يفسد اللسان .

ومن علم أن المتكلمين من المتفلسفة وغيرهم ، هم فى الغالب فى قول مؤتفك يؤفك عنه من أفك ، يعلم الذكى منهم العاقل ، أنه ليس هو فيما يقوله على بصيرة ، وأن حجته ليست ببينة وإنما هى كما قيل فيها :

حجج تهافت كالزجاج تخالها   حقاً وكل كاسر مكسور

ويعلم العليم البصير ؛ أنهم من وجه مستحقون ما قال الشافعى رضى الله عنه حيث قال : حكمى فى أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ، ويطاف بهم فى القبائل والعشائر ، ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام .

ومن وجه آخر : إذا نظرت إليهم بعين القدر والحيرة مستولية عليهم ، والشيطان مستحوذ عليهم ، رحمتهم ورفقت عليهم ، أوتوا ذكاء ، وما أوتوا

زكاه ، وأعطوا فهوما وما أعطوا علوما . وأعطوا سمعاً وأبصاراً وأفئدة : (فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون) .

من كان عليما بهذه الأمور ، تبين له بذلك حذق السلف وعلمهم وخبرتهم ، حيث حذروا عن الكلام ونهوا عنه وذموا أهله وعابوهم ، وعلم أن من ابتغى الهدى في غير الكتاب والسنة ، لم يزداد إلا بعداً .

فنسأل الله العظيم ؛ أن يهدينا صراطه المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين آمين . والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما كثيراً مباركا إلى يوم الدين .

تمت الرسالة الحادية عشر

ويليها الرسالة الثانية عشر : الاستغاثة

الرسالة الثانية عشر

الاستغاثة

بسم الله الرحمن الرحيم

سئل شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رضي الله عنه : ما تقول السادة العلماء أئمة الدين، وفقهم الله لطاعته فيمن يقول : لا يستغاث برسول الله صلى الله عليه وسلم. هل يحرم عليه هذا القول ، وهل هو كفر أم لا ؟ وإن استدل بآيات من كتاب الله وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم ، هل ينفعه دليله أم لا ؟ وإذا قام الدليل من الكتاب والسنة ، فما يجب على من يخالف ذلك. أفتونا مأجورين . الجواب :

الحمد لله . قد ثبت بالسنة المستفيضة ، بل المتواترة ، واتفاق الأمة ، أن نبينا صلى الله عليه وسلم الشافع المشفع ، وأنه يشفع في الخلائق يوم القيامة ، وأن الناس يستشفعون به ، يطلبون منه أن يشفع لهم إلى ربهم ، وأنه يشفع لهم .

ثم اتفق أهل السنة والجماعة ، أنه يشفع في أهل الكبائر ، وأنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد .

وأما الخوارج والمعتزلة : فأنكروا شفاعته لأهل الكبائر ولم ينكروا شفاعته للمؤمنين ، وهؤلاء مبتدعة ضلال ، وفي تكفيرهم نزاع وتفصيل ، وأما من أنكر ما ثبت بالتواتر والإجماع ، فهو كافر بعد قيام الحجة ، وسواء سمى هذا المعنى استغاثة أو لم يسمه ، وأما من أقر بشفاعته ، وأنكر ما كان الصحابة يفعلونه من التوسل به والاستشفاع به ، كما رواه البخاري في صحيحه عن أنس أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب

وقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، فيسقون . وفى سنن أبى داود وغيره أن أعرابيا قال للنبى صلى الله عليه وسلم : جهدت الأنفس وجاع العيال وهلك المال ، فادع الله لنا ، فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك ، فسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه وقال : « ويحك إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك » وذكر تمام الحديث فأنكر قوله : نستشفع بالله عليك ولم ينكر قوله : نستشفع بك على الله . بل أقره عليه ، فعلم جوازه . فمن أنكر هذا فهو ضال مخطىء مبتدع ، وفى تكفيره نزاع وتفصيل .

وأما من أقر بما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع ، من شفاعته والتوسل به ونحو ذلك ، ولكن قال : لا يدعى إلا الله ، وأن الأمور التى لا يقدر عليها إلا الله ، فلا تطلب إلا منه ، مثل غفران الذنوب ، وهداية القلوب ، وإنزال المطر ، وإنبات النبات ونحو ذلك ، فهذا مصيب فى ذلك ، بل هذا مما لا نزاع فيه بين المسلمين أيضاً كما قال تعالى : (ومن يغفر الذنوب إلا الله) وقال : (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) وكما قال تعالى : (يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض) وكما قال تعالى : (وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله) وقال : (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) .

فالمعانى الثابتة بالكتاب والسنة يجب إثباتها ، والمعانى المنفية بالكتاب

والسنة يجب نفيها ، والعبارة الدالة على المعانى نفيا وإثباتا إن وجدت فى كلام الله ورسوله وجب إقرارها ، وإن وجدت فى كلام أحد وظهر مراده من ذلك رتب عليه حكمه وإلا رجع فيه اليه ، وقد يكون فى كلام الله ورسوله عبارة لها معنى صحيح ، لكن بعض الناس يفهم من تلك غير مراد الله ورسوله فهذا يرد عليه فهمه ، كما روى الطبرانى فى معجمه الكبير أنه كان فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذى المؤمنين فقال أبو بكر الصديق : قوموا بنا لنستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله » فهذا إنما أراد به النبي صلى الله عليه وسلم المعنى الثانى ، وهو أن يطلب منه مالا يقدر عليه إلا الله ، وإلا فالصحابة كانوا يطلبون منه الدعاء ويستسقون به ، كما فى صحيح البخارى عن ابن عمر قال : ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه النبي صلى الله عليه وسلم يستسقى ، فما ينزل حتى يجيش له ميزاب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وهو قول أبى طالب ، ولهذا قال العلماء المصنفون فى أسماء الله تعالى : يجب على كل مكلف أن يعلم أن لا غياث ولا مغيث على الاطلاق إلا الله ، وأن كل غوث فمن عنده ، وإن كان جعل ذلك على يدى غيره ، فالحقيقة له سبحانه وتعالى ، ولغيره مجاز .

قالوا من أسمائه تعالى : المغيث ، والغياث ، وجاء ذكر المغيث فى حديث أبى هريرة ، قالوا واجتمعت الأمة على ذلك .

وقال أبو عبد الله الحليمى : الغياث : هو المغيث . وأكثر مايقال غياث

المستغيثين ، ومعناه المدرك عباده فى الشدائد إذا دعوه ومجيبهم ومخلصهم ، وفى خبر الاستسقاء فى الصحيحين : « اللهم أغثنا اللهم أغثنا » يقال أغاثه إغاثة وغياثا وغوثا ، وهذا الاسم فى معنى المجيب والمستجيب قال تعالى : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) إلا أن الاغاثة أحق بالأفعال ، والاستجابة أحق بالأقوال ، وقد يقع كل منهما موقع الآخر قالوا: الفرق بين المستغيث والداعى أن المستغيث ينادى بالغوث ، والداعى ينادى بالمدعو والمغيث ، وهذا فيه نظر، فان من صيغة الاستغاثة يالله للمسلمين ، وقد روى عن معروف الكرخى : أنه كان يكثر أن يقول واغوثا ويقول إنى سمعت الله يقول : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) وفى الدعاء المأثور : « ياحى ياقيوم لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك » .

والاستغاثة برحمته استغاثة به فى الحقيقة ، كما أن الاستعاذة بصفاته استعاذة به فى الحقيقة ، وكما أن القسم بصفاته قسم به فى الحقيقة ، ففى الحديث : « أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق » وفيه : « أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

ولهذا استدل الأئمة فيما استدلوا : على أن كلام الله غير مخلوق بقوله : « أعوذ بكلمات الله التامة » قالوا والاستعاذة لا تصلح بالمخلوق .

وكذلك القسم ، قد ثبت فى الصحيحين أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » وفى لفظ : « من حلف بغير الله

فقد أشرك » رواه الترمذى وصححه ، ثم قد ثبت فى الصحيح : « الحلف بعزة الله ولعمر الله » ونحو ذلك مما اتفق المسلمون على أنه ليس من الحلف بغير الله الذى نهى عنه ، والاستغاثة بمعنى أن يطلب من الرسول ماهو اللائق بمنصبه لاينازع فيها مسلم ، ومن نازع فى هذا المعنى فهو إما كافر إن أنكر ما يكفر به ، وإما مخطىء ضال .

وأما بالمعنى الذى نفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو أيضاً مما يجب نفيها ، ومن أثبت لغير الله مالا يكون إلا لله ، فهو أيضاً كافر إذا قامت عليه الحجة التى يكفر تاركها .

ومن هذا الباب قول أبى يزيد البسطامى: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق . وقول الشيخ أبى عبد الله القرشى المشهور بالديار المصرية : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون .

وفى دعاء موسى عليه السلام : اللهم لك الحمد واليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولاحول ولاقوة إلا بك . ولما كان هذا المعنى هو المفهوم منها عند الاطلاق وكان مختصاً بالله صح إطلاق نفيه عما سواه ، ولهذا لايعرف عن أحد من أئمة المسلمين أنه جوز مطلق الاستغاثة بغير الله ، ولا أنكر على من نفى مطلق الاستغاثة عن غير الله .

وكذلك الاستغاثة أيضاً فيها مالا يصلح إلا لله ، وهى المشار إليها بقوله: (إياك نعبد وإياك نستعين) فانه لايعين على العبادة الإعانة المطلقة إلا الله ، وقد يستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه ، وكذلك الاستنصار قال الله تعالى :

(وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر) والنصر المطلق هوخلق مابه يغلب العدو ، ولايقدر عليه إلا الله .

ومن خالف ماثبت بالكتاب والسنة ، فانه يكون إما كافراً ، وإما فاسقاً ، وإما عاصياً ، إلا أن يكون مؤمناً مجتهداً مخطئاً ، فيثاب على اجتهاده ، ويغفر له خطؤه ، وكذلك إن كان لم يبلغه العلم الذى تقوم عليه به الحجة ، فان الله يقول : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وأما إذا قامت عليه الحجة الثابتة بالكتاب والسنة فخالفها ، فانه يعاقب بحسب ذلك ، إما بالقتل ، وإما بدونه والله أعلم .

تمت الرسالة الثانية عشر

وبتمامها ؛ تم ولله الحمد طبع الجزء الأول من مجموعة الرسائل الكبرى ، لشيخ الاسلام ، تقى الدين أبى العباس أحمد بن تيمية الحرانى الدمشقى .

ويليه إن شاء الله ؛ الجزء الثانى وأوله : الرسالة المسماة :

﴿ بالاكليل فى المتشابه والتأويل ﴾

فهرس

الجزء الأول من

مجموعة الرسائل الكبرى

لابن تيمية

الصفحة	الموضوع

تم الفهرس

الطبعة الثانية

١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م